# تفسير المظهري

تأليف

القاضي محمد ثناء الله العثماني الحنفي المظهري
النقشبندي
١١٤٣ - ١١٢٥

تحقيق

أحمد عزو عناية

الجزء الخامس

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة للناشر

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزءاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

**Copyright @**

**All rights reserved**

All rights of this publication are reserved exclusively to **DAR EHIA AL -TOURATH AL-ARABI** Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, photocopied, photagraphed, taped on audio cassettes, or stored in a data base or saved on a retrievable system distributed in any form or by any means, without the prior written permission of the publisher.

**الطبعة الأولى**

**1425 هـ - 2004 م**

دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان

جميع الحقوق محفوظة في باكستان للمكتبة الحقانية

**جلال الدين حقاني**

بشاور بازار كتبخانه

تلفون: 091/220493 - موبيل: 0300/5902280 - باكستان

بيروت - لبنان - بناية كليوبترا - شارع دكاش

ص.ب: 11/7957 الرمز البريدي: 2250 1107

هاتف: 540000 - 544440 فاكس: 850717

Beirut - Liban - Imm Kileopatra - Rue Dakkache

P.O.Box 11\7957 Postal Code 1107 2250

Tel.Off: 544440 - 540000 Fax: 850717

# سورة يوسف عليه السلام

## مَكيّة مائة وإحدى عَشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾.

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾ إشارة إلى آيات القرآن والإضافة بمعنى مِنْ وهو المراد بالكتاب، أي تلك آيات من القرآن الظاهر في الإعجاز، أو الواضح معانيه بيّن حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه، قال قتادة مبين والله بركته وهداه ورشده وقال الزجاج مبين الحق من الباطل والحرام من الحلال وقيل إشارة إلى آيات السورة، وهي المراد بالكتاب، أي تلك الآيات آيات السورة الظاهر أمرها لمن تدبّر أنها من عند الله، أو مبين لليهود، قال البيضاوي روي أن علماءهم قالوا للمشركين سلوا محمداً لِمَ انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن قصة يوسف، فنزلت السورة، ولم يذكر هذاصاحب لباب النقول في أسباب النزول ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي الكتاب ﴿قُرْءَٰنًا﴾ القرآن اسم جنس يقع على الكل والبعض وصار علماً للكل بالغلبة، فيمكن حمله على الكتاب وإن أُريد به السورة، ونصبه على الحال وهو في نفسه إما توطية للحال التي هي ﴿عَرَبِيًّا﴾ أو هو حال لكونه مصدراً بمعنى المفعول وعربياً صفة له، أو حال من الضمير فيه أو حال بعد حال والغرض من إيراد قوله عربياً إنا أنزلناه بلغتكم ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تعلموا معانيه وتستعملوا

فيه عقولكم فتدركوا لطائفه وإعجازه لفظاً ومعنىً.

روى الحاكم وغيره عن سعد بن أبي وقاص قال: أنزل على النبي ﷺ القرآن فتلا عليهم زماناً فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فنزل ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ الآية» زاد ابن أبي حاتم فقالوا يا رسول الله «لو ذكرتنا فأنزل الله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية» وأخرج ابن جرير عن ابن عباس عليه السلام وابن مردويه عن ابن مسعود مثله قال قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فنزل ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ وذكر البغوي عن سعد بن أبي وقاص الفصول الثلاثة لكنه قدم الفصل الثالث على الثاني ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ منصوب على المصدر يعني أحسن الاقتصاص لأنه اقتص على أبدع الأساليب ومعناه نبين لك أخبار الأمم السافلة والقرون الماضية أحسن البيان أو على المفعولية يعني أحسن ما نقص والمراد قصة يوسف عليه السلام سماها أحسن القصص لاشتماله على العجائب والعبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح أمر الدين والدنيا من سِيَرِ الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على أذى الأعداء وحسن التجاوز عنهم بعد التمكن من الانتقام وغير ذلك من الفوائد، والقصصُ على هذا أفعَل بمعنى مفعول كالنقض والسلب مشتق من قص أثره إذا اتبعه والقاص يتبع الآثار ويأتي بالأخبار على وجهها، قال خالد بن معدان سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة وقال ابن عطاء لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا﴾ أي بإيحائنا ﴿إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ يعني السورة ويجوز أن يجعل هذا مفعول نَقُصُّ على أن يكون أحسن منصوباً على المصدر ﴿وَإِن كُنتَ﴾ مخففة أي أنه كنت ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أي قبل إيحاءنا إليك ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن هذه القصة أو عن كلّما أوحي إليك من القصص والشرائع والأحكام.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ بدل اشتمال من أحسن القصص إن جعل مفعولاً به وأريد قصة يوسف عليه السلام، لأن الوقت مشتمل عليها، أو منصوب بتقدير اذكر ويوسف اسم عبري ولذا لم ينصرف وهو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام روى أحمد والبخاري عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[1] ﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب عليه السلام ﴿يَا أَبَتِ﴾ قرأ ابن عامر وأبو

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة يوسف (٣١١٦).
وأخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ (٣٣٨٢).

جعفر بفتح التاء في جميع القرآن والباقون بكسر التاء، وابن كثير وابن عامر يقفان يا أبه بالهاء والباقون بالتاء ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ في المنام من الرأيا لا من الرؤية بدليل قوله تعالى ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ و ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ﴾ ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ روى سعيد بن منصور في سننه والبزار وأبو يعلى في مسنديهما وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه في تفاسيرهم، والعقيلي وابن حبان في الضعفاء، والحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في دلائل النبوة عن جابر واسم اليهودي عند البيهقي بستان وقال: يا محمد أخبرني عن النجوم التي راهن يوسف، فسكت فنزل جبرئيل عليه السلام فأخبره بذلك، فقال ﷺ إن أخبرك هل تسلم، قال نعم قال جرثان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين، رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له، فقال اليهودي إي والله إنها لاسماؤها ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ تأكيد ﴿لِي سَٰجِدِينَ﴾ أو استئناف ببيان حالها التي رآها عليها، وأورد صيغة جمع العقلاء وضميرهم لوصفها بصفاتهم، وكان النجوم في التأويل أخوته وكانوا أحد عشر رجلاً يستضاء بهم كما استضاء بالنجوم، والشمس أبوه والقمر أمه، وقال السديّ القمر خالته لأن أمه راحيل كانت قد ماتت، وقال ابن جريج القمر أبوه والشمس أمه لكونها مؤنثة والقمر مذكر، قلتُ: تأنيث الشمس لفظي مختص بلغة العرب فلا وجه لجعلها كناية عن أمه مع كونها أضوء من القمر، قيل: رآها ليلة الجمعة ليلة القدر.

فلما قصّها على أبيه ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ تصغير ابن صغّره للشفقة أو لصغر السن قال البغوي كان يوسف ابن اثني عشر سنة، قرأ حفص ههنا وفي الصافات بفتح الياء والباقون بكسرها ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ الرؤيا مختص بما يكون في النوم أو نحو ذلك من الاستغراق فرق بينها وبين الرؤية بحرفي التأنيث كالقرية والقرى، قال البيضاوي الرؤيا انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، والصادقة منها إنما يكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغٍ فيتصور بما فيها مما لا يليق من المعاني الحاصلة هناك، ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهدة، ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية، استغنت الرؤيا عن التعبير وإلا احتاجت إليه، قلتُ: الرؤيا هي مطالعة النفس في الصور المنطبعة في الحس المشترك من أفق المتخيلة عند غفلتها وفراغها عن مطالعة المحسوسات في النوم أو الإغماء أو نحو ذلك، وهي على ثلاثة

أقسام قسمان منها باطلان والقسم الثالث منها صحيحة صالحة من حيث الأصل، لكنها قد تفسد بالعوارض ويقع فيها الخطأ بها وقد يقع الخطأ في تأويلها، أما القسمان الباطلان فالأول منهما ما تراه النفس من صور الأشياء التي رأتها في اليقظة، أو تفكر واخترعها المتخيلة من غير أصل لها في الواقع وتسمى تلك الرؤيا حديث النفس والثاني منهما ما ألقاه الشيطان في خياله وتمثل له تخويفاً أو ملاعبة، فإن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وتسمى تلك الرؤيا الرؤيا السوء وتخويف الشيطان والحلم.

وأما التي هي صحيحة فهي إلهام وإعلام من الله تعالى لعبده على شيء مما في خزائن الغيب، أو على شيء من مكنونات صفاته وأحواله ودرجات القرب له من الله تعالى حتى تكون له بشارة عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ «رؤيا المؤمن كلام يكلم العبد ربه في المنام» رواه الطبراني بسند صحيح والضياء، وحقيقة تلك الرؤيا الصالحة عند الصوفية أن العالم الكبير شخصُ له نفس وروح وقوي على هيئة الإنسان ولذلك يسمى إنساناً كبيراً، ولمشابهته يسمى الإنسان عالماً صغيراً، فكما أن في العالم الصغير أعني الإنسان قوة متخيلة فكذلك في العالم الكبير متخيلة، يتخيل بها المحسوسات والمعقولات والأعراض والجواهر والمجردات والمعاني، فصور الأشياء كلها حتى الواجب تعالى وصفاته، والممكنات بأسرها المجردات منها والماديات، وما لا صورة لها في الخارج كالموت والحياة والأيام والسنين والأمراض موجودة في تلك المتخيلة بإيجاد الله تعالى، ومن أجل ذلك رأى رسول الله ﷺ الحمى على صورة امرأة سوداء، وعبر يوسف عليه السلام البقرات والسنابل بالسنين، ومن ههنا يظهر أنه لا يشترط في الصورة كونها من حبس المحكي عنه أو مشتملاً على جميع خصائصه، بل يكفي في ذلك نوع من المناسبة، فلأجل تلك المناسبة الظاهرة أو الخفية يتمثل في متخيلة العالم الكبير ذلك الشيء بتلك الصورة ولأجل ذلك المناسبة الخفية رأي يوسف عليه السلام أبويه وإخوته في صورة الشمس والقمر والكواكب، وقال رسول الله ﷺ: «الرؤيا ستة المرأة خير والبعير حرب واللبن فطرة والخضرة جنة والسفينة نجاة والتمر رزق» رواه أبو يعلى في معجمه عن رجل من الصحابة بسند ضعيف، وتلك المتخيلة من العالم الكبير تسمى في اصطرح الصوفية بعالم المثال ثم تلك الصورة تنطبع لأجل المناسبة والمحاذاة من متخيلة العالم الكبير في متخيلة العالم الصغير أي الإنسان، وتراه النفس حين فراغها عن مطالعة المحسوسات، فالأنبياء عيهم الصلوات والتسليمات ولأجل عصمتهم عن الشيطان وعن معارضته الأوهام، ولأجل كون منا ماتهم مقتصرة على العيون تنام عيونهم وقلوبهم

يقظان، فيميزون مخترعات الخيال عن حقائق الإلهام انحصرت رؤياهم في القسم الثالث.

ثم عدم العوارض المفسدة للمنامات الموجبة لوقوع الخطأ فيها متيقن فيهم عليهم السلام فرؤيا الأنبياء يكون وحياً قطعياً حتى تصدى خليل الله عليه السلام لذبح أبنه وقال ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ (١) ورؤيا الصلحاء أعني الأولياء الذين زكوا أنفسهم بالرياضات، وأزالوا عنها الكدورات الجبلية، وتنزهوا عن ظلمات الذنوب والآثام، وتجلى بواطنهم باقتباس أنوار النبوة صالحةُ صادقةٌ إلا نادراً، وذلك عند عروض كدورة بأكل شيء من المشتبهات، أو زائداً على الحاجة بحيث تولدت منه كدورة ما أو لأجل لمم من المعصية فإنهم غير معصومين، أو لانعكاس من صحبة العوام، فرؤيا الأولياء شبيهة بالوحي، ولذلك قال رسول الله ﷺ «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»(٢) متفق عليه من حديث أنس وأبي هريرة وعبادة بن الصامت، ورواه أحمد عنهم وأبو داود والترمذي عن عبادة، وروى البخاري عن أبي سعيد ومسلم عن ابن عمر وأبي هريرة وأحمد وابن ماجه عن أبي رزين والطبراني عن ابن مسعود بلفظ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» وروى ابن ماجه بسند صحيح عن أبي سعيد «رؤيا المسلم الصالح جزء من سبعين جزءاً من النبوة» وابن ماجه وأحمد بسند صحيح عن ابن عمر وأحمد عن ابن عباس «الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة» وفي حديث أبي رزين عند الترمذي «رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءاً من النبوة» وفي حديث العباس بن عبد المطلب عند الطبراني «رؤيا المؤمن الصالح بشرى من الله وهي جزء من خمسين جزءاً من النبوة» وفي حديث ابن عمر عند ابن النجار «جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة» فإن قيل: ما معنى كونها جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وما وجه التطبيق بين الأحاديث في عدد الأجزاء؟ قلنا: كان مدة الوحي إلى رسول الله ﷺ ثلاثاً وعشرون سنة، وكان نصف سنة منها الوحي بالرؤيا الصالحة لا يرى شيئاً في المنام إلا وجده مثل فلق الصبح، فلذلك قال جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وأما

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: رؤيا الصالحين (٦٩٨٣).
وأخرجه مسلم في كتاب: الرؤيا (٢٢٦٣).
وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في الرؤيا (٥٠١٠).
وأخرجه الترمذي في كتاب: الرؤيا، باب: ما جاء في تعبير الرؤيا (٢٢٧٩).
وأخرجه ابن ماجه في كتاب: تعبير الرؤيا، باب: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له (٣٨٩٣).

روايتا الأربعين والخمسين فمبنيتان على جبر الكسر أو طرح الكسر وأخذ العقد تقريباً، وأما رواية السبعين فالمراد منها الكثرة فإنه يطلق السبعين ويراد به الكثرة قال الله تعالى ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾(١) فالمعنى أنها جزء من أجزاء كثيرة من الوحي وأما رواية خمسة وعشرين فشاذ.

وأما رؤيا العوام، فمناماتهم وإن كانت مستفادة من عالم المثال، لكنها تفسد وتكذب غالباً، لأجل انكدار خيالاتهم بالكدورات الجبلية النفسانية، والكدورات المكتسبة بالذنوب والآثام، ثم قد يقع الخطأ في تعبير الرؤيا إذا كانت بين الصورة والمحكي عنها من عالم المثال مناسبة خفية، وصحة التعبير إما بالإلهام من الله تعالى وهو المراد في الآية ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾(٢) أي يلهمك تعبير المنامات وذا لا يتصور غالباً إلا إذا كان المعبر رجلاً صالحاً أهلاً للإلهام، وأما بالعقل السليم، روى الترمذي بسند صحيح عن أبي رزين قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءاً من النبوة، وهي على رِجْلِ طائر ما لم يحدث بها، فإذا حدث بها سقطت ولا تحدث بها إلا لبيباً أو حبيباً»(٣) وفي بعض الروايات «إلا من تحب» ورواه أبو داود وابن ماجه بسند صحيح عنه بلفظ «الرؤيا على رِجْلِ طائر ما لم يعبر، فإذا عبرت وقعت ولا تقصّها إلا على وادّ أو ذي رأي»(٤) والمراد بالطائر عندي ما قضى الله وقدر له تطيره قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾(٥) أي عمله وما قدر له، فمعنى هذا الحديث عندي والله تعالى أعلم، أن رؤيا المؤمن مبني على قضاء الله تعالى، وقَدْرٍ قُدِّرَ له لا يعلم هو ما قدر له ما لم يحدث بها ويعبر عنها معبر فإذا حدث بها وعبر عتها معبر بإلهام من الله تعالى أو بقوة الرأي والاستنباط الموهوبة منه تعالى، وقعت أي ظهرت واتضح ما هو مقضي له، ولا تحدث بها إلا لبيباً ذا رأي أو حبيباً وادّ أي رجلاً صالحاً يحب الله والمؤمنين ويحبه الله والمؤمنين، وهو المعنى بقوله إلا من تحب فإن المؤمن لا يحب إلا مؤمناً صالحاً، فاللبيب يعبر بالرأي السليم، والحبيب لله تعالى يعبر بالإلهام، فلا يقع الخطاء في تأويلهما.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٠. (٢) سورة يوسف، الآية: ٦.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الرؤيا، باب: ما جاء في تعبير الرؤيا (٢٢٧٨).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في الرؤيا (٥٠١٢) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: تعبير الرؤيا، باب: الرؤيا إذا عبرت وقعت فلا يقصها إلا على واد (٣٩١٤).

(٥) سورة الإسراء، الآية: ١٣.

وما ذكرتُ من أقسام الرؤيا مستفاد من الأحاديث، روى ابن ماجه بسند صحيح عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا ثلاثة منها تهاويل الشيطان ليحزن ابن آدم، ومنها ما يهم به الرجل في يقظته فيراه في منامه، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»(١) وروى الترمذي وابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا ثلاث فبشرى من الله وحديث النفس وتخويف الشيطان، فإذا رأى أحدكم رؤيا تعجبه فليقصها إن شاء، وإن رأى شيئاً يكرهه فلا يقصّها على أحد وليقم يصلي، وأكره الغُلَ وأُحِبُّ القيد القيد ثبات في الدين»(٢) وروى مسلم عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة من الله والرؤيا السوء من الشيطان، فمن رأى رؤيا فكره منها شيئاً فلينفث عن يساره وليتعوذ بالله من الشيطان فإنها لا تضره ولا يُخبر بها أحد، وإن رأى رؤياً حسنة فليبشر ولا يخبر بها إلا من يحب»(٣) وعنه في الصحيحين وعند أبي داود والترمذي بلفظ «الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فإذا رأى أحدكم شيئاً يكرهه فلينفث حين يستيقظ عن يساره ثلاثاً فليتعوذ بالله منها فإنها لا تضره»(٤) فإن قيل ما معنى قوله ﷺ «من رأى رؤيا فكره فلينفث عن يساره وليتعوذ بالله منها»؟ قلنا: معناه والله أعلم أن الرؤيا إن كانت من تخويفات الشيطان وتسويلاته فيذهب وسوسته بالتعوذ، وإن كان من عالم المثال فقد يكون حكاية عن قضاء معلق فالتعوذ بالله منها؟ أي من الرؤيا يردّ القضاء المعلق إن شاء الله تعالى فلا تضرّه، ومعنى قوله ﷺ «فلا يقصّها على أحد وليقم يصلي» أنه إن قصّها على أحد يحزنه تعبيرها، فالأولى أن يرجع إلى الله تعالى بالصلاة والدعاء حتى يدفع القضاء المعلق المحكي عنه بالرؤيا، قال رسول الله ﷺ «لا يردّ القضاءَ إلا الدعاءُ»(٥) الحديث، رواه الشيخان في الصحيحين عن سلمان وابن حبان والحاكم عن ثوبان، وليس النهي عن التحديث على التحريم أو التنزيه ألا ترى أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم أحد «إني رأيتُ في المنام سيفي ذا الفقار انكسر وهي مصيبة، ورأيتُ بقراً

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: تعبير الرؤيا، باب: الرؤيا ثلاث (٣٩٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الرؤيا، باب: في تأويل الرؤيا ما يستحب منها وما يكره (٢٢٨٠) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: تعبير الرؤيا، باب: الرؤيا ثلاث (٣٩٠٦).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الرؤيا (٢٢٦١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (٦٩٨٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الرؤيا (٢٢٦١).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر، باب: ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء (٢١٣٩).

تذبح وهي مصيبة» وقد مر الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾(١) في سورة آل عمران، وأنه ﷺ أُرِيَ بني أمية على منبره فساءه ذلك، وقد حدث به وذكرنا الحديث في تفسير سورة القدر، ورأى ابن عباس قتل الحسين عليه السلام في رؤياه يوم قتل فحدث به، وفي الباب أحاديث كثيرة.

قلت: وجاز أن يكون النهي عن تحديث الرؤيا المكروهة كيلا يظهر الأعداء الشماتة والفرح، وعن تحديث المبشرات إلا عند اللبيب أو الحبيب كيلا يحسدوه ولذلك أمر يعقوبُ يوسفَ عليه السلام بكتمان رؤياه على إخوته فقال ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ ﴿عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ أي فيحتالوا لإهلاكك حيلةً حسداً، عدى الكيد باللام وهو متعد بنفسه لتضمينه معنى فعل يعدى به تأكيداً ولذلك أكد بالمصدر وعلل بقوله ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة فيزيّن له الكيد ويحمله عليه ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على الفضل والكمال ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ للنبوة والملك والأمور العظام، والاجتباء من جببتُ الشيء إذا حصّلتَه واخلصعَه لنفسك، وجببتُ الماء في الحوض إذا جمعتَه ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي تعبير الرؤيا لأن الرؤيا حديث الملَك إن كانت صادقة، وحديث الشيطان إن كانت كاذبة، عبر التعبير بالتأويل لأنه ما يؤل إليه عاقبة الأمر ويؤل أمره إلى ما يرى في منامه، أو من تأويل غوامض كُتُب الله وسنن الأنبياء، قيل هذا كلام مبتدأ خارج عن التشبيه كأنه قيل وهو يعلمك، والظاهر أنه معطوف على ما سبق فإن تعليم التأويلات وإتمام النعمة من أنواع الاجتباء فهو من قبيل عطف الخاص على العام ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بالنبوة ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ قيل: المراد بهم أبناؤه وكان أبناؤه كلهم أنبياء، علم ذلك استدلالاً بضوء الكواكب وقيل: المراد بهم أنبياء بني إسرائيل ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا﴾ أي النعمة على أبويك يعني الجد وأبا الجد ﴿مِن قَبْلُ﴾ إتمامها عليك ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف بيان لأبويك ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الاجتباء ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل الأشياء على ما ينبغي.

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢١.

فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا
عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾
قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ
لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن
يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾

﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ﴾ أي قصة يوسف وإخوته العلات، وكانوا عشرة ستة من بطن ليا بنت ليان وهي ابنة خال يعقوب عليه السلام روبيل وهو أكبرهم وشمعون ولادي ويهودا وريان ويشحر، وكانت من بطنها بنتاً اسمها دينة، وأربعة من بطن سِريتين له عليه السلام، إحداهما زُلفة وأخرى بَلهمة دان وتفتالي وجاد وأشر كذا قال البغوي، وقال: لما توفيت ليّا تزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين، فكان أبناء يعقوب عليه السلام اثنا عشر رجلاً، قال البيضاوي قيل جمع يعقوب بين الأختين، ولم يكن الجمع محرماً حينئذ ﴿ءَايَٰتٞ﴾ قرأ ابن كثير آية على التوحيد والباقون على الجمع يعني عبر أو دلائل على قدرة الله تعالى وحكمته أو علامات لنبوتك ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ عن خبرهم قال البغوي وذلك أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، وقيل: سألوا عن سبب انتقال ولد يعقوب من كنعان إلى مصر، فذكر لهم قصة يوسف فوجدوها موافقة لما في التوراة، وقيل: آيات لمن سأل ولمن لم يسئل كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾[(١)] وقيل: عبراً للمعتبرين فإنها تشتمل على حسد إخوة يوسف وما آل إليه أمرهم من الذل، وعلى رؤياه وما حقق الله منها، وعلى صبر يوسف عليه السلام عن قضاء الشهوة، وعلى الرق وفي السجن ومآل إليه أمره من الملك ورضوان الله، وعلى حزن يعقوب وما آل إليه أمره من الوصول إلى المراد وغير ذلك من الآيات، اذكر ﴿إِذۡ قَالُواْ﴾ يعني قال بعضهم لبعض ﴿لَيُوسُفُ﴾ اللام فيه جواب للقسم تقديره والله ليوسف ﴿وَأَخُوهُ﴾ من أبيه وأمه ولذا خصّوه بالإضافة ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ وحده لأنه أفعَلُ من يستوي فيه الواحد وما فوقه والمذكر والمؤنث، بخلاف أخويه فإن الفرق بين المحلى باللام واجب، وفي المضاف جائز ﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ أي والحال إنّا جماعة عشرة، قال الفراء العُصبة هي العشرة فما زاد، وقيل: العُصبة ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقال مجاهد ما بين العشرة إلى خمسة عشر،

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٠.

وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين، كذا في القاموس حيث قال العصبة من الرجال والخيل والطير ما بين العشرة إلى الأربعين كالعِصابة بالكسر، وكذا قال: الجزري في النهاية إن العِصابة الجماعة من الناس من العشرة إلى الأربعين، والعصب جمع عُصبة كالعِصابة، ولا واحد لها من لفظه كالنفر والرهط، وقيل: العصبة جماعة متعصبة أي متعاضدة، ومعنى نحن عصبة أي جماعة مجتمعة الكلام متعاضدة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ليس المراد من الضلال الضلال عن الدين ولو أرادوا ذلك لكفروا به، بل المراد منه الخطأ في التدبير يعنون به إنا أنفع له في أمر الدنيا وإصلاح معاشه ورعي مواشيه، فنحن أولى بالمحبة منهما فهو مخطئ خطاءً بيّناً في إيثاره يوسف وأخاه علينا في صرف محبته إليهما ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ قال وهب قاله شمعون وقال كعب دان وقال مقاتل روبيل، هذه الجملة المحكي بعد قوله إذ قالوا، وإنما أسند هذا القول إلى جميعهم مع أن القائل به كان واحداً منهم، لأن الباقون رضُوا به إلا من قال لا تقتلوا فأسند الفعل إلى مجازاً الصحة إسناده إلى أكثرهم لأجل رضائهم به ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي بأرض منكورة بعيدة من العمران، بحيث يبعد عن أبيه، وهو معنى تنكيرها وإبهامها، ولذلك نصب كالظروف المبهمة ﴿يَخْلُ لَكُمْ﴾ جواب الأمر والمعنى يصف لكم ﴿وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي توجهه إليكم عن شغله بيوسف حتى لا يلتفت عنكم إلى غيركم، ولا ينازعكم في محبته أحد ﴿وَتَكُونُواْ﴾ جزم بالعطف على يخل ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد يوسف أو بعد الفراغ من أمره بالقتل أو الطرح، أو قتله أو طرحه ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ تائبين إلى الله عمّا جنيتم فيعف الله عنكم، أو صالحين مع أبيكم يصلح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه كذا قال مقاتل، أو صالحين أمر دنياكم فإنه ينتظم لكم بعده لخلو وجه أبيكم.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو يهودا وقال قتادة روبيل، قال البغوي والأول أصح ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فإن القتل كبيرة عظيمة ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ أي في قعره والغيابة كل موضع ستر عنك الشيء وغَيّبه، سمى القعر بها لستره ما فيه عن عين الناظر، كذا قرأ الجمهور، وقرأ أبو جعفر ونافع في غيابات الجب على الجمع كأنه كان لذلك الجب غيابات، قال البغوي والجب البئر الغير المطوية لأنه جب أي قطع ولم يطو، وفي القاموس الجب بالضم البئر أو الكثيرة الماء البعيدةُ القعر أو الجيّدةُ الموضع من الكلأ أو التي لم تُطْوَ أو مما وجد لا مما حفره الناس ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ أي يأخذه والالتقاط أخذ الشيء من حيث لا يحس به ﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ الذين يسيرون في الأرض ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ بمشورتي فافعلوا هذا، أو إن كنتم على أن تفعلوا ما يفرق بينه وبين أبيه فاكتفوا به، قال محمد بن إسحاق

اشتمل فعلهم على جرائم من قطيعة الرحم وعقوق الوالد وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له والغدر بالأمانة وترك العهد والكذب مع أبيهم، وعفا الله عنهم ذلك كله حتى لا ييئس من رحمة الله أحد، قلت: لعل وجه مغفرة الله إياهم تلك الجرائم كلها لشدة حبهم بأبيهم يعقوب عليه السلام، فإنه إنما أوقعهم في تلك الجرائم ذلك الحب، حيث أرادوا أن يخلوا لهم وجه أبيهم ويندفع ما يخلّ بهم في محبتهم، وقال بعض أهل العلم إنهم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة لهم ولو فعلوا لهلكوا أجمعون، وكان ذلك قبل أن صاروا أنبياء كذا قال أبو عمرو بن العلاء، فمن قال بكونهم أنبياء جوز صدور المعصية من النبي قبل النبوة، وقال أكثرهم إنهم ما كانوا أنبياء والمراد بالأسباط الوارد في القرآن في عد الأنبياء أنبياء بني إسرائيل من نسلهم والله أعلم.

فلما أجمعوا على التفريق بينه وبين والده عليه السلام بضرب من الحيل ﴿قَالُوا﴾ ليعقوب عليه السلام ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا﴾ قرأ أبو جعفر بترك الإشمام والروم والباقون إما بالإشمام أعني بالإشارة بالشفتين إلى الضمة نحو قبلة المحبوب، أو بالروم أي بحركة النون الأول بعض الحركة، أي لا تسكن رأساً بل تضعف الصوت بها فيُفصل فيه بين المدغم والمدغم فيه، يعنون لم تخافنا ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ أرادوا به استنزاله عن رأيه في حفظه منهم لما أحس منهم الحسد، قال مقاتل في الكلام تقديم وتأخير وذلك أنهم قالوا ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا﴾ الآية، فقال أبوهم ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ﴾ الآية فحينئذ قالوا ﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا﴾ والنصح القيام بالمصلحة وإرادة الخير، وقيل البرّ والعطف يعني نحن قائمون بمصلحته نريد له الخير نحفظه حتى نرده إليك ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر بالنون فيهما على التكلم وجزم العين في نَرتَعُ من رَتَعَ يَرتَعُ رَتْعاً وهو الخصب يعنون نتسع في أكل الفواكه ونلعب بالسباق والصيد والرمي مما يباح إتيانه، وقرأ ابن كثير بالنون فيهما وكسر العين أصله نرتعي وهو نفتعل من الرعي، فروى أبو ربيعة وابن الصباح عن قنبل بإثبات الباء وصلاً ووقفاً، وروى غيرهما عن حذفها في الحالين، والبزي بحذفها في الحالين، والمعنى نتحارس ونحفظ أنفسنا يعني يحفظ بعضنا بعضاً، وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر بالياء فيهما على الغيبة على إسناد الفعلين إلى يوسف، غير أن نافعاً وأبا جعفر يكسران العين من يَرْتَعِ ويحذفان الياء لام الكلمة من ارتعي يرتعي يعنون يرعى يوسف الماشية كما نرعى نحن، والباقون يجزمون العين من يَرْتَعْ ومعناه يأكل ويلهو وقرأ يعقوب نَرْتَعْ بالنون وجزم العين مثل أبي عمرو ويَلْعَبْ بالياء مثل الكوفيين ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أن يناله مكروه ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب

﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ فتح الياء نافع وابن كثير وأسكنها الباقون ﴿أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي ذهابكم به، والحزن ههنا ألم القلب بفراق المحبوب وعدم الصبر عنه، واللام لام الابتداء ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لأن الأرض كانت مذابة، وقال البغوي وذلك أن يعقوب رأى في المنام أن ذئباً شد على يوسف فكان يخاف من ذلك، وهذا عندي ليس بشيء فإن رؤيا الأنبياء وحي قطعي الوجود، ولو كان قد رأى ذاك لتحقق البتة ولا ينفعه الحذر لكنه لم يتحقق، قرأ ورش والكسائي وأبو عمرو الذيب بغير همز بالياء إذا وُقف والباقون بالهمزة في الحالين وحمزة على أصله إذا وقف فإن الهمزة المتوسطة عنده تبدل حرفاً خالصاً في الوقف ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ يعني لا أخاف كيدكم ولكن أخاف أن يناله مكروه عند غفلتكم لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ المراد به الجنس ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي عشرة متعاضدة لا يتصور الغفلة من جميعنا واللام موطئة للقسم وجوابه ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ أي إذا أكله الذئب ونحن عصبة ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ هو مجزي عن جزاء الشرط، يعنون إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا وكنا ضعفاء مغبونون، أو مستحقون أن تدعي علينا بالخسارة، والواو في ونحن للحال، اعتذر يعقوب في عدم الإرسال بأمرين الحزن بفراقه والخوف عليه بأكل الذئب، وأجابوا عن عذره الثاني دون الأول، لعدم قدرتهم على دفع الحزن ولأن ذلك كان يغيظهم.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ﴾ أي عزموا ﴿أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ﴾ وجواب لما محذوف يعني فعلوا به ما أرادوا، وقال البغوي جوابه ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ الآية على أن الواو زائدة كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾[1] أي لمّا أسلما ناديناه، قال البغوي قال وهب وغيره أخذوا يوسف بغاية الإكرام، وجعلوا يحملونه فلما برزوا إلى البرية القوة، وجعلوا يضربونه فإذا ضربه أحد استغاث بآخر فضربه الآخر، فجعل لا يرى منهم أحداً رحيماً، فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح يا أبتاه لو تعلم ما يصنع بابنك بنوا الإماء، فلما كادوا أن يقتلوه قال لهم يهودا أليس قد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه فيه وكان ابن اثني عشر سنة وقيل: ثمان عشر سنة، فجاءوا به على غير طريق إلى بئر واسع الأسفل ضيّق الرأس، قال مقاتل على ثلاث فراسخ من منزل يعقوب، وقال كعب بين مدين ومصر، وقال وهب بأرض الأردن وقال قتادة هي بئر بيت المقدس، فجعلوا يدلونه في البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٣.

قميصه، فقال يا إخوتاه ردوا عليّ القميص أتوارى به في الجب، فقالوا: أدعُ الشمس والقمر والكواكب تؤنسك فقال إني لم أر شيئاً فألقوه فيها، وقيل: جعلوه في دلو وأرسلوه فيها حتى إذا بلغ نصفها القوة إرادة أن يموت فكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة فيها فقام عليها، وقيل: إنهم لما ألقوه فيها جعل يبكي فنادوه فظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوا بصخرة فيقتلوه فمنعهم يهودا. وأخرج ابن جرير وابن حاتم عن السدي مطولاً أن آل يعقوب كانوا نازلين بالشام، وكان ليس له هم إلا يوسف وأخوه بنيامين، فحسده إخوته إلى أن قال فلما برزوا إلى البرية فذكر نحوه، قيل: جعلوه في دلو وأرسلوه فيها حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت، فكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فيها فقام عليها يبكي، فجاءه جبرئيل بالوحي كما قال ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ لاطمئنان قلبه والظاهر أن هذا الوحي ليس للاستنباء والإرسال والتبليغ بل هو كما أوحى: ﴿إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[1] الآية وما هو للتبليغ فهو بعد ذلك حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[2] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ قال: أوحِيَ إلى يوسف يعني وحي الاستنباء وهو في الجب ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ يعني لَتُخبرن أخوتك بما صنعوا بك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك الوحي والإيناس وإعلام الله إياه ذلك، وقيل: معناه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يوم تخبرهم أنك يوسف لعلو شأنك وبُعده عن أوهامهم وطول العهد المغير للحلى والهيئات، وذلك حين ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾[3] قال البغوي كان يهودا يأتيه بالطعام وبقي فيها ثلاث ليال وأوحي إليه هذه الآية، وبعث إليه جبرئيل ليؤنسه ويبشره بالخروج، ويخبره أنه ينبئهم بما فعلوا ويجازيهم عليه وهم لا يشعرون، أخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن جزير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وابن مردوية عن الحسن أن يوسف عليه السلام كان حينئذ ابن سبع عشرة سنة، وقيل: كان مراهقاً أوحي إليه في صغره كما أوحي إلى يحيى وعيسى عليهما السلام، وفي القصص أن إبراهيم حين ألقي في النار جرد عن ثيابه، فأتاه جبرئيل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فدفعه إبراهيم إلى إسحاق وإسحاق إلى يعقوبَ فجعله في تميمة علقها بيوسف فأخرجه جبرئيل وألبسه إياه.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧. (٢) سورة القصص، الآية: ١٤.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٥٨.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ قال البغوي قال ابن عباس رضي الله عنهما ثم إنهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف قال أهل المعاني جاءوا في ظلمة العشاء لتكون أجرأ على الاعتذار بالكذب، فروي أن يعقوب عليه السلام سمع صياحهم، فخرج فقال: ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا قال: فما أصابكم وأين يوسف ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي نتسابق في العدو كذا قال السدي أو نترامى وننتصل ويشترك الافتعال والتفاعل كالانتصال والتناصل ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ ثيابنا فمضينا ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ﴾ أي بمصدق ﴿لَّنَا﴾ لسوء ظنك بنا وفرط محبتك بيوسف ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ عندك لاتَّهمتَنا في هذه القصة لمحبة يوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا، وقيل: معناه لستَ بمصدق لسوء ظنك بنا، أو لأنه لا دليل لنا على صدقنا وإن كنا صادقين عند الله ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي ذي كذب أو مكذوب فيه، ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ في موضع النصب على الظرف أي فوق قميصه، أو على الحال من الدم إن جوز تقديمها على المجرور، أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن الحسن أنه لما سمع يعقوب بخبر يوسف صاح وسال قميصه، فلما جيء بقميص يوسف جعل يقلّبه فرأى أثر الدم ولا يرى فيه شقاً ولا خرقاً، فقال: يا بَني والله ما أعهد الذئب حليماً إذ أكل ابني وأبقى قميصه فلمّا علم كذبهم بذلك ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي سهّلت لكم وهوّنت في أعينكم أنفسكم أمراً عظيماً، مأخوذ من السول وهو الأسترخاء، في القاموس الأسول من في أسفله استرخاء والسولة استرخاء البطن وغيره، وقيل: معناه زيَّنت كذا في القاموس وسوّل له الشيطان أغواه وقيل: السول

الحاجة التي تحرص عليها النفس، والتسويل تزيين النفس لما تحرص عليه وتصوير القبيح بصورة الحسن ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمري فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وقيل: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ أختاره، قال البغوي الصبر الجميل لا شكوى فيه أي إلى الخلق ولا جزع، أخرج ابن جرير عن حبان ابن حمية مرسلاً الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي على احتمال ما تصفونه من هلاك يوسف والصبر على تلك المصيبة، قال البغوي وفي القصة أنهم جاءوا بذئب وقالوا: هذا الذي أكله، فقال له يعقوب يا ذئب أأنت أكلت ولدي وثمرة فؤادي؟ فأنطقه الله عز وجل فقال بالله ما رأيت وجه ابنك قط، قال: كيف وقعت بأرض كنعان؟ قال: جئت لصلة قرابة فصادني هؤلاء، فمكث يوسف في البئر ثلاثة أيام.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ رفقة يسيرون من مدين إلى مصر أخطؤا الطريق فنزلوا قريباً من الجب، وكان الجب في قفر بعيد من العمران للرعاة والمارة، وكان ماؤه ملحاً فعذب حين ألقي يوسف فيه ﴿فَأَرْسَلُوا۟﴾ حين نزلوا هناك ﴿وَارِدَهُمْ﴾ رجلاً من أهل مدين يقال له مالك بن وعر لطلب الماء، والوارد الذي يتقدم الرفقة إلى الماء ليستقي لهم ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ يقال أدليتُ الدلو إذا أرسلتَها فيه، ودلوتُها أخرجتُها، فتعلق يوسف عليه السلام بالحبل، فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون، قال النبي ﷺ: «أعطي يوسف شطر الحسن» رواه ابن أبي شيبة وأحمد وأبو يعلى والحاكم عن أنس، قال البغوي يقال أنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة، وكانت قد أعطيت سدس الحسن، قال ابن إسحاق ذهب يوسف وأمه بثلثي الحسن، فلما رآه مالك بن وعر ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ﴾ قرأ الكوفيون بالألف المقصورة على وزن فُعْلى وأمال حمزة والكسائي، نادى البشرى بشارة لنفسه أو لقومه كأنه قال يا بشرى تعالي فهذا أوانك، وقيل: هو اسم لصاحبه ناداه باسمه ليعينه على إخراجه، وقرأ الباقون يَٰبُشْرَىٰ بالألف بعد الراء وبعدها ياء المتكلم مفتوحة بالإضافة، قرأ ورش الراء بين بين والباقون بإخلاص فتحها ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ روى مجاهد عن أبيه أن البئر كانت تبكي على يوسف حين أخرج منها ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ يعني أخفاه الوارد وأصحابه من سائر الرفقة مخافة أن يطلبوا منهم فيه المشاركة، وقيل: أخفوا أمره وقالوا دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر، وقيل: الضمير لإخوة يوسف، وذلك أن يهودا كان يأتيه كل يوم بالطعام وأتاه يومئذ فلم يجده فيها، فأخبر إخوته فطلبوه فإذا هم بمالك وأصحابه نزول، فأتوهم فإذا هم بيوسف، فأسروا شأن يوسف وقالوا هو عبد لنا آبق ويقال: إنهم هددوا يوسف حتى لم يعرّف حاله فسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ﴿بِضَٰعَةً﴾ نصب على الحال أي أخفوه متاعاً للتجارة، اشتقاقه من البضع فإنه هو ما يضع من المال للتجارة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

لم يخف عليه إسرارهم، أو صنيع إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم ﴿وَشَرَوْهُ﴾ يعني باع إخوة يوسف إياه بعدما قالوا إنه عبد لنا آبق، وقيل: شروه بمعنى اشتروه يعني اشترى الوارد وأصحابه يوسف من إخوته ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ قال الضحاك ومقاتل والسدي أي حرام، لأن ثمن الحر حرام، وسمي الحرام بخساً لأنه مبخوس من البركة أي منقوص، وعن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنه أي زيوف وقال عكرمة والشعبي قليل ﴿دَرَاهِمَ﴾ بدل من الثمن ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ قليلة فإنهم كانوا يزنون ما بلغ الأوقية ويعدون ما دونها، قال ابن عباس وابن مسعود وقتادة رضي الله عنهم كان عشرين درهماً فاقتسموا درهمين درهمين، وقال مجاهد اثنين وعشرين درهماً وقال عكرمة كان أربعين درهماً ﴿وَكَانُوا﴾ أي إخوة يوسف أو الذين اشتروه ﴿فِيهِ﴾ أي في يوسف ﴿مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ الراغبين عنه لأنهم لم يعلموا منزلته عند الله عز وجل، وقيل: كانوا في الثمن من الزاهدين لأنه لم يكن قصدهم تحصيل الثمن إنما كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه، قال البيضاوي إن كان ضمير كانوا للرفقة وكانوا بائعين فزهدهم لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به خائف عن انتزاعه مستعجل في بيعه، وإن كانوا مبتاعين فلأنهم اعتقدوا أنه آبق. وفيه متعلق بالزاهدين إذا جعل اللام للتعريف، وإن جعل بمعنى الذي فهو متعلق بمحذوف يبينه الزاهدين، لأن متعلق الصلة لا يتقدم على الموصول، ثم انطلق مالك بن وعر وأصحابه بيوسف وتبعهم إخوته يقولون: استوثقوا منه لا يأبق، فذهبوا به حتى قدموا مصر، وعرضه مالك على البيع، فاشتراه قطفير قاله ابن عباس، وقيل: أطفير صاحب أمر الملك، وكان على خزائن مصر يسمى العزيز، وكان الملك يومئذ بمصر ونواحيها ديان بن الوليد بن ثروان من العمالقة، وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن واتسع يوسف على دينه ثم مات ويوسف حي، قال ابن عباس رضي الله عنه لما دخل مصر تلقى قطفير مالك بن وعر، فابتاع منه يوسف بعشرين دينار أو زوج نعل وثوبين أبيضين، وقال وهب بن منبه قدمت السيارة بيوسف مصر فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع، فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمن وزنه ذهباً ووزنه فضةً ووزنه مسكاً وحريراً، وكان وزنه أربعمائة رطل وهو ابن ثلاث عشر سنة فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن.

﴿وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ يعني قطفير ﴿لِامْرَأَتِهِ﴾ اسمها راعيل وقيل: زليخا ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ المثوى موضع الإقامة، والمراد به منزلته كذا قال قتادة وابن جريج، وقيل: معناه أكرميه في المطعم والملبس والمقام ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أي نبيعه بالربح إن

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٣.

أردنا البيع أو يكفينا في ضياعنا وأموالنا ونستظهر به في مصالحنا ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ إن تبنَّيناه لما تفرس به من الرشد وكان عقيماً ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كما أنجيناه من القتل وأخرجناه من الجب وعطفنا عليه العزيز ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أرض مصر فجعلناه على خزائنها ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ عطف على مضمر تقديره ليحكم بالعدل ولنعلمه، أي كان القصد من أنجائه وتمكينه إلى أن يقيم العدل ويدبر أمور الناس، ويعلّم معاني كتب الله وأحكامه فينفذها، أو تعبير المنامات المنبهة عن الحوادث الكائنة ليستعد لها، ويشتغل بتدبيرها قبل أن يحل، وقيل: الواو زائدة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ الضمير راجع إلى الله تعالى أي يفعل ما يشاء لا يرد أمره شيء، ولا ينازعه فيما يشاء أحد، وقيل الضمير راجع إلى يوسف أي أراد به إخوة يوسف شيئاً، وأراد الله غيره فلم يكن إلا ما أراد الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لطائف صنعه وخفايا لطفه، أولا يعلمون ما الله يريد ويصنع ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي منتهى شبابه وقوته قال مجاهد ثلاثاً وثلاثين سنة، وقال السدي ثلاثين سنة وهو سن الوقوف، وقال الضحاك عشرين سنة، وقال الكلبي الأشد ما بين ثمانية عشر إلى ثلاثين سنة، وسئل مالك عن الأشد قال: هو الحلم ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي نبوةً وقيل: إصابة القول ﴿وَعِلْمًا﴾ أي فقهاً في الدين أو علماً بتأويل الرؤيا قيل: الفرق بين الحكيم والعالم أن العالم هو الذي يعلم الأشياء والحكيم هو الذي يعمل بما يوجب العلم ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه أي المؤمنين وعنه أيضاً المهتدين، وقال الضحاك الصابرين على النوائب، قال البيضاوي فيه تنبيه على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاءً على إحسانه في عمله واتقائه في عنفوان أمره.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ
مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا
لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ
﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ
أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ
شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن
كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ
إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ
كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ المراودة من راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شيء ومنه الرائد، وقيل طلب الشيء برفق ومنه رويد بمعنى أمهل لمعنى الرفق والمهلة فيه، والمراد ههنا طلبته منه بالحيل ﴿ٱلَّتِي هُوَ﴾ يعني يوسف ﴿فِي بَيۡتِهَا﴾ يعني زليخا امرأة العزيز ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي احتالت ليواقعها ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ أي أطبقتها وكانت سبعة والتشديد للتكثير أو للمبالغة في الاستئناف ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ قرأ نافع وابن ذكوان بكسر الهاء من غير همز وفتح التاء، وهشام كذلك إلا أنه يهمز، وقد روى عنه ضم التاء، وابن كثير بفتح الهاء وضم التاء والباقون بفتحهما، وقرأ قتادة والسلمي بكسر الهاء وضم التاء كما روى عن هشام، ومعناه تَهَيَّئتُ لَكَ نفسي واللام حينئذ للصلة، وأنكره أبو عمرو والكسائي قالا لم يحك هذا عن العرب والأول هو المعروف عند العرب، قال ابن مسعود أقرأني النبي ﷺ هَيْتَ لك بفتح الهاء والتاء، قال أبو عبيدة كان الكسائي يقول هل لغة لأهل حوران وقعت إلى الحجاز ومعناه تعال، وقال عكرمة أيضاً هي بالحورانية هلم، قال مجاهد وغيره هي لغة عربية وهي كلمة حث وإقبال على الشيء، فهو اسم فعل مبني على الفتح كَأَيْنَ، واللام للتبيين كالتي في سقيا لك، ومن قرأه بضم التاء قرأه تشبيهاً له بحَيْثُ، وهي لا تثنّى ولا تجمع ولا تؤنث كذا قال أبو عبيدة، قال في القاموس هَيْتِ مثلثة الآخر وقد يكسر أوله بمعنى هلم ﴿قَالَ﴾ لها يوسف عند ذلك ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ أي أعوذ بالله معاذاً وأعتصم به مِمَّا دعوتني إليه ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ الضمير للشأن يعني إن الشأن أن سيدي قطفير أحسن منزلي وتعهّدي، حيث قال لك أكرمي مثواه فما جزاؤه أن أخونه في أهله، وجاز أن يكون الضمير راجعاً إلى قطفير يعني أن زوجك قطفير سيدي أحسن مثواي، وقيل الضمير لله تعالى يعني أنه تعالى خالقي وأحسن منزلتي حيث عطف عليّ قلب قطفير فلا أعصيه ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المجازون الحسن بالسيئ، وقيل: يعني الزناة فإن الزنى ظلم على نفسه وعلى المزني بأهله.

قال السدي وابن إسحاق لما أرادت امرأة العزيزي مراودة يوسف عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وشوّقته إلى نفسها، فقالت: يا يوسف ما أحسن شعرك قال: هي أول ما ينتثر من جسدي، قالت: ما أحسن عينك قال: هما أول ما يسيل على وجهي، قالت: ما أحسن وجهك قال: هو للتراب تأكله، وقيل: إنها قالت إن فراش الحرير مبسوط فقم فاقض حاجتي، قال: إذاً يذهب نصيبي من الجنة، فلم تزل تطمعه وتدعوه إلى اللذة وهو شابّ يجد شبق الشباب ما يجد الرجل عند مراودة امرأة حسناء جميلة فذلك قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ﴾ زليخا ﴿بِهِۦ﴾ أي بيوسف يعني قصدت أن يواقعها ﴿وَهَمَّ﴾

يوسف ﴿بِهَا﴾ أي مال طبعه إليها واشتهاها مع كفه نفسه عنها كما يدل عليه قوله ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ الخ وليس المراد القصد الاختياري وذلك الميلان الطبعي وشهوة النفس مما لا يدخل تحت التكليف، بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل فإن السبب لأفضلية البشر على الملائكة كف النفس عن الفعل عند قيام هذا الهَمِّ، قال الشيخ أبو منصور الماتريدي: هَمَّ يوسف بها هَمَّ خطرة ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب ولا مؤاخذة عليه، ولو كان هَمُّه كهمنا لما مدحه الله تعالى بأنه من عبادنا المخلصين وقال بعض أهل الحقائق الهَمُّ همان هَمٌّ ثابت وهو ما إذا كان معه عزم وعقد ورضًى مثله هَمِّ امرأة العزيز فالعبد مأخوذ به، وهَمٌّ عارض مثل الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هَمِّ يوسف عليه السلام والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى «إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشرة أمثالها، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها» رواه البغوي من حديث أبي هريرة وفي الصحيحين وجامع الترمذي عنه بلفظ «إذا همّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتُها له حسنة، فإن عملها كتبتُها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتُها سيئة واحدة»[١] وجاز أن يكون معنى هم بها شارف على الهم، وما قيل في تفسير قوله تعالى ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أنه حل الهميان وجلس منها مقعد الرجل من المرأة وما قيل إنه حل سراويله وجعل يعالج ثيابه، وأسند هذا القول إلى سعيد بن جبير وغيره من المتقدمين يأبى عن سياق كلام الله تعالى فإنه تعالى قال ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ لأن السوء هو الصغيرة وما ذكر فهو من الصغائر البتة، ولو كان كذلك لذكرت توبته واستغفاره (كما ذكر لآدم ونوح وذي النون وداود عليهم السلام مع كون كل ما صدر منهم عليهم السلام من غير قصد منهم بالمعصية، كما ذكر كل ذلك في موضعه) ولم يذكر بل ذكر تبرئة نفسه حيث قال ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾[٢] وقال ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾[٣] وقال ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٤] وقال الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٥].

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ جواب لولا محذوف تقديره لجامعها، وقيل: جواب لولا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: من هم بحسنة أو بسيئة (٦٤٩١) وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (١٢٨).

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٦.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٥٢.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٩٠.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

مقدم عليه تقديره ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ لهمّ بها لكنه رأى البرهان فلم يهم وأنكره النحاة لأن لولا في حكم أدوات الشرط فلا يتقدم عليها جوابها، وجاز أن يكون هَمَّ بها المذكور قبلها دليلاً على جوابها يعني لَهمَّ بها، ومعنى الهم المذكور على هذا شارف الهم، فهو كقوله قتلتُه لو لم أخف الله، تقديره شارفتُ على قتله لو لم أخف الله لقتلتُه. واختلفوا في ذلك البرهان؟ فقال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما البرهان النبوة التي أودع الله في صدره حالت بينه وبين ما يسخط الله عز وجل، وهذا أصوب الأقوال عندي، وقال قتادة وأكثر المفسرين إنه رأى صورة يعقوب وهو يقول له يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في الأنبياء، وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عليه السلام عاضاً على أصبعه، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل يعقوب فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن سيرين قال: مثّل له يعقوب عاضًا على أصبعه يقول يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن اسمك في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء، وقال السدي نودي يا يوسف تواقعها إنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير في جو السماء لا يطاق ومثلك إذا واقعتها مثله إذا مات ووقع في الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئاً، ومثلك ما لم تواقعها مثل الثور الصعب الذي لا يطاق، ومثلك إن واقعتها مثل الثور يموت فيدخل النمل في أصل قرنيه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، وأخرج ابن جرير عن القاسم بن أبي نزة قال نودي يا ابن يعقوب لا تكونن كالطير له ريش فإذا زنى فغدا ليس له ريش فلم يعرض للنداء، فرفع رأسه فرأى وجه يعقوب عاضًا على أصبعه، فقام مرعوباً استحياءً من أبيه، وفي رواية عن مجاهد عن ابن عباس أنه انحط جبرئيل عاضًا على أصبعه يقول يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله في الأنبياء، وروى أنه مسحه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله، وقال محمد بن كعب القرظي رفع يوسف عليه السلام رأسه إلى سقف البيت حين هَمَّ فرأى كتاباً في حائط البيت ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾(١) وروى عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما في البرهان أنه رأى مثال الملك، وعن علي بن الحسين عليه السلام قال: كان في البيت صنم فقامت المرأة وسترته بثوب ـ فقال لها يوسف لم فعلتِ هذا؟ قالت: استحييتُ منه أن يراني على المعصية فقال: أتستحيين ممَّن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه فأنا أحق أن أستحيي من ربي وهرب ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر مثل ذلك أو فعلنا كذلك ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ﴾ أي عن يوسف ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ أي

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.

المعصية الصغيرة ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي الكبيرة يعني الزنى ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ قرأ نافع والكوفيون بفتح اللام حيث وقع معرفاً باللام يعني مختارين للنبوة أخلصهم الله تعالى لنفسه والباقون بكسر اللام أي مخلصين لله الطاعة والعبادة.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ أي إلى الباب على حذف الجار وإيصال الفعل، أو على تضمين استبقا معنى ابتدرا يعني تسابق يوسف وزليخا إلى الباب، لما فرّ يوسف منها ليخرج من عندها أسرعت وراءه لتمنعه عن الخروج، فتعلقت بقميصه من خلفه فجذبته إليها حتى لا يخرج، ووَحّدَ الباب وإن كان جَمَعَه في قوله ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾[1] لأنه أراد الباب الذي هو المخرج من الدار، ولما هرب يوسف جعل فراش القفل تتناثر وتسقط ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ أي شقّته من ورائه، والقد الشق طولاً والقط الشنق عرضاً ولمّا خرجا ﴿وَأَلْفَيَا﴾ صادفا ﴿سَيِّدَهَا أي زوجها قطفير ﴿لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ قال البغوي وجداه جالساً مع ابن عم لزليخا، وقيل صادفاه مقبلاً يريد الدخول فلما رأته هابته ﴿قَالَتْ﴾ سابقة بالقول لزوجها تبرئة لنفسها عند زوجها، وتعييراً على يوسف وإغراءً به انتقاماً منه ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ يعني الزنى وما نافية أو استفهامية بمعنى أيّ شيء جزاؤه ليس جزاؤه ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ أي يحبس ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ضرب بالسياط.

فلما سمع يوسف مقالتها ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ﴾ أي طلبت مني الفاحشة إنما قال ذلك دفعاً لما عرض له من السجن والعذاب ولو لم تكذب عليه لما قاله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قيل: ابن عم وقيل: ابن خال لها، فقال سعيد بن جبير والضحاك كان صبيًّا في المهد أنطقه الله، قال البغوي وهو رواية العوفي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «تكلم أربعة وهم صغار، ابن ماشطة ابنة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم» قال محمد بن محمد السعاف في تخريج البيضاوي أخرج ذلك الحديث أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك وصححه، ورواه الحاكم أيضاً من حديث أبي هريرة وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يطلع عليه الطيبي فقال يردّه ما في حديث الصحيحين عن أبي هريرة حيث قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج، وصبي كان ترضعه أمه فمر راكب حسن الهيئة فقالت أمه اللهم اجعل ابني مثل فلان فقال الصبي اللهم لا تجعلني مثله» فصاروا بإضافة الصبي المذكور إليهم خمسة، قال السيوطي وهُم أكثر من ذلك ففي صحيح مسلم تكلم

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٣.

الطفل في قصة أصحاب الأخدود، قال: وقد جمعتُ من تكلم في المهد فبلغوا أحد عشر تضميناً فقلتُ **قطعة**: تكلم في المهد النبي محمد، ويحيى وعيسى والخليل ومريم، ومبري جريج ثم شاهد يوسف، وطفل لدى الأخدود يرويه مسلم، وطفل عليه مبرّياً لأمه، التي يقال لها تزنى لا تتكلم، وماشطة في عهد فرعون طفلها، وفي زمن الهادي المبارك يختم، فقال الشاهد ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ من قدام ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ لأنه يدل على أنها قدت من قدامه لما أرادها بالدفع عن نفسها، أو أنه أسرع عن خلفها فتعثر بذيله فانقد جيبه ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ لأنه يدل على أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فقدته من خلفه، والشرطية محكية على إرادة القول أو على أن فعل الشهادة من القول وتسميتها شهادة لأنها أدت مؤداها، وإنما جمع بين إن الذي هو للاستقبال وبين كان لأن المعنى أن تعلم أنه كان قميصه كذا، نظيره قولك إن أحسنت إليّ فقد أحسنتُ إليك من قبل فإن معناه إن تمنَّ عليّ بإحسانك أمنُّ عليك بإحساني السابق ﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ قطفير ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام ﴿قَالَ﴾ له ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي أن السوء أو إن هذا الأمر أو إن قولك ما جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ من حيلتكن والخطاب لها ولا مثالها أو لسائر النساء ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ﴾ أي النساء ﴿عَظِيمٌ﴾ فإن ظاهرهن ضعيف يشهد لهن بالصدق وباطنهن خبيث أعوج، فإنها خلقت من ضلع آدم وعقولهن قاصرة وديانتهن ناقصة لا تمنعهن عما يمنع العقول السليمة والدين القويم، ومعهن شيطان يواجهن الرجال بالكيد والشيطان يوسوس به مسارقة قال رسول الله ﷺ: «النساء حبالة الشيطان»[(١)] وقال رسول الله ﷺ: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن»[(٢)] رواه (    ) عن بعض العلماء أنه قال: أنا أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[(٣)] وقال لهن ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[(٤)] ﴿يُوسُفُ﴾ أي يا يوسف ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا﴾ الحديث فلا تذكره لأحد حتى لا يشيع ﴿وَٱسْتَغْفِرِى﴾ يا زليخا ﴿لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ

---

(١) رواه أبو نعيم والديلمي والتيمي مرفوعاً، وقال ابن الغرس: الحديث حسن. انظر كشف الخفاء (١٥٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الحيض، باب: ترك الحائض الصوم (٣٠٤) وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات (٧٩).

(٣) سورة النساء، الآية: ٧٦.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٢٨.

﴿ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ أي من القوم المذنبين من خَطِئَ إذا أذنب متعمداً، لم يقل من الخاطئات لأنه لم يقصد به الخبر عن النساء، بل قصد الخبر عن من فعل ذلك رجلاً كان أو امرأة، فذكر بصيغة المذكرين تغليباً ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾(١) و﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾(٢) وكان العزيز رجلاً حليماً قليل الغيرة فاقتصر على هذا القول.

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ اسم لجمع امرأة وتأنيثه بهذا الاعتبار غير حقيقي ولذلك جرد فعله ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ ظرف لقال أو صفة لنسوة، أي لما شاع حديث يوسف ومراودة زليخا عن نفسه في المصرقلن، وقال مقاتل كن خمساً زوجة الحاجب والساقي والخباز والسجان وصاحب الدواب ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ أي عبدها الكنعاني ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي تطلب من الفاحشة ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ يعني شق يوسف شغاف قلبها فدخل فيه حُبًّا، وهو تميز عن النسبة أي دخل حبه قلبها ـ قال السدي الشغاف جلدة رقيقة على القلب، وقال الكلبي حجب حبه قلبها حتى لا تعقل سواه ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ عن الرشد وبعد من الصواب ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر الضلال حيث تركت ما يكون على أمثالها من العفاف والستر ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ زليخا ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي باغتيابهن وإنما سمى مكراً لأنهن أخفين هذا القول كما يخفي الماكر مكره، وقال ابن إسحاق إنما قلن لها ذلك مكراً بها لتريهن يوسف وكانت توصف لهن حسنه وجماله وقيل: إنها أفشت إليهن سرها واستكتمهن فأفشين ذلك فلذلك سماه مكراً

(١) سورة التحريم، الآية: ١٢.
(٢) سورة النمل، الآية: ٤٣.

﴿أَرْسَلَتْ﴾ رسولاً ﴿إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهن قال وهب اتخذت مأدبة ودعت أربعين امرأة منهن هؤلاء اللاتي عيرنها ﴿ وَأَعْتَدَتْ﴾ أي أعدت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ قال ابن عباس ﷺ وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومجاهد متكأً أي طعاماً، سماه متكأً لأن أهل الطعام إذا جلسوا يتكؤون على الوسائد ـ فسمى الطعام معاً على الاستعارة ـ، يقال: اتكأنا عند فلان أي طعمنا، ولما كان ذلك عادة المترفين «نهى رسول الله ﷺ أن يأكل الرجل بشماله وأن يأكل متكأ» رواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن جابر، وقيل: المتكأ الطعام الذي يجز جزًّا كأنّ القاطع يتكى عليه بالسكين، قال ابن عباس هو الأترج وقدري عن مجاهد مثله، وقيل هو الأترج بالحبشية، وقال عكرمة وأبو زيد الأنصاري كل ما يجزّ بالسكين فهو عند العرب متك، والمتك والبتك القطع بالميم والباء، قال البغوي زيّنت امرأة العزيز بيتاً بألوان الفواكه والأطعمة ووضعت الوسائد ودعت النسوة ﴿وَءَاتَتْ﴾ أي أعطت ﴿كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وهن يأكلن اللحم جزًّا بالسكين ﴿وَقَالَتِ﴾ قرأ أبو عمرو عاصم وحمزة بكسر التاء وصلاً وغيرهم بضمها وصلاً ﴿ٱخْرُجْ﴾ يا يوسف ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ وكانت أجلست يوسف في مجلس آخر فخرج عليهن يوسف، قال عكرمة وكان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل ليلة البدر على سائر الكواكب، وأخرج ابن جرير والحاكم وابن مردويه من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي إلى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر» وأخرج أبو الشيخ في تفسيره عن إسحاق بن عبد الله أبي فروة قال: كان إذا سار في أزقة المصر يرى تلألأ وجهه على الجدران كما يرى تلألأ الماء والشمس على الجدران ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ﴾ نسوة مصر ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ عظّمنه قال أبو العالية هالهن أمره وبهتن، وقيل: أكبرنه أي حضن من أكبرت المرأة إذا حاضت لأنها تدخل في الكبر بالحيض والهاء ضمير المصدر أو ليوسف على حذف المضاف أي حضن لأجله من شدة الشبق ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بالسكاكين التي كانت معهن وهن يحسبن أنهى تقطعن الأترج ولم يجدن الألم لشغل قلوبهن بيوسف، قال مجاهد فما أحسسن إلا بالدم، قال قتادة أبنّ يذبهن حتى ألقينها، والأصح أنه كان قطعاً بلا إبانة وقال وهب ماتت جماعة منهن ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهاً تعالى من صفات العجز تعجباً على كمال قدرته على الخلق، أصله حاشا الله كذا قرأ أبو عمرو في الموضعين وصلاً، وإذا وقف حذف الألف اتباعاً للخط، روى ذلك عن اليزيدي منصوصاً والباقون يحذفون الألف في الحالين تخفيفاً وهو حرف يفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء فوضع موضع التنزيه واللام للبيان كما في قولك سقيالك ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ وهو على لغة أهل الحجاز في إعمال ما عمل ليس لمشاركتهما في نفي الحال، وقال البغوي منصوب بنزع حرف الصفة أي ليس هذا ببشر

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا مَلَكٌ﴾ من الملائكة ﴿كَرِيمٌ﴾ على الله تعالى لأن هذا الجمال لم يعهد في البشر وليس فوق البشر إلا الملك، أو لأن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة.

﴿قَالَتْ﴾ زليخا ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ تعني هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتُنّ في أنفسكن ثم لمتنني فيه، تعني أنكن لم تتصورنّه حق تصوره وإلا لعذرتُنّني في الافتتان به، أو فهذا أهو الذي لمتنني فيه فوضع ذطلك موضع هذا رفعاً لمنزلة المشار إليه ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ فامتنع طالباً للعصمة، أقرّت لهن حين عرفت أنهن يعذرنها كي يعاونّها على الآنةِ عريكته فقلن له أطع مولاتك ﴿وَ﴾ قالت زليخا ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ به أو أمري إياه تعني موجب أمري والضمير ليوسف أو المعنى ما أمر به فحذف الجار والضمير للموصول ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا﴾ بنون التأكيد الخفيفة تنقلب ألفاً وقفاً لشبهها بالتنوين نظيره لنسْفعاً ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي من الأذلاء من صَغِرَ يَصْغَرُ من باب سَمِعَ يَسْمَعُ صغر أو صغاراً ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿رَبِّ﴾ أي يا رب ﴿ٱلسِّجْنُ﴾ قرأ يعقوب بفتح السين والباقون بكسرها ﴿أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ من الزنى اختار السجن على المعصية حين تَوَعّدَتْهُ المرأة، أسند الدعاء إليهن وكان الدعاء من زليخا خاصة إلى نفسها خروجاً من التصريح إلى التعريض، أو لأنهن خوفنه عن مخالفتها وزيّنّ له مطاوعتها، وقيل: إنهن جميعاً دعونه إلى أنفسهن، قيل لو لم يسئل يوسف السجن ولم يقل ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ لم يبتل بالسجن، والأولى أن يسأل المرء العافية ولذلك ردّ رسول الله ﷺ على من كان يسئل الصبر، روى الترمذي عن معاذ قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً وهو يقول: اللهم إني أسئلك الصبر قال: «سَألتَ البلاء فاسأله العافية»[1] وروى الطبراني عن العباس بن عبد المطلب قال: قلتُ يا رسول الله علمني شيئاً أدع الله به فقال ﷺ سل ربك العافية» فمكثتُ أياماً ثم جئتُ فقلتُ: يا رسول الله علمني شيئاً أسئله ربي عز وجل فقال «يا عم سَل الله العافية في الدنيا والآخرة» ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ في تحسين الفاحشة إليّ بالتثبيت على العصمة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أمل إلى إجابتهن أو إلى أنفسهن بطبعي ومقتضى شهوتي، والصبوة الميل إلى الهوى ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ من السفهاء بارتكاب الفاحشة فإن الحكيم لا يفعل القبيح، أو من الذين لا يعملون بما يعلمون فإنهم من الجهال حكماً ـ قال البغوي فيه دليل على أن المؤمن إذا ارتكب نبأ يرتكب عن جهالة ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ فأجابه الله دعاءه الذي تضمنه

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥٢٧).

قوله ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي﴾ الآية ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فثبته بالعصمة حتى آثر مشقة السجن على اللذة المتضمنة للمعصية ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعاء الملتجئين إليه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي ظهر للعزيز وأصحابه في الرأي ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ الدالة على براءة يوسف من كلام الطفل وقد القميص من دبر وقطع النساء أيديهن واستعصامه عنهن، وفاعل بدأ ضمير مبهم يفسره قوله ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ أي مدة يرون فيها رأيهم وذلك باستهزال المرأة لزوجها وكان زوجها مطواعاً لها ذلولا ذمامه في يدها، وقر طمعت أن يذلل السجن يوسف ويسخره لها، أو خافت عليه العيون وظنت منه الظنون فألجأ لها لخجل من الناس والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب، لتشتفي بخبره إذا منعت من نظره وقضاء حاجتها منه، وقالت لزوجها إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس يخبرهم أني راودته عن نفسه فإما أن تأذن لي في الخروج فأخرج فأعتذر إلى الناس، وإما أن تحبسه إلى أن تنقطع مقالة الناس ويحسب الناس أنه المجرم، قال البغوي قال ابن عباس رضي الله عنهما عثر يوسف ثلاث عثرات حين هَمَّ بها فسجن، وحين قال ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ وحين قال للإخوة ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ فقالوا ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾[1].

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ

(٢) سورة يوسف، الآية: ٧٧.

لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ وهما غلامان كانا للوليد بن ثروان العمليقي ملك المصر الأكبر أحدهما خبازه صاحب طعامه، والآخر ساقيه صاحب شرابه، غضب الملك عليهما فحبسهما، واتفق دخولهما في السجن وقت دخول يوسف عليه السلام فيه كما يدل عليه كلمة مع، قال البغوي وكان السبب في حبس الفتيين أن جماعة أرادوا المكر بالملك واغتياله، فضمنوا لهذين مالاً ليسمّا الملك في طعامه وشرابه فأجاباهم ثم إن الساقي نكل عنه وقبل الخباز الرشوة فسم الطعام، فلما حضروا الطعام قال الساقي لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم، وقال الخباز لا تشرب فإن الشراب مسموم فقال الملك للساقي اشرب فشربه فلم يضره، وقال للخباز كل من طعامك فأبى، فجرب ذلك الطعام على دابة فأكلته فهلكت، فأمر الملك بحبسهما، وكان يوسف حين دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول إني أعبّر الأحلام، فقال أحد الفتيين لصاحبه هلم فلنجرب هذا العبد العبراني نترايا له، فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئاً، قال ابن مسعود ما رأيا شيئاً إنما تحالما ليجربا يوسف، وقال قوم بل كانا رأيا حقيقة فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما فذكرا أنهما صاحبا الملك وقد رأيا رؤيا غمهما ذلك، فقال يوسف قصّا علي ما رأيتما فقصا عليه ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ وهو صاحب الشراب ﴿إِنِّى﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَرَىٰنِىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ يعني أرى نفسي في المنام أعصر خمراً أي عنباً سماه خمراً باعتبار ما يؤل إليه، يقال فلان يطبخ الآجر أي يطبخ اللبن للآجر، وقيل: الخمر العنب بلغة عمان، وهي حكاية حال ماضية وذلك أنه قال إني رأيت كأني في بستان فإذا أنا بأصل حُبْلَةٍ عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها، وكان كأس الملك بيدي فعصرتُها فيه وسقتُ الملك فشربه ﴿وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ﴾ الخباز ﴿إِنِّى﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَرَىٰنِىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾ وذلك إنه قال إني رأيت كان فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الأطعمة وسباع الطير تنهش منه ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ أي أخبرنا بتفسيره وتعبيره وما يؤل إليه أمر هذا الرؤيا ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي من الذين يحسنون تأويل الرؤيا، أو من العالمين والإحسان بمعنى العلم، وإنما قالا ذلك لأنهما رأياه في السجن يُذَكِرُ الناس ويعبر رؤياهم، أو من المحسنين إلى أهل السجن فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه، رُوِيَ أن الضحاك

بن مزاحم سئل عن قوله ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ما كان إحسانه؟ قال: كان إذا مرض إنسان في السجن عاده وقام عليه، وإذا ضاق عليه المجلس وسّع له، وإذا احتاج جمع له شيئاً، وكان مع هذا يجتهد في العبادة ويقوم الليل كله للصلاة، وقيل: إنه لما دخل السجن وجد فيه قوماً اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم، فجعل يسلّيهم ويقول أبشروا تؤجروا، فيقولون: بارك الله فيك يا فتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا في جوارك فمن أنت يا فتى؟ قال أنا يوسف بن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله إسحاق بن إبراهيم خليل الله، فقال له عامل السجن: يا فتى والله لو استطعتُ لخليتُ سبيلك ولكن سأحسن جوارك تمكّن في أي بيوت السجن شئت. ورُوِيَ أن الفتيين لما رأيا يوسف قالا له لقد أحببناك حين رأيناك، فقال لهما يوسف: أنشدكما بالله أن لا تحباني، فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل عليّ من حبه بلاء، فقد أحبّتني عمتي فدخل عليّ بلاء، ثم أحبّني أبي فألقيتُ في الجب، وأحبّتني امرأة العزيز فحبستُ.

فلما قصّا عليه الرؤيا كره يوسف أن يعبر لهما ما سألاه لما علم في ذلك من المكروه على أحدهما، فأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره من إظهار المعجزة والدعاء إلى التوحيد ﴿قالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ قيل: أراد به ترزقانه في النوم يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه في نومكما ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ في اليقظة ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ تأويله، وقيل: أراد أنه لا يأتيكما طعام من منازلكما ترزقانه في اليقظة أي تطعمانه وتأكلانه، إلا نبأتكما بتأويله بقدره ولونه والوقت الذي يصل إليكما قبل أن يصل إليكما، وأيّ طعام أكلتم ومتى أكلتم، وهذا معجزة مثل معجزة عيسى عليه السلام حيث قال: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾[1] فقالا: هذا فعل العرافين والكهنة فمن أين لك هذا العلم فقال ما أنا بكاهن وإنما ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها، يعني علّمني ربي بالوحي القطعي المنزل من السماء، وقيل: معنى الآية لا يأتيكما طعام يعني من منازلكما إلا نبأتكما بتأويل ما قصصتما عليّ من الرؤيا ذلكما أي التأويل مما علمني ربي بالإلهام والوحي، وليس من قبيل التكهن والتنجم قال البيضاوي أراد يوسف عليه السلام أن يدعوهما إلى التوحيد ويرشدهما الطريق القويم قبل أن يجيب ما سألا عنه، كما هو طريقه الأنبياء والنازلين منازلهم من العلماء في الهداية والإرشاد، فقدّم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ تعليل لما قبله أي علّمني ذلك لأني تركتُ ملة المبطلين وتكرار كلمة هم للدلالة على اختصاصهم وتأكيد كفرهم بالآخرة ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وجاز أن يكون قوله ﴿إِنِّى تَرَكْتُ﴾ إلى آخره كلاماً مبتدأ، لتمهيد الدعوة وإظهار أنه من بيت النبوة ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق عليه، ومن ههنا يظهر أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم فأراد أن ينشر علمه جاز له أن يصف نفسه حتى يعرف الناس قدره فيقتبسون منه، وليس هذا من باب تزكية النفس إنما الأعمال بالنيات والأنبياء كانوا مأمورين بذلك، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[1] فويل للذين يطعنون على أولياء الله تعالى مثل المجدد للألف الثاني حيث ذكروا ترقياتهم ومدارج قربهم من الله تعالى وما أفضل الله تعالى عليهم حسداً وجهلاً ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ معشر الأنبياء أي ما صح ولا أمكن لنا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي شيء كان فإن الله تعالى قد خلقنا على جبلة التوحيد وعصمنا من الشرك ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوحيد والعلم ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ بالوحي ﴿وَعَلَى﴾ سائر ﴿ٱلنَّاسِ﴾ بعثتنا لإرشادهم وتثبيتهم عليه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المبعوث إليهم ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ على هذه النعمة ويعرضون عنه ولا ينتبهون، أو من فضل الله علينا وعليهم بنصب الدلائل وإنزال الآيات ولكن أكثرهم لا ينظرون إليها ولا يستدلون بها فيلغونها كمن يكفر النعمة ولا يشكرها.

ثم دعاهم إلى الإسلام فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ أي ساكني السجن أو صاحبيّ فيه فإضافتهما إليه مجاز مثل يا سارق الليلة ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ شتى متعددة متساوية الإقدام في الإمكان والعجز سواء كانت أصناماً من ذهب أو فضة أو حديد أو حجر، أو غيرها من الملائكة والبشر ﴿خَيْرٌ﴾ من الله ﴿أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ المتوحد في جلال ذاته وكمال صفاته لا يماثله شيء في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يعادله ولا يقاومه غيره خير من غيره ثم بيّن بطلان الأصنام وغيرها فقال ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي من دون الله خاطب الاثنين بلفظ الجمع لأنه أراد كل من كان مثلهما في الشرك ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ أي مسميات خالية عن معنى الألوهية ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ آلهةً وأرباباً، أو المعنى ما تعبدون شيئاً إلا أسماءً سميتموها لا تحقق لها في الواقع تزعمونها حالة في الأصنام أو مجردة ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي لم يجعل الله سبحانه دليلاً على وجودها، أو حجة وبرهاناً على استحقاقها للعبادة، كما نصب الله تعالى دلائل على

---

(١) سورة الضحى، الآية: ١١.

وجود نفسه وبراهين على استحقاقه للعبادة وآيات أنزل على رسله وأنبيائه ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ في العبادة ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لأنه المستحق لها بالذات من حيث أنه الواجب لذاته الموجد لغيره المنعم على الإطلاق المالك القاهر الضار النافع فلو جاز عبادة غيره لجاز بأمره وقد ﴿أَمَرَ﴾ على لسان أنبيائه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ شيئاً ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ حيث دلت عليه الحجج والبينات ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي الثابت الذي دلت عليه البراهين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يميّزون الحق من الباطل فيخبطون في جهالتهم، قال البيضاوي هذا من التدرج في الدعوة وإلزام الحجة، بيَّن لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطاب، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها لا تستحق العبادة فإن استحقاق العبادة أما بالذات وإما بالغير وكلا القسمين منتفٍ عنها، ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيره ولا يرتضى العلم دونه، ثم فسر رؤياهما بقوله ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو صاحب الشراب ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾ يعني الملك ﴿خَمْرًا﴾ والعناقيد الثلاثة ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يدعوه الملك بعد ثلاثة أيام ويرده إلى منزلته التي كان عليها ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ يعني الخباز ﴿فَيُصْلَبُ﴾ بعد ثلاثة أيام والسلال الثلاث ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يخرجه فيصلبه ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ قلت ولعل ذلك لأجل ما رأى وجرب أن الخبّاز جعل الطعام مسموماً دون الساقي كما مر في القصة، قال ابن مسعود لما سمعا قول يوسف ج قالا ما رأينا شيئاً إنما كنا نلعب، فقال يوسف ج ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ يعني جرى قضاء الله سبحانه في الأمر الذي تستفتيان فيه، يعني في ما يؤل إليه أمركما كما قلت وأخبرتكما به رأيتما أولم تريا، وحدّ الضمير لأنهما وإن استفتيا في أمرين لكنهما أرادا ظهور عاقبة ما ينزل بهما.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف عند ذلك ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ المراد بالظن اليقين إن كان الضمير راجعاً إلى يوسف عليه السلام، لكونه على اليقين يدل عليه قوله ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ وجاز أن يكون الضمير راجعاً إلى الموصول وهو الساقي ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني عند الملك وقل له إن في السجن غلاماً محبوساً ظلماً وصفه كذا كي يخلصني ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي أنسى الشيطانُ الساقي أن يذكر حال يوسف لربه أي للملك، أضاف إليه المصدر للملابسة له، أو على تقدير ذكر إخبار ربه، وقال ابن عباس وأكثر المفسرين معنى الآية أنسى الشيطانُ يوسفَ ذكر ربه، حتى ابتغى الفرَج من غيره واستعان بمخلوق، وتلك غفلة عرضت ليوسف من الشيطان، قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل أُذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ مَا لبث في السجن طول ما

لبث» رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ﴿فَلَبِثَ﴾ مكث يوسف ﴿فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ قال قتادة هو ما بين الثلاث إلى التسع من البضع وهو القطع، وقال مجاهد ما بين الثلاث إلى السبع، وأكثر المفسرين على أنه لبث في السجن سبع سنين، قال وهب أصاب أيوب البلاء سبع سنين وتُرِك يوسف في السجن سبع سنين، قال الكلبي لبث خمس سنين قبل ذلك وسبعاً بعد قوله ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [1] فكل ذلك اثنتا عشرة سنة، قلتُ: قوله تعالى ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2] تدل على معية دخولهما دخوله لما ذكرنا، وإذا كان لبث» الفتيين في السجن ثلاثة أيام فلا يتصور لبث يوسف خمس سنة قبل ذلك القول والله أعلم.

قال مالك بن دينار لما قال يوسف للساقي أذكُرْني عِنْدَ رَبِّكَ، قيل له يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً لأطيلن حبسك، فبكى يوسف وقال: يا رب أنسى قلبي كثرة البلوى فقلتُ كلمةً ولا أعود. وقال الحسن دخل جبرئيل على يوسف في السجن فلما رآه يوسف عرفه فقال له يا أخا المنذرين مالي أراك بين الخاطئين؟ فقال له جبرئيل يا طاهر بن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك أما استحييت مني أن استشفعت بالآدميين فوعزتي لألبُثَنَّكَ في السجن بضع سنين، قال يوسف وهو في ذلك عني راض قال: نعم قال إذاً لا أبالي. وقال كعب قال جبرئيل ليوسف إن الله يقول مَن خلقك؟ قال: الله، قال: فمن حببك إلى أبيك؟ قال: الله، قال: فمن أنجاك من كرب البئر؟ قال: الله، قال: فمن علمك تأويل الرؤيا؟ قال: الله، قال فمن صرف عنك السوء والفحشاء؟ قال: الله، قال: فكيف استشفعتَ بآدمي مثلك؟ انتهىٰ، وسيأتي في حديث ابن عباس عند الطبراني قوله ﷺ: «ولولا كلمة ـ يعني من يوسف ـ لما لبث في السجن حيث يبتغي الفرج من عند غير الله عز وجل.

فلما انقضت سبع سنين ودنا فرج يوسف رأى ملك مصر الأكبر وهو ريان بن وليد عجيبة هالته وذلك أنه رأى سبع بقرات خرجن من البحر ثم خرج عقبهن سبع بقرات عجاف في غاية الهزال فابتعلت العِجافُ السِّمان، فدخلن في بطونهن ولم ير منهن شيئاً ولم يتبين على العجاف منها شيء، ثم رأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعاً أخر يابسات قد استحصدت فالتوَتْ اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ولم يبق من

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٦.

خضرتها شيء، فجمع السحرة والكهنة والحازة والمعبرين وقصّ عليهم رؤياه كما قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ استغنى عن بيان حالها بما ذكر من حال البقرات وأجرى السمان على التميز دون المميز لأن التميز بها، ووصف السبع الثاني بالعجاف لتعذر التميز بها مجرداً عن الموصوف فإنه لبيان الجنس وقياسه عجف لأنه جمع عجفاء لكنه حمل على سمان لأنه نقيض ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا وهي الانتقال من الصور المثالية إلى المعاني النفسانية التي هي صورها في عالم المثال، من العبور وهو المجاوزة، وعبرت الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها تعبيراً، واللام للبيان أو لتقوية العامل فإن الفعل لما أخر عن مفعوله ضعف عمله، فقوي باللام كاس الفاعل أو لتضمين تعبرون معنى فعل تعدى باللام كأنه قيل إن كنتم تبذلون لعبارة الرؤيا، أو يكون للرؤيا خبر كنتم كقولك فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكناً منه وتعبرون خبر آخر أو حال، ومفعول تعبرون محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي هذه أضغاث أحلام، وهي تخاليطها جمع ضغث وهو في الأصل الحزمة من أنواع حشيش فاستعير للرؤيا الكاذبة، وإنما جمعوا للمبالغة في وصف الحلم بالبطلان كقولهم فلان يركب الخيل، أو لتضمنه أشياء مختلفة، والحلم الرؤيا والفعل منه بفتح العين في الماضي وضمها في الغابر من باب نَصَرَ ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أراد بالأحلام المنامات الباطلة خاصة أي ليس

لها تأويل عندنا وإنما التأويل للمنامات الصادقة كأنه مقدمة ثانية للعذر في جهلهم بتأويله.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾ من السجن والقتل ﴿مِنْهُمَا﴾ من صاحبي السجن وهو الساقي ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ أصله ادتكر أبدلت التاء دالاً ثم أدغمت، يعني تذكر الساقي يوسف وقوله أُذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد جماعة من الزمان أي مدة طويلة وهي سبع سنين والجملة معترضة ومفعول القول ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ قال البغوي إن الساقي جثى بين يدي الملك وقال: إن في السجن رجلاً يعبر الرؤيا ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ إليه في السجن فأرسله الملك إلى يوسف فأتى السجن قال ابن عباس ولم يكن السجن في المدينة فلما أتى الساقي عند يوسف قال ﴿يُوسُفُ﴾ أي يا يوسف ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي المبالغ في الصدق وصفه به لما جرّب وعرف صدقه في تأويله رؤياه ورؤيا صاحبه ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي في ذلك الرؤيا فإن الملك رأى هذه الرؤيا وأرسلني إليك ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي أعود إلى الملك ومن عنده بتأويل رؤيا الملك، وإنما أورد كلمة لعل ولم يبت الكلام فيها لأن الناس لما عجزوا عن تأويل الرؤيا (وكان الملك هائلاً من تلك الرؤيا) استعظم شأن تأويله عنده ولم يقطع بحصول مقصوده ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فضلك ومنزلتك في العلم، أورد كلمة لَعَلَّ لأن الناس قد لا يتنبّهون بفضل أهل الفضل لكمال غفلتهم، كما لم يتنبه العزيز بفضل يوسف بعد ما رأى من الآيات.

﴿قَالَ﴾ له يوسف أما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخاصيب والبقرات العجاف والسنبلات اليابسات فالسنون المجدبة ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ والدأب العادة ونصبه على الحال بمعنى دائبين أي على عادتكم، أو على المصدرية بإضمار فعله أي تدأبون دأباً، وتكون الجملة حالاً وقيل: معناه بجد واجتهاد، قرأ حفص دأباً بفتح الهمزة والباقون بإسكانها وهما لغتان، وقيل: تزرعون أمرٌ أخرجَه في صورة الخبر مبالغة في النصح لقوله تعالى ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ لئلا تأكله السوس وهذه الجملة على الأول نصيحة خارجة عن العبارة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في تلك السنين ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ سمى السنين المجدبة شداداً لشدتها على الناس ﴿يَأْكُلْنَ﴾ أي يأكل أهلهن أسند الأكل إليهن على المجاز تطبيقاً للتعبير بالرؤيا ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي ما إدخرتم لأجلهن ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي تحرزون لبذور الزراعة ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ أي يمطرون من الغيث وهو المطر، أو يغاثون من القحط من الغوث ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالتاء الفوقانية على الخطاب لأن الكلام كله على الخطاب والباقون بالياء

التحتانية على أن الضمير راجع إلى الناس، ومعناه يعصرون العنب والزيتون والسمسم ونحو ذلك أراد به خصب السنة وكثرة نعيمها، قال أبو عبيدة ﴿يَعۡصِرُونَ﴾ أي تنجون من الكرب والجدب، والعصر المنجا والملجا، وهذه بشارة بشَّرهم بها بعد أن أوَّلَ البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنسن مخصبة والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، وابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع في السنين المخصبة وإنما علم ذلك بعدد السبع العجاف، فإنه لولا يأتي بعد ذلك سنة مخصبة لزاد عدد السنين المجدبة على السبع، وقال البيضاوي لعله علم ذلك بالوحي، أو بأن السُّنَّة الإلهية على أن يوسع على عباده بعدما يضيق عليهم والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾ لما رجع إليه الساقي بتأويل رؤياه وأخبره بما أفتاه يوسف، وعلم الملك فضل يوسف وأن الذي قاله كائن ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ﴾ يعني يوسف ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ للملك وقال له أجب الملك أبي يوسف أن يخرج معه حتى يظهر براءته من تهمة الفسق و﴿قَالَ﴾ للرسول ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعني إلى الملك ﴿فَسۡـَٔلۡهُ﴾ أن يسأل ﴿مَا بَالُ﴾ يعني أيُّ حال ﴿ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ فيه دليل على أنه ينبغي أن يجتهد الرجل في نفي التهمة عن نفسه، لا سيما من كان ممن يقتدي به، ولم يصرح مذكر امرأة العزيز أدباً واحتراماً لها، أخرج إسحاق بن راهويه في مسنده والطبراني في معجمه وابن مردويه من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ «عجبتُ لصبر أخي يوسف وكرمه والله يغفر له حيث أرسل إليه ليستفتي في الرؤيا، ولو كنتُ أنا لم أفعل حتى أخرج وعجبتُ لصبره وكرمه والله يغفر

هل أتى ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره، ولو كنتُ أنا لبادرتُ الباب، ولولا الكلمة لما لبث في السجن حيث يبتغي الفرج من عند غير الله عز وجل» ورواه عبد الرزاق وابن جرير في تفسيرهما من حديث عكرمة مرسلاً أن رسول الله ﷺ قال: «لقد عجبتُ من يوسف وكرمه وصبره الله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنتُ مكانه ما أخبرتهم حتى اشترطتُ أن يخرجونيّ، ولقد عجبتُ منه حين أتاه الرسول فقال ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ولو كنتُ مكانه ولبثتُ في السجن ما لبث لأسرعتُ الإجابة وبادرتُهم الباب، ولما ابتغيتُ العذر، وإن كان لحليماً ذا إنارة» وأصل الحديث في الصحيحين مختصراً[1]. **فائدة**: تعجبه ﷺ من حال يوسف وقوله ﷺ: لأسرعتُ الإجابة، مبني على كمال نزول ﷺ الذي هو مدار شيوع دينه وقوة تأثيره في الناس وتكميله، وقد حقق ذلك المجدد للألف الثاني في مكاتيبه، وهذا أمر لا يدركه فهم أكثر أهل الكمال فضلاً عن غيرهم ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ حين قلن لي أطع مولاتك أو أردن مراودتي عن نفسي لأنفسهن، فيه تعظيم لكيدهن واستشهاد بعلم الله تعالى عليه، وعلى أنه بريء مما اتهمنه ووعيد لهن في كيدهن، فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته فدعا الملك النسوة وامرأة العزيز ﴿قَالَ﴾ لهن ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ ما شأنكن والخطب أمر يحق أن يخاطب به صاحبه، إما خاطبهن جميعاً لأنهن راودنه جميعاً عن نفسه لهن، أو لأنهن قلن أطع مولاتك، وإما خاطبهن والمراد امرأة العزيز فحسب ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ هل وجدتن منه ميلاً إلى إحداكن ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ واختلاف القراء فيه فيما سبق، أي تنزيه له تعالى وتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي على يوسف ﴿مِن سُوٓءٍ﴾ من ذنب وخيانة، قيل: إن النسوة أقبلن على امرأة العزيز فعزرنها، وقيل: خافت امرأة العزيز أن يشهدن عليها فأقرت على نفسها ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ظهر وتبين من حصحص شعره إذا استأصله بحيث يظهر بشرة رأسه، أو ثبت واستقر من حصحص البعير إذا ألقى مباركة لينـاخ ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾[2] فلما سمع يوسف ذلك قال ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي فعلتُ من رد الرسول إلى الملك كان ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي بظهر الغيب وهو حال من الفاعل أو المفعول، أي لم أخنه وأنا غائب عنه أو هو غائب عني، أو ظرف أي بمكان الغيب وراء الأستار

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: رؤيا أهل السجون والفساد والشرك (٦٩٩٢).
وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة (١٥١).

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٦.

والأبواب المغلقة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ أي لا ينفذه ولا يسدده بل يظهر الحق ولو بعد حين، أو لا يهدي الخائنين بكيدهن، فأوقع الفعل على الكيد مبالغة، وفي هذا القول تعريض بزليخا في خيانتها زوجها وتأكيد لأمانته، ولذلك عقبه بقوله.

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ فتح الياء نافع وأبو عمرو وأسكنها الباقون، تنبيهاً على أنه لم يرد بذلك تزكية النفس والعجب بحاله، بل إظهار ما أنعم الله عليه من العصمة والتوفيق وترغيب الناس إلى الاقتداء به والاقتفاء بآثاره، أخرج ابن مردويه من حديث أنس مرفوعاً «أنه لما قال يوسف ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال له جبرئيل ولا حين هَمَمْتَ، فقال ذلك» وذكره البيضاوي عن ابن عباس موقوفاً ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ يعني أن النفس الحيواني المنبعث من العناصر الأربعة، التي هي مركب للقلب والروح وغيرهما من لطائف عالم الأمر، التي مقرها فوق العرش ﴿لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ من حيث أنها بالطبع مائلة إلى الشهوات والرذائل التي هي من خصائص العناصر الأربعة، كالغضب والكبر اللذين هما مقتضى عنصر النار، والدناءة والخسة مقتضى الأرض، والتلون وقلة الصبر مقتضى الماء، والهزل واللهو مقتضى الهواء ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ فتح الياء نافع وأبو عمرو وأسكنها الباقون، يعني إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّىٓ فما بمعنى مَنْ كما في قوله تعالى ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[1] فعصمه فلا يطيع نفسه ويجاهدها ولأجل ذلك المجاهدة يدرك أفضلية على الملائكة، أو المعنى إلا وقت رحمة ربي، وما مصدرية يعني إذا أدرك الإنسان رحمة الرحمن بالاجتباء أو بالإنابة إلى الأنبياء، فحينئذ يتزكى نفسه بتزكية من الله تعالى قال الله تعالى: لا تزكوا أنفسكم بل الله يزكي من يشاء[2] وتطمئن بمرضاة الله ويخاطب بقوله تعالى: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾﴾[3] الصالحين، وحينئذ يبدل الله سيئاتها حسنات ويجعلها إماماً لسائر اللطائف في الخيرات وتستعد لتجليات الصفات ما لا يستعد لها لطائف عالم الأمر، وقيل: الاستثناء منقطع أي لكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة ويبدلها بالإصابة، وقيل: الآيتان حكاية عن قول زليخا والمستثنى نفس يوسف وأمثاله، والمعنى أن ذلك الذي قلتُ من براءة يوسف ليعلم يوسف أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ أي لم أكذب عليه في حال الغيبة، وجئت بالصدق فيما سُئِلْتُ عنه ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ من الخيانة فإني قد خنته حين قذفته وقلتُ ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾[4] وأودعته السجن، تريد

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣.

(٢) الآية هي ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ سورة النساء، الآية: ٤٩.

(٣) سورة الفجر، الآية: ٢٨ ـ ٢٩.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٢٥.

الاعتذار مما كان منها بأن كل نفس ﴿لَأَمَّارَةٌۢ بِالسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ﴾ كنفس يوسف وأمثاله بالعصمة، قرأ قالون والبزي بالسُّوِّ على قلب الهمزة واواً ثم الإدغام في حال الوصل وتحقيق همزة إلاَّ، وورش وقنبل على أصلها في الهمزتين المكسورتين وأبو عمرو أيضاً على أصله، والباقون على أصولهم ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر هَمَّ النفس وخطراتها ويرحم من يشاء بالعصمة، أو يغفر المستغفر لذنبه المعترف على نفسه ويرحمه ما استغفره واسترحمه.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ لما تبين له عذر يوسف وعرف منزلته من الأمانة والعلم ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أي أجعلُه خالصاً لنفسي، فجاء الرسول يوسف فقال له: أجب الملِك الآن، أخرج عبد الحكم في فتوح مصر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس فأتاه الرسول فقال له ألق عنك ثياب السجن والبس ثياباً جدداً وقم إلى الملِك، وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن فريد العمى قال لما رأى يوسف عزيز مصر قال اللهم إني أسئلك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك من شره، قال البغوي روي أنه قام ودعا لأهل السجن وقال اعطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار، فهم أعلم الناس بالأخبار في كل بلد. فلما أخرج من السجن كتب على باب السجن هذا قبور الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء، وتنظّف من درن السجن ولبس ثياباً حساناً وقصد الملِك، قال وهب فلما وقف بباب الملِك قال: حسبي ربي من دنياي وحسبي ربي من خلقه عز جاره وجل ثناؤه ولا إله غيره، ثم دخل الدار فلما دخل على الملِك قال اللهم أسئلك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره، فلما نظر إليه الملِك سلم عليه يوسف بالعربية فقال الملِك ما هذا اللسان؟ قال لسان عمي إسماعيل ﷺ، ثم دعا له بالعبرانية فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي ولم يعرف الملِك هذين اللسانين قال وهب وكان الملِك يتكلم بسبعين لساناً، فكُلَّمَا كلم بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان وزاد لسان العبرانية والعربية، فأعجب الملِك ما رأى منه مع حداثة سنه وكان يوسف حينئذ ابن ثلاثين سنة فأجلسه ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ أي ذو مكانة في الجاه والمنزلة (أمين) مؤتمن على كل شيء، قال البغوي روي أن الملك قال له إني أحب أن أسمع رؤياي منك شفاهاً، فقال يوسف نعم أيها الملك، رأيتَ سبع بقرات شَهَبٍ غر حسان كشف لك عنهن النيل، فطلعن عليك من شاطئته تشخب أخلافهن لبناً، فخرج من حماته سبع بقرات عجاف شعث غير مقلّصات البطون ليس لهن ضروع ولا أخلاف، ولهن أنياب وأضراس وأكف كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع،

فافترسن السمان افتراس السباع فأكلن لحومهن ومزقن جلودهن وحطمن عظامهن وتمششن مخهن، فبينا أنت تنظر وتتعجب إذا سبع سنابل خضر وسبع أُخَرُ سود في منبت واحد وعروقهن في الثرى والماء، فبينا أنت تقول في نفسك أنىّ هذا هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد وأصولهن في الماء، إذْ هبَّت ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات، فاشتعلت فيهن النار فأحرقتهن فصرن سوداً، فهذا ما رأيتَ فانتبهتَ من نومك مذعوراً، فقال الملِك والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجيباً أيا عجب مما سمعتُ منك، فما ترى في رؤياي أيها الصديق؟ فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة، وتجعل الطعام في الخزائن بقصبه وسنبله، ليكون القصب والسنبل علفاً للدواب، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس، فيكفيك من الطعام الذي جعلته لأهل مصر ومن حولها، ويأتيك الخلق من النواحي للميزة، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك، فقال الملِك ومن لي بهذا ومن يجمعه ويبيعه ويكفيني الشغل فيه؟

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ الْأَرْضِ﴾ أي خزائن طعام أرض مصر وأموالها ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ للخزائن بما يستحقها ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه مصالحها، وصف يوسف عليه السلام نفسه بالأمانة والكفاية وطلب الولاية، ليتوصل بها إلى إمضاء أحكام الله وإقامة الحق وبسط العدل مما يبعث لأجله الأنبياء إلى العباد، لعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فما كان طلبه الولآية إلا لابتغاء وجه الله لا لحب الجاه والدنيا، ومن هذاالقبيل اشتغال الخلفاء الراشدين بأمر الخلافة، ومعارضة عليّ معاوية في هذا الأمر، لكونه أحق وأقوى وأقدر على نفسه وأقوم على إنفاذ الشرائع، وقال البيضاوي لعل يوسف ج لمّا رأي أن يستعمله الملِك في أمر لا محالة آثر ما يعم فوائده ويجل عوائده، وفيه دليل على جواز طلب الولآية والقضاء، وإظهار أنه مستعد لها إن كان آمناً على نفسه، وعلى جواز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر أو كافر، إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بتمكين ذلك الكافر أو الجائر، وقد كان السلف من هذه الأمة يتولون القضاء من جهة الظلمة، وقيل: كان الملك يصدر عن راية ولا يعترض في كل ما رأي فكان في حكم التابع له، روى البغوي بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ الْأَرْضِ لاستعمله من ساعته، ولكنه أخر ذلك السنة فأقام في بيته سنة مع الملك» وبإسناده عن ابن عباس قال: لما انصرمت السنة من يوم سأل الإمارة، دعاه الملِك فتوَّجه وردّاه بسيفه، ووضع له السرير من ذهب مكلّلاً بالدر

والياقوت، وضرب عليه كلةً من استبرق، وطول السرير ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشاً وستون مقرمة، ثم أمره أن يخرج فخرج متوَّجاً لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه في صفاء لون وجهه، فانطلق حتى جلس على ودانت له الملوك، ودخل الملِك بيته وفوض إليه أمر مصر، وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه قاله ابن إسحاق، وقال ابن زيد وكان لملِك مصر ريان خزائن كثيرة فسلم سلطانه كله إليه، وجعل أمره وقضاءه نافذاً، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن إسحاق قال: ذكروا أن قطفير هلك في تلك الليالي، فزوج الملك يوسف زليخا امرأة قطفير، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما كنتِ تريدين؟ فقالت: أيها الصديق لا تلمني فإني كنتُ امرأة كما ترى حسناً وجمالاً، ناعمة كما ترى في ملك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنتَ كما جعلك الله في حسنك وهيئتك، فغلبتني نفسي على ما رأيتُ، فزعموا أنه وجدها يوسف عذراء، فأصابها فولدت له رجلين أفرائيم وميثا.

واستوثق ليوسف ملك مصر وأقام فيهم وأحبه الرجال والنساء فذلك قوله عز وجل ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التمكين في مجلس الملِك ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ أي ينزل من بلادها ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ قرأ ابن كثير بالنون على التكلم والباقون بالياء على الغيبة ردًّا إلى يوسف ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ أي بنعمتنا ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بل نوفي أجورهم عاجلاً وآجلاً، قال ابن عباس عليه السلام ووهب: يعني الصابرين، قال مجاهد وغيره فلم يزل يدعو الملِكَ إلى الإسلام ويتلطف له حتى أسلم الملِكُ وكثير من الناس فهذا في الدنيا ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي ثوابها ﴿خَيْرٌ﴾ من نعماء الدنيا ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

ولما اطمأن يوسف في ملكه دبّر في جمع الطعام وأحسن التدبير، وبنى الحصون والبيوت الكثيرة وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة، وأنفق بالمعروف حتى خلت السنون المخصبة ودخلت السنون المجدبة بهول لم يعهد مثله، وروي أنه كان قد دبر في طعام الملِك وحاشيته كل يوم مرة واحدة نصف النهار، فلما دخلت سنة القحط كان أول من أخذه الجوع هو الملِك في نصف الليل، فنادى يا يوسف الجوع الجوع، قال يوسف هذا أوان القحط، ففي السنة الأولى من سني الجدب هلك كل شيء أعدوه في السنين المخصبة، فجعل أهل مصر يبتاعون من يوسف الطعام، فباعهم أول سنة بالنقود حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه، وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق في أيد الناس منها شيء، وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب حتى احتوى

عليها أجمع، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق بيد أحد عبد ولا أمة، وباعهم في السنة الخامسة بالضياع والعقار والدور حتى احتوى عليها، وباعهم في السنة السادسة بأولادهم حتى استرقهم، وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة إلا صار عبداً له، قلت: إن صح هذه الرواية لدلت على أن بيع الرجل نفسه وأولاده كان جائزاً في شريعة يوسف عليه السلام، كما كان استرقاق السارق جائزاً وقد أفتى بعض العلماء في القحط ببيع الحر نفسه وولده، ولا أصل لهذا القول في شريعتنا والله أعلم. فقال الناس ما رأينا كاليوم مِلكاً أجل وأعظم من هذا، ثم قال يوسف للملِك كيف رأيت صنع ربي فيما خولني فما ترى؟ قال الملِك الرأي رأيك ونحن لك تبع، قال: فإني أشهد الله وأشهدك أني قد أعتقتُ أهل مصر عن آخرهم، ورددتُ عليهم أملاكهم وروي أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من الطعام في تلك الأيام، فقيل له تجوع وبيدك خزائن الأرض؟ قال: أخاف إن شبعتُ أن أنسى الجائع، وأمر يوسف طباخي الملك أن يجعلوا غداه نصف النهار، وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع ولا ينسى الجائعين، فمن ثم جعل الملوك غداهم نصف النهار، قال وقصد الناس مصر من كل أوب يمتارون، فجعل يوسف لا يمكّن أحداً منهم وإن كان عظيماً أكثر من حمل بعير، تقسيطاً بين الناس وتزاحم الناس عليه، وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب سائر البلاد من القحط والشدة، ونزل بيعقوب عليه السلام ما نزل بالناس، وكان منزله بالغرمات من أرض فلسطين ثغور الشام وكانوا أهل بادية وإبل وشياه فأرسل بنيه إلى مصر للميرة وقال بلغني أن بمصر مِلكاً صالحاً يبيع الطعام فتجهزوا واذهبوا لتشتروا منه الطعام وأمسك عنده بنيامين أخا يوسف شقيقه.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ العشرة ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ أي على يوسف عليه السلام ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف قال ابن عباس ومجاهد عرفهم بأول ما نظر إليهم، وقال الحسن لم يعرفهم حتى تعرفوا إليه ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي لم يعرفوه، قال ابن عباس وكان بين أن قذفوه في البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة فلذلك أنكروه، وقال عطاء إنما لم يعرفوه لأنه كان على سرير الملِك وعلى رأسه تاج الملِك، وقيل: لأنه كان بزّي الملوك عليه ثياب حرير وفي عنقه طوق ذهب، قلت: وهذا إنما يتصور لو كان لبس الحرير والذهب جائزاً في دين يوسف عليه السلام فلما نظر إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية قال أخبروني من أنتم وما أمركم؟ فإني أنكرتُ شأنكم، قالوا: قوم من أرض الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار الطعام، فقال: لعلكم جئتم تنظرون عورة بلادي، قالوا: لا والله ما نحن بجواسيس، إنما نحن

إخوة بنوا أب واحد وهو شيخ صديق يقال له نبي من أنبياء الله عز وجل، قال: وكم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر فذهب أخ لنا، هو أصغرنا إلى البرية فهلك فيها، وكان أحبنا إلى أبينا، قال: فكم أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة، قال: فأين الآخر؟ قالوا: عند أبينا لأنه أخ الذي هلك من أمه فأبونا يتسلّى به، قال: فمن يعلم أن الذي يقولون حق وصدق؟ قالوا: أيها الملك إننا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد، فحمل يوسف لكل رجل منهم بعيراً بعدتهم وجهز بجهازهم، أي أصلحهم بعدتهم والجهاز ما يعد من الأمتعة للنقلة ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ إن كنتم صادقين فأنا أرضى بذلك وأزيدكم حمل بعير لأجل أخيكم وأكرّم منزلتكم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ أي أتمّه ولا أبخس الناس شيئاً ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ قال مجاهد أي خير المضيفين وكان قد أحسن ضيافتهم ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ أي ليس لكم عندي طعام أكيله لكم ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي لا تقربوني ولا تدخلوا دياري، وهو إما نهى وإما نفى معطوف على الجزاء ﴿قَالُوا۟﴾ إن أبانا يحزن على فراقه ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي سنجهد في طلبه من أبيه ونخادعه عنه ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ما أمرتَنا به قال فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني بأخيكم فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأياً في يوسف فخلوه عنده ﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ كذا قرأ حفص وحمزة والكسائي بالألف والنون على جمع الكثرة والباقون فِتْيَتِهِ بالتاء من غير ألف على وزن جمع القلة وهما لغتان مثل الصبيان والصبية، أي قال لغلمانه الكيّالين ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ يعني ثمن طعامهم وكانت دراهم، وقال الضحاك عن ابن عباس كانت النعال والأدم وقيل: كانت ثمانية جرب من سويق المُقل، قال البغوي والأول أصح ﴿فِى رِحَالِهِمْ﴾ أي في أوعيتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ أي يعرفون حق ردها وحق التكرم برد البدلين ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى مصر قيل: رد بضاعتهم كرامة وتقدماً في البر والإحسان ليكون أدعى لهم إلى العود أي لعلهم يعرفونها أي كرامتهم علينا، وقيل: لما رأى من اللوم في أخذ الثمن من أبيه وإخوته مع حاجتهم إليه رد عليهم من حيث لا يعلمون تكرماً، وقال الكلبي بخوف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى، وقيل: جعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة نفياً للغلط ولا يستحلون إمساكها.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟﴾ قدمنا خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته، فقال لهم يعقوب عليه السلام إذا أتيتم ملِك مصر فاقرؤوا مني السلام، وقولوا: إن أبانا يصلي عليك ويدعو لك بما أوليتنا، ثم قال: أين شمعون؟

قالوا: ارتهنه ملِك مصر وأخبروه بالقصة، فقال لهم ولم أخبرتموه؟ قالوا: إنه أخذنا وقال أنتم جواسيس حيث كلمنا بلسان العبرانية، وقصوا عليه القصة وقالوا ﴿يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ أي حكم بمنعه بعد هذا إن لم نذهب ببنيامين كذا قال الحسن، وقيل: معناه أعطى باسم كل واحد ﴿حِمْلًا﴾ ومنع منا الكيل لبنيامين، والمراد بالكيل الطعام ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامين ﴿نَكْتَلْ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء على الغيبة أي يكتل بنيامين معنا، وقرأ الآخرون بالنون على التكلم أي نكتل نحن وهُوَ الطعام ويذهب المانع، وقيل: معناه نكتل له ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ على أن يناله مكروه ﴿قَالَ﴾ أبوهم ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبْلُ﴾ هذا أي كيف آمنكم عليه وقد قلتم في يوسف ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[1] وفعلتم به ما فعلتم ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ منكم ومن كل أحد ﴿حَـٰفِظًا﴾ فأتوكل عليه وأفوض أمري إليه ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأرجوا أن يرحمني بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين، وانتصاب حِفْظاً على التميز كذا قرأ الأكثرون بلفظ المصدر وقرأ حفص وحمزة والكسائي حَافظاً على وزن الفاعل وهو يحتمل الحال والتميز كقولهم لله دره فارساً.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟﴾ أي أخوة يوسف ﴿مَتَـٰعَهُمْ﴾ الذي حملوه من مصر ﴿وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ﴾ أي ثمن طعامهم ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ﴾ أي هل من مزيد على ذلك أكرمنا وأحسن مثوانا وباع منا ورد علينا متاعنا، أو لا نطلب وراء ذلك إحساناً، أو

(١) سورة يوسف، الآية: ١٢.

أي شيء نطلب بالكلام في إحسانه أو لا نبغي في القول ولا نزيد فيما حكينا لك فإن من الدليل على صدقنا ما ترى في العيان أو ما نطلب منك بضاعة ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ استيناف موضح لقوله ما نبغي ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ معطوف على محذوف أن كانت ما استفهامية، أي ردت إلينا فنستظهر بها ونرجع إلى الملك ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي نشتري لهم الطعام فنحمله إليهم، يقال ما أهله يمير ميرا إذا حمل إليهم الطعام من بلد آخر ومثله امتار يمتار امتياراً، ويحتمل أن يكون هذه الجملة مع ما عطف عليه معطوفة على ما نَبْغِي، إن كانت ما نافية أي لا نطلب فيما نقول وَنَمير أَهْلَنا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ عن المخاوف في الذهاب والمجيء ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي نزيد حمل بعير على أحمالنا يكال لنا من أجله فإنه كان يعطي بعدة كل رجل حمل بعير ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما حملناه ﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ قليل لا يكفينا وأهلنا أو سهل على الملك لسخائه.

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ إذ رأيتُ منكم ما رأيت ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾ قرأ ابن كثير تؤتوني بإثبات الياء وصلاً ووقفاً، وأبو عمرو أثبتها وصلاً فقط والباقون يحذفونها في الحالين، أي تعطوني ﴿مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي عهداً مؤكداً باليمين بالله أو بإشهاد الله على نفسه أتوثق به ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦ﴾ جواب القسم إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦ ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ قال مجاهد يعني إلا أن تهلكوا جميعاً، وقال قتادة إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك، وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦ على كل حال إلا حال إلا حاطة بكم، أو من أعم العلل على قوله ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦ﴾ في تأويل النفي أي لا تُمنون من الإتيان به لشيء إلا للإحاطة بكم، كقوله أقسمتُ بالله إلا فعلتَ أي ما أطلب إلا فعلك ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أي عهدهم قيل: حلفوا بالله رب محمد وجهدوا أشد الجهد حتى لم يجد يعقوب بدأ من إرسال بنيامين معهم ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من طلب المواثيق وإتيانه ﴿وَكِيلٌ﴾ شاهد وقيل حافظ، قال كعب لما قال يعقوب ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ قال الله عز وجل وعزتي لأردن عليك كليهما بعدما توكلت عليَّ ﴿وَقَالَ﴾ يعقوب لما أراد بنوه الخروج من عنده ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ لأنهم كانوا ذوي جمال وأبهة وقوة وامتداد قامة مشتهرين في المصر بالقربة والكرامة عند الملك، فخاف عليهم العين وقد ورد في الحديث العين حق وقد ذكرنا ما ورد في ذلك في سورة نون في تفسير قوله تعالى ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾(١) للآية، ولعله لم يوصهم

(١) سورة القلم، الآية: ٥١.

بذلك في الكرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين حينئذ وكان الداعي إليه خوفه على بنيامين، وعن إبراهيم النخعي أنه قال ذلك لأنه كان يرجو أن يروا يوسف في التفرق والأول أصح ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ مما قضي عليكم فإن المقدر كائن، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ «لا يغني حذر عن قدر»[1] رواه الحاكم ورواه أحمد من حديث معاذ بن جبل ورواه البزار من حديث أبي هريرة ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ يصيبكم لا محالة إن قضى عليكم سوءاً ولا ينفعكم شيء فوّض يعقوب أمره إلى الله تعالى وقال ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾ اعتمدت ﴿وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ جمع بين حر في العطف في عطف الجملة على الجملة، لتقدم الصله للاختصاص، كأنَّ الواو للعطف والفاء لإفادة السببية فإن فعل الأنبياء سبب لأن يقتدي بهم غيرهم.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾ مصر ﴿مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾ أي من أبواب متفرقة قيل: كانت أبواب المدينة أربعة فدخلوا من أبوابها ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي﴾ أي يدفع ﴿عَنۡهُم﴾ رأى يعقوب واتباعهم له ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي من قضائه ﴿مِن شَيۡءٍ﴾ أي شيئاً مما قضى الله عليهم أو شيئاً من الإغناء حتى أخِذَ بنيامين وتضاعفت المصيبة على يعقوب صدَّق الله يعقوب فيما قال ﴿إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ﴾ استثناء منقطع أي ولكن حاجة في نفسه يعني شفقته عليهم من أن يعاينوا ﴿قَضَىٰهَاۚ﴾ أي أظهرها فوصى بها ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ بالوحي أو نصب الحجج ولذلك قال ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ أو لتعليمنا إياه، وقيل: معناه أنه لعامل بما علم، قال سفيان من لا يعمل بما يعلم لا يكون عالماً، قيل: إنه لذو حفظ لما علمناه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ما يعلم يعقوب أو لا يعلمون القدر وأنه لا يغني عن الحذر أو لا يعلمون إلهام الله لأوليائه.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ٧١ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا

---

(١) قال الحاكم: صحيح، وتعقبه الذهبي بأن زكريا بن منصور أحد رجاله مجمع على ضعفه، وفي الميزان ضعفه ابن معين ووهاه أبو زرعة، وقال ابن الجوزي: حديث لا يصح.
انظر فيض القدير (٩٩٧٧).

لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ
جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ
أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ
ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قالوا: أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به فقال: أحسنتم وأصبتم وستجدون جزاء ذلك عندي، ثم أنزلهم فأكرم منزلهم، ثم أضافهم فأجلس كل اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحيداً، فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيًا لأجلسني معه، فقال يوسف لقد بقي أخوكم هذا وحيداً فأجلسه مع نفسه على مائدته فجعل يواكله، فلما كان الليل أمر لهم بِمثْلٍ وقال: لينم كل أخوين منكم على مثال فبقي بنيامين وحده فقال يوسف عليه السلام هذا ينام معي على فراشي، فبات معه فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح، وجعل روبيل يقول: ما رأينا مثل هذا فلما أصبح قال لهم إني أرى هذا الرجل ليس معه ثان فسأضمّه إليّ فيكون منزله معي، ثم أنزلهم منزلاً وأجري عليهم الطعام و﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي ضم إلى نفسه ﴿أَخَاهُ﴾ لأمه بنيامين وأنزله معه، فلما خلا به قال: ما اسمك؟ قال: بنيامين قال: ما بنيامين؟ قال: ابن المُثْكِلِ وذلك أنه لما ولد هلكت أمه قال: وما اسم أمك؟ قال: راحيل بنت لاوي، قال: فهل لك من ولد؟ قال: نعم عشرة، قال: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك، قال بنيامين ومن يجد أخاً مثلك أيها الملِك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، قال: فبكى يوسف وقام إليه وعانقه ﴿وَقَالَ﴾ له ﴿إِنِّيٓ﴾ فتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وأسكنها الباقون ﴿أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي لا تحزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي بشيء فعلوه بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا، ولا تعلّمهم شيئاً مما أعلمتك.

ثم أوفى يوسف لإخوته الكيل وحمل لهم بعيراً بعيراً، ولبنيامين بعيراً باسمه ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ أي المشربة التي كان الملك يشرب منها، يعني أمر غلمانه بجعلها، قال ابن عباس كانت من زبرجد، وقال ابن إسحاق كانت من فضة، وقيل: من ذهب، وقال عكرمة من فضة مرصعة بالجواهر، جعلها يوسف مِكيالاً لعزة الطعام لئلا يكال بغيرها، وكان يشرب فيها والسقاية والصواع واحد، جعلت في وعاء طعام بنيامين قال السدي جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ والأخ لا يشعر، وقال كعب لما قال له يوسف ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ قال أنا لا أفارقك، فقال يوسف قد علمتَ اغتمام والدي بي، وإذا

حبستُك ازداد غمه ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع وأنسبك إلي ما لا يحمد، قال لا أبالي فأفعل ما بدا لك فإني لا أفارقك، قال: فإني أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليك بالسرقة ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك، قال: فافعل ففعل ما ذكر ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي نادى منادٍ، وكلمة ثم تدل على التراخي وذلك أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلاً، وقيل حتى خرجوا من العمارة، ثم بعث خلفهم فأدركهم ثم قال ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ وهي الإبل التي عليها الأحمال لأنها تعير أي تردد تذهب وتجيء، فقيل لأصحاب العير مجازاً كما قال رسول الله ﷺ «يا خيل الله اركبي» كذا روى أبو داود من حديث سمرة بن جندب، وقيل: هي جمع عَيْر وأصلها فعل بضم الفاء كسُقف ثم فعل به ما فعل ببيض، ثم تجوز به لقافلة الحمير، ثم استعير لكل قافلة قال مجاهد كانت العير حميراً، وقال الفرآء كانوا أصحاب إبل ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ قيل: قالوه من غير أمر يوسف، وقيل: قالوه بأمره هفوة منه، وقيل: قالوه على تأويل أنهم سرقوا يوسف من أبيه، والصحيح عندي أنه قال ذلك بأمر الله تعالى والله تعالى ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [1] والحكمة في ذلك ابتلاء يعقوب عليه السلام كما سنذكر فيما بعد.

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ أي أيّ شيء ضاع عنكم والفقد غيبة الشيء عن الحسّ بحيث لا يعرف مكانه ﴿قَالُوا﴾ أي قال رسول الملك ومن معه ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ ولم نتهم عليها غيركم ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام جُعلاً له ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ كفيل أؤميه إلى من رده وفيه دليل على جواز الجُعالة وجواز الكفالة، وكفالة الجُعل قبل تمام العمل ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ قسم فيه معنى التعجب ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لنسرق في أرض مصر ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لِمَا عرفوا في كرتي مجيئهم ما يدل على فرط أمانتهم، كردّ البضاعة التي جُعلت في رحالهم، وكعم أفواه دوابهم لئلا يتناول حروث الناس ﴿قَالُوا﴾ أي المنادي ومن معه ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي السارق أو السرق أو الصواع على حذف المضاف ﴿إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ في ادعاء البراءة ﴿قَالُوا﴾ أي إخوة يوسف ﴿جَزَاؤُهُ﴾ أي جزاء سرقته ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ أي أخذُه واسترقاقه هكذا كان في شريعة يعقوب ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ تقرير للحكم السابق أو خبر مَنْ والفاء لتضمنها معنى الشرط، أو جواب لها على أنها شرطية، والجملة خبر جزاؤه على إقامة الظاهر مقام الضمير كأنه قيل جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ هو ﴿كَذَلِكَ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

﴿نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالسرقة في تلك الشريعة، كان في شرع يعقوب أن يسلم السارق لسرقته المسروق منه فيسترقه فقال الرسول عند ذلك لا بد من تفتيش أمتعتكم فأخذ في تفتيشها، وروي أنه ردهم إلى يوسف فأمر بتفتيش أوعيتهم بين يديه.

﴿فَبَدَأَ﴾ المنادي أو يوسف ﴿بِأَوۡعِيَتِهِمۡ﴾ لإزالة التهمة واحداً واحداً ﴿قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين، قال قتادة وذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر في وعاء إلا استغفر الله تأثُّماً فيما قذفهم، حتي إذا لم يبق إلا رحل بنيامين قال: ما أظن أن هذا أخذه فقالت إخوته والله لا نترك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك ولأنفسنا ﴿ثُمَّ﴾ لما فتح رحل بنيامين ﴿ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾ أي السقاية أو الصواع لأنه يذكر ويؤنث ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ بنيامين، فلما استخرج الصواع من رحله نكس إخوته رءوسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين، وقالوا إيش الذي صنعتَ فضحتَنا وسوَّدتَّ وجوهنا، يا بني راحيل ما يزال لنا منكم بلاء متى أخذت هذا الصواع، قال بنيامين بل بنو راحيل لا يزال لهم منكم بلاء، ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم، قال: وأخِذَ بنيامين رقيقاً وقيل: إن ذلك الرجل أخذه برقبته ورده إلى يوسف كما يُردّ السراق ﴿كَذَٰلِكَ﴾ محله النصب أي مثل ذلك الكيد ﴿كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ بأن علَّمناه إياه وأوحينا به إليه، ومن ههنا يعلم أن قول المنادي ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ وما تبعه كان بأمر يوسف، وكان بإيحاء الله إليه، فلا معصية في ذلك، قال البغوي الكيد ههنا جزاء الكيد، يعني كما فعلوا في الابتداء بيوسف من الكيد فعلنا بهم، وقد قال يعقوب ليوسف عليه السلام ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾[1] فكدنا ليوسف في أمرهم، وقال: الكيد من الخلق الحيلة ومن الله التدبير بالحق، يعني صنعنا ذلك ليوسف حتي أخذ أخاه وضم إلى نفسه وحال بينه وبين إخوته ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ﴾ ويضمه إلى نفسه ﴿فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ قال ابن عباس في سلطانه وقال قتادة في حكمه حيث كان حكم الملِك ودينه أن يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملِك فالاستثناء من أعم الأحوال، ويجوز أن تكون منقطعاً أي لكن أخذ بمشية الله وأذنه ولطفه حيث وجد السبيل إلى ذلك بإن رد يوسفُ الحكم إلى إخوته وأجرى الله على ألسنتهم أن جزاء السارق الاسترقاق فحصل مراد يوسف بمشية الله تعالى ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٍ﴾ قرأ الكوفيون بالتنوين على التميز من النسبة والباقون بالإضافة ﴿مَّن نَّشَآءُۗ﴾ بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته،

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥.

قرأ يعقوب يرفع ويشاء بالياء فيهما على الغيبة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ﴾ من الخلق ﴿عَلِيمٌ﴾ وهو الله تعالى إذ معنى العليم لغة الذي له العلم البالغ، أو المعنى وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ من الخلق عليم منهم وإن كان التفوّق من وجه دون وجه «كما قال خضر لموسى عليه السلام يا موسى إني على علم من علم الله علّمنيهِ الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله لا أعلمه»(١) رواه البخاري وغيره في حديث طويل في قصة موسى وخضر عن النبي ﷺ، وقال رسول الله ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»(٢) ولا يجوز كون معنى الآية وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ من الخلق عليم منهم تفوقاً من كل وجه وإلا يلزم التسلسل، وقال ابن عباس فوق كل عالمٍ عالِمٌ إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى فوق كل عالِم.

﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿قَالُوٓا۟﴾ أي إخوة يوسف ﴿إِن يَسْرِقْ﴾ بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ﴾ من أمه يعني يوسف عليه السلام ﴿مِن قَبْلُ﴾ هذا، قال سعيد بن جبير وقتادة كان لجده أبي أمه صنم يعبده، فأخذه سرًّا وكسره وألقاه في الطريق لئلا يعبده، كذا أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ، وأخرج أيضاً ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير نحوه، وقال البغوي قال مجاهد إن يوسف جاءه سائل يوماً فأخذ بيضة من البيت

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم فيطل العلم إلى الله (١٢٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي (٢٣٦٣).

فناولها السائل، وقال سفيان بن عيينة أخذ دجاجة من الطير التي كانت في بيت يعقوب فأعطاها السائل، وقال وهب كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء، قلت ولما كان يوسف من أهل بيت الكرم وكان يعقوب عليه السلام راضياً بإعطاء السائلين فلا بأس في هذا الأخذ والإعطاء وإنما سماه الإخوة سرقة حسداً عليه وأخرج محمد بن إسحاق عن مجاهد أن يوسف كان عند عمته ابنة إسحاق بعد موت أمه راحيل، فحضنته عمته وأحبته حبًّا شديداً، فلما ترعرع وقعت محبة يعقوب عليه السلام، فأتاها وقال: يا أختاه سلّمي إليّ يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة واحدة، قالت: لا قال: فوالله ما أنا بتاركه، فقالت دعه عندي أياماً أنظر إليه لعلّ يسلّيني عنه، ففعل ذلك فعمدت إلى منطقة إسحاق كانوا يتوارثونها بالكبر فكانت عندها لأنها كانت أكبر ولد إسحاق، فشدت المنطقة على يوسف تحت ثيابه وهو صغير ثم قالت: لقد فقدتُّ منطقة إسحاق اكشفوا أهل البيت فكشفوا فوجدوها مع يوسف، فقالت والله إنه لَسِلْمٌ لي فقال يعقوب إن كان فعل ذلك فهو سلم لك، فأمسكته حتى ماتت فذلك الذي قال إخوة يوسف ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ أي مقالتهم أنه سرق كأنه لم يسمعها أو نسبتهم السرقة إليه ﴿يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي لم يظهرها أنه سمع ذلك وقيل إنها كناية بشريطة التفسير يفسرها قوله ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ فإنه بدل من ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ والمعنى قال في نفسه أنتم شر مكاناً أي منزلة من يوسف لسرقتكم أخاكم، أو في سوء الصنيع مما نسبتم إليه وتأنيثها باعتبار الكلمة أو الجملة قال البيضاوي وفيه نظر إذ المفسر بالجملة لا يكون إلا ضمير الشأن ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ يعني هو أعلم أن الأمر ليس كما تصفونه.

فلما أخذ يوسف أخاه غضبوا غضباً شديداً، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يُطاقوا، وكان روبيل إذا غضب لم يقم لغضبه شيء وإذا صاح القت كل امرأة حامل سمعت صوته ولداً، وكان مع هذا إذا مسّه أحدُ من ولد يعقوب سكن غضبه، وقيل: كان هذه صفة شمعون من ولد يعقوب، وروي أنه قال لإخوته كم عدد الأسواق بمصر، قالوا عشرة فقال: اكفوني أنتم الأسواق وأنا أكفيكم الملِك أو اكفوني أنتم الملِك وأنا أكفيكم الأسواق، فدخلوا على يوسف فقال روبيل لَتَرُدَّنَّ علينا أخانا أو لأصيحنَّ صيحةً لا يبقى بمصر امرأة حامل إلا ألقتولدها، وقامت كل شعرة في جسد روبيل فخرجت من ثيابه، فقال يوسف لابن له صغير قم إلى جنب روبيل فمسه، ويروى خذ بيده فأتني به، فذهب الغلام فمسه فسكن غضبه فقال روبيل إن ههنا لبذراً من بذر يعقوب فقال يوسف من

يعقوب، وروي أنه غضب ثانياً فقام إليه يوسف فركضه برجله وأخذ بتلابيبه فوقع على الأرض، وقال: أنتم معشر العبرانيين تظنون أن لا أشد منكم ولما صار أمرهم إلى هذا ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه خضعوا وذلّوا و﴿قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ في السِن أو القدر يحبّه كثيراً، وهو ثكلان على أخيه الهالك يستأنس به، ذكروا له حال أبيهم استعطافاً له عليه ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ بدله ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في أفعالك فلا تغير في عادتك، أو من المحسنين إلينا في توفية الكيل وحسن الضيافة ورد البضاعة فأتمم إحسانك ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله معاذاً ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ فإنَّ أخذ غيره ظلم على فتواكم، ولم يقل إلا من سرق تحرزاً من الكذب ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ يعني لو أخذتُكم مكانه إذاً كنا من الظالمين في مذهبكم، ومرادُه أن الله أذن في أخذ من وجد الصواع في رحله لمصلحة ولرضائه عليه فلو أخذتْ غيره لكنتُ ظالماً.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ قرأ البزي فلما استايسوا ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ﴾ وحتى إذا استايس الرسل وفي الرعد أفلم يايس الذين آمنوا بالألف موضع الفاء وفتح الياء موضع العين من غيرهم في الخمسة، والباقون بالهمزة وإسكان الياء من غير ألف في اللفظ، وإذا وقف حمزة ألقى حركة الهمزة على الياء على أصله، يعني لما يئسوا من يوسف أن يجيبهم إلى ما سألوا، وزيادة السين والتاء للمبالغة، وقال أبو عبيدة استيئسوا استيقنوا أن الأخ لا يرد إليهم ﴿خَلَصُوا۟﴾ أي انفردوا أو اعتزلوا ﴿نَجِيًّا﴾ أي متناجين وإنما وحده لأنه مصدر أو برتبته كما يقال هم صديق وجمعه أنجية كندي وأندية ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في الفضل والعلم لا في السن وهو يهودا كذا قال ابن عباس والكلبي، وقيل: كبيرهم في السن وهو روبيل وهو الذي نهى الإخوة عن قتل يوسف، كذا قال قتادة والسديّ والضحاك، وقال مجاهد وهو شمعون وكانت له رياسة على الأخوة ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾ عهداً وثيقاً ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جعلوا حلفهم بالله موثقاً منه لأنه بإذن منه وتأكيد من جهته ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ هذا ﴿مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ أي قصرتم في شأنه، وما مزيدة ويجوز أن تكون مصدرية في محل النصب بالعطف على مفعول تعلموا، ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف، أو على اسم أنَّ وخبره في يوسف أو من قبل، أو الرفع بالابتداء والخبر مِنْ قَبْلُ، قال البيضاوي فيه نظر لأن قبل إذا كان خبراً أو صلةً لا تقطع عن الإضافة حتى لا ينقص وأن تكون موصولة أي ما فرطتموه بمعنى ما قدمتموه في حقه من الخيانة، ومحله الرفع أو النصب كما تقدم في المصدرية ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ﴾

أي لن أفارق ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ﴾ فتح الياء نافع وأبو عمرو وأسكنهاالباقون ﴿أَبِيٓ﴾ فتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وأسكنها الباقون، يعني يأذن لي أبيّ في الرجوع ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ على لسان يعقوب عليه السلام بالخروج منها وترك أخي أو بالموت أو بخلاص أخي منهم أو بالمقاتلة معهم لتخليصه ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ لا يكون حُكمه إلا بالحق ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ على ما شاهدنا من ظاهر الأمر، وقرأ ابن عباس والضحاك سُرِّق على البناء للمفعول من التفعيل يعني نسب إلى السرقة كما يقال خَوَّنْتُه أي نسبتُه إلى الخيانة ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ﴾ عليه بالسرقة ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ أي بسبب ما تيقنًا ورأينا أن الصواع استخرج من وعائه، وقيل: معناه ما شهدنا قطّ على شيء إلا بما علمنا وليست هذه شهادة منا إنما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم، وقيل قال لهم يعقوب ما يدري هذا الرجل أن السارق يُسْتَرَقُّ بسرقته إلا بقولكم فقالوا: مَا شَهِدْنَا عند يوسف أن السارق يُسْتَرَقّ إلا بما علمنا وكان الحكم ذلك عند الأنبياء يعقوب وبنيه ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ﴾ أي لباطن الحال ﴿حَٰفِظِينَ﴾ عن ابن عباس يعني ما كنا لليلة ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين فلعلّها دُسَّت بالليل في رحله، وقال مجاهد وقتادة ما كنا نعلم حين أعطيناك الموثق أن ابنك سيلسرق، ويصير أمرنا إلى هذا أو إنك تصاب كما أصبتَ بيوسف وإنما قلنا ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾ مما لنا إلى حفظه منه سبيل ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعنون مصر وقال ابن عباس هي قرية من قرى مصر لحقهم المنادي فيها وارتحلوا منها إلى مصر ﴿وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾ أي القافلة التي كنا فيها، وكان صحبهم قوم من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام، قال ابن إسحاق عرف الأخ المحتبس بمصر أن إخوته كانوا متهمين عند أبيهم لِمَا صنعوا في أمر يوسف فأمرهم أن يقولوا هذا لأبيهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فإن قيل: قال البغوي كيف استجاز يوسف أن يعمل مثل هذا بأبيه، ولم يخبره بمكانه، وحبس أخاه مع علمه بشدة وَجْد أبيه، ففيه معنى العقوق وقطيعة الرحم وقلة الشفقة؟ قلنا: أكثرَ الناس فيه والصحيح أنه عمل ذلك بأمر الله تعالى أمره ليزيد في بلاء يعقوب فيضاعف له الأجر، ويلحقه في درجة آبائه الكرام، وقيل: إنه لم يظهر نفسه له وته لأنه لم يأمن من أن يتدبروا في أمره تدبيراً فيكتموه عن أبيه والأول أصح قلت: بل هو الصحيح لا غير.

﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ

ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ
مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا
يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا
ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾
قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ
قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ
﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ
بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

فرجع إخوة يوسف غير كبيرهم إلى أبيهم وذكروا لأبيهم ما قال كبيرهم ﴿قَالَ﴾ يعقوب ليس الأمر كما قلتم ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي زيّنت وسهلت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أردتموه فقدرتموه فما أدرى الملِكَ أن السارق يؤخذ بسرقته إنما أردتم في حمل أخيكم إلى مصر طلب نفع عاجل ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فأمري صبر جميل أو فصبري صبر جميل لا شكوى فيه إلى الناس ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يعني يوسف وبنيامين وأخاهم المقيم بمصر ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي وحالهم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه الذي لم يبتليني إلا لحكمته، ولما بلغه خبر بنيامين تتام حزنه وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف أعرض ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ كراهة لما صادف منهم ذلك ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي يا أسفي تعال فهذا أوانك، والأسف أشد الحزن والحسرة، والألف بدل من ياء المتكلم، روى عبد الرزاق وابن جرير موقوفاً عن سعيد بن جبير أنه قال: «لم يعط أمة من الأمم ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ عند المصيبة إلا أمة محمد ﷺ، ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصاب لم يسترجع وقال يا أسفا» وكذا روى البيهقي في شعب الإيمان وقال وقد رفع الضعفاء هذا الحديث إلى ابن عباس عن النبي ﷺ، وأخرجه الثعلبي من طريق سعيد بن جبير مرفوعاً إلا قوله ألا ترى إلى يعقوب ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ لكثرة بكائه ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ محق سوادهما بكثرة البكاء فعمى بصره، قال مقاتل: لم يبصر بهما ست سنين وقيل: ضعف بصره ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ الكظم مخرج النفس يقال أخذ بكظمه والكظوم احتباس النفس ويعبر به عن السكوت فالكظيم محتبس النفس يعني الساكت فهو بمعنى الفاعل والمعنى كاظم غيظه

وحزنه فمسك عليه لا يبث حُزنه في الناس ومنه كظم البعير إذا ترك الاجترار وحبس ما أكل في بطنه وكظم السقاء شده بعد ملء وقد يطلق الكظيم على المملوء نظراً إلى أن المملوء يشد فمه ويحبس ما فيه، فهو على هذا جاز أن يكون بمعنى المفعول أي المكظوم المملوء من الغيظ، قال قتادة معناه تردد حزنه في جوفه ولم يقل إلا خيراً، قال الحسن كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التلقي معه ثمانون عاماً لا تجف عينا يعقوب وما على وجه الأرض يومئذ أكرم على الله منه. وههنا إشكال قوي على قاعدة التصوف، حيث قالوا أن الصوفي بعد فناء قلبه لا يشتغل قلبه بغير الله سبحانه ولا يسع فيه محبة أحد من الخلائق، فما بال يعقوب عليه السلام وهو من الأنبياء الكبار والمصطفين الأخيار أولي الأيدي والأبصار، قد شغفه حب يوسف عليه السلام الكريم حتى ابيضت عيناه من البكاء عليه وهو كظيم، وما قيل أن العالم بأسرها مجال ومرايا لله سبحانه، فاشتغال قلبه بيوسف اشتغال به تعالى على الحقيقة، فذلك قول في غلبة التوحيد لأهل الابتداء أو التوسط ويستنكف عنه أهل الانتهاء فكيف الأنبياء عليهم السلام، ولو كان كذلك فلا وجه حينئذ لتخصيص تعلق الحب بيوسف عليه السلام دون غيره، والجواب عن الأشكال إن هذا مختص بالنشئة الدنيوية يعني لا يمكن اشتغال قلب الصوفي بعد الفناء بشيء من الأشياء الدنيوية وأما الأشياء الأخروية فليس هذا شأنها، فإن النبي ﷺ قال: «الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالماً ومتعلماً»[1] رواه ابن ماجه عن أبي هريرة والطبراني عن ابن مسعود بسند صحيح والبزار عن ابن مسعود نحوه والطبراني بسند صحيح عن أبي الدرداء، بخلاف الآخرة فإنها مرضية لله تعالى وتعلق القلب بها مرضي لله تعالى قال الله تعالى ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾[2] يعني أولي القوة في طاعة الله والبصارة في معرفة الله تعالى وأحكامه، ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾[3] أي جعلناهم خالصين بخصلة خالصة لا شوب فيها هي ذكر الدار الآخرة، قال مالك بن دينار نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصناهم بحب الآخرة وذكرها، وجعلنا الآخرة مطمح نظرهم فيما يأتون ويذرون، وإطلاق الدار على الآخرة للإشعار بأنها الدار على الحقيقة والدنيا معبر، هذه الآية صريح في أن الآخرة مرضية لله تعالى وحبها وما فيها

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله تعالى (٢٣٢٢) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١٨٢).

(٢) سورة ص، الآية: ٤٥.

(٣) سورة ص، الآية: ٤٦.

موجب للمدح، وقال رسول الله ﷺ: «قيل لي يعني في المنام سيد بني داراً وصنع مأدبةً وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة وسخط عليه السيد، قال: فالله السيد ومحمد داعي والدار الإسلام والمأدبة الجنة» رواه الدرامي عن ربيعة الجرشي، وهذا غاية معرفة الأكملين لم يطلع عليها المتوسطون فضلاً عن أهل الإبتداء والعوام، ولو كانت رابعة البصرية مطلعة على ذلك لما قالت أريد أن أحرق الجنة كيلا يعبد الناس الله تعالى لأجلها، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾(١) يعني وقت لقائه الآخرة ومحل لقائه الجنة، وقوله ﷺ «الجنة طيبة التربة عذبة الماء وإنها قيعان وإن غراسها هذه يعني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»(٢) رواه الترمذي عن ابن مسعود، وروى الشيخان في الصحيحين والحاكم والطبراني بلفظ «يغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة»(٣) قال سيدي وإمامي المجدد للألف الثاني المعنى التنزيهي لبس في دار الدنيا كسوة الحروف والكلمات، وسيلبس في الجنة كسوة الأشجار والثمرات، فتعلق الحب بها كأنه تعلق بالتنزيهات وقس على هذا، وقال عندي أن جنة كل واحد عبارة عن ظهور اسم من أسماء الله تعالى الذي هو مبدأ لِتَعيّنه، وأن ذلك الاسم سيظهر لذلك الشخص بصورة الأشجار والأنهار والحود والقصور والولدان، فتفاوت الجنات للأشخاص على حسب تفاوت الأسماء والصفات من حيث الجامعية وعدمها، وباعتبار قربه من الذات وغير ذلك، وتلك الأشجار ونحوها قد تكون على هيئة الإجرام الزجاجية فتصير وسيلة لرؤية الذات الغير المتكيفة، ثم تعود كما كانت وهكذا إلى أبد الآبدين.

فإن قيل إن الممكن في نفسه ليسُ وعدمُ ومقتضٍ للشر والنقص، وما فيه من الحسن والجمال والخير والكمال مستعار من الواجب، والمحبة واشتغال القلب إنما يتعلق بالحسن والجمال وذلك مستعار في كل ممكن من الواجب تعالى، فما وجه الفرق بين الأشياء الدنيوية والأخروية وجواز تعلق الحب بإحداهما دون الأخرى؟ قلنا: العالم بأسرها مجال ومظاهر لأسمائه وصفاتِه وصفاتُه تعالى ممكنة في حد ذواتها واجبة بغيرها أي بذات الله تعالى لاحتياجها إلى الذات، لكن لا يطلق لفظ إلا مكان والوجوب بالغير

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٦٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: فضل التسبيح (٣٨٠٧).

لئلا يوهم حدوثها وانفكاكها عن الذات، ولما كانت الصفات ممكنة في حد ذاتها وأن كان انعدامها مستحيلاً بغيرها، ففيها رائحة الإمكان والعدم، ولأجل ذلك تنكشف الصفات عند الصوفي ذو وجهتين وجهة جانب الوجود المستفاد من مرتبة الذات ووجهة جانب احتمال العدم نظراً إلى إمكانها في ذاتها، فوجهة وجودها حسن وجميل لا محالة، ووجهة عدمها أيضاً لا يخلو عن حسن وجمال بمجاورة وجهة الوجود وإن كان ذلك الحسن في مرتبة الوهم فليعلم أنه يظهر في نظر الكشفي أن صفاته تعالى تجلت في الأشياء الدنيوية بوجهتها التي إلى الإعدام، فهي من هذه الحيثية مربيات للأشياء الدنيوية، وتجلت في الأشياء الأخروية بوجهتها التي إلى الوجود، وبهذه الحيثية مربيات للأشياء الأخروية، ولذلك صارت الأخرى مرضية لله تعالى مقبولة، وصار تعلق القلب بتلك الأشياء كتعلقه بصاحبها، فالكاملون في محبة الله تعالى هم الكاملون في محبة الدار الآخرة، وهذا وجه الفرق بين الأشياء الدنيوية والأخروية وجواز تعلق الحب بإحداهما دون الأخرى.

إذا تمهد هذا فنقول: ظهر بالنظر الصريح والكشف الصحيح للمجدد للألف الثاني أن وجود يوسف ﷺ وجماله وإن كان مخلوقاً في الدار الدنيا لكنه كان على خلاف سائر الأشياء الموجودة فيها، من جنس الموجودات الأخروية وربَّتْها هفات الله تعالى بوجهتها التي إلى الوجود كما ربّت الجنة وما فيها من الحور والغلمان، فلا جرم جاز تعلق قلب أهل الكمال وحبهم به ﷺ كما جاز تعلقها بالجنة وما فيها، كذا ذكر المجدد في المكتوب المائة من المجلد الثالث، بقي ههنا إشكالان ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ أن المجدد قال في مقام آخر: إن الممكنات سوى الأنبياء والملائكة مجال ومظاهر لظلال الأسماء والصفات التي مباد لتعيناتها، دون الأسماء والصفات أنفسها، وأما الملائكة والأنبياء فأصول الأسماء والصفات مباد لتعيناتهم، وهم مجال ومظاهر لها، فكيف قال ههنا أن الممكنات بأسرها مجال لأسمائه وصفاته تعالى، وكيف يتصور حينئذ أن تتجلى الصفات بأنفسها في الأشياء الدنيوية بوجهتها التي إلى الإعدام، وفي الأشياء الأخروية بوجهتها التي إلى الوجود، وحله أن كونها مجال لظلال الأسماء لا ينافي كونها ظلالاً لأصولها فإن ظل الشيء ظل له، فالأسماء والصفات تتجلى في الأنبياء بلا توسط الظلال وفي غيرهم بتوسطها، ثم هي تتجلى في الأشياء الدنيوية بتوسط الظلال بوجهتها إلى العدم وفي الأشياء الأخروية بوجهتها التي إلى الذات والوجود الصرف فلا منافاة ﴿ثانيهما﴾ أنه يلزم حينئذ فضل يوسف ﷺ على سائر الأنبياء بل على أفضلهم عليه وعليهم الصلوات والتسليمات، فإن الكلام السابق

يشعر أن غير يوسف عليه السلام من الأنبياء في الدنيا مجال للصفات بوجهتها التي إلى العدم، وحله أن هذا الإشعار إنما هو بمفهوم اللقب ولا عبرة لمفهوم اللقب بل الحق أن الأنبياء كلهم عليهم الصلوات والتسليمات مجال للصفات باعتبار وجهتها إلى الوجود الصرف وليس عدم ظهور حسن الآخرة منهم عليهم الصلوات والتسليمات في الدنيا لكونهم مجال الصفات بوجهتها التي إلى العدم بل لأمر خفي لا يعلمه إلا الله تعالى.

وقد ذكر المجدد في حسن خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام أنه قال ربُّ محمدٍ ﷺ ومبدأ تعيُّنِه صفة العلم الإجمالي وهو أقرب الصفات إلى الذات ألا ترى أن العلم الحضوري يتحد مع العالم ومع المعلوم، وأما غيره من الصفات من القدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر ليست بهذه المثابة، والإجمال أعلى درجة وأقرب من الذات من تفاصيلها، فللعلم حسن ذاتي ما ليس لغيرها من الصفات، فالعلم أحب إلى الله تعالى من غيره، وللعلم حسن وجمال لا كيفية له فلأجل كمال لطافته وعلو درجته تجلى في محمد ﷺ من الحسن والجمال ما لا تدركه الأبصار في هذه النشئة لضعف قوة المبصرة الدنيوية كما لا تدرك الأبصار للذات في هذه النشئة، وسيظهر حسنه وجماله في الآخرة فيوسف عليه السلام وإن سلم له في الدنيا ثُلُثي الحسن، لكن في الآخرة الحسن حسن محمد ﷺ والجمال جماله، قال رسول الله ﷺ: «أخي يوسف أصبح وأنا أملح» والفرق بين الصباحة والملاحة عند المحققين كالفرق بين الشمس والقمر وبين الذهب والفضة شتان ما بينهما، كان حسن يوسف عليه السلام بحيث أحبه يعقوبُ والخلائقُ، وكان حسن محمد ﷺ بحيث أحبه ربُّ يعقوبَ والخلائقِ جل جلاله ما للتراب ورب الأرباب وإذا ثبت هذا علم أن الصوفي بعد فناء قلبه لا يشتغل قلبه بغير الله سبحانه، ولا يسع في قلبه محبة أحد من الخلائق، لكن لا ينافي ذلك اشتغال قلبه بمحبة الأنبياء فإن محبتهم عين محبة الله، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[(١)] متفق عليه، وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»[(٢)] متفق عليه. فما قالت

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: حب الرسول الله ﷺ من الإيمان (١٥) وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد (٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: حلاوة الإيمان (١٦) وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

رابعة البصرية إن قلبي ممتلئة من حب الله لا يسع فيه محبة محمد ﷺ خطأ ناش من غلبة السكر، وأما ما قال المجدد في بدو حاله أحب الله سبحانه لأنه خَلَقَ محمداً ﷺ فهو أيضاً ناش من السكر لكن لا يخلو عن نوع من الأصالة والله أعلم.

**مسألة**: في هذه الآية دليل على جواز التأسف والبكاء عند المصيبة ما لم يكن معه نوحة وأمثال ذلك من ضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها، فإن التأسف والحزن لا يدخلان تحت التكليف فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد، في الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله ﷺ دخل على ابنه إبراهيم، وهو يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف وأنت يا رسول الله فقال يا ابن عوف إنها رحمة ثم أتبعها أخرى، فقال: «إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربُنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»(١) وفيهما من حديث أسامة بن زيد أتى رسول الله ﷺ على ابن بنت له ونفسه يتقعقع ففاضت عيناه فقال سعد يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده فإنما يرحم الله من عباده الرحماء»(٢) وفيهما من حديث ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا وأشار إلى لسانه أو يرحم، وإن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»(٣) وفيهما من حديث ابن مسعود: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»(٤) وفيهما عن أبي بردة قال قال رسول الله ﷺ «أنا بريء ممن حلق وسلق وخرق»(٥).

﴿قَالُواْ﴾ يعني إخوة يوسف ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال حذف لا لعدم الالتباس إذ لو كان إثباتاً لم يكن بد من اللام والنون ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ «إنا بك لمحزونون» (١٣٠٣) وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: رحمته ﷺ الصبيان والعيال (٢٣١٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: ما يرخص من البكاء في غير نوح (١٢٨٤) وأخرجه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: البكاء على الميت (٩٢٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: البكاء عند المريض (١٣٠٤) وأخرجه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: البكاء على الميت (٩٢٤).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: ليس منا من شق الجيوب (١٢٩٤) وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب (١٠٣).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية (١٠٤).

أي مشرفاً على الهلاك بسبب المرض أو الهرم، والحَرَضُ في الأصل محركة الفساد في البدن وفي المذهب وفي العقل من الحزن أو العشق أو الهرم، والرجل الفاسد المريض والمشرف على الهلاك كذا في القاموس، فهو مصدر ولذلك لا يؤنث ولا يجمع، ووضع ههنا موضع الصفة ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ أي الميّتين ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ﴾ البث أشد الحزن سمى بذلك لأن صاحبه لا يصبر عليه غالباً حتى يبثه أي ينشره وقال الحسن بثي يعني حالي ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى أحد منكم ومن غيركم فخلوني وشكايتي، قال البغوي روي أنه دخل على يعقوب جار له فقال: يا يعقوب مالي أراك قد انهشمتَ وفنيتَ ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك؟ فقال: هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من همّ يوسف، فأوحى الله إليه يا يعقوب تشكوني إلى خلقي، فقال: يا رب خطيئة أخطأتُها فاغفرها لي فقال: قد غفرتُها لك، وكان بعد ذلك إذا سُئِل قَالَ ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وروي أنه قيل: له يا يعقوب ما الذي أذهب بصرك وقوّس ظهرك؟ قال: أذهب بصري بكائي على يوسف وقوّس ظهري حزني على أخيه، فأوحى الله إليه أتشكوني وعزتي لا أكشف ما بك حتى تدعوني، فعند ذلك قَالَ ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فأوحى الله تعالى إليه وعزتي لو كانا ميتين لأخرجتهما لك، وإنما وجدت عليك أنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه منها شيئاً، وإن أحب خلقي إليَّ الأنبياء ثم المساكين، فاصنَعْ طعاماً فادع عليه المساكين، فصنع طعاماً ثم قال: من كان صائماً فليفطر الليلة عند آل يعقوب، وروي أنه كان بعد ذلك إذا تغذى أمر ينادي من أراد الغداء فليأت يعقوب، وإذا أفطر أمر من ينادي من أراد أن يفطر فليأت يعقوب، فكان يتغدى ويتعشى مع المساكين، وعن وهب بن منبه قال: أوحي الله تعالى إلى يعقوب تدري لم عاقبتُك وحبستُ عنك يوسف ثمانين سنة؟ قال: لا يا إلهي قال: لأنك شويْتَ عناقاً وقترتَ على جارك وأكلتَ ولم تطعمه، وروي أن سبب ابتلاء يعقوب أنه ذبح عجلاً بين يدي أمه وهي تخور.

وقال وهب والسدي وغيرهما أتى جبرئيل يوسف عليه السلام في السجن فقال: هل تعرفني أيها الصّديق؟ قال: أرى صورة طاهرة ورائحة طيبة، قال: إني رسول رب العالمين وأنا الروح الأمين قال: ما أدخلك مدخل المذنبين وأنت أطيب الطيبين ورأس المقربين وأمين رب العالمين؟ قال: ألم تعلم يا يوسف أن الله يطهر البيوت بطهر النبيين وأن الأرض التي يدخلونها أطهر الأرضين، وأن الله قد طهر بك السجن وما حوله يا أطهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين، قال: كيف لي باسم الصديقين وتعدني من

المخلصين الطاهرين وقد أدخلتُ مدخل المذنبين وسميتُ باسم الفاسقين؟ قال جبرئيل لأنه لم تفتتن قلبك ولم تطع سيدتك في معصية ربك، لذلك سماك الله في الصديقين وعدّك من المخلصين وألحقك بآبائك الصالحين، فقال: هل لك علم بيعقوب أيها الروح الأمين؟ قال نعم وهب الله له من الصبر الجميل وابتلاه بالحزن عليك فهو كظيم، قال: فما قدر حزنه؟ قال: حزن سبعين ثَكْلى، قال: فماذا له من الأجر يا جبرئيل؟ قال: أجر مائة شهيد، قال: أفتراني ملاقيه؟ قال: نعم، فطابت نفسه وقال: ما أبالي ما لقيتُ إن رأيتُه ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من صنعه ومن رحمته فإنه لا يخيِّب داعيه ولا يدع الملتجيء إليه أو من الله بنوع من إلهام ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ من حياة يوسف، روى أن ملك الموت زار يعقوب فقال له أيها الملِك الطيب ريحه الحسن صورته هل قبضتَ روح ولدي في الأرواح، قال: لا فسكن يعقوب وطمع في رؤيته، قيل: يعني أَعْلَمُ أنَّ رؤيا يوسف صادقة وإني وأنتم سنسجد له، وقال السديّ لما أخبره ولده بِسِيَرِ المِلك أحستْ نفسُ يعقوب وطمع وقال لعله يوسف، وأخرج ابن أبي حاتم عن النصر بن عربي قال: بلغني أن يعقوب عليه السلام مكث أربعة وعشرين عاماً لا يدري أحَيٌّ يوسف أم مَيِّتٌ، حتى تمثل له ملَك الموت فقال له مَنْ أنت؟ قال: أنا ملَك الموت، قال: فأنشدك باله يعقوب هل قبَضْتَ روح يوسف؟ قال: لا وعند ذلك قال ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ التحسس تطلّب الإحساس يعني تفحصوا فتعرفوا، وقال ابن عباس معناه التمسوا ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ﴾ أي لا تقنطوا ﴿مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ أي من رحمة الله وقيل من فرح الله وتنفيسه ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ بالله وصفاته فإن العارف لا يقنط من رحمته في شيء من الأحوال.

فخرجوا راجعين إلى مصر حتى وصلوا إليها فدخلوا على يوسف ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ شدة الجوع ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ قال ابن عباس كانت دراهم زيوفاً رديةً لا ينفق، روى عنه أبو عبيد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة، وأخرج عن عكرمة سعيد بن منصور وابن المنذر وأبو الشيخ أي دراهم قليلة، وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن الحارث قال كان متاع الأعراب الصوف والسمن، وقيل: من الصوف والأقط، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي صالح قال: كان حبة الخضراء والصنوبر، وأخرج ابن النجار عن ابن عباس قال: كان سويق المَقل، وقيل: كانت الأدم والنعال، وأصل الإزجاء الدفع والسَّوق منه قوله

تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾[١] أي يسوق، فيقال للدراهم الرديّة مزجاة لأنها تدفع ولا تؤخذ، وكذا اللدراهم القليلة لأنها تدفع ولا تؤخذ في مقابلة المتاع العزيز، وكذا الغير الدراهم من الأشياء الردية لدفعها وعدم قبولها في الثمن إلا بتجوز من البائع ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي أعطنا كيلا كاملاً كما كنتَ تعطينا قبل هذا بالثمن الجياد الوافي ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ بما بين الثمنين الجيد والردي ولا تنقصنا، كذا قال أكثر المفسرين، وقال ابن جريج والضحاك تَصَدَّقْ عَلَيْنَا برد أخينا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أحسن الجزاء في الدنيا والآخرة، والأجزاء والتصدق التفضل مطلقاً، ومنه قوله ﷺ في قصر الصلاة في السفر: «هذه صدقة تصدق الله عليكم فاقبلوا صدقته»[٢] رواه البخاري، لكنه اختص عرفاً بما يبتغي به وجه الله والثواب، ومبنيٌّ على هذا العرف ما روي أن الحسن سمع رجلاً يقول: اللهم تصدَّقْ عليَّ، فقال إن الله لا يتصدّق إنما يتصدق من يبتغي الثواب قل اللهم أعطني وتفضَّل عليّ، قال الضحاك لم يقولوا إن الله يجزيك لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن، قلتُ بل لأنهم لم يعلموا أنه يتصدق أم لا. **فائدة**: سئل سفيان بن عيينة هل حرمت الصدقة على نبي من الأنبياء سوى نبينا محمد ﷺ؟ قال سفيان ألم تسمع قوله تعالى ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾، كذا أخرج ابن جرير قلتُ: استدل سفيان بهذه الآية على حل الصدقة على الأنبياء، ولا يتم الاستدلال إلا إذا ثبت نبوة إخوة يوسف عليه السلام.

فلما كلم إخوة يوسف بهذا الكلام أدركته الرقّة فأرفض دمعه وأظهر ما الذي كان كتم و﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ من الظلم ﴿وَأَخِيهِ﴾ من إفراده من يوسف وإذلاله حتى كان لا يستطيع أن يتكلم بعجز وذلة، أي هل علمتم قبح ما فعلتم فتتوبوا عنه ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ بقبحه فلذلك أقدمتم عليه، أو هل علمتم عاقبة ما فعلتم، وإنما قال ذلك تحريضاً على التوبة وشفقةً عليهم لا معاتبةً وتثريباً، يدل عليه قوله ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ كذا قال ابن إسحاق في السبب الذي حمل يوسف على هذا القول، وقال الكلبي إنما قال ذلك حين حكى لإخوته إن مالك بن وعمر قال إني وجدت غلاماً في بئر من حاله كيتَ وكيتَ فابتعته بكذا درهماً، فقالوا أيها الملِك نحن بعنا ذلك الغلام منه، فغاظ يوسفَ ذلك وأمر بقتلهم فذهبوا بهم ليقتلوهم، فولى يهود أو هو يقول كان يعقوب يحزن ويبكي لفقد واحد منا حتى كف بصره فكيف إذا أتاه قتل بنيه كلهم، ثم قالوا له إن فعلتَ

(١) سورة النور، الآية: ٤٣.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: صلاة المسافرين وقصرها (٦٨٦).

ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا فإنه بمكان كذا أو كذا، فذلك حين رحمهم وبكى وقال ذلك القول، وروى عن عبد الله بن يزيد ابن أبي فروة أن يعقوب لما سمع حبس بنيامين كتب كتاباً إلى يوسف على يد إخوته حين أرسلهم ثالثاً، من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى ملك مصر، أما بعد فأنا أهل بيت وكّل بنا البلاء، أما جدي إبراهيم فشُدَّت يداه ورجلاه وألقِيَ في النار، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فشُدَّت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إليّ فذهب به إخوته إلى البرية، ثم آتوني بقميصه ملطّخاً بالدم وقالوا: قد أكله الذئب فذهبتْ عيناي من البكاء عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنتُ أتسلّى به، وإنك حبستَه وزعمتَ أنه سرق، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددتَّه عليَّ وإلا دعوتُ عليك دعوة تدرك السابع من ولدك، فلمّا قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك البكاء، فأظهر نفسه وقال ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ بما يؤل إليه أمر يوسف، وقيل مذنبون عاصمون وقال الحسن إذ أنتم شبان ومعكم جهل الشباب ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي إخوة يوسف ﴿أَءِنَّكَ ﴾ كذا قرأ الجمهور على الاستفهام استفهام تقرير ولذلك حقق بأنّ واللام وهم على أصولهم في الهمزتين المفتوحة والمكسورة وقرأ ابن كثير على الخبر أنَّك ﴿لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ قال ابن إسحاق كان يوسف يتكلم من وراء الحجاب، فلما ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم﴾ كشف عنه الغطاء ثم رفع الحجاب فعرفوه، قلتُ وهذا مستبعد يأبى عنه القصة المذكورة، وقال الضحاك عن ابن عباس لما قال هذا القول تبسم فرأوا ثناياه كالدر المنظوم فشبهوه بيوسف، وقال عطاء عن ابن عباس إن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه وكان له في قرنه علامة، وكان ليعقوب عليه السلام مثلها، ولإسحاق عليه السلام مثلها، ولسارة مثلها شبه الشامة، فعرفوه وقالوا إنك لأنت يوسف، وقيل: قالوه على التوهم حتى ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ من أبي وأمي بنيامين، إنما ذكر أخاه وهم قد سألوه عن نفسه تعريفاً لنفسه به وتفخيماً لشأنه وإدخالاً له في قوله ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بأن جمعنا بالسلامة والكرامة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ قرأ قنبل يَتَّقِي بإثبات الياء وصلاً ووقفاً، والباقون بحذفها في الحالين، يعني من يتقي الله بأداء الفرائض واجتناب المعاصي ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على البليات والطاعات وعن المعاصي ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في الدنيا ولا في الآخرة، وضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر.

﴿قَالُوا۟﴾ معتذرين ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ﴾ اختارك الله ﴿عَلَيْنَا﴾ بحسن الصورة وكما

السيرة وسائر الفضائل الدنيوية والأخروية ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ والحال أن شأننا إنا كنا مذنبين بما فعلنا بك، يقال خطأ خطأً إذا تعمد بالذنب وأخطأ إذا كان غير متعمدٍ ﴿قَالَ﴾ يوسف بغاية الحلم ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾ تفعيل من الثرب وهو الشحم الذي يغشي الكرش بمعنى إزالة الثرب فاستعير للتقريع الذي يمزق العرض ويذهب ماء الوجه ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ متعلق بالتثريب أو بالمقدر للجار الواقع خبراً للا تثريب، والمعنى لا أثرب اليوم الذي هو مظنته فما ظنكم بسائر الأيام بعد ذلك، أو المعنى غفرت لكم بعدما اعترفتم ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ يعني إذا غفرتكم وأنا الفقير القتور، فما ظنكم بالغني الغفور، فإنه يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائب، قال البيضاوي ومن كرم يوسف أنهم لما عرفوه، أرسلوا إليه وقالوا إنك تدعونا بالبكرة والعشي إلى الطعام ونحن نستحيي منك لما فرّط منّافيك، فقال: إن أهل مصر كانوا ينظرون إليّ بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلّغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلّغ ولقد شرّفتُ بكم وعظّمتُ في عيونهم، حيث علموا أنكم إخوتي من حفدة إبراهيم عليه السلام.

قال البغوي فلما عرّفهم يوسف نفسه سألهم عن أبيه فقال ما فعل أبي بعدي قالوا ذهبت عيناه فأعطاهم قميصه ودعا أباه وقال ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي يرجع إليّ بصيراً، أو المعنى يصير بصيراً، قال الحسن لم يعلم أنه يعود بصيراً إلا بعد أن أعلمه الله، قال الضحاك كان ذلك القميص من نسيج الجنة وعن مجاهد أمره جبرئيل أن يرسل إليه قميصه، وكان ذلك القميص قميص إبراهيم عليه السلام، وذلك إنه جرد ثيابه وألقي في النار عرياناً، فأتاه جبرئيل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فكان ذلك عند إبراهيم عليه السلام، فلما مات ورثه إسحاق فما مات ورثه يعقوب فلما شبَّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في قصبة وشد رأسها وعلقها في عنقه، لما كان يخاف عليه من العين وكان لا يفارقه، فلما ألقي في البئر عرياناً جاءه جبرئيل عليه السلام وعلى يوسف عليه السلام ذلك التعويذ، فأخرج القميص منه وألبسه إياه، ففي هذا الوقت جاء جبرئيل عليه السلام وقال أرسل ذلك القميص، فإن فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي، فدفع يوسف ذلك القميص إلى أخوته وقال ﴿أَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ قلت: وإذا ثبت بكشف المجدد رضي الله عنه أن حسن يوسف ووجوده كان من جنس الأشياء الموجودة في الجنة، فحينئذ لا حاجة إلى ثبوت كون قميصه من نسيج الجنة ولأجل ذلك كان يعافى به المبتلى بل يكفي في ذلك كون القميص ملبوساً ليوسف فإن وجود يوسف كان من جنس أشياء الجنة والله أعلم، ﴿وَأْتُونِى﴾ أنتم وأبي (بأهلكم) بنسائكم وذراريكم ومواليكم ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾
قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ
بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾
فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾
وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ
ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ
قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى
ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ التي فيها قميص يوسف من مصر وخرجت من عمرانها إلى كنعان ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب عليه السلام لمن حضره ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ فيه دليل على أن ريح الجنة كان من يوسف نفسه لا من قميصه، وإلا لقال ريح قميص يوسف، قال البغوي روي أن ريح الصبا استأذنت ربها في أن يأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير، قال مجاهد أصاب يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيام، وحكي عن ابن عباس من مسيرة ثمان ليال، وقال الحسن كان بينهما ثمانون فرسخاً، وقيل: هبت ريح فاحتملت ريح المقيص إلى يعقوب، فوجد ريح الجنة فعلم أن ليس في الأرض من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص، فلذلك قال ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي لولا تنسبوني إلى الفسد وهو نقصان عقل يحدث من هرم، ولذلك لا يقال عجوز مفنّدة لأن نقصان عقلها ذاتي، وجواب لولا محذوف تقديره لصدقتموني أو لقلتُ أنه قريب ﴿قَالُوا۟﴾ يعني من حضره ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي في ذهابك عن الصواب قديماً بالإفراط في محبة يوسف وإكثار ذكره وتوقع لقائه.

﴿فَلَمَّآ أَن﴾ زائدة ﴿جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ من عند يوسف قال ابن مسعود جاء البشير بين يدي العير، وقال ابن عباس هو يهودا، قال السديّ قال يهودا أنا ذهبت بالقميص ملّطخاً بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب، فأنا أذهب اليوم بالقميص فأخبره أنه حيّ، فأفرّحه كما أحزنته، قال ابن عباس حمله يهوداوخرج حافياً حاسراً يعدو ومعه سبعة أرغفة

لم يستوف أكلها حتى أتى أباه وكانت المسافة ثمانين فرسخاً، وقيل: البشير مالك بن وعر ﴿أَلْقَىٰهُ﴾ ألقي البشير قميص يوسف ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي وجه يعقوب ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ فعاد بصيراً بعدما كان أعمى وعادت قوته بعد الضعف وشبابه بعد الهرم ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ﴾ فتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وأسكنها الباقون ﴿أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف وإن الله يجمع بيننا، وقيل ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ﴾ كلام مبتدأ والقول ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ و﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ قال البغوي أي أنه قال للبشير كيف يوسف؟ قال: إنه ملك مصر فقال يعقوب ما أصنع بالملك؟ على أين دين تركته؟ قال: على الإسلام قال: الآن تمت النعمة ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ۝٩٧﴾ أي سَلِ الله مغفرة ما ارتكبنا في حقك وحق ابنك إنا تبنا واعترفنا بخطائنا ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ فتح الياء نافع وأبو عمرو وأسكنها الباقون، قال أكثر المفسرين أخّر الدعاء إلى السحر، فإنه ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقي ثلث الليل الآخر، يقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له متفق عليه من حديث أبي هريرة عنه ﷺ، فلما انتهى يعقوب إلى الموعد قام إلى الصلاة بالسحر فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله عز وجل ثم قال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم يوسف فأوحى الله إليه أني قد غفرت لك ولهم أجمعين، وعن عكرمة عن ابن عباس ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ يعني ليلة الجمعة، وقال وهب كان يستغفر لهم في كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة، وقال طاءوس آخر الدعاء إلى السحر من ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشوراء، وقال الشعبي قال سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي يعني أسأل يوسف إن عفا عنكم استغفرت لكم ربي، فإنّ عفو المظلوم شرط لمغفرة الله تعالى، وقيل أخر الدعاء إلى أن يتعرف حالهم في صدق التوبة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قال النووي روي أن يوسف بعث مع البشير إلى يعقوب مائتي راحلة وجهازاً كثيراً ليأتوا بيعقوب وأهله وولده، فتهيَّأ للخروج إلى مصر فخرجوا وهم اثنان وسبعون بين رجل وامرأة، وقال مسروق كانوا ثلاثة وتسعين، فلما دنا من مصر كلم يوسف الملِك الذي فوقه، فخرج يوسف والملِك في أربعة آلاف من الجند وركب أهل مصر معهما يلقون يعقوبَ وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يهودا فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهودا هذا فرعون مصر قال: لا هذا ابنك ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟﴾ أي يعقوب وأهله ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قلت لعل يوسف حين خرج من مصر لاستقبال يعقوب ﷺ نزل في مضرب أو قصر كان له ثمه

فدخلوا عليه هناك، وقال البغوي فلما دنا كل واحد منهما صاحبه ذهب يوسف يبدؤه بالسلام فقال جبرئيل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام، قلتُ: لعل هذا الأجل محبوبية الله التي ظهرت في يوسف، فقال يعقوب عليه السلام السلام عليك يا مذهب الأحزان ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ﴾ ضم إليه ﴿أَبَوَيۡهِ﴾ قال أكثر المفسرين هو أبوه وخالته ليّا، نزّلها منزلة الأم تنزيل العم منزلة الأب في قوله تعالى: ﴿ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾(١) أو لأن يعقوب تزوجها بعد أمه والرابّة تدعى أمًّا، وكانت أم يوسف قد ماتت في نفاس بنيامين، وقال الحسن هو أبوه وأمه وكانت حية، وفي بعض التفاسير أن الله أحيا أمه حتى جاءت مع يعقوب إلى مصر، قال البغوي روى أن يوسف ويعقوب نزلا وتعانقا وقال الثوري عانق كل واحد منهما صاحبه وبكيا، فقال يوسف يا أبت بكيتَ عليَّ حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة يجمعنا، قال: بلى يا بني ولكن خشيتُ أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك ﴿وَقَالَ﴾ يوسف بعد ما لقيهم خارج مصر ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ من الجواز لأنهم كانوا لا يدخلون مصر قبله إلا بجواز من ملوكهم، ومن القحط وأصناف المكاره، والمشيئة متعلقة بالدخول المكيف بالأمن كما في قوله تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾(٢) وقيل: إنْ ههنا بمعنى إذ أي إذ شاء الله كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾(٣) أي إذ كنتم، وقيل: في الآية تقديم وتأخير والاستثناء يرجع إلى الاستغفار وهو قول يعقوب لبنيه سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي أجلسهما على السرير، والرفع هو النقل من السفل إلى العلو ﴿وَخَرُّواْ﴾ يعني أبوي يوسف وإخوته ﴿لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ لم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض إنما هو الانحناء والتواضع يعني تواضعوا ليوسف، وقيل: وضعوا الجباه على الأرض وكان ذلك على طريق التحيّة والتعظيم لا على طريق العبادة، وكانت تحيّة الناس يومئذ السجود، وكان ذلك جائزاً في الأمم السابقة فنسخت في هذه الشريعة، وروى عن ابن عباس أنه قال: معناه خروا لله سجداً شكراً بين يدي يوسف والضمير في له يرجع إلى الله، قلتُ: كانّ يوسف جُعِل قبلة بإذن الله تعالى كالكعبة لنا، وكما جعِل آدم قبلة للملائكة حين أمروا بالسجود له، وقيل معناه ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾ أي لأجل يوسف ولقائه سُجد الله تعالى شكراً والأول أصح، والرفع مؤخر عن الخرور وإن قدم لفظاً للاهتمام

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٣.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

بتعظيمه لهما ﴿وَقَالَ﴾ يوسف عند ذلك ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ التي رأيتُها في أيام الصبا ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾(١) ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ صِدقاً ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ فتح الياء نافع وأبو عمرو وأسكنها الباقون يعني قد أنعم عليّ ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ ولم يذكر الجب مع كونه أشد من السجن استعمالاً للكرام كيلا يخجل إخوته بعد ما قال ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ﴾(٢) ولأن نعمة الله في إخراجه من السجن أعظم لأن بعد خروجه من الجب صار إلى العبودية والرق وابتلي بمكر النساء، وبعد خروجه من السجن صار ملكاً ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ البدو بسيط من الأرض يسكنه أهل المواشي بماشيتهم وكانوا أهل بادية والمواشي ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ فتح الياء ورش وأسكنها الباقون، أي أفسد نبيننا بالحسد وجَرَشَ من نزغ الرابض الدابة إذا نحنها وحملها على الجري ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ﴾ تدبيره ﴿لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ إذ ما من صعب إلا وينفذ مشيئته به ويتسهل دونها، وقال البغوي ذو لطف، وحقيقة اللطيف الذي يوصل الإحسان إلى غيره بالرفق ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح والتدابير ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يفعل كل شيء في وقت وعلى وجه يقتضيهما الحكمة.

قال البيضاوي روي أن يوسف طاف بأبيه عليه السلام في خزانه، فلما دخل خزينة القرطاس قال: يا بني ما أغْفَلَكَ عندك هذه القراطيس وما كتبتَ إلَيّ علي ثمان مراحل قال: أمرني جبرئيل عليه السلام قال: أو ما تسئله؟ قال: أنت أبسط مني إليه فسأله، فقال جبرئيل عليه السلام الله أمرني بذلك لقولك ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾(٣) قال الله: فهلا خفتني. قال البغوي قال أهل التاريخ أقام يعقوب بمصر عند يوسف أربعاً وعشرين سنة في أغبط حال وأهنأ عيش ثم مات بمصر، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحاق، ففعل يوسف ومضى به حتى دفنه بالشام ثم انصرف إلى مصر، أخرج أحمد في الزهد عن مالك أن يعقوب لما ثقل قال لابنه يوسف أدخل يدك تحت صلبي واحلف لي برب يعقوب لتدفنني مع آبائي قد اشتركتهم في العمل فأشركني معهم في قبورهم، فلمّا توفي يعقوب فعل ذلك يوسف حتى أتى به أرض كنعان فدفنه معهم، قال سعيد بن جبير نقل يعقوب في تابوت من ساج إلى بيت المقدس فوافق ذلك

(١) سورة يوسف، الآية: ٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٩٢.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٣.

يوم مات عيص فدفنا في قبر واحد وكانا ولدا في بطن واحد وكان عمرهما مائة وسبعة وأربعين سنة.

فلما جمع الله ليوسف شمله علم أن نعيم الدنيا لا يدوم سأل الله حسن العاقبة فقال ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي بعض الملك وهو ملك مصر والملك اتساع المقدور لمن له السياسة والتدبير ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي والرؤيا ومن هذا أيضاً للتبعيض لأنه لم يؤت كل التأويل ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1] ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومبدعهما وانتصابه على أنه صفة المنادى أو منادى برأسه ﴿ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ يعني ناصري ومتولي أموري فيهما، أو الذي يتولاني بالنعمة فيهما ويوصل الملك الفاني بالملك الباقي ﴿تَوَفَّنِى﴾ أي إقبضني إليك ﴿مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي بالنبيين فإن كمال الصلاح بالعصمة وهي مختصة بالأنبياء، قال قتادة لم يسأل نبي من الأنبياء الموت إلا يوسف، وفيه نظر فإن النبي ﷺ قال: «اللهم الرفيق الأعلى» وعن عائشة قالت: «كنتُ أسمع أنه لا يموت نبي حتى يخيّر بين الدنيا والآخرة، قالت: أصابت رسول الله ﷺ بُحّةُ شديدة في مرضه فسمعتُه يقول ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ فظننتُ أنه خُيّر»[2] رواه الشيخان في الصحيحين وابن سعد، وفي القصة أنه لما جمع الله تعالى ليوسف شمله وأوصل إليه أبويه وأهله اشتاق إلى ربه فقال هذه المقالة، قال الحسن عاش بعد هذا سنين كثيرة، وقال غيره لما قال هذا لم يمض عليه أسبوع حتى توفي قال البغوي اختلفوا في مدة غيبة يوسف عن أبيه قال الكلبي: اثنان وعشرون سنة، وقيل: أربعون سنة، وقال الحسن ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد لقاء يعقوب ثلاثاً وعشرين سنةً ومات وهو ابن عشرين ومائة سنة، وفي التوراة مائة وعشر سنين، وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة أولاد أفرائيتم وميشار وكان من أولاد أفرأيتم يوشع بن نون صاحب موسى عليه السلام ورحمت بنت يوسف امرأة أيوب المبتلى عليه السلام، وقيل: عاش يوسف بعد أبيه ستين سنة وقيل أكثر، واختلف الأقاويل فيه وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة، فدفنوه في النيل في صندوق من رخام، وذلك أنه لما مات تشاح الناس فيه

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (٤٥٨٦).
وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضل عائشة رضي الله عنها (٢٤٤٤).

فطلب أهل كل محلة أن يدفن في محلتهم رجاء بركته، حتى هموا بالقتال فرأوا أن يدفنوه في النيل حيث يتفرق الماء بمصر ليجري الماء عليه ويصل بركته إلى جميعهم، وقال عكرمة دفن في الجانب الأيمن من النيل فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر، فنقل إلى الجانب الأيمن فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر فدفنوه في وسطه، وقدّروا ذلك سلسلة فأخصب الجانبان إلى أن أخرجه موسى فدفنوه بقرب آبائه بالشام، أخرج ابن إسحاق وابن حاتم عن عروة بن الزبير قال: إن الله حين أمر موسى بالسير ببني إسرائيل أمره أن يحتمل معه عظام يوسف، وأن لا يخلفها بأرض مصر وأن يسير بها معه حتى يضعها بالأرض المقدسة، فسأل موسى عمن يعرف قبره فما وجد إلا عجوزاً من بني إسرائيل، فقالت: يا نبي الله إني أعرف مكانه إن أنت أخرجتني معك ولم تخلفني بأرض مصر دللتك عليه، قال: افعل وقد كان موسى وعد بني إسرائيل أن يسير بهم إذا طلع القمر، فدعا ربه أن يؤخر طلوعه حتى يفرغ من أمر يوسف، ففعل فخرجت به العجوز حتى أرته إياه في ناحية من النيل في الماء، فاستخرجه موسى صندوقاً من مرمر فاحتمله ولقد توارت الفراعنة من العماليق بعد يوسف مصر ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف حتى بعث الله موسى عليه السلام وأهلك على يده فرعون.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ
﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ
إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ
عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ
عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ
إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا
ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ
ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ
وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿١١١﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت من قصة يوسف ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾ يا محمد ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿لَدَيۡهِمۡ﴾ عند بني يعقوب ﴿إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾ أي عزموا أن يلقوا يوسف في غيابت الجب ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ بيوسف، هذا كالدليل على كونه يوحى إليه يعني لا يخفي على مكذبيك إنك ما كنتَ عند أولاد يعقوب وما لقيتَ أحداً يعلم ذلك حتى سمعت القصة منه، إنما حذف هذا الشق استغناءً بذكره في غير هذه القصة، كقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾[1] قال البغوي روي أن يهود وقريشاً سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فلما أخبرهم على موافقة التوراة لم يسلموا فحزن النبي ﷺ لذلك فأنزل الله تعالى ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ﴾ يا محمد على إيمانهم وبالغتَ في إظهار الآيات عليهم ﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾ لما قضي الله تعالى عليهم بالكفر والنار ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي على الإنباء أو القرآن ﴿مِنۡ أَجۡرٍۚ﴾ جُعل ﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكۡرٌ﴾ عظة من الله ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ عامة حجة على من لم يؤمن وبصيرة ورحمة لمن آمن به.

﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٍ﴾ وكثير من آية أصله كأيّ عدد شئت من الدلائل الدالة على وجود الصانع وحكمته وكمال قدرته وتوحيده ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ﴾ أي الكفار ﴿عَلَيۡهَا﴾ أي على تلك الآيات ويشاهدونها ﴿وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ أي والحال أنهم يعرضون عنها، يعني أنهم يرون آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من العبر ولا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ أي يقرّون لوجوده وخالقيته ﴿إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ يعني في حال من الأحوال إلا في حال إشراكهم في العبادة غيره تعالى به، فإنهم كانوا إذا سئلوا من خلق السماوات والأرض قالوا الله، وإذا سئلوا من ينزل من السماء ماءً قالوا الله، ومع ذلك كانوا يعبدون الحجارة ويقولون مُطرنا بنوء كذا، وعن ابن عباس أنه قال: إنها نزلت في تلبية المشركين من العرب كانوا يقولون في تلبيتهم لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما مَلَك، وقال عطاء هذا في الدعاء حيث نسوا ربهم في الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا الدعاء ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥﴾[2] وفي نحو ذلك من الأحوال، وقيل معناه ﴿إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ باتخاذ الأحبار أرباباً مطاعاً في خلاف ما أمر الله به، أو مشركون بنسبة التبني إليه تعالى، أو القول بالنور والظلمة، ومن جملة الشرك ما يقوله القدرية من إثبات قدرة الخلق للعبد،

(١) سورة هود، الآية: ٤٩.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

وإنما التوحيد ما يقوله أهل السنة لا خالق إلا الله، بل النظر إلى الأسباب مع الغفلة عن المسبب ينافي التوحيد، فالموحدون هم الصوفية ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾ يعني أنسوا ربهم فآمنوا ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ﴾ أي عقوبة تغشاهم وتشملهم كائنة ﴿مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ قال قتادة وقيعة وقال الضحاك يعني الصواعق والقوارع ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ المشتملة على عذاب جهنم ﴿بَغْتَةً﴾ فجاءةً من غير سابقة علم وعلامة على تعين وقته ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها استفهام إنكار يعني لا ينبغي لهم ذلك النسيان والأمن، قال ابن عباس يهيج الصيحة بالناس وهم في أسواقهم وعن أبي هريرة إن رسول الله ﷺ قال: «ليقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوباً فلا يتبايعانه ولا يطويانه»[1] الحديث، وقد مر الحديث وما في الباب في سورة الأعراف في تفسير قوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ إلى قوله ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾[2].

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الدعوى إلى التوحيد والإعداد للمعاد ﴿سَبِيلِىٓ﴾ سنتي ومنهاجي، والسبيل يذكر ويؤنث كالطريق ثم فسّر السبيل بقوله ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى الإيمان بوجوده ووحدانيته وتنزيهه عما لا يليق به وابتغاء درجات قربه ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي على يقين ومعرفة، أي لستُ من الخراصين الذين يقولون بأشياء من غير علم، أو المعنى على بصيرة أي بيان وحجة واضحة غير عمياء ﴿أَنَا۠﴾ تأكيد للمستتر في أدعوا، أو في على بصيرة لأنه حال منه، أو مبتدأ خبره على بصيرة ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطف عليه أي مَن آمن بي وصدَّقني فهو أيضاً يدعوا إلى الله، قال الكلبي وابن زيد حق على من تبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ويذكر القرآن، أو المعنى أنا وكل من تبعني فهو على بصيرة، قال ابن عباس يعني به أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة وأقصد هداية معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرحمن، وقال ابن مسعود من كان مستنًّا فليستنّ بمن قد مات إولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة أبرّها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فهم كانوا على الهدى المستقيم ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ عطف على أدعوا يعني ادعو إلى الله وأنزّهه تنزيهاً من الشركاء ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ لا ملائكة رد لقولهم ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق (٦٥٠٦).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾[١] ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ كما نوحي إليك وبذلك امتازوا عن غيرهم، قرأ حفص هنا وفي النحل ولأول من الأنبياء بالنون وكسر الحاء على التكلم والبناء للفاعل والباقون بالياء وفتح الحاء على الغيبة والبناء للمفعول ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يعني من أهل الأمصار لكونهم أعقل وأعلم وأحلم دون أهل البوادي لغلظهم وجفائهم، قال الحسن نظراً إلى هذه الآية لم يبعث الله نبياً من بدو ولا من الجن ولا من النساء، قلت لا دليل في الآية على نفي النبوة من الجن، فإنه تعالى قال: ﴿كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[٢] وأيضاً الكلام في بعث الرسل إلى الإنس، وذلك لا يقتضي عدم إرسال الجن إلى الجن، وقد قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾[٣] ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني هؤلاء المشركون المكذّبون ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ أمر ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المكذّبين بالرسل والآيات فيعتبروا ويحذروا تكذيبك، أو من المستغرقين بالدنيا المتهالكين عليها ﴿فينقلعوا﴾ عن حبها ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي دار الحالة الآخرة أو الساعة الآخرة أو الحياة الآخرة ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ۗ﴾ الشرك والمعاصي يقول الله تعالى، هذا ما فعلنا بأهل وِلايتنا وطاعتنا أن ننجيهم عند نزول العذاب في الدنيا، وما في الدار الآخرة لهم خير، فترك ما ذكر اكتفاءً بدلالة الكلام عليه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي تستعملون عقولكم لتعرفوا أنها خير، قرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ عامة لما دل عليه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أي فتراخي نصرهم حتى إذا استيئسوا، وقال البيضاوي غاية لمحذوف دل عليه الكلام تقديره لا يغررهم تمادي أيّامهم فإن من قبلهم أمهلوا حتى إذا استيئس الرسل من إيمان قومهم لانهماكهم في الكفر مترفين متمادين فيه من غير سوء ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ قرأ الكوفيون وأبو جعفر بتخفيف الذال، وكانت عائشة تنكر هذه القراءة نظراً إلى ظاهر معناه أنهم ظنوا أخلفوا ما وعدهم الله لكن القراءة متواترة وإن لم تسمعها عائشة من النبي ﷺ ولم يبلغها متواتراً، والمعنى ظنوا أي الرسل أنهم قد كذبوا أي كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم أنهم ينصرون، أو كذبهم القوم بوعد الإيمان، أو المعنى وظنوا أي المرسل إليهم أنهم أي الرسل قد كذبوهم بالدعوة والوعيد، أو المعنى ظن المرسل إليهم أن الرسل قد

(١) سورة فصلت، الآية: ١٤.
(٢) سورة الجن، الآية: ٦.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٥.

كذبوا وأخلفوا فيما وعد لهم من النصر وخلط الأمر عليهم، وقال البغوي وروى عن ابن عباس أن معناه ضعف قلوب الرسل يعني وظنت الرسل أنهم قد كذبوا فيما وعدوا من النصر وكانوا بشراً وظنوا أنهم أخلفوا ثم تلا ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾(١) وهذا المعنى هو الذي أنكرته عائشة، قال البيضاوي إن صح هذه الرواية يعني عن ابن عباس فالمراد بالظن ما يهجس في القلب على طريق الوسوسة، قال الطيبي الرواية صحيحة فقد رواه البخاري والظاهر أن المراد بالآية المبالغة في التراخي والإمهال على سبيل التمثيل، وقرأ غير الكوفيين بالتشديد، والمعنى وظنت يعني اتقنت الرسل أن القوم قد كذبوهم فيما أوعدوهم تكذيباً لا يرجى إيمانهم بعده، كذا قال قتادة وقال بعضهم معنى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ ممن كذبهم من قومهم أن يصدقوهم وظنوا أن آمن بهم منهم قد كذبوا وارتدوا عن إيمانهم لشدة المحنة والبلاء واستبطاء النصر ﴿جَآءَهُمْ﴾ أي الرسل ﴿نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء على لفظ الماضي المبني للمفعول من التفعيل، فيكون محل مَنْ مرفوعاً، والباقون بنونين وتخفيف الجيم وسكون الياء على لفظ المضارع المتكلم من الأفعال ومَنْ حينئذ في محل النصب والمراد بِمَنْ نَّشَاءُ النبي والمؤمنون، وإنما لم يعينهم ليدل على أنهم هم الذين يستأهلون إن نشاء نجاتهم لا يشاركهم فيه غيرهم ولا يذهب الوهم إلى غيرهم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إذا نزل بهم وفيه بيان المشيئتين، قلتُ: ويمكن أن يكون المراد بمن نشاء بعض المؤمنين فإن بعضهم قد يهلكون بمجاورة الكافرين قال الله تعالى ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾(٢).

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ أي في قصص الأنبياء وأممهم أو في قصة يوسف وإخوته ﴿عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي لذوي العقول السليمة المبرأة عن شوائب الأنفِ والركون إلى الحسّ، حيث نقل من غيابة الجب إلى غيابة الحب، ومن الحصير إلى السرير فصارت عاقبة الصبر السلامة والكرامة، ونهاية المكر الخزي والندامة ﴿مَا كَانَ﴾ القرآن ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي يختلق ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة والإنجيل والزبور ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مما يحتاج إليه العباد في الدين، إذ ما من أمر ديني إلا وله سند من القرآن بوسط أو بغير وسط، فإن ما كان ثابتاً بالسنة فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[١] وقال: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾[٢] وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٣] ونحو ذلك وما كان ثابتاً بالإجماع فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾[٤] الآية، وما كان ثابتاً بالقياس فقد قال الله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾[٥] ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ ينال بها خير الدارين ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقونه خصوا بالذكر لانتفاعهم به دون غيرهم، وما نصب بعد لكِنْ معطوف على خبر كان، قال الشيخ أبو منصور في ذكر قصة يوسف وإخوته تصبير لرسول الله ﷺ على أذى قريش كأنه يقول أن إخوة يوسف مع كونهم موافقاً له في الدين وكانوا أبناء رجل واحد، عملوا بيوسف ما عملوا من الكيد والمكر وهم يعلمون قبح صنيعهم فصبر يوسف على ذلك وعفا عنهم، فأنت أحق أن تصبر على أذى قومك فإنهم كفار جهال لا يعلمون قبح صنيعهم، وقال: وهب إن الله تعالى لم ينزل كتاباً إلا وفيه سورة يوسف تامة كما هي في القرآن والله أعلم

تمت سورة يوسف مستهل صفر من السنة ١٢٠٢ الثانية بعد ألف ومائتين ويتلوه سورة الرعد إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٤) سورة النساء، الآية: ١١٥.

(٥) سورة الحشر، الآية: ٢.

# سورة الرعد

## مكية وآياتها ثلاث وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾.

﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ الإضافة بمعنى مِنْ وأراد بالكتاب السورة أو القرآن وتلك إشارة إلى آياتها، أي تلك الآيات آيات السورة الكاملة أو القرآن ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني القرآن كله ومحله الجر عطفاً على الكتاب عطف العام على الخاص إن كان المراد بالكتاب السورة، أو عطف إحدى الصفتين على الأخرى إن كان المراد به القرآن وقوله ﴿الْحَقُّ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق لا ريب فيه، أو محل الموصول الرفع بالابتداء والحق خبره، والجملة كالحجة على الجملة الأولى، فإن قيل تعريف الخبر يدل على اختصاص المنزل بكونه حقًّا، مع أن السنة والإجماع والقياس كل منها حق يفيد الحق، قلنا المراد بما أنزل أعم من المنزل صريحاً أو ضمناً مما نطق المنزل بحسن اتباعه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لإخلالهم النظر والتأمل فيه، قال مقاتل نزلت في مشركي مكة حين قالوا إن محمداً ﷺ تقوّله من تلقاء نفسه، فرد قولهم وبين دلائل توحيده.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ﴾ مبتدأ وخبر، أو الموصول صفة والخبر يدبر ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾

جمع عماد كإهَابٍ وأهَبٍ أو عمود كأدِيم وأدَم، يعني اساطين حال من السماوات ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة لعمد أو استئناف للاستشهاد برؤيتهم السموات، كذلك وهو دليل على وجود الصانع الحكيم، فإن ارتفاعها على سائر الأجسام المتساوية لها في الحقيقة الجسيمة، واختصاصها بما يقتضي ذلك، لا بد أن يكون من مخصِّص ليس بجسم ولا جسماني، رجح بعض الممكنات على بعض بإرادته، وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وقد مر البحث عنه في سورة يونس ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي ذلّلهما لما أراد منهما كالحركة المستمرة على حد من السرعة ينفع للحوادث اليومية ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِى﴾ في السماء الدنيا ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لمدة معينة يتم فيها أدواره، أو لغاية معلومة وهو وقت فناء الدنيا ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي يقضي أمر ملكوته من الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة وغير ذلك ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ ينزلها أو يبينها مفصلةً، أو يحدث الدلائل واحداً بعد واحد ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لكي تفكروا فيها وتعلموا كمال قدرته، فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها قادر على الإعادة والجزاء﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بسطها ليثبت عليها الإقدام وينقلب عليها الحيوان ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جمع راسية أي جبالاً ثابتة من رسى الشيء إذا ثبت، والتاء للتأنيث على أنها صفة أجبل أو للمبالغة، قال ابن عباس كان أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ ضمها إلى الجبال وعلق بهما فعلاً واحداً من حيث أن الجبال إسباب لتولّدها ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ متعلق بقوله ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي جعل في الأرض جميع أنواع الثمرات ﴿زَوْجَيْنِ﴾ صنفين ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ الجيد والرديء قلتُ: يمكن أن يكون المراد بها تنوعها على أقسام شتَّى أدناها اثنان ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يلبسه مكانه فيصير الجو مظلماً بعدما كان مضيئاً ويصير مضيئاً بعدما كان مظلماً، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر يُغشّي بالتشديد ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها فإن تكوّنها وتخصيصها بوجه دون وجه دليل على وجود صانع حكيم دبر أمرها وهيّأ اسبابها.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ متقاربات بعضها طيبة وبعضها سَبِخَةٌ وبعضها رخوة وبعضها صلبة، وبعضها يصلح للزرع دون الشجر وبعضها بالعكس، وبعضها قليلة الريع وبعضها كثيرة، ولولا تخصيص قادر يفعل ما يشاء على ما أراد لم يختلف لاشتراك تلك القِطَع في طبيعة الأرض وما يلزمها ويعرض لها بتوسط الاسباب السماوية من حيث أنها متضامة متشاركة في النسب والأوضاع ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ بساتين ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ﴾ وحدّها لكونها مصدراً في الأصل ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾ أي نخلات أصولها واحد جمع صِنْوٍ كقنوانٍ

جمع قِنْوٍ، ولا فرق بين تثنيتهما وجمعهما إلا بأن النون في التثنية مكسورة بلا تنوين وفي الجمع منونة، ومنه قوله ﷺ في العباس «إن عم الرجل صنو أبيه»[(١)] ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ متفرقات مختلفة الأصول، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ﴾ رفع الأربعة عطفاً على جنّات والباقون بجرها عطفاً على أعْنَابٍ ﴿يُسْقَىٰ﴾ قرأ عاصم وابن عامر ويعقوب بالتاء للتأنيث لأن الضمير راجعة إلى الجمع والباقون بالياء على التذكير على تأويل ما ذُكِرَ ﴿بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء على الغيبة مطابقاً بقوله يُدَبِرُ والباقون بالنون على التكلم ﴿بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ في الثمر قدراً وطعماً ورائحةً ولوناً، أخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الدقل والفارسي والحلو والحامض»[(٢)] وذلك أيضاً مما يدل على الصانع الحكيم، فإن اختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب لا يكون إلاَّ بتخصيص قادر مختار، قال مجاهد كمثل بني آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد، وقال الحسن هذا مثل ضرب الله لقلوب بني آدم، كانت الأرض طينة واحدة في يد الرحمن فسطحها فصارت قطعاً متجاورات، فأنزل عليها الماء من السماء فأخرج من هذه زهرتها وشجرها وثمرها ومن هذه سبخها وملحها وخبثها، وكل تسقى بماء واحد، كذلك الناس خلقهم من آدم فأنزل من السماء ذِكْرَه فرق قلوب وخشعت وقسى قلوب ولهت، قال الحسن والله ما جالس القرآن أحد الإقام من عنده بزيادة أو نقصان قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾[(٣)] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم بالتفكير.

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: في تقديم الزكاة ومنعها (٩٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الرعد (٣١١٨).

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمد من تكذيب المشركين إياك في دعوى الرسالة بعدما رأوا الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة مع أنهم يعبدون ما لا يضر ولا ينفع من الحجارة بلا دليل ﴿فَعَجَبٌ﴾ أي حقيق بأن يتعجب منه ﴿قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ بعد الموت ﴿أَءِنَّا﴾ اختلف القراء في الاستفهامين إذا اجتمعا نحو هذه الآية وقوله تعالى ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾[١] ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾[٢] وشبهه وجملته أحد عشر موضعاً في القرآن، فقرأ نافع والكسائي ويعقوب الأول استفهاماً بهمزتين والثاني خبراً بهمزة واحدة، وأبو جعفر وابن عامر بالعكس، والباقون استفهاماً فيهما، إلا أن نافعاً قرأ في النمل والعنكبوت الأول منهما خبراً والثاني استفهاماً، وكذا ابن كثير وحفص في العنكبوت وأبو جعفر يوافق نافعاً في أول الصافات دون الثاني، وابن عامر في النمل والنازعات بعكس هذا وفي الواقعة بالاستفهام فيهما، ثم القراء عند اجتماع الهمزتين على أصولهم، فنافع وابن كثير وأبو عمرو يقرؤن الاستفهام بهمزة وياء بعدها، فابن كثير لا يمد بعد الهمزة وأبو عمرو يمد ويدخل قالون بينهما ألفاً وهشام يدخل بين الهمزتين المحققتين ألفاً ﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ والجملة الاستفهامية بدل من قَوْلُهُمْ، أو مفعول به له يعني قولهم هذا المشعر بإنكار البعث حقيق بالتعجب، فإنهم ينكرون البعث مع إقرارهم بابتداء الخلق من الله ﷻ، وقد تقرر في القلوب أن الإعادة أهون من الابتداء، والعامل في إذا محذوف دل عليه ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ تقديره أَنُعَدْنَا فِي خَلْقٍ جَدِيدٍ كما كنا قبل الموت إذا متنا وكُنَّا تُرَاباً أو المعنى وإن تعجب يا محمد على إنكارهم البعث بعد إقرارهم ببدء الخلق من الله تعالى فقولهم هذا حقيق بأن يتعجب منه، فإن من قدر على إنشاء ما قَصَّ عليك كانت إلا عادة أيسر شيء عليه، والآيات المعدودة كما هي دالة على وجود المبدأ دالة على مكان الإعادة من حيث أنها تدل على كمال قدرته

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٤٧.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٠.

وقبول المواد لأنواع تصرفاته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني الذين ينكرون البعث هم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ لأنهم كفروا بقدرته تعالى على البعث، والعاجز لا يصلح لكونه رباً ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ يعني هم مقيدون بالضلال لا يرجى خلاصهم، أو هم يغلون يوم القيامة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يوم القيامة دل تكرار أولئك على تعظيم الأمر ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها وتوسيط الفصل لتخصيص الخلود بالكفار كما هو مذهب أهل الحق خلافاً للمعتزلة.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ الاستعجال طلب الشيء عاجلاً قبل وقته والمراد بالسيّئة ههنا العقوبة وبالحسنة النعمة والعافية وذلك أن مشركي مكة كانوا يطلبون العقوبة بدلاً من العافية استهزاءً منهم يقولون ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لا يعتبرون بها، ولم يجوز وأحلول مثلها عليهم، والمثلة بفتح الثاء وضمها كالصَّدَقَةِ والصَّدُقَةِ العقوبة، لأنها مثل المعاقب عليه ومنه المثال للقصاص وأمْثَلْتُ الرجل من صاحبه إذا اقتصصته ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي مع ظلمهم على أنفسهم ومحله النصب على الحال والعامل فيه المغفرة، قلتُ الظاهر إن الآية في منكري البعث والمراد بالمغفرة الإمهال يعني أن الله حليم يمهل الكفار مع ظلمهم ولذلك لم يعذبهم وهم يستعجلون العقوبة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يعني إذا يحل بهم العقوبة من الله تعالى لا يستطيع أحد دفعه، وقال السديّ قوله تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ في حق المؤمنين خاصة، وهي أرجى آية في كتاب الله حيث وعد المغفرة مع الظلم، ففيه دليل على جواز العفو بلا توبة إذ التائب ليس على الظلم بل «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[2] رواه ابن ماجه عن ابن مسعود مرفوعاً ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على الكفار، وقيل هما جميعاً في المؤمنين لكنه معلّق بالمشية فيهما أي: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[3] أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي والوا حدي عن سعيد بن المسيب مرسلاً عن النبي ﷺ أنه قال: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحد بعيش، ولولا وعيده وعذابه لا تكل كل أحد».

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة (٤٢٥٠).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٩.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﷺ ﴿ءَايَةٌ﴾ أي علامة وحجة على نبوته ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ لم يعتدوا بالآيات المنزلة على النبي ﷺ، واقترحوا آيات أخر تعنتاً وعناداً فقال الله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ﴾ يعني ليس عليك إلا الإنذار والتبليغ، وما عليك إتيان الآيات المقترحة ولا حملهم على الهداية كرهاً ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قرأ ابن كثير هادٍ ووالٍ ووَاقٍ وَمَا عِنْدَ الله بَاقٍ بالتنوين في الوصل فإذا وقف وقف بالياء في هذه الأحرف الأربعة حيث وقعت لا غير، والباقون يصلون بالتنوين ويقفون بغير ياء، والمعني أن لكل قوم هاد أي قادر على هدايتهم وهو الله عز وجل: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] كذا قال سعيد بن جبير، وقال عكرمة الهادي محمد ﷺ والمعنى أنت منذر وهادٍ أي داعٍ إلى سبيل الحق لكل قوم الهداية حينئذ بمعنى إراءة الطريق، وقيل: معناه ولكل قوم نبي يهديهم أي يدعوهم إلى الله بما يعطيهم من الآيات لا بما اقترحوا، قبح الله الرافضة يقولون كان في التنزيل ولكل قوم هاد عليٌّ حذف عثمان عليه السلام حسداً لفظ عليّ، لعنهم الله أنىّ يؤفكون ينكرون قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾[2] وعلى هذا يلزم فضل عليّ عليه السلام على النبي ﷺ فإن معنى الآية على هذا إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ ولست بهاد ولكن عليّ هَادٍ لكل قوم ولا يخفي ما فيه.

ثم أردف الله تعالى ذلك بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدره تنبيهاً على أنه تعالى قادر على إنزال ما اقترحوه، وإنما لم ينزل لعلمه أن اقتراحهم للعناد دون الاسترشاد، وأنه قادر على هدايتهم وإنما لم يهدهم لسبق قضائه عليهم بالكفر فقال: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي حملها أو ما تحملها من ذكر أو أنثى سِويُّ الخلق أو ناقصه وواحداً أو أكثر، وأنه على أيّ حال هو من الأحوال الحاضرة والمترقبة ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ﴾ غاض وازداد جاء كل منهما لازماً ومتعدياً، في القاموس غاض الماء غيضاً ومغاضاً قل ونقص كالغاض غاض الماءُ وثمنُ السلعة نقص، وغاض الماءَ وثمنَ السلعة نقضهما كأغاضَ، وازداد القومُ على عشرة: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ﴾[3] فإن جعلتَهما لازمين فما حينئذ مصدرية والمعنى الله يعلم انتغاض الأرحام وازديادها، والإسناد إلى الأرحام مجازي فإنهما لما فيهما يعني ينتقص ما في الأرحام في الجثة والمدة والعدد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٢.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٦٣.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٦٥.

ويزداد، وإن جعلتهما متعديين فما يحتمل أن يكون موصولة وأن يكون مصدريةً والمعنى الله يعلم ما تنقصه الأرحام وما تزداده في الجثة والمدة والعدد. **مسألة**: أقل مدة الحمل ستة أشهر اتفاقاً روي أن رجلاً تزوج امرأة فولدت لستة أشهر، فهمَّ عثمان أن يرجمها، فقال ابن عباس لو خاصمتكم بكتاب الله تعالى لخصمتكم، قال الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾[1] وقال: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾[2] فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر، فَدَرَأ عثمان عنها الحد، قال ابن همام التمسك بدرء عثمان مع عدم مخالفة أحد فكان إجماعاً، وأنه قد يولد بستة أشهر ويعيش، وأكثر مدة الحمل سنتان عند أبي حنيفة، لما روى الدارقطني والبيهقي في سننهما من طريق ابن المبارك ثنا داود بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت ما تزيد المرأة في الحمل على سنتين قدر ما يتحول ظل عمود المغزل، وفي لفظ قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين ولو بظل مغزل، وعند الشافعي ومالك أكثر مدة الحمل أربع سنين، وقيل: عند مالك خمس سنين، قال حماد بن سلمة إنما سمي هرم بن حبان هرماً لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين. وروى البيهقي عن الوليد بن مسلم قال: قلتُ لمالك بن أنس إنيّ حُدِّثتُ عن عائشة أنها قالت: لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قدر ظل مغزل، فقال: سبحان الله من يقول هذا؟ هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان امرأة صدوق وزوجها رجل صدوق حملت ثلاثة بطون في اثنتي عشرة سنة كل بطن في أربع سنين، قال ابن همام ولا يخفي أن قول عائشة مما لا يعرف إلا سماعاً في حكم المرفوع، وهو مقدم على المحكي عن امرأة ابن عجلان، لأنه بعد صحة النسبة إلى الشارع لا يتطرق إليه الخطأ بخلاف الحكاية، فإنها بعد صحة نسبتها إلى مالك والمرأة يحتمل الخطأ بها، فإن عامة الأمرأن يكون انقطع دمها أربع سنين ثم جاءت بولد وهذا ليس بقاطع في أن الأربعة سنين بتمامها كانت حاملاً فيها، لجواز أنها امتدت طهرها سنتين أو أكثر ثم حبلت، ووجود الحركة مثلاً في البطن لو وجد ليس قاطعاً للحمل لجواز كونه من غير الولد، ولقد أخبرنا عن امرأة أنها وجدت ذلك مدة تسعة أشهر من الحركة وانقطاع الدم وكبر البطن وإدراك الطلق، وحين جلست القابلة تحتها أخذت في الطلق وكلما طلقت اعتصرت ماءً، وهكذا شيئاً فشيئاً إلى أن انضم بطنها وقامت عن قابلتها من غير ولادة، وفي الجملة مثل هذه الحكايات لا تعارض الروايات وما روي أن

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٤.

عمر أثبت نسب ولد امرأة غاب عنها زوجها سنين ثم قدم فوجدها حاملاً فهمّ برجمها، فقال له معاذ إن كان لك عليها سبيل فلا سبيل لك على ما في بطنها فتركها، حتى ولدت ولداً قد نبتَتْ ثنياه يشبه أباه، فلما رآه الرجل قال ولدي ورب الكعبة إنما هو لقيام الفراش ودعوى الرجل نسبه والله أعلم.

**مسألة**: على عدد الولد في بطن لا حد له، وقيل نهاية ما عرف أربعة وإليه ذهب أبو حنيفة، وقال الشافعي أخبرني شيخ باليمن أن امرأته ولدت بطوناً في كل بطن خمسة، قلتُ واشتهر في ديار الهند أن امرأة القاضي قدوه في بلاد الشرق ولدت مائة في مشيمة واحدة وعاشوا جميعاً والله أعلم، قال البغوي قال أهل التفسير غيض الأرحام الحيض على الحمل، فإذا اهراقت الدم ينتقص الغذاء فينتقص الولد، وإذا لم تحض يزداد الولد فيتم، فالنقصان نقصان خلقه الولد بخروج الدم والزيادة تمام خلقته باستمساك الدم، وقيل إذا حاضت تنقص الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر طاهراً، فإن رأت خمسة أيام دماً وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام فالنقصان في الغذاء والزيادة في المدة، وقال الحسن غيضها نقصانها من تسعة أشهر والزيادة زيادتها على تسعة أشهر، وقيل النقصان السقط والزيادة تمام الخلق ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ بتقدير إلى حد معين في علم الله تعالى لا يجاوز ولا ينقص عنه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ قد شرحنا الغيب والشهادة في سورة ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي كل شيء دونه ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته أو الذي كبر عن نعت المخلوقين وتعالى عنه، قرأ ابن كثير بإثبات الياء وصلاً ووقفاً والباقون يحذفونها في الحالين ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ في علم الله ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ في نفسه ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ لغيره ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ أي طالب لإخفاء نفسه ﴿بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌ﴾ بارز ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ يراه كل أحد من سرب سروباً إذ أبرز، وقيل: معناه ذاهبٌ في سربه ظاهراً أو السرب الطريق، وقال القتيبي سَارِبُ بالنهار متصرف في حوائجه، عطف على مَنْ أو على مستخف على مَنْ في معنى للاثنين كأنه قال ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ اثنان مستخف وسارب، وقال ابن عباس في هذه الآية هو صاحب زَنِيَّةٍ مستخف بالليل وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم، فعلى هذا عطف على مُسْتَخْفٍ والمراد بمَنْ واحد متصف بصفتين.

﴿لَهُۥ﴾ أي لمن أسر ومن جهر ومن هو مستخف وسارب أو لله تعالى ملائكة ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ جمع معقبة من عقّب مبالغة عقبه إذا جاء على عقبه، أو من اعتقب فأدغمت التاء في القاف والتاء للمبالغة، وقال البغوي واحده مُعَقِّبٌ وجمعه مُعَقِّبَةٌ ثم جمع المعقبة على المُعَقِّبَاتِ كما قيل إنثاوات سعدٍ ورجالات بكرٍ، يعني يتعاقبون فيكم بالليل والنهار

إذا صعدت ملائكة الليل جاءت في عقبها ملائكة النهار وإذا صعدت ملائكة النهار جاءت في عقبها ملائكة الليل فيكتبون أعمال العباد ويحفظونهم عن الآفات، روى البغوي بسند صحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار يجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلّون وأتيناهم وهم يصلّون»(١) ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ صفة معقّبات أي كائنة من قدام المستخفي والسارب ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ يعني من جوانبه كلها ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ الضمير راجع إلى مَنْ، أي يحفظون العبد من الآفات ما لم يأت القدرُ، فإذا جاء القدر خلوا عنه، قال مجاهد ما من عبد إلا وله ملك مؤكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما من شيء يأتيه يريده إلا قال ورائك إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه وقال كعب الأحبار لولا أن الله تعالى وكل بكم الملائكة يدنون عنكم في مطعمكم ومشربكم ووعوراتكم لتَخْطَفَنَّكم الجن، أو المعنى يحفظون أعماله إن كان الآية في الملَكَين القاعدين عن اليمين والشمال يكتبان الحسنات والسيئات، كما قال الله تعالى: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧﴾(٢) قال ابن جريج أي يحفظون عليه أعماله ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ قيل هو صفة ثانية لمعقبات يعني معقبات كائنة من أمر الله، أو ظرف لغو متعلق بقوله يحفظونه أي يحفظونه من أجل أمر الله تعالى أتاهم بالحفظ، أو المعنى يحفظونه من أمر الله أي من بأسه متى أذنب بالاستمهال أو الاستغفار له، وقيل: مِنْ ههنا بمعنى الباء أي يحفظونه بإذن الله، وقيل المعقبات الحرس حول السلطان يحفظونه في توهمه من قضاء الله تعالى، قال البغوي وقيل الضمير في قوله ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ﴾ راجع إلى رسول الله ﷺ يعني لمحمد ﷺ معقبات أي حرّاس من الرحمن ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ من شر الشياطين الجن والإنس وطوارق الليل والنهار.

وقال عبد الرحمن بن زيد: نزلت هذه الآية في عامر بن الطفيل وإربد بن ربيعة، وقصتهما على ما روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، أنه أقبل عامر بن الطفيل وإربد ابن ربيعة وهما عامريّان يريد أن النبي ﷺ، وهو جالس في المسجد في نفر من أصحابه فدخلا المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور وكان من أجمل

(١) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر (٥٥٥) وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاتي الصبح والعصر (٦٣٢).
(٢) سورة ق، الآية: ١٧.

الناس، فقال رجل يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك، فقال: دعه فإن يرد الله به خيراً يهده، فأقبل حتى قام عليه، فقال يا محمد مالي إن اسلمتُ، فقال لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين، قال تجعل لي الأمر بعدك، قال: ليس ذلك إليّ إنما ذلك إلى الله عز وجل يجعله حيث يشاء، قال فتجعلني على الوبر وأنت على المدر قال لا قال فما ذا تجعل لي قال أجعل لك أعنّة الخيل تغزو عليها، قال أو ليس ذلك لي إلى اليوم، قم معي أكلمك فقام معه رسول الله ﷺ، وكان أوصى إلى إربد ابن ربيعة إذا رأيتَني أكلمه فدُر من خلفه فاضربه بالسيف، فجعل يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه فدَارَ إربد خلْفَ النبي ﷺ ليضربه، فاخترط من سيفه شبراً ثم حبسه الله عنه ولم يقدر على سلّه، وجعل عامر يومي إليه فالتفت رسول الله ﷺ فرأى إربد وما صنع بسيفه فقال اللهم اكفنيهما بما شئتَ فأرسل الله تعالى على إربد صاعقة في يوم صحو قائظ فأحرقته وولى عامر هارباً وقال يا محمد دعوتَ ربك حتى قتل إربد، والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً أو فتياناً مردا، فقال رسول الله ﷺ يمنعك الله من ذلك، وابنا قَيْلَةَ يريد الأوس والخزرج فنزل عامر بيت امرأة سلوليَّة، فلما أصبح ضم عليه سلاحه وقد تغير لونه فجعل يركض في الصحراء، ويقول أبرز يا ملَك الموت، ويقول الشعر، ويقول واللات والعزى لأن أضحى إلى محمد وصاحبه يعني ملَك الموت لأنفذتهما برمحي، فأرسل الله تعالى ملَكاً فلطمه بجناحه فأداره في التراب، وخرجت على ركبته في الوقت غدةُ عظيمةُ فعاد إلى بيت السلوليَّة، وهو يقول غدة كغدة البعير وموت في بيت السلوليّة، ثم دعا بفرسه فركبه ثم أجراه حتى مات على ظهره فأجاب الله تعالى دعاء رسول الله ﷺ، فقتل بالطعن وإربد بالصاعقة، وأنزل الله تعالى في هذه القصة قوله عز وجل ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ هُوَ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ﴾ يعني لرسول الله ﷺ ﴿مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يعني تلك المعقبات من أمر الله وكذا أخرج الثعلبي، وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن إربد بن قيس وعامر بن الطفيل قدما المدينة على رسول الله ﷺ فقال عامر يا محمد ما تجعل لي أن اسلمتُ، قال: لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم، قال أتجعل لي الأمر من بعدك، قال: ليس ذلك لك ولا لقومك، فقال عامر لإربد إني أشتغل عنك وجه محمد بالحديث فأضربه بالسيف، فرجعا فقال عامر يا محمد قم معي فقام معه ووقف يكلمه وسلّ إربد السيف فلما وضع يده قائم السيف يبست، والتفت رسول الله ﷺ فرآه فانصرف عنهما، فخرجا حتى إذا كانا بالرقم أرسل الله على إربد صاعقة فقتله، فأنزل الله تعالى الله ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ إلى قوله ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنعمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا﴾ أي القوم ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ بعد ما يغيروا ما بأنفسهم ﴿سُوٓءًا﴾ عذاباً وهلاكاً ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ مصدر بمعنى الفاعل يعني لا راد له، والعامل في إذا ما دل عليه الجواب ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ يلي أمرهم فيدفع عنهم السوء وفيه دليل على أن خلاف مراد الله محال.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ۩ ﴿١٥﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من الصاعقة ومن ضرر المطر في السفر وللزرع في بعض الأحيان وبعض الأمكنة ﴿وَطَمَعًا﴾ من الغيث حين ينفع للزرع أو لدفع الحر، وانتصابهما على العلة بتقدير المضاف أي إرادة خوف أو طمع، أو بتأويل الإضافة والإطماع أو على الحال من البرق، أو من المخاطبين بتقدير ذو، أو إطلاق المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل مبالغة ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ جمع سحابة وهو الغيم فإنه ينسحب أي ينجر بالهواء في الجو، وهو جمع سحابة كذا في القاموس، وقال البيضاوي اسم فيه معنى الجمع ولذا وصف بقوله ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ جمع ثقيلة يعني مملوّة بالمطر قال البغوي قال علي السحاب غربال الماء.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ متلبساً ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ يعني يقول سبحان الله والحمد لله، روى الترمذي وصححه والنسائي عن ابن عباس سئل رسول الله ﷺ عن الرعد فقال: «ملك موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب»(١) ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي من خيفة الله وخشيته، قيل أراد بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد جعل الله له أعواناً، فهم خائفون خاضعون طائعون، فالضمير حينئذ جاز أن يعود إلى الرعد يعني يسبح الملائكة من خيفة الرعد، قال ابن عباس من سمع صوت الرعد فقال سبحان الذي يسبح الرعد

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الرعد (٣١١٧).

بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعلى دينه وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع صوت الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويقول إن هذا الوعيد لأهل الأرض لشديد، قال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس الرعد موكل بالسحاب يصرّفه إلى حيث يؤمر، وأنّ بحور الماء في نقرة إبهامه، وأنه يسبح الله فإذا سبح لا يبقى ملك في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح، فعندها ينزل القطر، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال ربكم لو أن عبادي أطاعوني لأسقيتُهم المطر بالليل ولأطلعتُ عليهم الشمس بالنهار ولَمَا أسمعتُهم صوتَ الرعد»[١] رواه أحمد بسند صحيح والحاكم، وقال البيضاوي في تفسير الآية ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي يسبح سامعوه متلبسين به فيصيحون سبحان الله والحمد لله، أو يدل الرعد على وحدانيته تعالى وكمال قدرته متلبساً بالدلالة على فضله ونزول رحمته، قلت: هذا على تقدير عدم ثبوت كون الرعد ملكاً يسبح ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ جمع صاعقة وهي العذاب المهلك والمراد ههنا نار ينزل من السماء ينزل من البرق فيحرق من يصيبه ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ فيهلكه ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ﴾ أي يخاصمون النبي ﷺ ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ أي توحيده والإقرار بكمال علمه وقدرته وإعادة الناس ومجازاتهم. والجدال التشدد في الخصومة من الجدل وهو القتل، والواو إما لعطف الجملة على الجملة أو للحال يعني ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ويفعل كذا وكذا ويُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ، وهم ينكرون صفات كماله ولا يستدلون بما ذكر على وجوده تعالى وكمال قدرته ويخاصمون النبي ﷺ والمؤمنين.

وعلى تقدير نزول الآية في قصة إربد بن ربيعة كما ذكرنا، فالظاهر أن الواو للحال والجملة حال من مفعول يشاء يعني يصيب بها من يشاء أصابته وهو إربد بن ربيعة وأمثاله في حالٍ هُم يجادلون في الله في تلك الحال، قال البغوي قال محمد بن علي الباقر الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب المسلم الذاكر، وأخرج النسائي والبزار عن أنس قال: بعث رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه إلى رجل من عظماء الجاهلية يدعوه إلى الله تعالى، فقال إيش ربك الذي تدعوني إليه أَمِن حديد هو أو من نحاس أو من فضة أو ذهب، فأتى النبي ﷺ فأخبره فأعاده الثانية والثالثة فأرسل الله عليه صاعقة فأحرقته ونزلت هذه الآية ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ إلى آخرها، وقال البغوي نزلت

---

(١) رواه أحمد والبزار وفيه صدقة بن موسى الدقيقي ضعفه ابن معين وغيره. انظر مجمع الزوائد في كتاب: الصلاة، باب: صلاة الاستسقاء (٣٢٧٨).

في شأن إربد بن ربيعة حيث قال للنبي ﷺ «مم ربك أمن درّأم من ياقوت أم من ذهب؟ فنزلت صاعقة من السماء فأحرقته» وقال سئل الحسن عن قوله تعالى ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ الآية فقال: كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبي ﷺ نفراً يدعونه إلى الله وإلى رسوله فقال لهم أخبروني عن رب محمد هذا الذي تدعونني إليه مِمَّ هو من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس؟ فاستعظم القوم مقالته فانصرفوا إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول ما رأينا رجلاً أكفر قلباً ولا أعتى على الله منه فقال إرجعوا إليه، فرجعوا إليه فجعل يزيد هم على مثل مقالته الأولى وقال أجيبُ محمداً إلى رب لا أراه ولا أعرفه، فانصرفوا وقالوا: يا رسول الله ما زادنا إلا على مقالته وأخبث فقال إرجعوا، فرجعوا إليه فبينما هم عنده ينازعونه وهو يقول هذه المقالة إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم. فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحترق الكافر وهم جلوس فجاءوا يسعون ليخبروا رسول الله ﷺ فاستقبلهم قوم من أصحاب النبي ﷺ، وقالوا لهم احترق صاحبكم، فقالوا من أين علمتم؟ فقالوا: أوحى الله إلى النبي ﷺ ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ قال البغوي قال الحسن شديد الحقد، وقال مجاهد شديد القوة، وقال أبو عبيدة شديد العقوبة، وقيل: شديد المكر والمغالبة، قال في القاموس المِحَالُ ككتاب الكيد ورومُ الأمر بالحيل والتدبيرُ والمكرُ والقدرةُ والجدلُ والعذابُ والعقابُ والعداوةُ والقوةُ والشدةُ والهلاكُ والإهلاكُ وهذه المعاني أكثرها يصح ههنا فهو فِعَالٌ من المحل، وقيل: هو مِفْعَلٌ من الحَوْلِ أو الحِيلَةِ أو الحَيْلُولَةِ عل على غير قياس، فعلى هذا ما قال ابن عباس معناه شديد الحول وقال عليّ شديد الأخذ.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي الدعوة المجابة مختصة به تعالى دون غيره كما يدل عليه ما بعده، أو المعنى له الدعاء الحق فإنه الذي يحق أن يُعبد ويُدعى إلى عبادته ويسئل منه الحوائج دون غيره، أو معناه له الدعاء بالإخلاص، والحق على هذه التأويلات ضد الباطل، والإضافة في الظاهر إضافة الموصوف إلى صفته، فيؤوّل على طريقة مسجد الجامع، وجانب الغربي ويقال دعوة المدعو الحق فإن المدعو بدعوة الله سبحانه بالإخلاص يتحقق، أو يقال إضافة الدعوة إلى الحق لما بيتهما من الملابسة كما يقال رجل صِدْقٍ، وقيل: الحق هو الله سبحانه وكل دعاء الله دعوة الحق، فإن قيل هذا الحمل غير مفيد فإن دعاء الله تعالى مختص به تعالى لا محالة كما أن دعاء غيره مختص بغيره قلنا: في ذكر الله تعالى بلفظ الحق إشعار بأن دعاؤه حق لأن دعاء الحق لا يكون إلا حقاً ودعاء الباطل لا يكون إلا باطلاً، فالمعنى على هذا التأويل يؤل إلى ما سبق فهو بمنزلة

الدعوى مع البرهان، قال البغوي قال علي دعوةُ الحقِّ التوحيدُ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما شهادة أن لا إله إلا الله، قلتُ: التوحيد والشهادةُ إن كانا تفسيرين للحق فالإضافة حقيقية والمعنى لله الدعوة إلى التوحيد والشهادة، والمراد بالجملتين إن كانت الآية في عامر وإربد أن هلاكهما من حيث لم يشعر أنه مِحَالُ من الله، واجابة لدعوة رسول الله ﷺ ودالة على أنه على الحق، وإن كانت عامة فالمراد وعيد الكفرة على مجادلة رسول الله ﷺ بحلول مِحَالَةٍ وتهديدهم بإجابة دعوة الرسول الله ﷺ عليهم أو بيان ضلالهم وفساد رأيهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أشياء كائنة ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ يعني يعبدون الأصنام ويذكرونهم ويسئلون منها حوائجهم فحذف المفعول لدلالة قوله مِنْ دُونِه عليه، أو المعنى والذين يدعونهم المشركون كائنة من دون الله فحذف الراجع، والمراد بالموصول حينئذ الأصنام ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ﴾ الضمير راجع إلى الموصول على التقدير الثاني أو إلى محذوف موصوف عن دونه على التقدير الأول والمعنى لا يجيبون ﴿لَهُم﴾ أي للكفار ﴿بِشَيۡءٍ﴾ يريدونه من نفع أو دفع ضر ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ﴾ يعني إلا استجابة كاستجابة من بسط كفيه ﴿إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾ وهو عطشان جالس على شفير البئر يمد يده إلى البئر فلا يبلغ قعر البئر ويدعو الماء ﴿لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾ متعلق بباسط أي يطلب من الماء أن يبلغ فاه ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ لأنه جماد لا يشعر بدعائه ولا يقدر على إجابته والإتيان بغير ما جبل عليه، كذلك آلهتهم لا يشعرون بدعائهم ولا يقدرون على إجابتهم فإضافة الاستجابة إلى الباسط إضافة المصدر إلى المفعول، هذا معنى قرأه مجاهد ومثله عن علي وعطاء، وقيل شبهوا في قلة جدوى دعائهم لها بمن أراد أن يغرف الماء ليشربه فبسط كفيه ليقبض على الماء، والقابض على الماء لا يكون في يده شيء ولا يبلغ إلى فيه منه شيء، كذلك الذي يدعو الأصنام وهي لا تضر ولا تنفع لا يكون بيَده شيء وهذا التأويل مروى عن ابن عباس قال كالعطشان إذا بسط كفيه في الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما الماء ولا يبلغ فاه ما دام باسط كفيه، فهذا مثل ضربه لخيبة الكفار ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أصنامهم أي عبادتهم لها وطلب حاجتهم منها ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ في ضياع وخسار وبطلان، وقال الضحاك عن ابن عباس وما دعاء الكفرين ربهم جلّ وعلا إلا في ضلال لأن أصواتهم محجوبة عن الله تعالى بحجُب الكفر والمعاصي والله أعلم.

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعًا﴾ يعني الملائكة والمؤمنين ﴿وَكَرۡهًا﴾ يعني المنافقين والكافرين الذين أُكرهوا على السجود بالسيف، أو أنهم يسجدون حالة الشدة والضرورة مع كراهيتهم ذلك، وانتصاب طوعاً وكرهاً بالحال أو العلة ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ يسجد

معهم بالعرض، ويحتمل أن يراد بالسجود انقيادهم لما أراده منهم شاءوا أو كرهوا، وانقياد ظلالهم لتصريفه إياها بالمد والتقليص، ويمكن أن يقال: المراد بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ حقائق من فيها وأرواح الملائكة والمؤمنين وبظلالهم أشخاصهم وقوالبهم كما عبر رسول الله ﷺ في دعائه الظاهر بالسواد والباطنَ بالخيال، حيث قال في سجوده سجد لك سوادي وخيالي، وهذا التأويل أولي مما سبق لأن الظلال التي يرى في ضح الشمس عبارة عن سوادٍ موضع لم يصل إليه ضوء الشمس لحجاب جثة الشيء، وذلك أمر عدمي لا وجود لها فكيف يسند إليها السجود ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ ظرف ليسجد والمراد بهما الدوم، والآصال جمع أصيل وهو ما بين العصر إلى المغرب.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقهما ومدبرهما ومتولى أمرهما استفهام تقرير، فإنهم كانوا يقولون بأن الله خالقهم وخالق السماوات والأرض ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ يعني إن لم يقولوه فأجب أنتَ عنهم، إذ لا جواب لهم سواه وهم يقولون بذلك، ولأنه هو البين الذي لا يحتمل الاختلاف أو لقنهم الجواب به، قال البغوي روي أنه لما قال رسول الله ﷺ للمشركين مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالأرْضِ، قالوا: أجب أنتَ! فقال الله تعالى قُلِ الله، ثم قال فألزمهم بذلك» ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم﴾ عطف على محذوف والاستفهام للإنكار تقديره أأقررتم بربوبيته تعالى للعالمين فاتخذتم أشياء كائنة ﴿مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ واتخذتموه ظهرياً وهذا أمر منكر بعيد عن مقتضي العقل، ثم أجرى على الأولياء وصفاً بقوله ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ يعني لا يقدرون على أن يجلبوا إلى أنفسهم نفعاً أو يدفعوا عنها ضرًّا فكيف يتولون أموركم وكيف يستطيعون إيصال الخير إليكم أو دفع الضرِّ عنكم، وهو دليل ثان على

ضلالهم وفساد رأيهم في اتخاذهم أولياء رجاءً أن يشفعوا لهم ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ يعني الذي لا عقل له ولا بصيرة أو لا يستعملها ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي ذو بصيرة يدرك بها حقيقة العباد والموجب لها، ويُمَيِّزُ مَنْ يستحق العبادة والولاية ممن لا يستحق ذلك، وقيل المراد بالأعمى المعبود الغافل منكم، وبالبصير المعبود المطلع على أحوالكم ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالياء التحتانية، والباقون بالتاء الفوقانية لتأنيث الفاعل لكنه غير حقيقي ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ يعني الكفر والإيمان ﴿أَمْ﴾ يعني بل ﴿جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ والاستفهام للإنكار وقوله ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ صفة لشركاء داخلة في حكم الإنكار ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ خلق الله وخلق الشركاء، والمعنى اتخذوا شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق الله فاستحقوا العبادة كما استحقها، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلقُ فضلاً عما يقدر عليه الخالق ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يعني كل ما يشاء من الأجسام والأعراض والأرواح المجردة لا خَالِقَ غير الله، ولا يتصور ممن لا يقتضي ذاته وجوده أن يوجد غيره فلا يجوز العبادة لغيره، ومن قال أن الله تعالى لم يخلق أفعال العباد بل هم خلقوها فهو ممن تشابه الخلق عليهم ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾ المتوحد بالربوبية واستحقاق العبادة، بل المتوحد بالوجود المتأصل لا موجود غيره إلا بوجود هو ظل وجوده ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾ الغالب على كل شيء لا يقاومه شيء، إذ لا يتصور من المعدوم في نفسه الموجود بغيره مقاومة ذلك الغير الذي هو الموجود المتأصل بوجوده.

﴿أَنزَلَ﴾ الله الواحد القهار ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ جمع واد وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثرة، فاتسع فيه واستعمل للماء الجاري فيه كقولك سال الميزاب، وتنكيرها لأن المطر إنما يأتي على طريق المتأدبة بين البقاع فيسيل بعض أودية الماء دون بعض ﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي بقدر الأودية في الصغر والكبر ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ﴾ أي الماء السائل في الأودية ﴿زَبَدًا﴾ أي خبثاً يظهر على وجه الماء ﴿رَّابِيًا﴾ عالياً مرتفعاً فوق الماء الصافي ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص بالياء على أن الضمير للناس وإضماره للعلم به والباقون بالتاء على الخطاب، والإيقاد جعل النار تحت شيء ليذوب، ومن لابتداء الغاية أي منه ينشأ زُبدُ مثل زبد الماء، أو للتبعيض أي وبعض ما توقدون ﴿عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ يعم الفلذات كالذهب والفضة والحديد والنحاس والصفر، والظرف حال من الضمير في عليه ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ منصوب على الحال من فاعل يوقدون أو على العلة، يعني يوقدون مبتغين

حلية أو لابتغاء حليةٍ أي زينة مثل الذهب، والفضة ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ أي ما يتمتع وينتفع به كالأواني من النحاس والصفر وغيرها وآلات الحرب والحرث من الحديد، والمقصود من ذلك بيان منافعها ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي مثل زبد الماء وذلك خبثه الذي ينفيه الكير، وزبد فاعل لقوله وَمِمَّا يُوقِدُونَ أو مبتدأ وهو خبره المقدم عليه ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ مثل ﴿ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ فإن الحق يعني العلم المنزل من السماء مثله في إفادته وانتفاع الناس به أنواع المنافع الدنيوية والأخروية، واتساع القلوب إياه بقدرها وسعتها، وثباته إلى يوم القيامة بل إلى أبد الآبدين كمثل الماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة وعلى قدر صغر الوادي وكبرها وينتفع به الناس أنواع المنافع ويمكث في الأرض بأن يثبت بعضه في منافعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقنى والآبار، وكمثل الفَلَزِ الذي ينتفع به الناس في صوغ الحلي واتخاذ الأمتعة المختلفة ويدوم ذلك مدة متطاولة، والباطل يعني خرافات الكفار وهَوَاجِسُ النفس وخطوات الشيطان مثلها في انتشارها وشهرتها وعدم الانتفاع بها وعدم استقرارها كمثل الزبد المستعلي على الماء والفلز ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ يجفى به أي ما يرمي به السيل أو الفلز المذاب، يقال جفا الوادي وأجْفَا إذا ألقي غُثَاءَهُ، وقيل: جُفَاءً أي متفرقاً يقال جفَات الريح القسم أي فرقته وانتصابه على الحال فألباطل يرميه الحق ويفرقه ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الماء والفلز وكذلك العلم النافع ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي يبقى ولا يذهب وينتفع به الناس ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما ضرب الله المثل للحق والباطل ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ لإيضاح المشتبهات، قيل هذه تسلية للمؤمنين بزوال ظلمة الكفر وإن كان في الصورة عالياً مستعلياً وبقاء نور الإسلام واستقراره إلى يوم القيامة.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ أي أجابوا ﴿لِرَبِّهِمُ﴾ دعوته إلى الإسلام وأطاعوه فيما أمرهم به ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ صفة لمصدر يعني الاستجابة الحسنى أو مفعول به يعني استجابوا لربهم الدعوة الحسنى ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ يعني الكفار واللام متعلقة بيضرب على أنه جعل ضرب المثل لشأن الفريقين ضرب المثل لهما، وقيل للذين استجابوا خبر الحسنى وهي المثوبة الحسنى أو الجنة والذين لم يستجيبوا مبتدأ خبره ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ يوم القيامة لفكاك أنفسهم من النَّار وعلى التأويل الثاني هذا كلام مبتدأ لِمال غير المستجيبين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ وهو أن يناقش فيه ولا يغفر من ذنبه شيء كذا قال إبراهيم النخعي ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ مهادهم وهو جهنم قال الله تعالى: ﴿لَهُم

مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[١].

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ فيؤمن ويعمل بمقتضاه ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ القلب لا يستبصر ولا يدرك الحق من الباطل، والهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أيشتبه أمر الفريقين بعدما ضرب من المثل فمن يعلم يكون عند المخاطب كمن هو أعمى لا، قيل نزلت الآية في حمزة أو عمار وأبي جهل فالأول حمزة أو عمار والثاني أبو جهل ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي ذو والعقول السليمة المنزهة عن شائبة الأنف ومعارضة الوهم ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي ما عوهدوا على أنفسهم يوم الميثاق من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلى وما عاهد الله عليهم في كتبه من امتثال الأوامر والانتهاء عن المناهي ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبينهم وبين العباد فهو تعميم بعد تخصيص ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ هذا لفظ عام مندرج فيه الإيمان بجميع الكتب والرسل بحيث لا يفرق بين أحد منهم، وموالاة المؤمنين وصلة الرحم، وقال البغوي الأكثرون على أن المراد صلة الرحم، عن عبد الرحمن بن عوف قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول قال الله ﷻ: «أنا الله وأنا الرحمن خلقتُ الرحم وشققتُ لها إسماً من اسمي فمنْ صلها وصلتُه ومن قطعها بتتُّه»[٢] رواه أبو داود، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤١.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: في صلة الرحم (١٦٩٣) وأخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في قطيعة الرحم (١٩١٣).

بحقوى الرحمن فقال: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعكِ، قالت: بلى يا رب قال: فذاك لكِ»[١] متفق عليه، وعن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة تحت العرش يوم القيامة الفران يحاج العباد له ظهر وبطن والأمانة والرحم تنادي ألاَ من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله» رواه البغوي والحكيم ومحمد بن نصر، وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يبسط الله في رزقه ويُنْسَأله في أثره فليصل رحمه»[٢] متفق عليه، وعن أبي أيوب الأنصاري قال: عرض أعربي لرسول الله ﷺ في منزله فقال: أخبرني ما يقرّبني من الجنة ويباعدني من النار؟ فقال ﷺ «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم» رواه البغوي، وعن عبد الله بن عمرو قال: قال النبي ﷺ: «ليس الواصل المكافئ ولكن الواصل إذا انقطعت رحمه وصلها»[٣] رواه البخاري، وعن أبي هريرة قال: قال رجل يا رسول الله من أحقّ بحسن صحابتي؟ قال: أمكَ قال: ثم من؟ قال: أمكَ، قال: ثم من؟ قال: أمكَ، قال: ثم من؟ قال أبوك» وفي رواية «أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك ثم أدناك وأدناك»[٤] متفق عليه، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أبَرّ البِرّ صلة الرجل أهل ودّ أبيه بعد أن يوليّ»[٥] رواه مسلم، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم في صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر»[٦] رواه الترمذي وقال: هذا حديث غريب ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي وعيده عموماً ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ خصوصاً فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ قال ابن عباس على ما أمروا به، وقال عطاء على المصائب

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: من وصل وصله الله (٥٩٨٧) وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: صلة الرحم وتحريم قطعها (٢٥٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: من أحب البسط في الرزق (٢٠٦٧) وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: صلة الرحم وتحريم قطعها (٢٥٥٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: ليس الواصل بالمكافئ (٥٩٩١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: من أحق الناس بحسن الصحبة (٥٩٧١) وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: بر الوالدين وأنهما أحق به (٢٥٤٨).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما (٢٥٥٢).

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في تعليم النسب (١٩٨٥).

والنوائب، وقيل: عن الشهوات، وقيل عن المعاصي، والأولى أن يقدر على مخالفة الهوى فيعم جميع الأقوال ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي طلباً لمرضاته لا لغرض من أغراض الدنيا أو رياءً أو سمعةً ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة وما شاؤوا من السنن والنوافل ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي بعضه في الزكاة المفروضة والنفقات الواجبة والصدقات النافلة ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ السر أفضل في النافلة والعلانية في المفروضة نفياً للتهمة، وقدم السر على العلانية لأن الغالب من حال المسلم الصدقة النافلة، وقلّ ما يجب على المسلم الزكاة ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ قال ابن عباس أي يدفعون بالصالح من العمل السيّء نظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[(١)] عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها»[(٢)] رواه أحمد بسند صحيح، وروى ابن عساكر عن عمر ابن الأسود مرسلاً أن رسول الله ﷺ قال «إذا عملت عشر سيّئات فاعمل حسنة تحدرهن بها» وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته، ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل حسنة فانفكت أخرى حتى طرح إلى الأرض» رواه الطبراني، وقال ابن كيسان معنى الآية يدفعون الذنب بالتوبة، قال رسول الله ﷺ: «إذا عملت سيئة فأحدث عندها توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية» رواه أحمد في الزهد عن عطاء مرسلاً، وقيل: معناه لا يكافؤ الشر بالشر ولكن يدفعون الشر بالخير، وقال السديّ معناه إذا سُفِهَ عليهم حلموا، فالسفه السيئة والحلم الحسنة، وقال: قتادة ردوا عليه معروفاً، نظيره قوله تعالى ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[(٣)] قال: الحسن إذا حُرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا وإذا قُطعوا وصلوا، عن أبي هريرة أن رجلاً قال يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إليّ وأحلم عنهم ويجهلون عليّ؟ قال «لئن كنتَ كما قلتَ فكأنما تسفهم المل ولا يزال منك من الله ظهير عليهم ما دمتَ على ذلك»[(٤)] رواه مسلم، قال عبد الله بن المبارك هذه ثمان خلال مشيرة إلى ثمانية أبواب الجنة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ العقبى جزاء الأمر وأعقبه جازاه كذا في القاموس، سمي جزاء الفعل عقبى لأنه يعقبه لكن

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٢) رواه أحمد ورجاله ثقات.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: الأذكار، باب: ما جاء في فضل لا إله إلا الله (١٦٧٩٧).

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٨).

العُقْبَة والعُقْبَى والعاقبة مختصة بالثواب وخير الجزاء على الحسنة، كما أن العقوبة والمعاقبة والعقاب مختصة بالعذاب وسوء الجزاء على السيئة، قال الله تعالى في الثواب: ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾(١) وقال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾(٢) و﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾(٣) وقال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٤) وقال في العذاب: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾(٥) ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٦) وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾(٧) وقال: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾(٨) لكن بالإضافة يستعمل العاقبة في العقوبة أيضاً قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾(٩) ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾(١٠) فهو ما مستعمل بالاشتراك إو يكون استعارة من ضده كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١١) والمراد بالدار النشئة الأخرة فإنها المستقر بخلاف الدنيا فإنها مَعْبَرٌ، وإضافة العقبى إلى الدار بمعنى في كمصارع مصر، والمعنى أولئك لهم جزاء حسن في الدار الأخرة، والجملة خبر للموصولات إن رفعتَ بالابتداء وإن جعلتَ صفات لأولي الألباب فاستيناف بذكر ما استوجبوا بتلك الصفات.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي إقامة عطف بيان لعقبى الدار أو مبتدأ خبره ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ عطف على الضمير المرفوع في يدخلون وساغ عند البصريين للفصل بالضمير المنصوب وقال الزجاج هو مفعول معه، والمراد بالصلاح نفس الإيمان فحسب لإكمال الصلاح المراد بقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(١٢) بدليل العطف، فإن العطف يقتضي المغايرة ولو كان المراد بالصلاح كماله لدخل المعطوف في المعطوف عليه، فهذه الآية تدل على أن الله تعالى يعطي درجات الكاملين من لم يبلغ درجتهم ولم

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٤.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.
(٥) سورة ص، الآية: ١٤.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.
(٧) سورة النحل، الآية: ١٢٦.
(٨) سورة الحج، الآية: ٦٠.
(٩) سورة الروم، الآية: ١٠.
(١٠) سورة الحشر، الآية: ١٧.
(١١) سوزة آل عمران، الآية: ٢١.
(١٢) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

يعمل مثل أعمالهم من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم تطييباً لقلوبهم وتعظيماً لشأنهم بشرط إيمانهم، فإن التقييد بالصلاح يفيد أن مجرد الأنساب لا تنفع بدون الإيمان والأمهات تدخل في حكم الآباء بدلالة النص، ويشكل على هذا قوله ﷺ: «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي» رواه الطبراني والحاكم والبيهقي عن عمر بسند صحيح والطبراني عن ابن عباس وعن المسور بن مخرمة، وروى ابن عساكر عن ابن عمر بسند صحيح بلفظ «كل نسب وصهر ينقطع إلا نسبي وصهري» فإن هذا الحديث يدل على أن قرابة غير النبي ﷺ لا يفيد يوم القيامة، وحل هذا الإشكال عندي أن المؤمنين كلهم أبناء لرسول الله ﷺ قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾[(١)] وزاد أبيّ في قراءته «وهو أب لهم» وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[(٢)] وقد ذكرنا في تفسير سورة الكوثر أن العاص بن وائل حين قال في النبي ﷺ دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فأنزل الله تعالى فيه ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ مع أنه كان لعاص بن وائل عقب وهو عمر وهشام، وإن تأويله أن عمر وهشاماً أسلما فقد انقطعت بينه وبينهما حتى لا يرثانه فهما من أبناء النبي ﷺ، فعلى هذا معنى الحديث «كل نسب وسبب منقطع إلا سببي ونسبي» ولو بواسطة يعني نسبي ونسب أبنائي وإن سقلوا وسببي ومن له مني سبب، فكأنّ المراد أن قرابات الكفار وموالاتهم تنقطع دون قرابات المؤمنين وموالاتهم نظيره قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾[(٣)] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب الجنة أو من أبواب قصورهم أو من أبواب الفتوح والتحف، قال مقاتل يدخلون عليهم في مقدار يوم وليلة من أيام الدنيا ثلاث مرات معهم الهدايا والتحف قائلين ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ في موضع الحال بتقدير القول كما ذكرنا يعني سلمكم الله من الآفات التي كنتم تخافونها ولا زوال لما أنعم الله عليكم ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلق بعليكم أو بمحذوف أي هذا الثواب بما صبرتم عن المعاصي على الطاعات على خلاف الأهواء وعلى المصائب، وليس متعلقاً بسلام فإن الخبر فاصل والباء للسببية ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ عقباهم عن أبي أمامة قال: «إن المؤمن ليكون على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سلطان من خدم، وعند طرف السماطين بابٌ مبَوبٌ، فيقبل الملَك من ملائكة الله تعالى يستأذن فيقوم أدنى الخدم إلى الباب فإذا هو بالملك يستأذن فيقول للذي يليه ملك يستأذن ويقول

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

للذي يليه ائذنوا له كذلك حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب، فيفتح له فيدخل فيسلم ثم ينصرف» رواه البغوي وعن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسر بهم الثغور وتتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاءً فيقول الله لمن يشاء من ملائكته أئتوهم فحيوهم فيقول الملائكة ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك فتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم، قال الله تعالى إنهم كانوا عباداً يعبدونني ولا يشركون بي شيئاً وتسر بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾»[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ يعني مقابلي الأولين ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي بعدما أوثقوه به من الإقرار والقبول ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ويفرقون بين الله ورسوله ويقطعون الأرحام ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعملون بالمعاصي ويهلكون الحرث والنسل ويقطعون السبيل ويبغون بغير الحق، عن أبي بكرة عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخلونه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»[2] رواه أحمد والبخاري في الأدب وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وابن حبان، وعن جبير بن مطعم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»[3] متفق عليه، وعن عبد الله بن أبي أوفى قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا ينزل الرحمة على قوم فيهم قاطع رحم» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر»[4] رواه النسائي والدرامي ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ البعد من رحمة الله ﷻ ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ يعني الجزاء السوء في الدار الآخرة وهو نار جهنم.

---

(١) رواه أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: الزهد، باب: فضل الفقراء (١٧٨٨٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: إثم القاطع (٥٩٨٤) وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٦).

(٤) أخرجه النسائي في كتاب: الأشربة، باب: الرواية في المدمنين في الخمر (٥٦٧١).

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ أي يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء ﴿وَفَرِحُواْ﴾ يعني أهل مكة أشروا وبطروا ﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي بما بسط لهم من الرزق وغيره في الدار الدنيا ولم يشكروا ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي﴾ جنب الحياة ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ أي متعة لا تدوم كعجالة الراكب وزاد الراعي، لا يصلح نعيمها لأن يقنع عليها ويهمل السعى للآخرة، ويفرح بها ويبطر بل ينبغي أن تُصرف فيما يستوجبون به نعيم الآخرة.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بعدما رأوا المعجزات الباهرة والآيات القاطعة ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾ أي على محمد ﷺ ﴿ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ يشهد له يعني اقترحوا الآيات عناداً وتعنتاً ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ يعني لا قصور في نزول الآيات وقيام الشواهد لكن الآيات لا توجب الهداية، إنما الهداية والضلالة بِيَدِ الله تعالى يضل من يشاء ممن كان على صفتكم فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ﴾ أي إلى الإيمان به وطاعته والترقي إلى مدارج قربه وإلى جنته ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾ يعني من يشاء الله إنابته فأناب يعني أقبل إليه بقلبه ورجع عن العناد، فالله يهديه بما جئتُ به بل بأدنى منه من الآيات ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدل من قوله ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ يعني يستقر فيها الإيمان واليقين ويزول عنه الريب والشك بذكر الله تعالى يعني القرآن، فإن الإيمان طمأنينة والنفاق شك وريبة، أو المعنى يزول وساوس الشيطان عن قلوب المؤمنين بذكر الله، قال رسول الله ﷺ «ما من آدمي إلا ولقلبه بيتان: في أحدهما الملك وفي الآخر الشيطان فإذا ذكر الله خنس وإذا لم يذكر الله وضع الشيطان منقاره في قلبه فوسوس له» رواه ابن أبي شيبة في المصنف عن عبد الله بن شقيق ورواه البخاري تعليقاً عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس وإذا غفل وسوس» أو المعنى أن القلوب الصافية للمؤمنين إنما قوتهم ذكر الله تعالى فإذا ذكروا الله تطمئن قلوبهم أنساً به تعالى كاطمئنان السمك في الماء، وحيوان البر في الهواء، والوحش في

الصحراء، وإذا غشيهم غاشية توجب الغفلة أو ابتلوا بصحبة أهل الغفلة لحق قلوبهم اضطراب وقلق، كما يلحق الاضطراب للسمك خارج الماء ولحيوان البر في الماء وللوحش في القفص، وهذه الحالة بديهية من الوجدانيات لخدام الصوفية العلية، فالمراد بقوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ هم الصوفية ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ أي القلوب المزكّية قال البغوي فإن قيل: أليس قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾(١) فكيف يكون الطمأنية والوجل في حالة واحدة؟ قيل: الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب والطمأنية عند ذكر الوعد والثواب، فالقلب توجل إذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه، وتطمئن إذا ذكرت فضل الله وكرمه، وهذا الكلام يقتضي المنافاة بين الطمأنية والوجل، وعندي لا منافاة بينهما فإن الطمأنية المبنية على الأنس يجتمع مع الوجل، وأيضاً الخوف والرجاء يجتمعان في حالة واحدة، عن أنس قال: دخل النبي ﷺ على شاب وهو في الموت، فقال كيف تجدك قال: أرجو الله يا رسول الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف»(٢) رواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي حديث غريب.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾ فُعلى من الطيب مصدر طابَ يطيب كبُشرى وزُلفى قلبت ياؤه واو الضمة ما قبلها، ومحله الرفع أو النصب كقولك طيباً لك وطيبُ لك وسلاماً عليك وسلام عليك، واللام في لهم للبيان نحو سقياً لك، ومعناه على قول ابن عباس فرحُ لهم وقرةُ عين، وقال عكرمة نِعْمَ مالهم، وقال قتادة حسنى لهم، وقال معمر عن قتادة يقول الرجل طوبى لك إذا أصبتَ خيراً، وقال إبراهيم خير لهم وكرامة، وقال سعيد بن جبير طوبى اسم الجنة بالحبشية، وقال البغوي روي عن أبي أمامة وأبي هريرة وأبي الدرداء رضي الله عنهم قالوا: «طوبى شجرة في الجنة يظل الجنان كلها» وقال عبيد بن عمير هي شجرة في جنة عدن أصلها في دار النبي ﷺ وفي كل دار وغرفة غُصن منها، لم يخلق الله لوناً ولا زهرةً إلا وفيها منها إلا السواد، ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة إلا وفيها منها، ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل، وقال مقاتل كل ورقة منها يظل أمة عليها ملَك يسبح الله بأنواع التسبيح، أخرج أحمد وابن حبان والطبراني

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الجنائز (٩٧٧).

وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٦١).

وابن مردويه والبيهقي عن عتبة ابن عبد الله السلمي قال: قال أعرابي يا رسول الله في الجنة فاكهة؟ قال: نعم فيها شجرة طوبى يطابق الفردوس، قال: أيّ شجرة أرضنا يشبه، قال: ليس يشبه شيئاً من شجر أرضك ولكن أتيتَ الشام؟ قال: لا، قال: فإنها تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة تنبتُ على ساق واحد ثم ينشر أعلاها قال: ما عُظْم أصلها؟ قال: لو ارتحلتَ برمة من إبل أهلك ما أحطت بأصلها حتى تنكسر هرماً، قال: فهل فيها عنب، قال: نعم قال: ما عظم العنقود منها؟ قال: مسيرة شهر للغراب الأبقع قال: ما عظم الجثة منها؟ قال: هل ذبح أبوك تيساً من غنمه عظيماً قط؟ قال: نعم قال: فاسْلَخ إهابة فأعطى أمك فقال إدبغي هذا ثم أفرى لنا منه دلواً نروي فيه ماشيَنا، قال: فإن تلك الحبة يشبعني وأهل بيتي قال: نعم وعامة عشيرتك. وروي عن أبي سعيد الخدري قال: إن رجلاً سأل النبي ﷺ ما طوبى؟ قال: «شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» رواه ابن حبان وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه: «طوبى شجرة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلي والحلل «وإن أغصانها ليرى من وراء سور الجنة» وروى البغوي بسند عن أبي هريرة قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها اقرؤا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾[1]» متفق عليه وأخرجه أحمد وزاد في آخره «وإن ورقها ليخمر الجنة» وأخرج البغوي وهناد بن سري في الزهد وزاد في آخره فبلغ ذلك كعباً فقال: صدق والذي أنزل التوراة على موسى والقرآن على محمد ﷺ، لو أن رجلاً ركب حقة أو جذعة ثم أدار بأصل تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هرماً، إن الله غرسها بيده ونفخ فيها من روحه وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة، ما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة. وعن أبي هريرة قال في الجنة شجرة يقال لها طوبى يقول لها الله تعالى تفتقي لعبدي عما يشاء فتفتق له عن فرس بسرجه ولجامه وهيئته كما يشاء، وتفتق له عن الراحلة برحلها وزمانها وهيئتها كما يشاء، وعن الثياب، رواه ابن أبي الدنيا والبغوي. وأخرج ابن المبارك وابن جرير عن شهر بن حوشب قال طوبى شجرة في الجنة كل شجرة الجنة من أغصانها من وراء سرر الجنة ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أي حسن المنقلب.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥٢) وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: إن في الجنة شجرة يسير الراكب في خلالها مائة عام لا يقطعها (٢٨٢٦).

﴿كَذَٰلِكَ﴾ يعني مثل إرسالنا الرسل قبلك ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أرسلوا إليهم فليس إرسالك أمراً مبدعاً ﴿لِّتَتْلُوَاْ﴾ لتقرأ ﴿عَلَيْهِمُ﴾ القرآن ﴿ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وحالهم أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته ووسع كل شيء رحمته، فلم يشكروا نعمته خصوصاً لم يشكروا ما أنعم عليهم بإرسالك إليهم وإنزال القرآن الذي هو مناط المنافع الدينية والدنياوية عليهم، قال البغوي قال قتادة ومقاتل وابن جريج نزلت الآية في صلح الحديبية، وكذا أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة وذلك أن سهل بن عمرو لما جاء واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح كما ذكرنا القصة في سورة الفتح قال رسول الله ﷺ لعليّ «أكتب بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا: لا نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب أكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم، فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن» قال البغوي والمعروف أن الآية مكية وسبب نزولها أن أبا جهل سمع محمداً ﷺ وهو في الحجر يدعو بالله يا رحمان فرجع إلى المشركين فقال إن محمداً يدعو إلهين يدعو الله ويدعو الرحمن ولا نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة، فنزلت هذه الآية ونزلت: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[١] وروى الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: ﴿ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[٢] ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هُوَ رَبِّي﴾ أي الرحمن الذي أنكرتم معرفته هو خالقي ومتولي أمري ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ لا يستحق العبادة ﴿إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت في نصرتي عليكم ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ توبتي أو إليه مرجعي فيثيبني، قرأ يعقوب مَتَابِي وَعِقَابِي وَمَآبِي بالياء في الحالين والباقون يحذفونها.

أخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس قال: قالوا للنبي ﷺ إن كان كما تقول فأرنا أشياخنا الأول نكلمهم من الموتى وافسح لنا هذه الجبال جبال مكة فنزلت.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ

(١) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٠.

ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ﴾ الآية وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عطية العوفي قال قالوا للنبي ﷺ لو سيّرت جبال مكة حتى يتسع فنحرث فيها أو قطعتَ لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح وأحييتَ لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه فأنزل الله تعالى هذه الآية، وذكر البغوي مبسوطاً أن الآية نزلت في نفر من مشركي مكة منهم أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أمية: جلسوا خلف الكعبة فأرسلوا إلى النبي ﷺ فقال له عبد الله بن أمية إن سَرَّكَ أن نتبعك فسيّر جبال مكة بالقرآن حتى ينفسح فإنها أرض ضيّقة لمزارعنا، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً لنغرس فيها الأشجار ونزرع ونتخذ البساتين، فلستَ كما زعمتَ باهون على ربك من داود سخرت له الجبال تسبح معه، أو سخِّرْ لنا الريح فنركبها إلى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع في يومنا، فقد سخرت الريح لسليمان كما زعمت ولستَ باهون على ربك من سليمان، وأحيي لنا جدك قصيًّا أو من شئت من موتانا لنسئله عن أمرك أحق ما تقول أم باطل، فإن عيسى كان يحيي الموتى ولستَ بأهون على الله منه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخرج أبو يعلى في مسنده من حديث الزبير بن العوام بمعناه يعني لو ثبت أن قرآناً يعني كتاباً من الكتب السماوية سيرت به ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ أي أزيلت عن مقارها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ في السير بأن يسخر الله الريح فيركبونها ويقطعون الأرض أو شققت الأرض فَجُعِلَتْ أنهاراً وعيوناً ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي أحيا به الموتى حتى تكلموا، تذكير كُلِّمَ خاصة لاشتمال الموتى على المذكر الحقيقي، بل المراد قصتي وأمثاله، وجواب الشرط محذوف يعني لكان هذا القرآن لأنه الغاية في الإعجاز لكن الله سبحانه لم يقدّر كذلك، أو لَمَا آمنوا نظيرة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾[١] وقيل الجواب مقدم وهو قوله ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وما بينهما اعترض، كأنّه قال لو سيرت

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١١.

به الجبال لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا، لِمَا كتبناه عليهم من الشقاء ولأن مبادي تعيناتهم ظلال الاسم المُضِلِّ فأنى لهم الهداية ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ إضراب عن كلام مقدر يدل عليه معنى لو من نفي تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى، تقديره ليس ذلك النفي لكون الأمور المذكورة غير مقدورة لله تعالى ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ فهو قادر على ما اقترحوا من الآيات وكل شيء سواه إلا أن إرادته لم يتعلق بذلك لعلمه بأنهم لا يؤمنون ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾(1) أو لأن الله تعالى لم يرد هدايتهم، قال البغوي إن أصحاب رسول الله ﷺ لما سمعوا هذا من المشركين طمعوا في أن يفعل الله ما سألوا حتى يؤمنوا فأنزل الله تعالى أفلم يايئس قرأ البزي بفتح الياء من غير همز ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ عن إيمانهم حتى طمعوا ذلك مع ما رأوا من أحوالهم أنهم رأوا من الآيات ما هو أعظم من ذلك فلم يؤمنوا ألا ترى أن انشقاق القمر بإشارة النبي ﷺ أشد إعجازاً من تسيير الجبال وتقطيع الأرض، وتكليمُ الحِصى أشد إعجازاً من تكليم الموتى وغير ذلك ما لا يحصى ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة أي أنه ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ متعلق بمحذوف تقديره أفلم يايئس الذين آمنوا من إيمانهم علماً منهم أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا أو متعلق بآمنوا وإن مصدرية يعني الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وقال أكثر المفسرين معنى أفلم يايئس أفلم يعلم، قال الكلبي هي لغة النخع وقيل لغة هوازن وأنكر الفرآء أن يكون بمعنى العلم وزعم أنه لم يسمع أحداً من العرب يقول يئست بمعنى علمتُ ويمكن أن يقال أنه استعمل الإياس بمعنى العلم مجازاً لأنه مسبب عن العلم فإن الميؤوس عنه لا يكون إلا معلوماً ولذلك علقه بقوله إن لو يشاء الله أي أنه لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً والسبب لهذا القول ما أخرج ابن جرير عن عليّ وأبو عبيدة وسعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس أنهما قرأ أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا فكأنه تفسير لقوله أفلم يايئسوا والله أعلم.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟﴾ من الكفر والأعمال الخبيثة ﴿قَارِعَةٌ﴾ أي داهية تقرعهم من أنواع البلاء أحياناً بالجدب وأحياناً بالسلب وأحياناً بالقتل والأسر، قال ابن عباس أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله ﷺ يبعثهم إليهم ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ يعني القارعة من السرايا وغير ذلك ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ فيقرعون منها ويتطاير إليهم شررها، وقيل

(1) الآية هي: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ في سورة يونس، الآية: ٩٧.

معناه أو تحل أنت يا محمد بنفسك الكريمة قريباً من دراهم وقد حلَّ بالحديبية والآية على هذا أو على ما قال ابن عباس في كفار مكة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ أي الموت أو القيامة إن كانت الآية عامة أو فتح مكة إن كانت في كفار مكة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لامتناع الكذب والخلف في كلامه.

ولمّا كان الكفار يسئلون هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء أنزل ابن عباس تسلّية للنبي ﷺ ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما يستهزؤون بك ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الملوة المدة الطويلة من الدهر ومنه الملوان الليل والنهار باعتبار امتدادهما، وليست حقيقة الليل والنهار بدليل قول الشاعر نهار وليل دائم ملوهما على كل حال المرء يختلفان، فلو كانا الليل والنهار لما أضيف إلى ضميرهما فمعنى أمليت للذين كفروا تركتم في مدة من الدهر من غير تعذيب وأمهلتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعقوبة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ عقابي إياهم أي هو واقع موقعة فكذلك أفعل بمن استهزأ بك ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ رقيب عليه ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ولا يفوت عنده شيء من جزائهم والخبر محذوف تقديره كمن ليس كذلك، والاستفهام للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أتشركون بالله أصناماً فتجعلون من هو قائم على كل نفس لمن ليس كذلك وهو جماد عاجز عن نفسه يعني ليس كذلك فلا تشركوا به ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ استئناف أو لطف على كَسَبَتْ إن جعل ما مصدرية، أو على مقدر تقديره لم يوحدوه وجعلوا لله شركاء، ويكون الظاهر فيه موضع الضمير للتنبيه على أنه المستحق للعبادة ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ يعني صفوهم فانظروا هل هم يستحقون العبادة ويستأهلون الشركة ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ أي بل أتخبرون الله ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بشركاء يستحقون العبادة لا يعلمهم الله، أو بصفات للأصنام يستحقون العبادة لأجلها لا يعلمها الله، وهو العالم بكل ما هو كائن ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أم تسمونها شركاءَ بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ مسموع ليس لها مصدق أصلاً، كتسمية الزنجي كافوراً، وقيل معناه بباطل منَ القول قال الشاعر.

وعيرني الواشون إلى أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عاريها

أي باطل ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني زين لهم الشيطان ﴿مَكْرُهُمْ﴾ أي كيدهم وتمويههم فتخيلوا أباطيل أو كيدهم للإسلام بشركهم ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قرأ الكوفيون بضم الصاد ههنا وفي حم المؤمن أي صُرفوا عن الدين صرفهم الله تعالى وأضلهم الشيطان، وقرأ الباقون بالفتح أي صدوا الناس عن الإيمان وطريق الهدى ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بخذلانه إياه ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يوفقه للهدى ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر

وضرب الجزية ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أشدوا دوم منه ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي من عذابه، أو من رحمته ﴿مِن وَاقٍ﴾ حافظ.

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ (٣٥) وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ (٣٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ (٣٩)﴾

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي صفتها التي هي مثل في الحسن والغرابة، مبتدأ أخبره محذوف عند سيبوية، أي فيما يقص عليكم وما بعده حال من العائد المحذوف من الصلة، وقيل خبره ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ على طريقة قولك صفة زيد اسمه، أو على حذف الموصوف أي مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار أو يقال لفظ المثل زائد والمعنى ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴿أُكُلُهَا﴾ أي ثمرها ﴿دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع، أخرج البزار والطبراني عن ثوبان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا ينزع رجل من أهل الجنة ثمرها إلا أعيد في مكانها مثلها» وفي هذه الآية، والحديث رد على الجهمية حيث قالوا إن نعيم الجنة يفني ﴿وَظِلُّهَا﴾ أي وظلها كذلك لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس، أخرج البيهقي عن شعيب بن الجيحان قال: خرجتُ أنا وأبو العالية الرياحي قبل طلوع الشمس فقالُ نبِّئتُ أن الجنة هكذا ثم تلا ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠)﴾[1] ﴿تِلْكَ﴾ أي الجنة الموصوفة بما ذكرنا ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ أي جزاؤهم أو مالهم ومنتهى أمرهم ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ إن كان العقبى بمعنى الجزاء فاستعماله ههنا على سبيل الاستعارة، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾[2] ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3].

(١) سورة الواقعة، الآية: ٣٠.
(٢) سورة المطففين، الآية: ٣٦.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني أصحاب محمد ﷺ، أو مؤمنوا أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه ومن آمن من النصارى من أهل الحبشة وغيرهم ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ من اقرآن لموافقته ما عندهم ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ يعني الكفار الذين تحزّبوا على رسول الله ﷺ، أو الذين كفروا من اليهود والنصارى ككعب بن الأشرف وأصحابه، والسيد والعاقب وأمثالهما ﴿مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾ وهو يخالف أهواءهم، أو ما يخالف شرائعهم من شريعتنا ونبوة محمد ﷺ، قال البغوي قال جماعة كان ذكر الرحمن قليلاً في القرآن في الابتداء، فلمّا اسلم عبد الله بن سلام وأصحابه ساءهم قلة ذكره في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة فلما كرر الله ذكره في القرآن فرحوا به، فأنزل الله هذه الآية، وقيل المراد بقوله ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾ يعني مشركي مكة حين كتب رسول الله ﷺ في كتاب الصلح ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قالوا لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة يعني مسيلمة الكذّاب فأنزل الله ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦﴾ [1] وهم يكفرون بالرحمن وإنما قال بَعْضَه لأنهم كانوا لا ينكرون ذكر الله وينكرون ذكر الرحمن ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ﴾ أي بأن ﴿أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾ الآية إن كان في جواب منكري أهل الكتاب فالمعنى قل لهم إني أمرت فيما أنزل إليّ أن أعبد الله وأُوحِّده، وهو العمدة في الدين ولا سبيل لكم إلى إنكاره، وأما ما تنكرونه مما يخالف شرائعكم من الأحكام فليس ببدع، فإن الشرائع والكتب السماوية ينسخ بعضُها بعضاً في جزئيات الأحكام، وإن كان في عامة الكفار فالمعنى إني أمرت أن أعبد الله وحده، وذكره بأسماء كثيرة من الله والرحمن والرحيم لا ينافي التوحيد فإنكاركم على اسم الرحمن لا معنى له، ولعل إنكارهم ذكر الرحمن مبنى على أن استعدادهم يأبي عن رحمة الله تعالى ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾ الناس لا إلى غيره ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ لا إلى غيره ﴿مَـَٔابِ﴾ مرجعي ولا سبيل إلى إنكار ذلك ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل أنزلنا الكتُب السابقة بلغات من أرسل إليهم ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي القرآن عليك ﴿حُكۡمًا﴾ في القضايا والوقائع والحل والحرمة وغيرها على ما يقتضيه الحكمة ﴿عَرَبِيّٗاۚ﴾ مترجماً بلسان قومك العرب ليسهل لك ولقومك فهمه ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ فيما أنكروا عليك فرضاً ﴿بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ﴾ يعني ناصر وحافظ يقيك ويمنع العقاب عنك.

روي أن اليهود قالوا أن هذا الرجل ليس له همة إلا في النساء فأنزل الله تعالى

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٦.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ بشراً مثلك لا ملائكة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أي نساء وأولاداً كما هي لك ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ أي ما صح له يكن في وسع أحد منهم ﴿أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ يقترح عليه وحكم يلتمس منه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ لأنهم عبيد مربوبون ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل أمد، ولوقت كل شيء كتاب كتب الله في الأزل بدايته ونهايته، يعني كتب الله في الأزل أنَّ زيداً يولد في وقت كذا أو يبقى منذ كذا كافراً ويسلم في وقت كذا ونحو ذلك، وكذا النزول آية من القرآن أو معجزة قُضِيَ وجودُه وقتُ مكتوبُ عند الله لا يتقدمه ولا يتأخر وإن استعجل الناس، وجاز أن يكون هذا متعلقاً بقوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ على أن يكون تلك الآية في إنكار أهل الكتاب على أحكام يخالف أحكام التوراة يقول الله لكل أمد ووقت حكم يكتب على العباد على ما يقتضي استصلاحهم.

﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وعاصم يُثْبِتُ بالتخفيف من الافعال، والباقون بالتشديد من التفعيل. واختلفوا في معنى الآية؟ قال سعيد بن جبير وقتادة يمحو الله ما يشاء من الفرائض والشرائع فينسخه ويبدّله ويُثْبِتُ ما يشاء منها فلا ينسخه، وهذا يناسب التأويل الثاني للآية المتقدمة عليها، وقال ابن عباس يمحوا الله ما يشاء ويثبت يعني مما كان في اللوح، فما كان مكتوباً قابلاً للمحو يسمي بالقضاء المعلق، يمحوه الله تعالى بإيجاد ما علق محوه به، سواء كان ذلك التعليق مكتوباً في اللوح أو مضمراً في علم الله تعالى، وما ليس قابلاً للمحو يسمى بالقضاء المبرم، وذلك القضاء لا يرد قال ابن عباس يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة يعني أنها لا تمحى، قال البغوي روينا عن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل الملك على النطفة بعدما يستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول يا رب أشقي أم سعيد؟ فيكتبان، فيقول أي رب أذكر أم أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص» وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم تكون علقة مثل ذلك، ثم تكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملَكاً بأربع كلمات فيكتب عمله وأحله ورزقه وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح»[١] الحديث وقال البغوي وعن عمرو ابن مسعود أنهما قالا يمحو السعادة والشقاوة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٨) وأخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٣).

أيضاً ويمحو الرزق والأجل ويثبت ما يشاء، وروي عن عمر أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول اللهم إن كنتَ كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنتَ كتبت عليّ الشقاوة فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، ومثله عن ابن مسعود وفي بعض الآثار أن الرجل قد يكون قد بقي من عمره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فيرد إلى ثلاثة أيام، والرجل قد يكون قد بقي له من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيمد إلى ثلاثين سنة، ثم روى البغوي بسنده إلى أبي الدرداء قال رسول الله ﷺ «ينزل الله في آخر ثلاث ساعات يبقين من الليل، فينظر في الساعة الأولى منهن في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت» أخرج ابن مردويه عن عليّ أنه سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال «لأقرن عينك بتفسيرها ولأقرن عين أمتي من بعدي بتفسيرها، الصدقة على وجهها وبر الوالدين وإصناع المعروف يحول الشقاء سعادة ويزيد في العمر».

قلت: ويوافق مذهب عمرو ابن مسعود ﷺ ما ذكر في المقامات المجددية أن المجدد ببصيرة الكشف مكتوباً في ناصية ملا طاهر اللاهوري شقي، وكان ملا طاهر معلماً لابنيه الكريمين محمد سعيد ومحمد معصوم ث، فذكر المجدد ما أبصر لولديه الشريفين، فالتمسا منه رضي الله عنهم أن يدعو الله سبحانه أن بمحو عنه الشقاوة ويثبت مكانه السعادة، فقال المجدد نظرت في اللوح المحفوظ فإذا فيه أنه قضاء مبرم لا يمكن رده، فألجأ ولداه الكريمان في الدعاء لِمَا التمسا منه، فقال المجدد تذكرتُ ما قال غوث الثقلين السيد السند محي الدين عبد القادر الجيلاني أن القضاء المبرم أيضاً يرد بدعوتي، فدعوتُ الله سبحانه وقلتُ اللهم رحمتك واسعة وفضلك غير معتصر على أحد، أرجوك وأسئلك من فضلك العميم أن تجيب دعوتي في محو كتاب الشقار من ناصية ملا طاهر، وإثبات السعادة مكانه، كما أجبت دعوة سيد السند ، قال: فكأني أنظر إلى ناصية ملا طاهر أنه مُخيَ منها كلمة شقي وكتب مكانه سعيد ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ ثم أشكل عليّ هذا الأمر وقلتُ ما معنى رد القضاء المبرم بدعاء أخذ فإنه لا مرد لقضائه تعالى المبرم بوجه من الوجوه، وإلا لا يكون المبرمُ مبرماً، وهذا خلف أو يلزم المحال، فألهمني الله تعالى حل ذلك الإشكال أن القضاء المعلق نوعان: أحدهما ما كتب في اللوح المحفوظ تعليقه وكتب أن رد هذا القضاء معلق بأمر كذا، وثانيهما ما لم يكتب تعليقه في اللوح، فهو في اللوح على صورة المبرم ومعلق محوه وإثباته في علم الله تعالى، فما قال السيد السند إن القضاء المبرم يرد بدعوتي، فذلك القضاء هو الذي في اللوح في صورة المبرم وليس مبرماً في علم الله

تعالى، وكان شقاوة ملا طاهر من هذا القبيل مبرماً في اللوح معلقاً محوه بدعاء المجدد في علم الله تعالى والله أعلم.

وقال الضحاك والكلبي معنى الآية أن الحفظة يكتبون جميع أعمال ابن آدم وأقواله فيمحو الله من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قوله أكلتُ وشربتُ دخلتُ وخرجتُ ونحوها من كلام هو صادق فيه، ويثبت ما فيه ثواب أو عقاب، قال الكلبي يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيها ثواب ولا عقاب، وقال عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يعود يعصيه فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو، ورجل يعمل بطاعة الله فيموت وهو في طاعته فهو الذي يثبت، روى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرّفه كيف يشاء، ثم قال رسول الله ﷺ «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»[1] وقال الحسن يمحو ما يشاء أي من جاء أجله يذهب به ويثبت من لم يجيء أجله إلى أجله، وعن سعيد بن جبير قال يمحو ما يشاء من ذنوب العباد فيغفرها ويثبت ما يشاء فلا يغفرها، وقال عكرمة يمحو ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات، كما قال ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾[2] روى مسلم عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «يؤتىٰ بالرجل يوم القيامة فيقال أعرضوا عليه صغائر ذنوبه فيعرض عليه صغائرها وتخبأ عنه كبائرها، فيقال عملتَ يوم كذا كذا وكذا وهو يقرّ وليس ينكر وهو مشفق من الكبائر أن تخبى، فقال أعطوه مكان كل سيئة حسنة، فيقول: إن لي ذنوباً لا أراها ههنا» فلقد رأيتُ رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[3]، قلتُ: ولعل هذا في مَنْ إنغمص في بحار المحبوبية الصرفة من الصوفية العلية، وقال السدي يمحو الله ما يشاء يعني القمر ويثبت يعني الشمس بيانه قوله تعالى: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾[4] وقال الربيع هذا في الأرواح يقبضها الله تعالى عند النوم، فمن أراد موته محاهُ فأمسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه، بيانه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾[5] الآية، وقيل: معناه يمحو من كتاب

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء (٢٦٥٤).

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٠).

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٢.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

الحفظة من أعمال العباد ما عمل رياءً وسمعةً ويثبت ما عمل لوجه الله خالصاً، وقيل يمحو قوماً ويثبت قوماً ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي أصل الكتاب وهو علم الله، كذا قال كعب حين سأله ابن عباس عن أم الكتاب، وقال عكرمة عن ابن عباس هنا كتابان كتاب سوى أم الكتاب يمحو منه ما يشاء ويثبت وأم الكتاب الذي لا يغير منه شيء، قال البغوي اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير، وعن عطاء عن ابن عباس قال: إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء لها دفتان من ياقوت، لله فيه كل يوم ثلاثمائة وثلاثون لحظة يمحو ما يشاء ويثبت.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَإِن مَّا﴾ فيه إدغام نون أن الشرطية في ما الزائدة ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ قبل موتك ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ ومن تعذيبهم ومغلوبيّتهم في الدنيا واستيلاء أهل الإسلام كما أراه ﷺ هزيمتهم وقتلهم وأسرهم يوم بدر الموعود بقوله تعالى ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾[1] وجواب الشرط محذوف أي فذاك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل حلول ما نعدهم ثم نعذبهم فلا تغتم بإعراضهم ولا تستعجل بعذابهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ لا غير وقد آتيت به ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ والجزاء يوم القيامة فنجازيهم إذا صاروا إلينا ليس ذلك عليك ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يعني كفار مكة ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ﴾ قال البغوي أكثر المفسرين على أن المراد منه فتح ديار الشرك، فإن ما زاد في ديار الإسلام فقد نقص من ديار الشرك، وتقدير الكلام على هذا ينكرون ما نعدهم بأنهم سينفقون أموالهم ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾[2] ولم يروا أنا نأتي الأرض أي نقصد أرض الكفرة ننقصها من أطرافها بما نفتحه على المسلمين منها أرضاً بعد أرض حوالي أرضهم فلا يعتبرون، هذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة وفيه تسلية

(١) سورة القمر، الآية: ٤٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٦.

للنبي ﷺ حتى لا يهتم ويعلم أن الله يتم ما وعده من الظفر وقال قوم هو خراب الأرض ومعناه ألا يخافون أن نهلكهم ونخرب ديارهم ولم يروا أنا نأتي الأرض فنخربها ونهلك أهلها ومثل ذلك قال مجاهد والشعبي ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾ في خلقه ما يشاء ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ يعني لا راد لقضائه ولا ناقص لحكمه، والمعقب الذي يُعَقِّبُ الشيء ويكر عليه بالإبطال، والمعنى أنه تعالى حكم الإسلام بالإقبال وعلى الكفر بالإدبار وذلك كائن لا مرد له، ومحل لا مع المنفي النصب على الحال أي يحكم نافذاً حكمه ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ فيحاسبهم في الآخرة بعدما يعذبهم بالقتل والأسر والإجلاء في الدنيا ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي قبل مشركي مكة مكر كفار الأمم السابقة بأنبيائهم والمؤمنين منهم كما مكر هؤلاء لك، والمكر إيصال المكروه إلى أحدٍ من حيث لا يشعر ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ أي عند الله جزاء مكرهم وقيل معناه إن الله خالق مكرهم جميعاً بيده الخير والشر ومن عنده النفع والضرّ فلا يضر مكر أحدٍ أحداً إلا بإذنه فمكرهم كلا مكر ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾ فيجازيه على حسب عمله فهذا هو المكر كله لأنه يأتيهم من حيث لا يشعرون ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ﴾ قرأ ابن عامر والكوفيون بصيغة الجمع وأهل الحجاز وأبو عمرو الكافر على التوحيد بإرادة الجنس ﴿لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي لمن جزاء الحسنات في الدار الآخرة من الفئتين، حين يأتيهم العذاب المعهود وهم في غفلة منه والمؤمنون يدخلون الجنة، وهذا كالتفسير لمكر الله بهم.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني كفار مكة وقيل: رؤساء اليهود ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ﴾ يا محمد ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا﴾ الباء زائدة دخلت على الفاعل وشهيداً تميز من النسبة والمعنى كفى شهادة الله تعالى ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ على صدقي فإنه أظهر من الأدلة على رسالتي ما يغني عن شاهد يشهد عليها، وأنه تعالى هو الحاكم يوم الجزاء فلا يكون لهم عند الله عذر يومئذ ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ عطف على الله والمراد مؤمنوا أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأمثاله، يعني ويشهد أيضاً المؤمنون من أحبار اليهود ولا يضر إنكار الكافرين منهم، لأن إقرار من أقر منهم لا تهمة فيه أصلاً، وأما إنكار الكفار منهم فمبني على الحسد والعناد لأجل المال والجاه، ولأجل هذا التأويل قيل هذه الآية من هذه السورة مدنية وإن كانت سائرها مكية وأنكر الشعبي وأبو بشر هذا التأويل، قالا السورة مكية وعبد الله بن سلام أسلم بالمدينة، قلت: لو سلمنا كون الآية مكية فلا مانع أن يكون المراد بالموصول أهل الكتاب، كأنّه إرشاد لكفار مكة بإنه إن لم يستيقنوا برسالة محمد ﷺ فاسئلوا أهل الكتاب سيشهد لكم ثقات منهم، وقال الحسن ومجاهد ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ

ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هو الله تعالى والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ والمعنى كفى شهيداً الذي يستحق العبادة، ومن لا يعلم ما في اللوح إلا هو فنجزي الكاذب منّا، وؤيده قراءة الحسن وسعيد بن جبير مِنْ عِنْدِه بكسر الميم والدال على أن من جارة وعلم الكتاب على صيغة الفعل الماضي المجهول والله أعلم تمت تفسير سورة الرعد عاشر ربيع الثاني سنة ألف ومائتين واثنين سنة ١٢٠٢ وسيتلوها سورة إبراهيم عليه السلام إن شاء الله تعالى.

# سورة إبراهيم

## مكية وآياتها إثنان وخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾.

﴿الٓر﴾ هذا كتاب أي هذه السورة أو القرآن كتاب ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ صفة لكتاب ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ متعلق بأنزلنا يعني أنزلناه لتخرجهم بدعائك إياهم إلى ما تضمنه وتعليمك إياهم ما لهم وما عليهم ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي من أنواع الضلال إلى الهدى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بتوفيقه وتسهيله، مستعار من الإذن الذي هو تسهيل الحجاب، هو صلة لتخرج أو حال من فاعله أو مفعوله ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ بدل من قوله إلى النور بتكرير العامل، أو استئناف على أنه جواب لمن يسئل عنه ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المحمود الذي لا يستحق الحمد إلا هو، وإضافة الصراط إلى الله أما لأنه مقصده أو لأنه مظهر له، وتخصيص الوصفين للتنبيه على أنه لا يَزِلُّ سالكه ولا يخيب سائله ﴿ٱللَّهِ﴾ قرأ أكثر القراء بالجر على أنه عطف بيان للعزيز وقال أبو عمر فيه تقديم وتأخير مجازه إلى صراط الله العزيز الحميد وقرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر بالرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف وما بعده صفته ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وحلقاً ﴿وَوَيْلٌ﴾ أي حلول شرّ، وقال البيضاوي هو نقيض الوال وهو النجاة وأصله النصب لأنه مصدر كالهلاك إلا أنه لم يشتق منه لكنه رفع لإفادة الثبات فهو وعيد ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بالكتاب

الَّذين لم يخرجوا من الظلمات إلى النور ﴿مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة للكافرين أو منصوب على الذم أو مرفوع عليه، تقديره أعني الَّذين أو هم الذين أو مرفوع على أنه مبتدأ خبره ما بعد الصلة ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾ أي يختارون فإن المختار للشيء يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها من غيره ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي لذَّاتها ﴿عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ﴾ أي يمنعون الناس ﴿عَن﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ باتباع رسوله ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ أي يطلبون سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ أي يطلبون لها إعوجاجاً عن الحق ليقدحوا فيه، فحذف الجار وأوصل الفعل إليه، أو المعنى يطلبون سبيل الله مائلين عن الحق مع كون ذلك محالاً، وقيل الضمير المنصوب في يبغونها راجعة إلى الدنيا يعني يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق أي بجهة الحرص الحرام ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ عن الحق والبعد في الحقيقة للضّال فوصف به الضلال للمبالغة، أو للأمر الذي به الضلال فوصف به للملابسة.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ﴾ أي بلغة ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ الذي هو منهم وبعث فيهم، أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال بلسان قومه أي بلغتهم إن كان عربياً فعربياً، وإن كان أعجمياً فأعجمياً، وإن كان سريانياً فسريانياً ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ ما أمروا به فيفقهوه عنه بيس وسرعة، ويتخذ الرسول بذلك حجة عليهم وقد كان الرسل من قَبلِ النبي ﷺ مبعوثين كل واحد منهم إلى قومه فبيتوا لهم، وبُعِثَ النبي ﷺ إلى الناس كافةً، لكنه أمِرَ أولاً بدعوة قومه حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾[١] قال الله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾[٢] وقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾[٣] فأرسل بلسان عربي مبين لأهل الحجاز والناس كافة تبع لهم حيث تعلّموا من رسول الله ﷺ ثم نقلوه وترجموه ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الناس تبع لقريش في الخير والشر»[٤] رواه أحمد ومسلم في الصحيح عن جابر، يعني سائر الكفار تبع لكفار قريش في الكفر حيث كفروا أولاً ثم كفر غيرهم فعليهم إثمهم أجمعين، والمؤمنون كلهم تبع لمؤمني قريش حيث آمنوا أولاً فلهم أجر كلهم، عن جرير قال قال رسول الله ﷺ: «من سَنّ في الإسلام سنةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها، من غير أن ينقص من أجورهم

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٢.

(٣) سورة يس، الآية: ٦.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (١٨١٩).

شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[١] رواه مسلم، وروى ابن عساكر عن أبي سعيد بسند ضعيف «الناس تبع لكم يا أهل المدينة في العلم» والمراد بأهل المدينة المهاجرون والأنصار فإن غيرهم تبع لهم لكن الأنصار تبع للمهاجرين فلا منافاة بين الحديثين، وعن أبي رافع عن النبي ﷺ قال «الشيخ في أهله كالنبي في أمته» رواه الجليلي في مشيخته وابن النجار، وعن ابن عمر عن النبي ﷺ «الشيخ في بيته كالنبي في قومه» رواه ابن حبان في الضعفاء، وقال رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[٢] الحديث رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه والدرامي عن كثير بن قيس وسماه الترمذي قيس بن كثير، وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «إن الناس لكم تبع، وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً»[٣] رواه الترمذي. وقيل: الضمير في قومه لمحمد ﷺ يعني أنزل الكتب كلها بالعربية ثم ترجمها جبرئيل، أخرجه ابن مردويه من طريق الكلبي عن ابن عباس قال: كان جبرئيل يوحى إليه بالعربية وينزل هو إلى كل نبي بلسان قومه، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سفيان الثوري قال: لم ينزل وحي إلا بالعربية ثم ترجمه كل نبي لقومه بلسانهم، وقال: لسان يوم القيامة سريانية ومن دخل الجنة تكلم بالعربية، قلت وإرجاع ضمير قومه إلى محمد ﷺ بعيد ويأبى عنه قوله تعالى ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ فيخذله عن الإيمان ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بالتوفيق وخلق إذعان الحق فيه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب على مشيئته أحد من يهد الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يُضِلُّ ولا يهدي إلا لحكمه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٧).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢) وأخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: في فضل العلم (٣٦٣٧) وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٣).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في الاستيصاء بمن يطلب العلم (٢٦٥٠).

ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ
﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ
مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ
جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ
وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التسع ﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ أنْ مفسره لأن في الإرسال معنى القول، أو مصدرية بتقدير حرف الجر فإن صيغ الأفعال في الدلالة على المصدر سواء فيجوز إدخال أن المصدرية على كلها أي بأن أخرج ﴿قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس وأبيّ بن كعب ومجاهد وقتادة بنعم الله، وقال مقاتل بوقائع الله في الأمم السابقة قوم نوح وعاد وثمود، يقال فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعهم، والتقدير فذكرهم بما كان في أيام الله الماضية من النعمة أو البلاء ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الوقائع ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ على وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمنه ووحدته ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ يصبر كثيراً على البلاء والطاعة عن المعصية ﴿شَكُورٍ﴾ يشكر كثيراً على نعمائه والمراد به لكل مؤمن، جعل الله سبحانه الصبار والشكور عنوان المؤمنين تنبيهاً على أنه لا بد لكل مؤمن أن يتصف بهذين الوصفين، أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان من طريق أبي ظبيان عن علقمة عن ابن مسعود قال: الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله، فذُكِر هذا الحديث للعلاء بن بدر فقال أو ليس في القرآن ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إن في ذلك لآيات للمؤمنين[(١)] وروى البيهقي عن أنس عنه ﷺ «الإيمان نصفان نصف في الصبر ونصف في الشكر» وروى أبو يعلى والطبراني في مكارم الأخلاق «الإيمان صبر وسماحة» وروى مسلم وأحمد عن صهيب مرفوعاً: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر وكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر وكان خيراً له»[(٢)] وروى البيهقي عن سعد بن أبي وقاص بلفظ «عجب للمسلم إذا أصابته مصيبة إحتسب وصبر وإذا أصابته خير حمد الله وشكر، إن

---

(١) الآية هي: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ في سورة الجاثية، الآية: ٣.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

المسلم يؤجر في كل شيء حتى اللقمة يرفعها إلى فيه» وعن أبي الدرداء قال سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى قال يا عيسى إني باعث بعدك أمة إذا أصابهم ما يحبون حمدوا الله وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا، ولا حلم ولا عقل فقال يا رب وكيف هذا لهم ولا حلم ولا عقل قال أعطيهم من حلمي وعلمي» رواه البيهقي في شعب الإيمان.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الظرف أعني قوله ﴿إِذْ أَنجَاكُم﴾ متعلق بنعمة الله أي بنعمة الله وقت إنجائه إياكم، أو بعليكم إن جعلت مستقرة صفة للنعمة غير صلة له وأريدت بالنعمة العطية دون الإنعام، ويجوز أن يكون بدل اشتمال من نعمة الله ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أحوال من آل فرعون أو من ضمير المخاطبين أو منهما جميعاً، والمراد بالعذاب ههنا غير التذبيح وما عطف عليه من استعبادهم واستعمالهم بالأعمال الشاقة، بدليل العطف عليه، بخلاف سورة البقرة والأعراف فإن هناك التذبيح مع ما عطف عليه تفسير للعذاب ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ هذا أيضاً من كلام موسى عليه السلام ومعنى تأذَّنَ أعلم مثل أذِنَ لكنه أبلغ لما في التفعُّل معنى التكلف والمبالغة ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل نعمتي فآمنتم وأطعتم نبيكم ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ في النعمة فإن الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود قال رسول الله ﷺ «من أعطي الشكر لم يحرم الزيادة» رواه ابن مردوية عن ابن عباس، وقيل: معناه لأن شكرتم بالطاعة لأزيدكم في الثواب ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ نعمتي ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ تقديره أعذبكم عذاباً شديداً بسلب النعمة في الدنيا والعذاب في الآخرة لأن عذابي لشديد، فحذف الجزاء وأقيم العلة مقامه تعريضاً للوعيد فإن التصريح في الوعد والتعريض في الوعيد من عادات الأكرمين وتنبيهاً على أن المزيد لازم للشكر لا يتخلف عنه، والعذاب بعد الكفران في مشيئة الله تعالى إن شاء عذب وإن شاء غفا عنه، والجملة الشرطية مفعول قولٍ مقدرٍ أو مفعول تَأَذَّنَ على أنه مجرى قال لأنه نوع منه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين ولا تشكروا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد في ذاته، محمودٌ بحمدٍ صَدَرَ من ذاته لذاته أزلاً وأبداً، وبحمد صادر عن الملائكة ومن كل ذرة من ذرات المخلوقات، والتقدير ولأن كفرتم أضررتم أنفسكم بتعريضها للعذاب الشديد وتحريمها عن مزيد الإنعام دون الله تعالى فإنه غني حميد.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ استفهام تقرير من كلام موسى لبني إسرائيل، أو كلام مبتدأ من الله

تعالى خطاباً لأمة محمد ﷺ ﴿نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ مثل قوم إبراهيم نمرود وغيرهِ وقوم لوطٍ وأصحاب الرس وأصحاب مدين وأصحاب الأيكة وقوم تبع ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا يعلم عددهم لكثرتهم ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ جملة معترضة، روى عن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية ثم قال: كذب النسابون، وعن ابن عباس قال بين إبراهيم وبين عدنان ثلاثون قرناً لا يعلمهم إلا الله، وكان مالك بن أنس يكره أن ينسب الإنسان نفسه أباً أباً إلى آدم عليه السلام وكذلك في حق النبي ﷺ ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ من الله تعالى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي المعجزات الواضحة الدلالة ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي أفواه أنفسهم، قال ابن مسعود عضوا على أيديهم غيظاً كما قال الله تعالى: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾(١) وقال ابن عباس لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم يعني وضعوا عليها تعجباً واستهزاءً عليه كمن غلبه الضحك، وقال الكلبي ردوا أيديهم في أفواههم أي وضعوا الأيدي على الأفواه إشارة للرسل أن اسكتوا وأمروا لهم بإطباق الأفواه، أو المعنى ردوا أيديهم في أفواه الرسل فقال مقاتل ردوا أيديهم في أفواه الرسل يُسْكتونهم بذلك وقيل: الأيدي بمعنى الأيادي أي النعم يعني ردوا أيادي الأنبياء التي هي موعظتهم وما أوحى إليهم من الحكم والشرائع في أفواههم لأنهم إذا كذّبوها ولم يقبلوها فكأنهم ردوها إلى حيث جاءت منه، وهو معنى قول مجاهد وقتادة قالا: يعني كذبوا الرسل وردّوا ما جاءوا به، يقال رددتُ قول فلان في فيه أي كذّبتُه، وقيل معنى في أفواههم بأفواههم يعني ردوا أيادي الأنبياء ونعمهم من الحكم والمواعظ بأفواه أنفسهم أي بألسنتهم ﴿وَقَالُوا﴾ أي الأمم للرسل ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ في زعمكم ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من الإيمان بالله وتوحيده ﴿مُرِيبٍ﴾ أي موقع للريبة أو ذي ريبة.

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٩.

﴿لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ الاستفهام للإنكار وشَكٌّ مرفوع بالظرف وأدخلت الهمزة على الظرف لأن الكلام في المشكوك فيه دون الشك، يعني إنما ندعوكم إلى الله وحده وهو أمر لا يحتمل الشك لدلالة كل شيء من المحسوسات والمعقولات على وجوده ووحدته وأشار إلى ذلك بقولهم ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صفة أو بدل ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى نفسه وإلى الإيمان به ببعثه إيانا إليكم ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ أو المعنى يدعوكم إلى المغفرة كقولك دعوته لينصرني ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قيل من زائدة لقوله ﷺ «الإسلام يهدم ما كان قبله»(١) رواه مسلم في حديث عمرو بن العاص، وقيل من للتبعيض فإن الإسلام يهدم من الذنوب ما كان بينه وبين الله دون المظالم، قال بعض العلماء جيء بِمنْ في خطاب الكفرة دون المؤمنين حيث وقع في القرآن تفرقة بين الخطابين، ولعل وجه ذلك أن المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفار جاءت مرتبة على الإيمان، وحيث جاءت في خطاب المؤمنين جاءت مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصي ونحو ذلك فيتناول الخروج عن المظالم ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى وقت سماه الله وجعله آخر أعماركم فلا يعاجلكم بالعذاب، وهذا يدل على أن الإصرار على الكفر في حق المعذبين من الأمم كان معلّقاً به لإهلاكهم، وكان في القضاء المعلق أنهم لو آمنوا لطال أعمارهم ﴿قَالُوٓاْ﴾ للرسل ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ في الماهية والصورة لافضل لكم علينا فلم تخصون من دوننا ولو شاء الله أن يبعث إلى البشر رسولاً لبعث من جنس أفضل كقولهم ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾(٢) ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ بهذه الدعوة ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي حجة واضحة على فضلكم أو استحقاقكم هذه الكرامة أو على صحة دعواكم النبوة، ما قنعوا بالمعجزات البينات التي جاءت بهم رسلهم، واقترحوا عليهم بآيات أُخر تعنتاً وعناداً.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بالنبوة وغير ذلك، بينوا وجه اختصاصهم بالنبوة أنه فضل الله تعالى وإحسانه بعد تسليمهم مشاركتهم في الجنس ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يمكن لنا

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٢٤.

إتيان الآيات باختيارنا واستطاعتنا حتى نأتي بما اقترحتموه، إنما هو أمر متعلق بمشية الله تعالى، فيعطي كل نبي نوعاً من المعجزات ما فيه كفاية للاستدلال على صحة دعوى النبوة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كأنّهُمْ إرشاد لمن آمنوا بِهِم واتّبعوهم بالصبر والتوكل على الله في معاندة الكفار، وقصدوا به أنفسهم قصداً أوليًّا كأنهم قالوا من حقنا التوكل على الله، وفيه إشعار بأن الإيمان بالله يقتضي التوكل عليه، لأن المرء إذا أعتقد أن الخالق للخير والشر والمعطي والمانع إنما هو الله الواحد القهار لا غير لزمه أن يفوض أمره إليه لا غير، ثم بيّنوا ما أشعروا به بقولهم ﴿وَمَا لَنَآ﴾ أي للمؤمنين ﴿أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يعني أيّ عذر لنا في عدم التوكل ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾ الله ﴿سُبُلَنَا﴾ التي بها نعرف ونعلم أن الأمور كلها بيد الله لا غير فآمنا به ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ نحن وجميع أتباعنا ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ أيها الكفار جواب قسم محذوف أي والله لنصبرن، أكدوا بالقسم توكلهم وعدم مبالاتهم بما يفعل بهم الكفار ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يعني فليثبت على توكلهم الذي اقتضاه إيمانهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ جمع الكفارُ بإنكارهم دعوى الرسالة وعيدهم بالإخراج، وحلفوا أن يكون أحد الأمرين أما إخراجهم الرسل أو عودهم يعني صيرورة الرسل إلى ملتهم، فإن الرسل ما كانوا على ملة الكفار قط، ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ولمن آمن من معه فغلبوا الجماعة على الواحد أو كان الترديد للتوزيع يعني لنخرجن من لم يعد ولنبقين من عاد منكم إلى ملتنا، وجاز أن يكون أو بمعنى إلاّ أنْ، أو إلى أنْ يعنون والله لنخرجنكم إلا أن ترجعوا أو إلى أن ترجعوا إلى ملتنا ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى الرسل ﴿رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على إضمار القول أو إجراء الإيحاء مجراه لكونه نوعاً منه ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أيها الرسل ومن آمن معكم ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرضَ الكفارِ وديارَهم ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي بعد إهلاكهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الموحي وهو إهلاك الأعداء وتسليطهم على الأرض ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي قيامة بين يديّ يوم القيامة، نظيره قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[1] فأضاف قيام العبد إلى نفسه، أو المعنى لمن خاف موقفي وهو الموقف الذي يقيم فيه العباد للحكومة يوم القيامة، أو قيامي عليه وحفظي أعماله، وقيل المقام مقحم والمعنى لمن خافني ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أثبت الياء ورش في الوصل فقط والباقون يحذفونها في الحالين أي خاف وعيدي بالعذاب أو عذابي الموعود للكفار.

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.

﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ سألوا من الله الفتح على أعدائهم والقضاء بينهم وبين أعدائهم من الفتاحة، كقوله ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾[(١)] وهو معطوف على فأوحى والضمير للأنبياء كذا قال مجاهد، أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد وكذا قال قتادة يعني لما يئسوا من إيمان قومهم دعَوُا الله بالفتح والعذاب على قومهم، كما ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ﴾[(٢)] وقال موسى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾[(٣)] أو للكفرة كذا قال ابن عباس ومقاتل كما ﴿قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾[(٤)] وقيل للفريقين فإن كلهم سألوا أن ينصر المحق ويهلك المبطل: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[(٥)] ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ معطوف على محذوف تقديره ففتح لهم فأفلح المؤمنون، وخَابَ يعني خسر وهلك كُلُّ جَبَّارٍ يعني عات متكبر على الله في القاموس تجبر تكبر يقال الجبار لله تعالى لتكبره بالحق، ولكل عات لتكبره بالباطل، أو صاحب قلب لا تدخله الرحمة وقَتَّالٍ في غير حق، أو متكبر لا يرى لأحد عليه حقًّا، قال البغوي الجبار الذي لا يرى فوقه أحد، والجبرية طلب العلو بما لا غاية وراءه وهذا الوصف لا يستحقه إلا الله تعالى، فمن ادعى غيره يستحق اللعن والطرد والخيبة، وقيل الجبار الذي يُجبر الخلق على مراده، والعنيد المعاند للحق ومجانبه، في القاموس عَنَدَ خالف الحق عارفاً به فهو عنيد وعاند، وقال ابن عباس هو المعرض عن الحق، وقال مقاتل المتكبر، وقال قتادة العنيد الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي أمامه بين يديه كأنه مرصد بها واقف على شفيرها في الدنيا، مبعوث إليها في الآخرة وقيل مِنْ وَرَائِهِ أي وراء حياته يعني بعده، قال مقاتل ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي بعده،

---

(١) سورة الأعراف، باب: ٨٩.

(٢) سورة نوح، الآية: ٢٦.

(٣) سورة يونس، الآية: ٨٨.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٥٣.

قال أبو عبيدة هو من الأضداد أي يكون بمعنى الأمام والخلف وحقيقته ما يوارى عنك ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ عطف على محذوف تقديره ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ يلقى فيها ويُسقى ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ وهو ما يسيل من جلود أهل النار وأجوافهم مختلطاً بالقيح والدم عطف بيان لماء، قال محمد بن كعب ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر، وأخرج البيهقي عن مجاهد ففي قوله تعالى ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ قال: القيح والدم، روى أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن أبي الدنيا في صفة النار والبيهقي والبغوي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: «يقرب إليه فيستكرهه فإذا أدني منه شوى وجهه ووقع فروة رأسه فإذا أشربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره، فيقول الله تعـالـى ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ﴾»(١) ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي يتكلف في شربه يشربه جرعةً جرعةً وهو صفة لماء أو حال من ضمير في يسقي ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي لا يقارب أن يسيغه فكيف يسيغه بل يغصّ به فيطول عذابه، والسوغ جواز الشرب عن الحلق بسهولة وقبول النفس، في القاموس ساغ الشراب سوغاً أي سهل مدخله ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ﴾ أي أسبابه من الشدائد وأنواع العذاب ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي من جميع جوانبه فيحيط به أو يأتيه شدائد الموت والآمة من كل موضع من جسده، أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي حتى يأتيه من موضع كل شعرة من جسده ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فيستريح، قال ابن جريج تعلق نفسه أعلى حنجرته فلا يخرج من فيه ولا يرجع إلى مكانها من جسده، وأخرج ابن المنذر عن فضيل بن عياض أنه حبس الأنفاس ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أي بعد ذلك العذاب وبين يديه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أشدّ مما سبق وقيل هو الخلود في النار، قيل الآية منقطعة عن قصة الرسل نازلة في أهل مكة، طلبوا الفتح الذي هو المطر في سنينهم التي أرسل الله عليهم بدعوة رسوله ﷺ، فخيب رجاؤهم ووعد لهم أنهم يسقون في جهنم صديد أهل النار بدل سقياهم.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي صفتهم التي هي في الغرابة مثلُ مبتدأ خبره محذوف أي فيما يتلى عليكم وقوله ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ جملة مستأنفة لبيان مثلهم أو هذه الجملة خبر لمثل، وقيل أَعْمَالُهُمْ بدل من المثل والخبر كَرَمَادٍ ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ أي حملته وأسرعت الذهاب به قرأ نافع الرِيَاحُ على الجمع والباقون على الإفراد ﴿فِى يَوْمٍ

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة شراب أهل النار (٢٥٨٣).

عَاصِفٍۖ﴾ العصوف اشتداد الرياح وصف به زمانه للمبالغة، كقولهم نهاره صائم وليلة قائم، والمراد بأعمالهم ما يزعمونها حسنات ويرجون حسن جزائها كالصدقة وصلة الرحم وإعانة الملهوف وعتق الرقاب ونحو ذلك شبه الله سبحانه أعمالهم في حبوطها برماد طيرته الرياح العاصفة لبنائها على غير أساس من معرفة الله وابتغاء وجه الله، أو لكونها للأصنام التي لا يشعرن بعبادتهن ولا يستطعن على شيء ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ أي الكفار يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ في الدنيا من الأعمال ﴿عَلَىٰ شَىْءٍۚ﴾ أي لا يجدون لها ثواباً أصلاً، ولا يرون لها أثراً لحبوطها، وهذا ملخص التمثيل ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ غاية البعد عن طريق الحق حتى كان حسناتهم ضلالاً لكونها شركاً بالله مقصوداً فيه غيره فكيف السيئات ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿خَٰلِقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وفي سورة النور ﴿خَٰلِقَ كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ على وزن فاعل مضافاً، والباقون خَلَقَ على الماضي ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالجر والباقون بالنصب ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾ أي بالحكمة البالغة والوجه الذي يحق أن يخلق له، وذلك أن يكون دليلاً على وجود الصانع مرشداً للناس إلى الحق والإيمان ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي يعدمكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي يخلق خلقاً آخر أطوع منكم، رتب ذلك على كونه خالقاً للسماوات والأرض مستدلاً به عليه، فإن من خلق ذلك يقدر على أن يُبَدِّ لهم بخلق آخر، ولم يمتنع ذلك كما قال ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ متعذرٍ ومتعسرٍ فإنه قادر لذاته لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، ومَن هذا شأنه كان حقيقاً لأن يُعبد ويُطاع ولا يُعْصي رجاءً لثوابه وخوفاً من عقابه.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِىۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي يبرزون من قبورهم يوم القيامة لأمر الله ومحاسبته، وإنما ذكر

لفظ الماضي لتحقق وقوعه ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ أي الاتباع، جمع ضعيف يريد به ضعاف الحال في الدنيا لقلة متاع الدنيا، أو ضعاف الرأي ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ أي تكبروا على الناس وهم القادة والرؤساء الذين منعوهم عن اتباع الرسل ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ جمع تابع كحارس وحَرَسٍ يعني اتبعناكم في تكذيب الرسل والإعراض عن نصائحهم ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ﴾ دافعون ﴿عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ من للبيان واقعة موقع الحال ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ من للتبعيض واقعة موقع المفعول به يعني هل أنتم دافعون بعض شيء كائن من عذاب الله ويحتمل أن تكون من الموضعين للتبعيض ويكون الأولى مفعولاً والثانية مصدراً يعني فهل أنتم مغنون عنا بعض العذاب بعض الإغناء ﴿قَالُواْ﴾ أي المستكبرون جواباً عن معاتبة الاتباع واعتذاراً عمّا فعلوا بهم ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ للإيمان ﴿لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ لدعوناكم إلى الهدى ـ ولكن ضللنا فأضللناكم أي اخترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا ـ أو المعنى لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنيناه عنكم كما عرضناكم له ولكن سدد بنا طريق الخلاص ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ الجملة في موضع الحال أي مستويا علينا الجزع والصبر ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ أي من منجاً ومهربٍ مِنَ الْحَيْصِ وهو العدول على جهة الفرار وهو أما مصدر كغيب أو ظرف مكان كمبيت ـ والجملة أما من كلام القادة أو من كلام الفريقين ـ قال مقاتل يقولون في النار تعالوا نجزع فيجزعون خمس مائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمس مائة عام فلا ينفعهم الصبر فحينئذ يقولون ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ أخرج ابن حاتم والطبراني وابن مردويه عن كعب بن مالك رفعه إلى النبي ﷺ فيما أحسب في هذه الآية قال يقول أهل النار هلموا فلنصبر فيصبرون خمس مائة عام، فلما رأوا ذلك قالوا سَوَاءُ الآية. قال محمد بن كعب القرظي: بلغني أن أهل النار استغاثوا بالخزنة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٩﴾[1] فردّت الخزنة ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ﴾[2] فردت الخزنة عليهم أدعوا ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾[3] فلمّا يئسوا مما عند الخزنة ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾[4] سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة، والسنة ستون وثلاثمائة يوماً، واليوم كألف سنة ثم يحطّ إليهم بعد الثمانين

(١) سورة غافر، الآية: ٤٩.
(٢) الآية هي: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم﴾ سورة غافر، الآية: ٥٠.
(٣) سورة غافر، الآية: ٥٠.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.

﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[(١)] فلما يئسوا مما قبله قال بعضهم لبعض إنه نزل بكم من البلاء ما نزل فهلم فلنصبر فلعل الصبر ينفعنا كما صبر أهل الدنيا على طاعة الله فنفعهم فأجمعوا على الصبر فطال صبرهم ثم جزعوا فطال جزعهم فنادوا ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي من منجا قال: فقام إبليس عند ذلك فخطبهم فقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ فلمّا سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودوا ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾[(٢)] فنادوا الثانية ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[(٣)] فرد عليهم ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[(٤)] الآيات فنادوا الثالثة ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾[(٥)] فرد عليهم ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾[(٦)] الآيات، ثم نادوا الرابعة ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾[(٧)] فرد عليهم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[(٨)] فمكث عنهم ما شاء الله ثم ناداهم ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[(٩)] فلما سمعوا ذلك قالوا: ألا يرحمنا ربنا ثم نادوا عند ذلك ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ فقال عند ذلك ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾[(١٠)] فانقطع الرجاء والدعاء منهم فأقبل بعضهم على بعض ينبح بعضهم في وجوه بعض وأطبقت عليهم النار قوله عز وجل ﷺ.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إبليس ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي أحكم وفرغ عنه ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، قال مقاتل يوضع له منبر في النار فيجتمع الكفار بالأئمة فيقول خطيباً في الأشقياء من الثقلين، أخرج الطبراني في الكبير وابن المبارك وابن جرير وابن

(١) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.
(٢) سورة غافر، الآية: ١٠.
(٣) سورة السجدة، الآية: ١٢.
(٤) سورة السجدة، الآية: ١٣.
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٤٤.
(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٤٤.
(٧) سورة فاطر، الآية: ٣٧.
(٨) سورة فاطر، الآية: ٣٧.
(٩) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٥.
(١٠) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٨.

مردويه وابن أبي حاتم والبغوي الثلاثة في تفاسيرهم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ «إذا جمع الله بين الأولين والآخرين وقضي بينهم وفرغ من القضاء، يقول المؤمنون: قد قضى بيننا ربنا وفرغ فمن يشفع لنا إلى ربنا، فيقولون: آدم خَلَقَه بيده وكلّمه، فيأتونه فيقولون: قضى بيننا ربنا وفرغ من القضاء قم أنت فاشفع لنا، فيقول: ائتوا نوحاً فيأتون نوحاً فيدلهم على إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيدلهم على موسى، فيأتون موسى فيدلهم على عيسى، فيقول أدلكم على النبي الأمي العربي الأفخر فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم إليه، فيُثَوِّرُ مجلسي من أطيب ريح ما شمها أحد قط حتى آتي ربي ﷻ فيشفّعني ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكفار قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا؟ فيقولون: ما هو غير إبليس الذي أضلنا، فيأتونه فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا فيقوم فَيُثَوِّرُ مجلسه من أنتن ريح ما شمها أحد قط ثم يَعْظِمُ لجهنم ويقول عند ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾» أي وعداً أنجزه أو كان من حقه أن ينجز وهو الوعد بالبعث والجزاء ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ وعد الباطل أن لا بعث ولا حساب، وإن كان فالأصنام تشفع لكم ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ جعل تبيين خلف وعده كالإخلاف منه ﴿وَمَا كَانَ لِيَ﴾ فتح الياء حفص والباقون أسكنوها ﴿عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ من تسلط فألجيكم إلى الكفر والمعاصي وقيل معناه لم آتكم بحجة فيما دعوتكم إليه ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ أي إلادعائي إياكم إليها بتسويل وهو ليس من جنس السلطان ولكنه على طريقة قولهم تحية بينهم ضرب وجميع، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي أسرعتم إلى إجابتي وأبيتم مِنْ إجابة صاحب الحجة البالغة ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ بوسوستي فإن مَنْ طرح العداوة لا يلام بمثل ذلك ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ حيث أطعتموني من غير سلطان ولا برهان ولم تطيعوا ربكم، احتجت المعتزلة بأمثال ذلك على استقلال العبد بأفعاله وليس فيها ما يدل عليه إذ يكفي لصحتها أن يكون لقدرة العبد مدخل ما في فعله وهو الكسب الذي يقوله أصحابنا ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمغيثكم من العذاب ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ بمغيثيَّ قرأ حمزة بكسر الياء على الأصل في التقاء الساكنين، والباقون بفتح الياء لأن الأصل مرفوض في مثله لما فيه من اجتماع ثلاث كسرات، مع إن حركة ياء الإضافة الفتح فإذا لم تكسر وقبلها ألف فبالحري أن لا تكسر وقبلها ياء، وجاز أن يكون قراءة حمزة مبينة على لغة بني يربوع يزيدون ياء على ياء الإضافة إجراءً لها مجرى الهاء والكاف في ضربتهوه وأعْطِنِيكَاهُ، وحذفت الياء إكتفاء بالكسرة ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ قرأ أبو عمرو بإثبات الياء وصلاً والباقون يحذفونها في الحالين ﴿مِن قَبْلُ﴾ ما

إما مصدرية ومِنْ متعلقة بأشركتمون يعني كفرت اليوم أي تبرأتُ واستنكرتُ بإشراككم إيّايَ في عبادة الله وطاعته من قبل هذا اليوم، أي في الدنيا نظيره قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾(١) أو موصولة بمعنى مَنْ نحو ما في قوله سبحان ما يسخركن لنا، وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾(٢) ومِنْ متعلقة بكَفَرْتُ أي كَفَرْتُ بمَنْ أشركتمونيه في الطاعة وهو الله تعالى، حيث أطعتموني فيما دعوتكم إليه من عبادة الأصنام وغيرها كفرتُ من قبل إشراككم حين ردتُ أمره بالسجود لآدم عليه السلام، وأشرك فيقول من شركت زيد اللتعدية إلى مفعول ثان ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تتمة كلامه أو ابتداء كلام من الله تعالى، وفي حكاية أمثال ذلك لطف للسامعين وإيقاظ لهم حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ والمدخلون هم الملائكة ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ يسلّم بعضهم على بعض ويسلّم الملائكة عليهم، وقيل المُحَيّ بالسلام هو الله تعالى.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۝٢٦ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ كيف وضع الله مثلاً والمثل قول سائر لتشبيه شيء بشيء ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ هي قول لا إله إلا الله بالإخلاص ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي جعل كلمة طيبة كشجرة قوية مرتفعة في السماء باقية طيبة الثمر وهو تفسير لقوله ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ ويجوز أن يكون كَلِمَةً بدلاً من مَثَلاً، وكشَجَرَةٍ صفتها أو خبر مبتدأ محذوف، أي هي كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ وأن يكون كلِمَةً أولى مفعولي ضَرَبَ أجزاءَ له مجرى جعل ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض مستحكم ضارب بعروقه فيها ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أعلاها﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ويجوز أن يريد فروعها أي إقناؤها على الاكتفاء بلفظ الجنس لاكتساب الاستغراق من الإضافة ﴿تُؤْتِىٓ

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤. (٢) سورة الشمس، الآية: ٧.

﴿أُكُلَهَا﴾ تعطي ثمرها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ وقَّته الله لا ثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي بإرادة خالقها وتكوينه، كذلك أصل هذه الكلمة راسخ في قلب المؤمن بالمعرفة والتصديق فإذا تكلمت بها عرجتْ فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله رضي الله عنه قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾(١) عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «التسبيح نصف الميزان والحمد لله يملؤه ولا إله إلا الله ليس لها حجاب دون الله»(٢) رواه الترمذي وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبد لا إله إلا الله مخلصاً قط إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر»(٣) رواه الترمذي بسند حسن، وأخرج الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أنس أنه ﷺ قال: «الشجرة الطيبة النخلة والشجرة الخبيثة الحنظلة»(٤) والحين في اللغة الوقت فقال مجاهد وعكرمة الحين ههنا سَنَة كاملة لأن النخلة يثمر كل سَنَةٍ، وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن ستة أشهر من وقت اطلاعها إلى صرامها، وروى ذلك عن ابن عباس وقيل: أربعة أشهر من حين ظهورها إلى إدراكها، وقال سعيد بن المسيب شهران من حين يؤكل إلى الصرام وقال الربيع بن أنس كل حين أي كل غدوة وعشية، لأن ثمر النخل يؤكل أبداً لَيْلاً ونهاراً صيفاً وشتاءً إما تمراً أو رطباً أو بسراً، كذلك عمل المؤمن يصعد أول النهار وأوسطه وآخره وكذلك أول الليل وأوسطه وآخره، وبركة الإيمان لا ينقطع أبداً بل يصل إليه في كل وقت، عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟ قال عبد الله فوقع الناس في شجر البوادي ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: هي النخلة»(٥) قال البغوي لا يكون شجرة إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال، كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق وقول باللسان وعمل بالأركان، وقال أبو ظبيان عن ابن عباس أنه قال الشجرة الطيبة هي شجرة في الجنة، وعن جابر قال: قال

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥١٨).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: دعاء أم سلمة (٣٥٩٠).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة إبراهيم (٣١١٩).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: قول المحدث حدثنا أو أخبرنا أو أنبأنا (٦١) و؟أخرجه مسلم في كتبا: صفان المنافقين وأحكامهم، باب: مثل المؤمن مثل النخلة (٢٨١١).

رسول الله ﷺ: «من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست نخلة في الجنة»[1] رواه الترمذي ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فإن في ضربها زيادة إفهام وتذكير فإنه تصوير للمعاني وإدناء لها من الحس.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قلت: الظاهر أن المراد بها ما قيل بالنفاق ولم يرد به وجه الله بدليل قوله تعالى ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ يعني غير نافعة ولا مستقرة في الأرض ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ أي انتزعت واقتلعت ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ لأن عروقها قريبة منه ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ استقرار كذلك الكلمة التي لم يرد بها وجه الله ليس لها منفعة أبداً، أخرج ابن مردويه من طريق حبان بن شعبة عن أنس بن مالك في هذه الآية قال: هي الشربانة، قيل لأنس ما الشربانة؟ قال الحنظلة، قلت الظاهر أن الشجرة الطيبة تعم النخلة وغيرها وكذا الخبيثة تعم الحنظلة وغيرها وما ورد في الحديث إنما هو ذكر بعض أفراده على سبيل التمثيل.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ يعني بكلمة التوحيد المقرونة بالإخلاص فإن لها ثبات وتمكن في القلوب ولثوابها ثبات عند الله ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا يزالون عن دينهم إذا فتنوا في دينهم كزكريا ويحيى وجرجيس وشمعون وأصحاب الأخدود وخبيب وأصحابه وأصحاب بئر معونة ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني إذا سئلوا في القبور ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المنافقين والكافرين فلا يثبتهم على القول الثابت في مواقف الفتن، وتزل أقدامهم أول كل شيء وهم في الآخرة أضل وأزل، أخرج الأئمة الستة عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾»[2] وفي رواية عن النبي ﷺ قال: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت نزلت في عذاب القبر، يقال من ربك فيقول ربي الله ونبيّ محمد ﷺ» متفق عليه، ورواه أحمد وأبو داود وغيرهما بلفظ قال رسول الله ﷺ «يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له وما يدريك؟ فيقول: قرأتُ كتاب الله فآمنتُ به وصدقتُ، فذلك قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الآية، قال: فينادي

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٦٥).

(٢) وأخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر (١٣٦٩) وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٢٨٧١).

منادٍ من السماء أنْ صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من رُوحها وطيبها ويفسح له فيها مد بصره، وأما الكافر فذكر موته قال: ويعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي منادٍ من السماء أنْ كذب فأفرشوه من النار وألبسوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار، قال فيأتيه من حرها وسمومها قال ويضيق عليه قبره حتى يختلف فيه أضلاعه، ثم يقيض له أعمى أصم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها على جبل لصار تراباً، فيضربه بها ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين، فيصير تراباً ثم يعاد فيه الروح»[١] وعن عثمان قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم ثم سلوا له التثبت فإنه الآن يسئل»[٢] رواه أبو داود، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عته أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنتَ تقول في هذا الرجل لمحمد؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له أنظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً، وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنتُ أقول ما يقول الناس فيقال: لا دريتَ ولا تليتَ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين»[٣] متفق عليه، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ثم ينوّر له فيه ثم يقال له قم فيقول أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان نَم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون: قولاً فقلت مثله لا أدري فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال

---

(١) أخرجه أبو داودفي كتاب: السنة، باب: المسألة في القبر وعذاب القبر (٤٧٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الجنائز، باب: الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف (١١٩٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال (١٣٣٨) وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٢٨٧٠).

للأرض التئمي عليه فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[١] رواه الترمذي ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من التوفيق والخذلان والتثبيت وتركه من غير اعتراض عليه، عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، فقال للذي في يمينه إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في كتفه اليسرى إلى النار ولا أبالي»[٢] وعن أبيّ بن كعب قال: لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقتَ مثل أحد ذهباً في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطاك لم يكن ليصيبك، ولو متَّ على غير هذا لدخلتَ النار» وقال ابن مسعود مثل ذلك وحذيفة بن اليمان مثل ذلك وزيد بن ثابت عن النبي ﷺ مثل ذلك رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ أي شكر نعمته كفراً بأن وضعوا مكانه أو بدلوا نفس النعمة كفراً، فإنهم لما كفروا سلبت النعمة منهم فصاروا تاركين لها مختارين الكفر بدلها، روى البخاري في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: «هم والله كفار

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر (١٠٦٥).

(٢) رواه أحمد والبزار والطبراني ورجاله رجال الصحيح.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: القدر، باب: فيما سبق من الله سبحانه في عباده وبيان أهل الجنة وأهل النار (١١٧٧٧).

قريش[١]، قال هم قريش ومحمد ﷺ نعمة الله وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت هذه الآية في الذين قُتِلوا يوم بدر يعني أهل مكة خلقهم الله وأسكنهم حرماً يجبى إليه ثمرات كل شيء، ودفع عنهم أصحاب الفيل وجعلهم قوام بيته ووسع عليهم أبواب رزقه بإيلافهم رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ وبعث محمداً ﷺ رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وجعل سائر الناس تبعاً لهم فكفروا تلك النعمة وعادوا محمداً ﷺ واستحبوا العمى على الهدى، فقحطوا سبع سنين وأسروا وقتلوا يوم بدر وصاروا أذلّاء فبقوا مسلوبي النعمة موصوفين بالكفر حتى ماتوا أو قتلوا ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾ الذين تبعوهم في الكفر ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ أي دار الهلاك بحملهم على الكفر ﴿جَهَنَّمَ﴾ عطف بيان لها ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال منها أو من القوم أي داخلين فيها مقاسين لحرها وجاز أن يكون جهنم منصوباً بفعل مضمر يفسرها ما بعدها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي بئس المقر جهنم، أخرج ابن مردوية عن ابن عباس أنه قال لعمر يا أمير المؤمنين هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ قال هم الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية، أما بنو مغيرة فكفيتموه يوم بدر وأما بنوا أمية فمتعوا حتى حين، وكذا ذكر البغوي قول عمر ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأسط والحاكم وصححه وابن مردويه من طرق عن علي بن أبي طالب مذكر مثله، قلتُ أما بنوا أمية فمتعوا بالكفر حتى أسلم أبو سفيان ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم، ثم كفر يزيد ومن معه بما أنعم الله عليهم وانتصبوا العداوة آلِ النبي ﷺ وقتلوا حسيناً ظلماً وكفر يزيد بدين محمد ﷺ حتى أنشد أبياتاً حين قَتَل حسيناً ، مضمونها أين أشياخي ينظرون انتقامي بآل محمد وبني هاشم وآخر الآبيات:

ولست من جندب إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل

وأيضاً أحل الخمر وقال ... مدام كنز في إناء كفضة

وساق كبد مع مدام كأنجم ... وشمسه كرم برجها قعرها

ومشرقها الساقي ومغربها فمي

فإن حرمت يوماً على دين أحمد ... فخذها على دين المسيح بن مريم

وسَبُّوا آل محمد ﷺ على المنابر، فمتعوا بهذه الضلالة ألف شهر فانتقم الله منهم حتى لم يبق منهم أحد ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي أمثالاً في العبادة أو التسمية مع أنه ليس له

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: قتل أبي جهل (٣٩٧٧).

ند ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ اللام لام العاقبة إذ ليس غرضهم مِنْ اتخاذ الأنداد الضلال أو الإضلال لكن لمّا كان نتيجته جعل كالغرض، قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكذلك في الحج ولقمان وزمر من المجرد والباقون بضم الياء من التفعيل أي ليضلوا الناس ﴿عَن سَبِيلِهِۦٓۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ﴾ بشهواتكم أو بعبادة الأوثان وضلالاتكم في الدين التي هي أيضاً من قبيل الشهوات التي يتمتع بها ما قدر لكم، قال ذو النون التمتع أن يقضي العبد ما استطاع من شهوته، وفي التهديد بصيغة أمر إيذان بأن المهدد عليه كالمطلوب لإفضائه إلى المهددية، وأن الأمرين كائنان لا محالة ولذلك علله بقوله ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وإن المخاطب لانهماكه فيه كالمأمور به من أمر مطاع.

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّعِبَادِيَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بإسكان الياء والباقون بفتحها ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خصهم للأمر بالخطاب ووصفهم بالعبودية وأضافهم إلى نفسه تشريفاً، وتنبيهاً على أنهم هم المقيمون لحقوق العبودية أهلاً للخطاب الممتثلون بما يقال لهم، ومفعول قل محذوف يدل عليه جوابه تقديره قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ أقيموا الصلاة وأنفقوا ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ مجزوم على جواب الأمر يعني قل جزاء الشرط مقدر يعني أن تقل لهم أقيموا يقيموا، وفيه إيذان بأنهم لفرط مطاوعتهم الرسول الله ﷺ لا ينفك فعلهم عن أمره وأنه كالسبب الموجب له، ويجوز أن يقدر بلام الأمر فيكون مفعولاً للقول ﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ منصوبان على المصدر أي إنفاق سر وعلانية ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ فيبتاع المقصر ما يتدارك به تقصيره أو يفدي به نفسه ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي مجاملة وصداقة يشفع له خليله، فإن قيل الخلة يوم القيامة ثابتة للمتقين بقوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾[1] وشفاعة بعض المؤمنين لبعض أيضاً ثابتة فما وجه نفي الجنس، قلتُ الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أمر بالتقوى فالمراد بالآية نفي جنس الخلة عند عدم التقوى والمعنى إن لم يتقوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لا يكون لهم يومئذ خليل، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالفتح فيهما على أعمال لا التي لنفي الجنس، والباقون بالرفع على إبطال عمل لا لأجل التكرار.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ مبتدأ وخبر ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ تعيشون به وهو يشتمل المطعوم والملبوس رِزْقاً مفعول لأخرج ومِنَ الثَّمراتِ بيان له حال منه، ويحتمل عكس ذلك، ويجوز أن يكون رزقاً منصوباً على

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

المصدرية لأنَّ أخرج بمعنى رزق، أو على العلية ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ بالركوب والحمل ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بمشيته تعالى إلى حيث توجهتم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ ذللها لكم تُخرجونها حيث شئتم وتنتفعون بمياهها وتتخذون عليها جسراً وقناطير ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ جاريين فيما يعود إلى مصالح العباد لا يفتران ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ في القاموس داب في عمله كمَنَعَ دأباً ويحرك ودُءُوباً بالضم جَدَّ وتَعِبَ، والدائبان الجديدان، والسَّرْق الشديد يعني مسرعين في السير قال ابن عباس دونهما في طاعة الله﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان فجعل لكم الليل لتسكنوا فيه من تعب العمل والنهار مبصر اللأشياء فتكسبوا فيه معاشكم.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي بعض جميع ما سألتموه يعني أتاكم شيئاً كائناً من كل شيء سألتموه، فحذف شيئاً اكتفاءً بدلالة الكلام على التبعيض، قال البيضاوي ولعل المراد بما سألتموه ما كان حقيقاً لأن يسئل لاحتياج الناس إليه سأل أو لم يسئل، وما يحتمل أن يكون موصولة أو موصوفة أو مصدرية ويكون المصدر بمعنى المفعول، وجاز أن يكون للبيان أو زائدة، ولفظة كل للتكثير نحو قولك فلان يعلم كل شيء وأتاه كل إنسان وقوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾[1] وقرأ الحسن مِنْ كُلٍّ بالتنوين والمعنى من كل شيءٍ ما احتجتم له وسألتموه بلسان الحال، ويجوز أن يكون ما نافية في موضع الحال يعني آتاكم من كل شيء والحال أنكم ما سألتموه يعني أعطاكم أشياء ما طلبتموها ولا سألتموها ﴿تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي نعم الله تعالى فيه دليل على أن المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي لا تحصروا ولا تطيقوا عد أنواعها فضلاً من أفرادها فإنها غير متناهية فكيف تطيقون إذاً شكرها، لكن الله تعالى بفضله جعل الاعتراف بالعجز عن الشكر شكراً، وسمى المؤمنين شكوراً لأجل اعترافهم بذلك ومن لم يعترف بذلك قال في حقه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ يشكو ربه في الشدة والبلاء ويجزع ولا يصبر ولا يعلم أن ما أصابه أصابه من جواد كريم رحيم حكيم لا يكون إلا لحِكمة وإن لم تدرك حكمته ﴿كَفَّارٌ﴾ شديد الكفر إن في النعمة والرخاء فهذا نقيض ما قال في المؤمنين ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فإن الكَفَّار ضد الشَّكُورِ صراحةً، والظلوم ضد للصبار دلالةً، فإن الظلم وضع الشيء في غير موضعه والبلاء موضع للصبر ووضع الشكاية والجزع مقامه ظلم، وقيل ظلوم على نفسه بالمعصية فيعرضها للعذاب في الآخرة والدنيا، أو يظلم نفسه

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

بترك الشكر فيعرضها للحرمان، أو يظلم النعمة بإغفال شكرها، أو يظلم يعني يضع الشكر في غير موضعه فيشكر غير من أنعم عليه، قال الله تعالى: «إني والجن والإنس في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري»(١) رواه الحاكم والبيهقي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ يعني مكة ﴿ءَامِنًا﴾ أي ذا أمن لمن فيها فالمسئول من هذا القول إزالة الخوف وجَعْل مكة آمناً، وأما في قوله تعالى: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾(٢) جَعْل تلك الوادي بلداً من البلاد الآمنة ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾ بعّدني ﴿وَبَنِىَّ﴾ من ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ أي أجعلنا منها في جانب، وفيه دليل على أن عصمة الأنبياء بتوفيق الله تعالى وحفظه إياهم ولفظ بَنيَّ لا يشتمل الأحفاد وإطلاقها على ما يعم الأحفاد في قوله تعالى ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ من قَبيلِ عموم المجاز فلا يشكل بأنه قد عَبَدَ كثير من أولاد إسماعيل عليه السلام الأصنام، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عيينة أن أولاد إسماعيل لم يعبدوا الصنم محتجاً بهذه الآية، وقال: إنما كانت لهم حجارة يدورون بها ويسمون الدوار، ويقولون البيت حجر فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلته، وزاد في الدر المنثور قيل وكيف لم يدخل ولد إسحاق وسائر ولد إبراهيم عليه السلام، قال: لأنه دعا لأهل هذه البلدان لا يعبدوا إذا سكنهم وقال ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾، ولم يدع لجميع البلدان بذلك، قال

---

(١) فيه بقية بن الوليد أورده الذهبي في الضعفاء. انظر فيض القدير (٦٠٠٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ فيه وقد خص أهله ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ وقول ابن عيينة هذا مردود بالكتاب والسنة والإجماع والخبر المتواتر عن حال أهل مكة، فإن المشركين في كتاب الله تعالى عبارة عن أهل مكة غالباً وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾(١) وغير ذلك والله أعلم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ نسب الإضلال إليهن بالمجاز باعتبار السببية يعني ضل بهن كثيرٌ من الناس عن طريق الهدى حين عبدوهن ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ في الدين ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي بعضي لا ينفك عني في الدنيا والآخرة حتى يدخل معي الجنة ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تقديره فاغفر له ذا رحمة فإنك غفور رحيم، قال السدّي معناه من عصاني ثم تاب، وقال مقاتل بن حبان من عصاني فيما دون الشرك، والظاهر أنه قال ذلك قبل أن يُعْلِمه الله أنه تعالى ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾(٢) فلما علم ذلك قال ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾(٣) زعماً منه أن الله تعالى ينتقم من المشرك في الدنيا أيضاً، فقال الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٤) ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ تقديره أسكنتُ ولداً من ذريتي فحذف المفعول، أو المعنى أسكنتُ بعض ذُريتي وهم إسماعيل ومن ولد منه، فإن إسكانه متضمن لإسكانهم ﴿بِوَادٍ﴾ هو في الأصل موضع يسيل فيه الماء فسمى بالوادي مفرج بين جبال أو تلال أو آكام، وكان الموضع الذي هناك مكة وادياً بين الجبال ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ لأنها حجرية لا تنبت ﴿عِندَ بَيْتِكَ﴾ الذي كان قبل الطوفان ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾ قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لن يحل القتال فيه لأحد، ولا يحل لي إلا ساعة من نهارٍ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يُخْتَلى خلاها، قال العباس يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال: إلا الإ ذخر»(٥) متفق عليه من حديث ابن عباس، أخرج الوقدي وابن

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٣) الآية هي: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الجزية، باب: إثم الغادر للبر والفاجر (٣١٨٩) وأخرجه مسلم في كتاب الحج، باب: تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٣).

عساكر من طريق عامر بن سعيد عن أبيه بلفظ «كانت سارة تحت إبراهيم ﷺ فمكثت معه دهراً لا ترزق ولداً، فلمّا رأت ذلك وهبت له هاجَرَ أمةً قبطية، فولدت له إسماعيل فغارت من ذلك سارة، ووجدت في نفسها وعَقَّبَتْ على هاجر فحلفت أن تقطع منها ثلاثة أشراف، فقال لها إبراهيم هل لكِ أن تبري يمينك؟ قالت: كيف أصنع؟ قال: اثقبي أذنها واخفضيها، والخفض هو الختان، ففعلت ذلك فوضعت هاجر في أذنها قُرطين، فازدادت بهما حسناً، فقالت: أراني إنما ازددتُها جمالاً، فلم ترض على كونه معها، ووجد بها إبراهيم وجداً شديداً فنقلها إلى مكة، فكان يزورها في كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها. وروى البخاري في الصحيح والبغوي بسنده حديث ابن عباس قال: «أو ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ﷺ اتخذت مِنطقاً لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل ﷺ وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمرُ وسقاءً فيه ماءُ، ثم قفل إبراهيم فتبعته أم إسماعيل فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيها إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آالله أمرك بهذا؟ قال: نعم قالت: إذاً لا يضيعنا ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حيث لا يرونه فاستقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال رب ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ حتى بلغ يَشْكُرُوْنَ، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلَوّى أو قال يتلمظ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل من الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس قال النبي ﷺ فلذلك سعى الناس بينهما، فلما أشرفت على مروة سمعت صوتاً فقالت صه تريد نفسها ثم تسمّعت فسمعت أيضاً فقالت: قد استمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملَك، عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو تفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس قال النبي ﷺ «رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال: لو لم تغرف

من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً» قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملَك لا تخافوا الضيعة فإن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه إن الله لا يضيع أهله، وكانت البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم مقبلين من طريق كذا، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً على الماء، فقالوا: إن هذا الطائر تدور على ماءٍ، ولقد عهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جُرْياً أو جُرْيين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عتدكِ قالت نعم ولا حق لكم في الماء قالوا: نعم، قال ابن عباس قال النبي ﷺ فَألْفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات وشب الغلام وتعلم العربية منهم وكان أنفسهم حين شبّ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع بركته[1]». وقد ذكرنا بقية تلك القصة في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[2]. قوله تعالى:

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اللام لام كي متعلقة بأسْكَنْتُ، أي ما أسكنتم بهذا الوادي البَلْقَعِ من كل مرتفق ومرتزق إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرم، وتكرير النداء وتوسيطه للإشعار بأنها المقصود بالذات من إسكانهم ثَمه، والمقصود من الدعاء توفيقهم لها، وقيل لام الأمر والمراد هو الدعاء لهم بإقامة الصلاة كأنَّه طلب منهم الإقامة وسأل من الله أن يوفقهم لها ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً﴾ روى عن هشام أفْئِيْدَةً بياء بعد الهمزة والجمهور بغير ياء جمع فواد وهو القلب ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أفئدة من أفئد الناس ومن للتبعيض، قال مجاهد لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم فارس والروم والترك والهند، وقال سعيد بن جبير لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فهم المسلمون، أو للابتداء كقولك القلب مني سقيم أي أفئدة ناس ﴿تَهْوِىٓ﴾ أي تسرع شوقاً ووداداً، قال السدّي معناه تميل ﴿إِلَيْهِمْ﴾ تعديته بإلي لتضمين معنى النزوع ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مع سُكناهم وادياً غير ذي زرع مثل ما رزقت سكان القرى ذوات الماء ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمة فأجاب الله دعوته فجعله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[3] حتى يوجد هناك الفواكه الربيعية

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ﴿يَزِفُّونَ﴾ (٣٣٦٥).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٥٧.

والخريفية والصيفية والشتائية في يوم واحد ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ من أمورنا وأحوالنا ومصالحنا، وأرحمْ بنا منا لأنفسنا فلا حاجة لنا إلى الطلب لكنا ندعوك إظهاراً العبوديتك وافتقاراً إلى رحمتك واستعجالاً لنيل ما عندك، قال ابن عباس ومقاتل ﴿مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أسكنتُهما بِوَادٍ غير ذي زَرْع، وقيل مَا نُخْفِي من وجد الفرقة وَمَا نُعْلِنُ من التضرع ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنه عالم بعلم ذاتي يستوي نسبته إلى كل معلوم ومِنْ للاستغراق، قيل هذا من قول إبراهيم عليه السلام والأكثرون على أنه من الله عز وجل.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أي وهب لي وأنا كبير آيس عن الولد قيد الهبة بحال الكبر استعظاماً للنعمة وإظهاراً لما فيها من الآية ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ولد إسماعيل لإبراهيم عليه السلام وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد إسحاق عليه السلام وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة، وقال سعيد بن جبير بشر إبراهيم بإسحاق عليه السلام وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة كذا أخرج ابن جرير ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ يعني مجيب الدعاء من قولك سمع الملك الكلام إذا اعتد به، قال سيبويه هو من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل أضيف إلى مفعوله أو إلى فاعله على إسناد السماع إلى دعاء الله على المجاز، وفيه إشعار بأنه دعا ربه تعالى وسأل منه الولد فأجابه ووهب له سؤاله حين الأيأس منه ليكون من أجل النعم وأجلاها ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ مُعدِّلاً لها بأركانها وآدابها محافظاً ومواظباً عليها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ عطف على المنصوب في اجعلني يعني واجعل بعض ذريتي من يقيمون الصلاة أوزد من التبعيضية لعلمه بإعلام الله تعالى أنه يكون في ذريته كفارُ حيث قال الله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١) ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ قرأ البزي دعائي بإثبات الياء في الحالين وورش وأبو عمرو أثبتاها في الوصل فقط والباقون يحذفونها في الحالين، والمعنى استحب دعائي أو تقبل عبادتي، روى الترمذي عن أنس وأحمد والبخاري في الأدب وأصحاب السنن الأربعة وابن حبان والحاكم عن النعمان بن بشير وأبو يعلى عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال «الدعاء هو العبادة»(٢) وروى الترمذي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة (٢٩٦٩) وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء (١٤٧٨) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء، باب: فضل الدعاء (٣٨٢٨).

عن أنس عن النبي ﷺ «الدعاء مخ العبادة»[١] ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ هذه الآية تدل على أن والديه عليه السلام كانا مسلمين، وإنما كان آزر عمًّا له وكان اسم أبي إبراهيم تارخ كما ذكرنا في سورة البقرة، ولأجل دفع توهم آزر قال والدي يعني من ولداني حقيقة ولم يقل أبوي، فإن الأب يطلق على العم مجازاً وعلى تقدير كون آزر أباً له كما قيل، فقد ذكر الله عذره في سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾[٢] يعني قبل أن يتبين له أمره ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[٣] ﴿و﴾ اغفر ﴿للمؤمنين﴾ كلهم أجمعين ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي يثبت أو يبدو أو يظهر مستعار من القيام على الرجل، كقولهم قامت الحرب على ساق، أو المعنى يوم يقوم أهل الحساب فحذف المضاف وأسند الفعل إلى المضاف إليه مجازاً كما في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[٤] وقيل: أراد يوم يقوم الناس للحساب فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهوماً.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ الغفلة عدم الاطلاع على حقيقة الأمور والآية خطاب لرسول الله ﷺ والمراد به تثبيته على ما هو عليه من أنه مطلع على أحوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه خافية معاقب على الكثير والقليل لا محالة، أو لكل من يتوهم غفلته جهلاً بصفاته واغتراراً بإمهاله، وقيل: إنه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم ﴿إِنَّمَا

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات باب: ما جاء في فضل الدعاء (٣٣٧١). وقال: غريب فيه ابن لهيعة.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٤.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٤.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٨٢.

﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي يؤخر عذابهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي تشخص أبصارهم لا يغمض من هول ما يرى في ذلك اليوم وقيل: يرتفع ويزول عن أماكنها ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين لا يلتفتون يميناً وشمالاً ولا يعرفون مواطن أقدامهم، قال قتادة مسرعين إلى الداعي، وقال مجاهد النظر وفي القاموس هطع هطوعاً أسرع مقبلاً خائفاً أو أقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه ومهطع كمحسن من ينظر في ذل وخضوع لا يقلع بصره أو الساكت المنطلق إلى من هتف به ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ قال القتيبي المقنع الذي يرفع رأسه ويُقبل ببصره ما بين يديه وقال الحسن وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم بل يبقى عيونهم شاخصة لا تطرف ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ خلاء أي خالية عن العقل والفهم لفرط الحيرة والدهشة ومنه يقال للأحمق قلبه هواء لا رأى فيه ولا قوة، قال قتادة خرجت قلوبهم من صدورهم فصارت في حناجرهم لا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى أماكنها، فالأفئدة هواء أي لا شيء فيها ومنه سمى ما بين السماء والأرض هواه لخلوه، وقال سعيد بن جبير أي قلوبهم مترددة تمور في أجوافهم ليس لها مكان يستقر فيه، قال البغوي حقيقة المعنى أن القلوب زائلة عن أماكنها والأبصار شاخصة من هول ذلك اليوم.

﴿وَأَنذِرِ﴾ أي خوف يا محمد ﷺ ﴿ٱلنَّاسَ يَوْمَ﴾ بيوم ﴿يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني يوم القيامة أو يوم الموت فإنه أول أيام عذابهم أو يوم يأتيهم العذاب العاجل للاستيصال في الدنيا ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالشرك والتكذيب ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ أي أمهلنا في الدنيا أو المعنى أخر العذاب عنا وردّنا إلى الدنيا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي إلى حد من الزمان قريب وأبقنا مقدار ما نؤمن بك ونجب دعوتك ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ جواب للأمر نظيره: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١) فيجابون ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم﴾ حلفتم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ في دار الدنيا ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ جواب للقسم جاء بلفظ الخطاب على المطابقة دون الحكاية، والمعنى أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت ولعلهم قسموا بطراً وغروراً، أو حكاية عن دلالة حالهم حيث بنوا شديداً أو أملو بعيداً، وقيل: معناه أقسموا أنهم لا ينقلون إلى دار أخرى، أو أنهم إذا ماتوا لا يزالون عن تلك الحالة يعني لا يبعثون بعد الموت نظيره قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾(٢) ﴿وَسَكَنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ١٠. (٢) سورة النحل، الآية: ٣٨.

ممن كان قبلكم قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ من مشاهدة آثار منازلهم وسماع أخبارِ ما نزل بهم، وفاعل تبيّن مضمر دل عليه الكلام أي تبين لكم حالهم، وكيف في قوله ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ منصوب بقوله فعلنا فلم ينزجروا ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ من أحوالهم أي بيّنا لكم على ألسنة المرسلين المؤيدين بالمعجزات أنكم في الكفر واستحقاق العذاب أو المعنى بيّنا صفات ما فعلوا وما فعل بهم التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة، أو بيّنا لكم الأمثال في القرآن.

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ﴾ يعني كفار مكة بالنبي ﷺ حيث أرادوا حبسه أو إخراجه أو قتله ﴿مَكْرَهُمْ﴾ قال المفسرون الضمير المجرور في مكرهم راجع إلى ما يرجع إليه الضمير المرفوع في مكروا، والمعنى أنهم مكروا مكرهم البليغ المستفرغ فيه جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل، وحينئذ لا تعلق لهذا الكلام بما سبق، وعندي أن الجملة معطوفة على قوله وسَكَنْتُمْ، والضمير المجرور راجع إلى الموصول، والمراد الكفار السابقون، والمرفوع إلى الناس أي كفار هذه الأمة، وفي الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، والمعنى سكنتم في مساكن من قبلكم وتبين لكم ما فعلنا بهم وقد مكرتم مثل مكر السابقين ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي مكتوب عنده فعلهم فهو مجازيهم عليه، أو عندهما يمكرهمبه جزاءً لمكرهم وإبطالاً له ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ قرأ عليّ وابن مسعود رضي الله عنهما وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ بالدال وقراءة العامة بالنون ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ قرأ الكسائي وابن جريج بفتح اللام للتأكيد في لَتَزُوْلُ والرفع، على إنَّ إنْ مخففة من الثقيلة واللام هي الفاصلة والمعنى أنه كان مكرهم يعني شركهم عظيماً شديداً بحيث تزول منه الجبال بمعنى قوله تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾(١) قال البغوي حكي عن عليّ بن أبي طالب في معنى الآية أنها نزلت في نمرود الجبار الذي: ﴿حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾(٢) وذلك أنه قال إن كان ما يقوله إبراهيم حقًّا فلا أنتهي حتى أصعد السماء فأعلم ما فيها، نعمد إلى أربعة أفرخ من النسور ربّاها حتى شب، واتخذ تابوتاً وجعل له باباً من أعلى وباباً من أسفل، وقعد نمرود مع رجل في التابوت ونصب خشبات في أطراف التابوت، وجعل على رأسها اللحم وربط التابوت بأرجل النسور وخلاّها، فطرن وصعدن طمعاً في اللحم حتى مضى يوم وأبعدن في الهواء فقال نمرود لصاحبه افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قريباً

(١) سورة مريم، الآية: ٩٠ ـ ٩١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

منها، ففتح ونظر فقال إن السماء كهيئتها، ثم قال إفتح الباب الأسفل وأنظر إلى الأرض كيف تراها، ففعل فقال: أرى الأرض مثل اللجة والجبال مثل الدخان، فطارت النسور يوماً آخر وارتفعت، حتى حالت الريح بينها وبين الطيران، فقال لصاحبه إفتح البابين ففتح الأعلى فإذا السماء كهيئتها وفتح الأسفل فإذا الأرض سوداء مظلمة، ونودي أيها الطاغية أين تريد، قال عكرمة كان معه في التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب، فرمى بسهم فعاد إليه السهم متلطّخاً بدم سمكة تذفت نفسها من بحر في الهواء، وقيل: طائر أصابه السهم فقال كُفِيْتُ بشغل إله السماء، قال: ثم أمر نمرود صاحبه أن يصرف الخشبات وينكس اللحم ففعل، فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال خفيف التابوت والنسور، ففزعت وظَنَّتْ أن قد حدثَ حدثٌ من السماء وأن الساعة قد قامت وكادت تزول عن أماكنها، فذلك قوله تعالى ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ وهذه القصة يأبى عنه العقل ولم يثبت بنقل يعتمد عليه، وقرأ الجمهور بلام مكسورة والنصب فإنْ حينئذ إما نافية واللام لام جحود لتأكيد النفي كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾(١) أو مخففة من الثقيلة واللام لام كي وكان تامة، والجبال مثل لأمر النبي ﷺ وآيات الله والشرائع، والمعنى على الأول وما كان مكرهم مزيلاً للجبال وعلى الثاني أنهم مكروا وثبت مكرهم ليزيلوا ما هو كالجبال الراسيات ثباتاً وتمكناً من أمر النبي ﷺ وآيات الله وشرائعه وذلك محال، وقال الحسن إن كان مكرهم لا ضعف من أن تزول الجبال.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ بالنصر لأوليائه وهلاك أعدائه كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾(٢) وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾(٣) وقوله: ﴿رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

(٢) سورة غافر، الآية: ٥١. (٣) سورة المجادلة، الآية: ٢١.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٣ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ (١) ومخلف مفعول ثان لتحسبن وأصله مخلف رسله وعده فقدم المفعول الثاني إيذاناً بأنه لا يخلف الوعد أصلاً كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾(٢) وإذا لم يخلف وعده أحداً كيف يخلف رسله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يماكر قادر لا يدافع ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لأوليائه من أعدائه.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدل من يوم يأتيهم أو ظرف للانتقام أو مقدر باذكر أو بقوله لا يخلف وعده، ولا يجوز أن ينتصب بمخلف لأن ما قبل إنَّ لا يعمل فيما بعده ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ عطف على الأرض وتقديره والسموات غير السموات فحذف لدلالة ما قبله عليه، والتبديل يكون في الذات كقولك بدلت الدراهم بالدنانير وعليه قوله تعالى: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾(٣) وفي الصفة كقولك بدلت الحلقة خاتماً إذا أذبتها وغيرتَ شكلها، وفي تبديل الأرض والسموات أحاديث بعضها تدل على التبديل في الذات وبعضها على التبديل في الصفات، أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم في تفاسيرهم والبيهقي بسند صحيح عن ابن مسعود في هذه الآية أنه قال «تبدل الأرض أرضاً كأنها فضة لم يُسفك فيها دم حرام ولم تعمل عليها خطيئة» وأخرج البيهقي عن ابن مسعود مرفوعاً وقال الموقوف أصح، قلتُ والموقوف في الباب له حكم المرفوع، وأخرج ابن جرير والحاكم من وجه آخر عنه قال: «أرضاً بيضاء كأنها سبيكة فضة» وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي أيوب وابن جرير عن أنس بن مالك في هذه الآية قال: «يبدلها الله تعالى يوم القيامة بأرض من فضة لم يعمل عليها الخطاء» وأخرج من طريق أبي حمزة عن زيد عن النبي ﷺ في الآية قال: «إنها تكون بيضاء مثل الفضة» وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة عن علي بن أبي طالب في هذه الآية قال: «الأرض من فضة والسماء من ذهب» وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: الأرض كأنها فضة والسماء كذلك، وأخرج عبد ابن حميد عن عكرمة قال: بلغنا أن الأرض تطوى وإلى جنبها أخرى يحشر الناس منها إليها، وفي الصحيحين عن سهل بن سعد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقي ليس فيها معلم لأحد»(٤) وأخرج البيهقي من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في هذه الآية

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٣. (٢) سورة آل عمران، الآية: ٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: يقبض الله الأرض يوم القيامة (٦٥٢١) وأخرجه مسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: في البعث والنشور وصفة الأرض (٢٧٩٠).

قال: يزاد فيها وينقص ويذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وما فيها وَتَمُدُّ مَدًّا لِأَدِيم العكاظي أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم تعمل عليها خطيئة، والسماوات تذهب شمسها وقمرها ونجومها، وأخرج الحاكم عن ابن عمرو قال: إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم وحشر الخلائق، وأخرج الحاكم بسند جيد عن جابر عن النبي ﷺ: «تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه ثم أدعى أول الناس فأخرُّ ساجداً، ثم يؤذن لي فأقوم فأقول: يا رب أخبرني هذا جبرئيل وهو عن يمين الرحمن والله ما رآه جبرئيل قبلها قط إنك أرسلته إليّ قال: وجبرئيل ساكت لا يتكلم حتى يقول الله صدق ثم يأذن لي في الشفاعة فأقول يا رب عبادك أطراف الأرض فذلك المقام المحمود» وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي ﷺ «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفأها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نُزُولاً لأهل الجنة»[1] قال الداروردي النزل ما يعجل للضيف قبل الطعام والمراد به يأكل كل منها في الموقف من سيصير إلى الجنة، وكذا قال ابن مرجان في الإرشاد تبدل الأرض خبزة فيأكل المؤمن مِنْ بين رجليه ويشرب من الحوض، قال ابن حجر يستفاد منه أن المؤمنين لا يعاقبون بالجوع في طول زمان الموقف بل يقلب الله بقدرته طبع الأرض حتى يأكلون منها من تحت أقدامهم ما شاء الله من غير علاج ولا كلفة، ويؤيده ما أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: وتكون الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه، وأخرج نحوه عن محمد بن كعب، وأخرج البيهقي عن عكرمة قال تبدل الأرض بيضاء مثل الخبزة يأكل منها أهل الإسلام حتى يفرغوا من الحساب، وعن أبي جعفر محمد الباقر نحوه، وأخرج الخطيب عن ابن مسعود قال يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط واظمأ ما كانوا قط وأعرى ما كانوا قط وأنصب ما كانوا قط فمن أطعم الله أطعمه ومن سقى لله سقاه ومن كسى لله كساه ومن عمل كفاه.

وأخرج ابن جرير عن ابن كعب في الآية قال: تصير السموات جناناً وتصير مكان البحر ناراً وتبدل الأرض غيرها وأخرج عن ابن مسعود قال: الأرض كلها نار يوم القيامة، وأخرج عن كعب الأحبار قال يصير مكان البحر ناراً، وأخرج مسلم عن ثوبان قال: جاء حبر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال: أين يكون الناس يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: يقبض الله الأرض يوم القيامة (٦٥٢٠) وأخرجه مسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: منزل أهل الجنة (٢٧٩٢).

الأرْضِ؟ قال «هم في ظلمة دون الجسر»(١) وأخرج مسلم عن عائشة قالت قلتُ: يا رسول الله «أرأيتَ قول تعالى يوم تُبَدَّلُ الأرْضُ غَيْرَ الأرْضِ أين الناس يومئذ؟ قال: «على الصراط»(٢) قال البيهقي قوله على الصراط مجاز لكونهم يجاوزونه فوافق قوله في حديث ثوبان دون الجسر لأنها زيادة يتعين المصير إليها لثبوتها ولأن ذلك عند الزجرة التي تقع بها نقلتهم من أرض الدنيا إلى أرض الموقف، وأخرج البيهقي عن أبيّ بن كعب في قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾(٣) قال يصيران غبرة على وجوه الكفار لأعلى وجوه المؤمنين وذلك قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾(٤) قال السيوطي قد وقع الخلاف قديماً للسلف في أن التبديل تغير ذاتها أو صفاتها فقط، فرجح الأول ابن أبي حمزة وأشار إلى أن أرض الدنيا تضمحل وتعدم وتجدد أرض الموقف، وقال الشيخ ابن حجر لا تنافي بين تبديل الأرض وأحاديث مدها والزيادة فيها والنقص منها، لأن كل ذلك يقع لأرض الدنيا لكن أرض الموقف غيرها، فإنهم يزجرون من أرض الدنيا بعد تغيرها بما ذكرنا إلى أرض الموقف، قال: ولا تنافي أيضاً بين أحاديث مصيرها خبزةً وغبرةً وناراً بل تجمع بإن بعضها تصير خبزةً وبعضها غبرة وبعضها ناراً وهو أرض البحر خاصة بدليل أثر أبيّ بن كعب، قلت: لعل موضع أقدام المؤمنين يصير خبزة وموضع أقدام الكفار غبرة وناراً، وقال القرطبي جمع صاحب الإفصاح بين هذه الأخبار بأن تبدل الأرض والسماوات يقع مرتين أحدهما تبديل صفاتها فقط وذلك قبل نفخة الصعق فتنتشر الكواكب وتخسف الشمس والقمر وتصير السماء كالمهل وتكشط عن الرؤس وتسير الجبال وتصير البحار ناراً وعوّج الأرض وتنشق إلى أن تصير الهيئة غير الهيئة، ثم بين النفختين تطوى السماء والأرض وتبدل السماء سماء أخرى وهو قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾(٥) وتبدل الأرض فتمد مد الأديم وتعاد كما كانت فيها القتور والبشر على ظهرها وفي بطنها، وتبدل أيضاً تبديلاً ثانياً وذلك إذا وقفوا في

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الحيض، باب: بيان صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما (٣١٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة (٢٧٩١).

(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٤.

(٤) سورة عبس، الآية: ٤٠ ـ ٤١.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٦٩.

المحشر فتبدل لهم الأرض التي يقال لها الساهرة ويحاسبون عليها وهي أرض غفراء بيضاء من فضة لم يسفك فيها دم ولم تعمل عليها معصية، وحينئذ يقوم الناس على الصراط وهو يسع جميع الخلق فيقوم مَنْ فضّل على جسر جهنم وهي كإهالة جامدة وهي التي قال عبد الله إنها أرض من نار فإذا جاوزوا الصراط وجعل أهل النار وأهل الجنان من وراء الصراط قاموا على حياض الأنبياء يشربون بُدِّلت الأرض كقرصة النقي فأكلوا من تحت أرجلهم وعند دخولهم الجنة كانت خبزة واحدة أي قرصاً واحداً يأكل منه جميع الخلائق ممن دخل الجنة، وإدَامُهُمْ زيادة كَبِدِ ثوار الجنة وزيادة كَبِدِ النون إنتهى كلامه، وأخرج الطبراني في الأوسط وابن عدي بسند ضعيف الأرض تذهب كلها يوم القيامة إلا المساجد فإنها ينضم بعضها إلى بعض، قلتُ: لو صح هذه الرواية فلعل أرض المساجد تصير أرضاً للجنة وقد قال رسول الله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»[1] رواه الشيخان في الصحيحين وأحمد والنسائي عن عبد الله ابن زيد المازنيّ وعن أبي هريرة في الصحيحين وعند الترمذي ﴿وَبَرَزُوا﴾ أي ظهروا وخرجوا من قبورهم ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي لمحاسبته ومجازاته، وتوصيفه بالوصفين للدلالة على أن الأمر في غاية الصعوبة فإن الأمر إذا كان لواحد غالب لا يغالب عليه فلا مستغاث ولا مستجار غيره.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ أي الكافرين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ برزوا ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مشدين قريناً بعضهم مع بعض بحسب مشاركتهم في العقائد والأعمال، أخرج سعيد بن منصور عن عمر بن الخطاب قال يُقَرَّنُ الرجل الصالح مع الصالح في الجنة ويُقَرَّن بين الرجل السوء مع السوء في النار أو قريناً مع شياطينهم، أو مع ما اكتسبوا من العقائد الزائغة والملكات الباطلة، أو قريناً أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي في القيود والأغلال واحدها صفد، وكل من شدّته شداً وثيقاً فقد صفدّته ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ جمع سربال وهو القميص ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وهو عصارة تطبخ به الإبل الجربي فيحرق الجرب لحدته وهو أسود منتن يشتعل فيه النار بسرعة يُطلى به جلود أهل النار حتى يكون طلاوة لهم كالقميص ليجتمع عليهم لدغ القطران ووحشة لونه ونتن ريحه مع إسراع النار في جلودهم، وقرأ عكرمة ويعقوب مِنْ قَطِرانٍ على كلمتين منونتين والقطر النحاس والصفر

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب: فضل ما بين القبر والمنبر (١١٩٥) وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة (١٣٩١) وأخرجه النسائي في كتاب: المساجد، باب: فضل مسجد النبي ﷺ والصلاة فيه (٦٩٠).

المذاب والآن الذي انتهى حره، والجملة حال ثان أو حال من الضمير في مقرنين ﴿وَتَغْشَىٰ﴾ أي تعلو ﴿وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ وخص الوجه في الذكر لأنه أعزّ موضع في ظاهر البدن كالقلب في باطنه ولذا قال: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾(١) أو لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق ولم يستعملوا في تدبره مشاعرهم وحواسهم التي خلقت فيها لأجله كما تطّلع على الأفئدة لأنها فارغة عن المعرفة مملوّة بالجهالات ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾ مجرمة ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ اللام إما متعلق بقوله مُقَرَّنِيْن، أو بالظرف المستقر أعني مِنْ قطرانٍ أو بقوله تغشى، أو بفعل مقدر يعم ذلك تقديره يفعل ذلك ليجزي، وجاز أن يكون المعنى ليجزي كل نفس مطيعة وعاصية بما كسبت، لأنه إذا بين أن المجرمين يعلقبون بإجرامهم علم أن المطيعين يثابون بطاعتهم واللام حينئذ متعلق ببرزوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب، قال السيوطي في الجلالين يحاسب جميع الخلائق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك، وأخرج ابن المبارك وأبو نعيم عن النخعي قال: كانوا يرون أنه ليفرغ من حساب الناس يوم القيامة في مقدار نصف يوم يقيل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، وأخرج ابن المبارك وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: لا ينتصف النهار من ذلك اليوم حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾(٢) ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم(٣) وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال إنما هي ضحوة فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين، قلتُ: لكن هذه الآثار تدل على أن المراد نصف نهار الآخرة والله أعلم.

﴿هَٰذَا﴾ القرآن أو السورة أو ما فيها من الوعظ والتذكير من قوله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾(٤) ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ كفاية لهم في الموعظة ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أي ليخوفوا عطف على محذوف أي لينصحوا أو لينذروا بهذا البلاغ واللام متعلق بالبلاغ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف تقديره ولينذروا به أنزل أو تلي، وقيل: معنى الآية هذا القرآن أنزل لتبليغ الناس أحكام الله تعالى ولينذروا به ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لأنهم إذا خافوا ما أندروا به دعتهم المخافة إلى النظر والتأمل فيتوصلوا إلى التوحيد بالنظر والتأمل فيما فيه من الآيات

---

(١) سورة الهمزة، الآية: ٧. (٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٤.

(٣) الآية هي: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ سورة الصافات، الآية: ٦٨.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٧.

الدالة عليه أو المنبّهة على ما يدل عليه ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ فيرتدعوا عما يرد بهم، ذَكَرَ الله تعالى لهذا البلاغ ثلاث فوائد وهي الغاية والحكمة في إنزال الكتب أحدها تكميل الرسل للناس بقوله لِيُنْذَرُوا، ثانيها استكمالهم القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد بقوله ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ثالثها استصلاح القوة العملية التي هو التدرّع بلباس التقوى جعلنا الله من الفائزين بها والله أعلم.

تمت تفسير سورة إبراهيم عليه السلام من التفسير المظهري تاسع عشر ربيع الثاني من السنة الثانية بعد ألف ومائتين ويتلوه تفسير سورة الحجر إن شاء الله تعالى وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين سنة ١٢٠٢ هجري.

# سورة الحجر

## مكية وآياتها تسع وتسعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟
مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن
قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥ وَقَالُوا۟
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ
وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا
كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ
سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا
سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾

﴿الٓرۚ تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الإضافة بمعنى من ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ الكتاب هو السورة أو القرآن وتنكيره للتفخيم أي آيات ما هو جامع لكونه كتاباً كاملاً وقرآناً يبين الرشد من الغي والحلال من الحرام بياناً عربيًا.

﴿رُّبَمَا﴾ قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بتخفيف الباء والباقون بتشديدها، ورُبَّ حرف جر للتقليل واستعمال ههنا للتكثير مجازاً لمناسبة المقابلة وإيذاناً بأنهم لو كانوا يودون الإسلام قليلاً ولو مرةً واحدةً فبالحريّ أن يسارعوا إليه فكيف وهم يودون كثيراً بل كل ساعة، أو إيذاناً بأن ودادهم بلغت من الكثرة لا يمكن التعبير عنه فاكتفى بما يدل على التقليل، وقيل: إستعمل ههنا على الحقيقة للتقليل ووجه التقليل أنه يدهشهم أهول القيامة فإن حانت منهم امة فإن حانت منهم إفاقة في بعض الأوقات تمنواذلك، وما كافة تكف رُبَّ عن العمل فجاز دخولها على الفعل وحقها أن تدخل على الماضي لكن لَمَّا كان

المترقب في أخبار الله تعالى كالماضي في تحققه دخلت على المضارع حيث قال الله تعالى ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ الغيبة في حكاية ودادهم كالغيبة في قولك حلف بالله ليفعلن مكان قولك لافعلن، أخرج ابن المبارك وابن جرير والبيهقي عن ابن عباس وأنس رضي الله عنهم أنهما تذاكرا في هذه الآية فقالا: هذا حيث يجمع الله تعالى بين أهل الخطايا من المسلمين وبين المشركين في النار فيقول المشركون ما أغنى عنكم ما كنتم تعملون فيغضب الله فيخرجهم بفضل رحمته، وأخرج هناد وسعيد بن منصور والبيهقي عن ابن عباس عليه السلام قال ما يزال الله تعالى يشفّع ويُدخل الجنة ويشفّع ويرحم حتى يقول من كان مسلماً فليدخل الجنة وذلك قوله تعالى ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ وأخرج الطبراني في الأوسى بسند صحيح عن جابر بن عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ناساً من أمتي يعذبون بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله ن يكونوا ثم يعيّرهم أهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم فلا يبقى موحد إلا أخرجه الله ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ وأخرج الطبراني وابن عاصم والبيهقي عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله تعالى من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار، قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيسمع الله ما قالوا فأمر من كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا فلما رأى ذلك من بقي من الكفار في النار، قالوا يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ وذكر البغوي هذا الحديث نحو ما ذكر وفي آخره فيأمر لكل من كان من أهل القبلة فيخرجون منها فحينئذ ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾، وأخرج الطبراني عن أبي سعيد الخدري أنه سئل هل سمعت رسول الله ﷺ يقول شيئاً في هذه الآية ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾؟ قال: «نعم سمعتُه يقول يُخرج الله من شاء من المؤمنين من النار بعدما يأخذ نقمته منهم، فلما أدخلهم الله النار مع المشركين قال المشركون تدعون أنكم أولياء الله في الدنيا فما بالكم معنا في النار؟ فإذا سمع الله تعالى ذلك منهم أذن في الشفاعة فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون حتى يخرجون بإذن الله، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا: يا ليتنا كنا مثلكم فتدركنا الشفاعة فيسمُّون الجهنميون من أجل سواد وجوههم، فيقولون: يا ربنا أذهب عنا الاسم فيأمرهم فيغسلون في نهر الحياة فيذهب الاسم عنهم، وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في هذه الآية قال: هذا إذا رأوهم يخرجون من النار، وأخرج هناد عن

مجاهد في هذه الآية قال إذا خرج من النار من قال لا إله إلا الله.

﴿ذَرْهُمْ﴾ يعني دعهم يا محمد يعني الذين كفروا ﴿يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بدنياهم ﴿وَيُلْهِهِمُ﴾ أي يشغلهم عن الاستعداد للمعاد ﴿الْأَمَلُ﴾ أي توقعهم طول الأعمار ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا العذاب والغرض من هذا الكلام إقناط الرسول الله ﷺ عن انقيادهم واعلامه بأنهم أهل الشقاوة في علم الله تعالى وأن نصحهم بعد ذلك مما لا فائدة فيه، وفيه إلزام للحجة وتحذير عن إيثار التنعم وما يؤدي إليه طول الأمل ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ أي أهل قرية ومن زائدة ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ﴾ أي وقت لهلاكها مقدر مكتوب في اللوح المحفوظ ﴿مَّعْلُومٌ﴾ عند الله تعالى، والجملة صفة لقرية مستثناة من عموم الصفات والأصل أن لا تدخله الواو كما في قوله تعالى ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ لكن لمّا شابهت صورتها صورة الحال أدخلت عليها تأكيداً للصوقها بالموصوف وجاز أن يقال الجملة حال من القرية لكونها في حكم الموصوفة كأنه قيل وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ من زائدة ﴿أَجَلَهَا﴾ أي لا تسبق أمة إلى الهلاك أجلها يعني لا يهلك قبل ذلك ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي لا يستأخرون الهلاك عند بلوغ الأجل وتذكير ضمير أمة حملاً على المعنى ﴿وَقَالُوا﴾ أي الكفار للنبي ﷺ تهكماً واستهزاءً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ يعنون أنك لتقول قول المجانين حيث تقول أنزل عليّ الذكر أي القرآن ﴿لَّوْ مَا﴾ هل لا ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ ليشهدوا لك بالصدق على ما تقول ويعضدوا على الدعوة كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾[1] أو للعقاب على تكذيبنا كما أتت الأمم السابقة ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعوى النبوة ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي نُنَزِّلُ بنونين على صيغة المضارع المتكلم المعروف من التفعيل مسنداً إلى الله تعالى والملائكةَ بالنصب على المفعولية وأبو بكر بالتاء الفوقانية والنون على صيغة الواحد المؤنث المجهول من التفعيل والملائكةُ بالرفع مسنداً إليه والباقون كذلك لكن على صيغة الواحد المؤنث المعروف من التفعل بحذف إحدى التائين والملائكةُ مرفوع على الفاعلية ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي بالعذاب المتحقق عند الله لقوم ﴿وَمَا كَانُوا﴾ يعني الكفار ﴿إِذًا﴾ يعني نزّلت مالملائكة لله بالعذاب ﴿مُّنظَرِينَ﴾ أي مؤخرين يعني لو نزلت الملائكة بالعذاب زال عن الكفار الإمهال وعذبوا في الحال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ عن لإنكارهم واستهزئهم ولذلك أكده بوجوه ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من التحريف والزيادة والنقصان ولا يتطرق إليه

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

الخلل أبداً، وهذا دليل على كونه منزّلاً من الله دون غيره إذ كو كان من عند غير الله لتطرق إليه الزيادة والنقصان وقدر الأعداد على لطن فيه، ويل للرافضة حيث قالوا قد تطرق الخلل إلى القرآن وقالو إن عثمان وغيره حرقوه ألقوه منه عشرة أجزاء، وقيل الضمير في له ﷺ يعني إنا لمحمد حافظون ممن أراده بسوء نظيره قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[1].

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ رسلاً ﴿فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ شيع جمع شيعة وهو القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم من شاعه إذا تبعه وأصله الشياع وهو الحطب الصغار توقد به الكبار ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم﴾ يعني الشيع حكاية حال ماضية يعني ما آتاهم ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ من زائدة لتعميم النفي ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ كما يفعل هؤلاء بك تسلية للنبي ﷺ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما سلكنا الاستهزاء والكفر في قلوب الشيع الأولين ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ أي ندخل الاستهزاء ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ يعني مشركي مكة، والسلك إدخال الشيء في الشيء كالخيط في الخيط والرمح في المطعون، وفيه رد للقدرية ودليل على أنه تعالى يوجد الباطل في قلوب الكفار ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ حال من المجرمين ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي سنة الله فيهم بأن خذلهم وسلك الكفر في قلوبهم أو بإهلاك من كذب الرسل منهم ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم﴾ أي على هؤلاء المقترحين القائلين ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ﴿بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾ أي فظلت الملائكة يصعدون إلى السماء وهم يرونها عياناً، وقال الحسن فظل هؤلاء الكفار يعرجون إلى السماء ويرون عجائبها طول نهارهم مستوضحين لما يرون ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ أي سددت منا الأبصار بالسحر أي حبست ومنعت النظر من السكر وهو سد النهر كذا في القاموس، يدل عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف كذا قال ابن عباس، وقال الحسن معنى سُكِّرَتْ بالتشديد سحرت وقال قتادة أخرت، وقال الكلبي عميت قال في القاموس سكرت أبصارنا أي حبست عن النظر وحيرت أو غطيت وغشيت ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ قد سحرنا محمد ﷺ بذلك كما قالوه عند رؤية غير ذلك من المعجزات، وفي كلمة إنَّما وبَل دلالة من الكفار على القطع بأن ما يرونهم لا حقيقة له بل هو باطل خُيِّلَ إليهم بنوع من السحر.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، الآية: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ١٨﴾ (٤٧٠١).

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ
رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا
رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ
﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ
لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ
وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ
يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ البرج هو النجم الكبير مأخوذ من التبرج أي الظهور يقال تبرجت المرأة إذا ظهرت، وقال عطية هي قصور في السماء، وليس المراد بالآية مصطلح أهل الهيئة والنجوم فإنها مبنية على كون السماوات منطبقة بعضها على بعض بحيث يتحركن كلهن قسراً بحركة الفلك التاسع فلك الأفلاك وكون حركة فلك الأفلاك على منطقة وقطبين وحركة الفلك الثامن فلك الثوابت على منطقة وقطبين أخريين ولزوم الشمس منطقة الفلك الثامن وحصول التقاطع بين المنطقين ورسم خط يحصل به التقاطع بين الأقطاب الأربعة فيحصل أربعة أقواس كل قوس مشتملة على ثلاثة بروج، وذلك مما يأبى عنه الشرع فإنه يثبت بالشرع حركة الكواكب دون السماوات وبعد ما بين كل سمائين خمسمائة عام وعدد السماوات لا يزيد على سبع ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي البروج بالضياء أو السماء بالشمس والقمر والكواكب ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا﴾ يعني السماء ﴿مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ﴾ فلا يقدر أن يصعد إليها ويوسوس أهلها أو يتصرف في أمرها أو يطلع على أحوالها، قال البغوي قال ابن عباس كانت الشياطين لا يحجبون عن السماوات وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها فيلقون على الكهنة فلمّا ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات ولد محمد ﷺ منعوا من السماوات كلها فما منهم يريد استراق السمع إلا رمى بشهاب، فلمّا منعوا تلك المقاعد ذكروا ذلك لإبليس فقال: لقد حدث في الأرض حدث، قال: فبعثهم فوجدوا رسول الله ﷺ يتلو القرآن فقالوا هذا والله الذي حدث ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾ أي لكن من استرق السمع ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ﴾ أي تبعه ولحقه ﴿شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ ظاهر للمبصرين والشهاب شعلة نار تخرج من الكواكب قال البغوي وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضاً إلى السماء الدنيا فيسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالشهب فلا يخطى أبداً فمنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه أو جنبه أو يده أو حيث يشاء الله ومنهم من يخبله فيصير غولاً يضل الناس

في البوادي عن أبي هريرة قال إن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنّه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: للذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معه مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»(١) رواه البخاري ومن طريقه البغوي، وعن عائشة أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان وهي السحاب فيذكر الأمر قضى في السماء فيسترق الشياطين السمع فيسمعه فيوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»(٢) رواه البخاري ومن طريقه البغوي.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي بسطناها على الماء ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً ثوابت وقد كانت الأرض تميد إلى أن أرساها بالجبال ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض أو في الجبال بل في كليهما ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي مقدر بمقدار معين يقتضيه الحكمة، أو مستحسن متناسب من قولهم كلام موزون، أو له وزن في أبواب النعم أو ما يوزن من الفلزات كالذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها حتى الزرنيخ والكحل، وفي الجبال كالياقوت والزبرجد والفيروزج وغيرها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الأرض والجبال ﴿مَعَٰيِشَ﴾ جمع معيشة يعني ما تعيشون بها في الدنيا من المطاعم والمشارب والملابس والأودية ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ عطف على معايش أي جعلنا لكم من لستم له برازقين من الدواب والأنعام فمَنْ ههنا بمعنى ما كما في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾(٣) وقيل: يريد الله تعالى به العيال والخدم والمماليك والأنعام والدواب التي يظنون أنهم يرزقونها ظناً باطلاً والله يرزقكم وإياهم وأورد كلمة مَن تغليباً للعقلاء على غيرهم، وقيل مَنْ في محل الجر عطفاً على الضمير المجرور في لكم وفذلكة الآية الاستدلال بتلك الأشياء على وجود الصانع وكمال قدرته وتناهي حكمته وتفرده بالألوهية ووجوب الوجود والامتنان على العباد بما أنعم عليهم في ذلك ليوحدوه ويعبدوه ويشكروه ولا يكفروه ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢١٠).
(٢) سورة النور، الآية: ٤٥.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي من شيء خلقناه إلا نحن قادرون على إيجاد أضعاف ما وجد منه من جنسه وتكوينها فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره، أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحتاج في إخراجها إلى كلفة واجتهاد، وشَبه إيجاده في الخارج بإنزاله من الخزائن وإخراجه منه فقال ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ مقدر في الأزل إيجاده معلوم عند الله مقداره، قلتُ ولعل المراد بالخزائن الأعيان الثابتة في علم الله تعالى وبإنزاله إيجاده في الخارج الظلي بوجود ظلي، قال البغوي وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق ﷺ وعن آبائهما أنه قال في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البر والبحر وهو تأويل قوله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ قلتُ: لعل مراد الإمام ﷺ عالم المثال فإنها بمنزلة الخيال للعالم الكبير ومحل الخيال للإنسان الدماغ ومحل الخيال للعالم الكبير العرش، وقيل أراد بالخزائن المطر وهو خزننية لكل شيء حيث قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1] ويقال لا ينزل من السماء قطرة إلا ومعها ملك يسوقها حيث يريد الله كذا قال البغوي.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ أي حوامل تحمل السحاب الماطرة جمع لامحة يقال ناقة لاقحة إذا حملت الولد، ومنه ما روي أن النبي ﷺ نهى عن بيع الملاقح يعني بيع ما في بطن الناقة من الولد جمع ملقوح، وجاز أن يكونلواقح جمع لقوح وهي ناقة ذات لبن، قال البيضاوي: شبه الريح التي جاءت بخير من إنشاء سحاب ماطر بالحامل كما شبه ما لا يكون كذلك بالعقيم، وقال ابن مسعود يرسل الله الريح فيحمل الماء فيجري به السحاب فتدرّ كما تدرّ اللقحة ثم تمطر، وقال أبو عبيد أراد باللواقح ملاقح جمع ملقحة لأنها تلقح الأشجار أي تجعلها حاملةً للثمار، وقال عبيد بن عمير يبعث الريح المبشرة فيقمّ الأرض قمًّا ثم المثيرة فتُثِيرُ سحاباً ثم يبعث المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه إلى بعض فيجعله ركاماً ثم يبعث اللواقح فيلقح الشجر، وقال أبو بكر بن عياش لا يقطر قطرة من السماء إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيه فالصبا تهجه والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه وفي الخبر أن اللقح الرياح الجنوب، وفي بعض الآثار ما هبت ريح الجنوب إلا وانبعث عنباً عذقة، وأما الريح العقيم فإنها تأتي بالعذاب ولا تلقح، وروى البغوي من طريق الشافعي والطبراني عن ابن عباس قال: ما هبت ريح قط إلا جثى

---

(١) أخرجه الشافعي في مسنده الجزء الأول/ الباب السادس عشر في الدعاء (٥٠٢) ورواه الطبراني وفيه رجل متروك. انظر مجمع الزوائد في كتاب: الأذكار، باب: ما يقول إذا هاجت الريح (١٧١٢٦).

النبي ﷺ على ركبتيه وقال «اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»(١) قال ابن عباس في كتاب الله أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً (٢) ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾(٣) وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ (٤) ﴿يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾(٥) ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي جعلنا المطر لكم سقياً يقال إسقي فلان فلاناً إذا جعل له سقياً وسقاه أي أعطاه ماءً يشرب ويقول العرب سقيتُ الرجل ماءً أو لبناً إذا كان يسقيه فإذا جعلوا له ماءً لشرب أرضه أو ماشيته يقول أسقيتُه ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ يعني ليس المطر في خزائنكم بل هو في خزائننا نفي عنهم ما أثبت لنفسه، أو المعنى ما أنتم له بحافظين في العيون والآبار ونحو ذلك، وذلك أيضاً يدل على تدبير الحكيم كما يدل عليه حركة الريح في بعض الأوقات من بعض الجهات وفي بعضها من بعض آخر من الجهات على وجه ينتفع به الناس فإن طبيعة الماء يقتضي الغور فوقوفه دون حدّ لا بد له من سبب مقتضي لذلك.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ القلوب بالمعرفة والأجسام بتعليق النفوس الحيوانية أو النباتية أو نحو ذلك ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها وتكرير الضمير في إنَّا لنحن للدلالة على الحصر ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ لا يبقى حيٌّ سوانا، استعير الوارث للباقي بعد فناء غيره استعارةً من وارث الميت لأنه يبقى بعد فنائه ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي لا يخفى علينا شيء من أحوالكم بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته فإن ما يدل على قدرته دليل على علمه، قال البغوي قال ابن عباس أراد بالمستقدمين الأموات وبالمستأخرين الأحياء، وقال الشعبي الأولين والآخرين وقال عكرمة المستقدمون من خلقه الله وحرج من أصلاب الآباء والمستأخرون من لم يُخْلق ولم يخرج بعد، وقال مجاهد المستقدمون الأمم السابقة والمستأخرون أمة محمد ﷺ، وقال الحسن المستقدمون في الطاعة والخير والمستأخرون المبطؤن عنها، وقيل: المستقدمون في الصفوف في

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٩.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤١.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٢٢.

(٤) سورة الروم، الآية: ٤٦.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجر (٣١٢٢) وأخرجه النسائي في كتاب: الإمامة، باب: المنفرد خلف الصف (٨٦٥) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: الخشوع في الصلاة (١٠٤٦).

الصلاة والمستأخرون فيها، أخرج ابن مردويه عن داود بن صالح أنه سأل سهل بن حنيف الأنصاري عن هذه الآية أأنزلت في سبيل الله؟ قال: لا ولكنها في صفوف الصلاة، وأخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه عن ابن عباس «أن امرأة حسناء كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ فتقدم بعض القوم لئلا ينظروا إليها وتأخر بعض حتى يكون في الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت إبطيه فنزلت هذه الآية»[١] وقال الأوزاعي أراد المصلين في أول الوقت والمؤخرين إلى آخره، وقال مقاتل أراد المستقدمين في صف القتال والمستأخرين فيه، وقال ابن عُيينة أراد من أسلم ومن لم يسلم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ لا محالة للجزاء على ما عملوا من عَمَلٍ عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات على شيء بعثه الله تعالى عليه»[٢] رواه أحمد والحاكم والبغوي، وتوسيط الضمير للدلالة على أنه هو القادر والمتولي لحشرهم لا غير وتصدير الجملة بأن لتحقيق الوعد والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكمة كما صرح به قوله ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ ظاهر الحكمة متقن في أفعاله ﴿عَلِيمٌ﴾ وسع علمه كل شيء.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ

---

(١) قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.
انظر فيض القدير (٩٠٣٦).

﴿سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني جنس البشر بأن خلق آباهم آدم عليه السلام وسمى إنساناً لظهوره، وإدراك البصر إياه، ولمؤانسة بعضهم ببعض، وقيل من النسيان لأنه عهد إليه فنسي ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أي طين يابس غير مطبوخ يصلصل أي يصوت إذا نقر، قال ابن عباس رضي الله عنهما وهو الطين الحر الطيب الذي إذا نضب عنه الماء تشقق فإذا حرك تقعقع، وقال مجاهد هو الطين المنتن وقال هو من صلّ اللّحم وأصَلَّ إذا أنتن ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ طين تغير وأسود من طول مجاورة الماء وهو صفة لصلصال أي كائن من حَمَإٍ ﴿مَّسْنُونٍ﴾ مصور من سنة الوجه كان في الأول تراباً فعجن بالماء فصار طيناً فمكث حصار حمأً فخُلص فصار سلالةً فصور فصار مسنوناً فيبس حصار صلصالاً، وقال مجاهد وقتادة المنتن المتغير من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به فإن ما يسيل بينهما كان منتناً ويسمي سنيناً، وقال أبو عبيدة هو المصبوب فهو كالجواهر المذابة تصب في القوالب من السن وهو الصب تقول العرب سننت الماء أي صببته كأنه أفرغ من الحمار فصوّر منها تمثال إنسان أجوف فيبس حتى إذا نقر صلصل ثم غير ذلك طوراً بعد طور حتى سواه ونفخ فيه من روحه ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ أريد به الجنس كما في الإنسان لأن تشعب الجنس إذا من شخص واحد خلق من مادة واحدة كان الجنس بأسره مخلوقاً منها، وقال: الجان أبو الجن كما أن آدم أبو البشر، وقال قتادة هو إبليس، ويقال الجان أبو الجن وإبليس أبو الشياطين وفي الجن مسلمون وما سطون ويحيون ويموتون وليس من الشياطين مسلم ويموتون إذا مات إبليس، وذكر وهب: من الجن من يولد لهم ويأكلون ويشربون بمنزلة الآديين ومن الجن من هم بمنزلة الريح لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون، منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل خلق آدم عليه السلام ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ الحر الشديد النافذ في المسام، قال البغوي السموم ريح حارة تدخل مسام الإنسان وتقتله، ويقال السموم بالنهار والحرور بالليل وعن الكلبي عن أبي صالح السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها وهي نار بين السماء وبين الحجاب فإذا أحدث الله أمراً خرّقت الحجاب فهوت إلى ما أمرت فالهدة التي يسمعون خرق ذلك الحجاب، وقيل: نار السموم لهب النار، وقيل من نار السموم أي من نار جهنم، وعن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان إبليس من حي من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذُكروا في القرآن من مارج من نار فأما الملائكة خلقوا من النور.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ﴾ في المستقبل من الزمان ﴿بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ عدلتُ صورته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أصل النفخ إجراء الريح في تجويف جسم آخر، والروح نوعان نوع منها علوي وهو خلق من خلق الله تعالى مجرد من المادّة يُرى بنظر الكشف مقامه فوق العرش لكونه الطف منه وذلك هو الروح العلوي وذلك يرى بنظر الكشف خمسة بعضها فوق بعض القلب والروح والسر والخفي والأخفى وهي كلها من لطائف عالم الأمر، ونوع منها سفلي وهو بخار لطيف ينبعث من العناصر الأربعة التي يتركب منها الجسم الإنساني ويسمى ذلك بالنفس وقد جعل الله تعالى الروح السفلي المسمى بالنفس مرآة للأرواح العلوية فكما أن الشمس مع كونها على السماء تمتليء في المرآة عند المحاذات أي يحصل في المرآة نورها وحرارتها حتى يظهر آثارها في المرآة من الإضاءة والإحراق كذلك الأرواح العلوية مع كونها على أوج تجردها تمتلئ في النفس حتى يظهر فيها آثارها وذلك البرزات الحاصلة في النفوس هي الأرواح الجزئية لكل فرد من الأفراد، ثم الروح السفلي مع ما تحملها من العلويات تتعلق أولاً بالمضغة القلبية وتفيض عليه القوة الحيوانية والمعارف الإنسانية المكتسبة من الأرواح العلوية ثم تسرى حاملاً لها في تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن وسميت ذلك بالنفخ لمشابهته بنفخ الريح في الشيء المجوف، وأضاف الله تعالى الروح إلى نفسه تشريفاً لكونه مخلوقاً بأمره من غير مادة، أو لاستعداده قبول التجليات الرحمانية ما لا يستعد له روح غير الإنسان والإنسان وإن كان الغالب منه عنصر الطين ولأجل ذلك أضيف خلقته إلى الطين لكنه جامع للأسْطُقسّاتِ العشر خمسة من عالم الخلق العناصر الأربعة والبخار المنبعث منها المسمى بالنفس والروح السفلي وخمسة من عالم الأمر المذكورة فهو لأجل ذلك الجامعية صار مستحقًّا للخلافة أهلاً لنور المعرفة ونار العشق والمحبة المقتضية للمعيّة الغير المتكيفة المحكية بقوله ﷺ: «المرء مع من أحب»(١) ومهبطاً للتجليات الذاتية والصفاتية والظلالية ولأجل ذلك المعيّة وقبول التجليات اقتضت الحكمة الإلهية لقوله تعالى ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أمر من وَقَعَ يَقَعُ واللام ههنا بمعنى إلى يعني قعوا إلى آدم ساجدين لله تعالى، جعل الله تعالى آدم قبلة للملائكة كما جعل الكعبة قبلة للناس فكما أن الكعبة إنما صارت مسجودة إليها لأجل تجل لله تعالى فيها مختصة بها كذلك آدم عليه السلام.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: علامة حب الله عز وجل (٦١٦٨) وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: المرء مع من أحب (٢٦٤٠).

﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إما تحقيقاً بإدراك المعيّة المذكورة أو تقليداً أو امتثالاً لأمر العليم الحكيم ﴿كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ أكد الله سبحانه بتأكيدين للمبالغة في التعميم ومنع التخصيص، وذُكر عن المبرد أنه قال أكد بالكل للإحاطة وبأجمعين للدلالة على أنهم سجدوا مجتمعين دفعة واحدة وهذا ليس بشيء فإنه لو كان كذلك لكان الثاني حالاً منصوباً لا تأكيداً مرفوعاً ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ فإنه لأجل عدم البصيرة لم يدرك المعيّة المذكورة ولم يستدل بأن قول الحكيم لا يخلو من الحكمة، قيل: الاستثناء منقطع لأن إبليس لم يكن من الملائكة: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [١] فعلى هذا يتصل به قوله تعالى ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي ولكن إبليس أبى، وقيل: الاستثناء متصل وهو كان من الملائكة من صنف منها يسمون بالجن فعلى هذا أبى كلام مستأنف كان جواب سائل قال هلا سجد ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ يعني أي شيء عرض لك في أن لا تكون مع الساجدين إلى آدم مع وجوبه عليك بحكم الحاكم على الإطلاق وظهور فضل آدم واستحقاقه بإخبار العليم الصادق الخلاق ﴿قَالَ﴾ إبليس كلما غباوته ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ﴾ اللام لتأكيدا النفي أي لا يصلح لي وينافي حالي أن أسجد ﴿لِبَشَرٍ﴾ جسماني كثيف ﴿خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ وهي أخشّ العناصر وخلقتني من نار وهي ألطفها وأشرفها، وقد ذكرنا ما يناسب هذا المقام في تفسيره سورة الأعراف.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ يعني إن عصيتني فاخرج ﴿مِنۡهَا﴾ أي من السماء أو لجنة أو من زمرة الملائكة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤﴾ مردود طريد من الخير والكرامة فإن من يطرد يرجم بالحجارة، أو إنك ترجم بالشهب إن تقربت السماء وهو وعيد متضمن للجواب عن شبهته وتعريضه على الله تعالىٰ بأنه لا ينبغي أن يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، والجواب أن الفضل والخير كله بيد الله وفي امتثال أمره فإذا عصى حرم من الخير واستحق الطرد ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥﴾ فإنه منتهى أمد الطرد واللعنة وبعد ذلك وقت الجزاء المترتب على تلك اللعنة والإبعاد، أو لأنه بعد ذلك يعذب بما ينسى اللعن معه فيصية كالزائد، وقيل: إنما حد اللعنة به لأنه أبعد غاية يضربها الناس، قال البغوي قيل إن أهل السماء يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض فهو ملعون في السماء والأرض، قلتُ: بل يلعنه خالق السماوات والأرض حيث قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾ [٢] ﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ أي إن أخرجتني ولعنتني فانظرني أي أمهلني

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠. (٢) سورة ص، الآية: ٧٨.

ولا تمتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أراد أن يجد فرصة الإغواء والنجاة عن الموت إذ لا موت بعد البعث فأجابه الله في الأول زيادة في بلائه وشقائه لا إكراماً له ولم يجبه في الثاني ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ عند الله تعالى أي الوقت الذي يموت فيه الخلائق وهو النفخة الأولى، يقال: إن مدة موت إبليس أربعين سنة وهو ما بين النفختين ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ الباء للقسم وما مصدرية أي بإغوائك وإضلالك إيَّاي قسمي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي في الدنيا التي هي دار الغرور أزيِّن لهم المعاصي، وقيل الباء للسببية أي لأزيِّنَنَّ لهم بسبب إغوائك إيّاي ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لأحملنهم على الغواية ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام على صيغة الفاعل في جميع القرآن يعني أخلصوا دينهم بالتوحيد والطاعة لك ونفوسهم لإتباع مرضاتك والباقون بفتح اللام يعني الذين أخلصتهم لنفسك عن طاعة غيرك وطهرتَهم من الشوائب فهديتَهم واصطفيتَهم فلا يعمل فيهم كيدي.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿هَٰذَا﴾ أي الإخلاص ﴿صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ أي طريق للوصول إليّ من غير ضلال ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا اعوجاج فيه أصلاً، قال الحسن صراط الحق مستقيم، وقال مجاهد الحق يرجع على الله وعليه طريقه ولا يعرج على شيء، وقال الأخفش يعني عليّ الدلالة على الصراط المستقيم، وجاز أن يكون هذا إشارة إلى ما تضمنه الاستثناء وهو تخليص المخلص من إغوائه، والمعنى أن تخليص المخلصين طريق عليّ أي حق عليّ أن أراعيه مستقيم فلا انحراف عنه، وقال الكسائي هذا الكلام على التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه طريقك عليّ أي لا تَفْلَت مني كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾[1] فعلى هذا هذا إشارة إلى ما اتخذ إبليس طريقاً لنفسه أي طريق الإغواء، وقرأ ابن سيرين ويعقوب وقتادة عَلِيٌّ بالرفع والتنوين من العُلُوّ والمعنى أن هذا يعني الإخلاص طريق رفيع من أن ينال مستقيم لا يمال ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ الظاهر أن الإضافة للاستغراق بدليل الاستثناء فيشتمل المؤمن والكافر ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ يعني سلطانك بتسليط الله تعالى ليس إلا على الغاوين وأما المؤمنون فلا سلطان لك عليهم فهو تصديق لإبليس فيما استثناه فهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه)[2] والمقصود بيان عصمة

---

(١) سورة الفجر، الآية: ١٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٠.

المخلصين وانقطاع مخالب الشيطان عنهم، ومن ههنا يندفع قول من شرط أن يكون المستثنى أقل من الباقي لإفضائه إلى تناقض الاستثناءين، وجاز أن يكون الاستثناء منقطعاً بمعنى من اتبعك من الغاوين ليدخلنهم جهنم حذف الخبر لدلالة ما بعده عليه ويكون الكلام لتكذيب الشيطان فيما أوهم أن له سلطاناً على من ليس بمخلص من عباده فإن منتهىٰ ما يقدر عليه الشيطان التحريض كما قال ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[١] وجاز أن تكون الإضافة في عبادي للعهد والمعنى إن عبادي المخلصين ليس لك عليهم سلطان والاستثناء حينئذ منقطع البتة.

أي موعد الغاوين أو المتبعين (أجمعين) تأكيد للضمير أو حال والعامل فيها الموعد إن جعلته مصدراً على تقدير المضاف ومعنى الإضافة إن جعلته اسم مكان فإنه لا يعمل ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ أخرج هنا وابن المبارك وأحمد الثلاثة في الزهد وابن جرير وابن أبي الدنيا في صفة النار والبيهقي عن علي بن أبي طالب قال: أبواب جهنم هكذا ووضع إحدى يديه على الأخرى وفرج بين أصابعه يعني بابُ فوق باب سبعة أبواب فيملأُ الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع ثم الخامس ثم السادس ثم السابع، وذكر البغوي أثر علي نحوه وقال: إن الله وضع الجنان على العرض ووضع النيران بعضها فوق بعض، وأخرج ابن جرير وابن الدنيا في صفة النار عن ابن جريج في هذه الآية قال: أولها يعني الأبواب جهنمُ ثم لظى ثم الحَطمة ثم السَعير ثم السَقر ثم الجَحيم ثم الهَاوية ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ أي من الغاوين ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي لكل دركة قوم يسكنوها، ومنهم حال من جُزْءٍ أو من المستكن في لكل باب لا في مقسوم لأن الصفة لا تعمل فيما تقدم على موصوفة، قرأ أبو بكر جُزٌّ بالتشديد بلا همز، قال: البغوي قال الضحاك في الدركة الأولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون وفي الثانية النصارى وفي الثالثة اليهود وفي الرابعة الصابئون وفي الخامسة المجوس وفي السادسة أهل الشرك وفي السابعة المنافقون قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[٢] وقال البغوي روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتي أو قال: على أمة محمد ﷺ» قال القرطبي الباب الأول جهنم وهو أهون عذاباً من غيره وهو مختص بعصاة هذه الأمة وسمى بذلك الاسم لأنه يتجهَّم في وجوه الرجال والنساء فيأكل لحومهم والهاوية وهي أبعدها قعراً، وأخرج البزار عن ابن عباس قال: قال

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢. (٢) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

رسول الله ﷺ: «للنار باب لا يدخله إلا من شفى غيظه بسخط الله» وأخرج الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لجهنم سبعة أبواب أشدها غمًّا وكرباً وحزناً وأنتنها للزناة الذين ركبوا الزنى بعد العلم» وأخرج البيهقي عن الخليل بن مرة مرسلاً «أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ تبارك وحم السجدة وقال: الحواميم سبع وأبواب جهنم سبع، جهنم وحطمة ولظى وسقر والسعير والهاوية والجحيم قال: يجيء حم السجدة منها يوم القيامة يقف على باب من هذه الأبواب فيقول: اللهم لا يدخل هذا الباب من كان يؤمن بي ويقرؤني».

وأخرج الثعلبي أن سلمان الفارسي لما سمع قوله تعالى ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فر ثلاثة أيام هارباً من الخوف لا يعقل فجيء به إلى النبي ﷺ فسأله فقال: يا رسول الله نزلت هذه الآية ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ الآية فوالذي بعثك بالحق لقد قطعتْ قلبي فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين لم يتبعوا الشيطان في الشرك ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ لكل واحد منهم جنة وعين أو لكل واحد عدة منها، قرأ نافع وأبو عمرو وهشام وحفص عُيُونٍ بضم العين حيث وقع والباقون بكسرها ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ على إرادة القول يعني يقال لهم أدخلوا الجنات والعيون ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ أي سالمين أو مُسَلَّماً عليكم ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الموت والآفات والخروج ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي حقد كان في الدنيا والماضي ههنا بمعنى المستقبل عبر به تنبيهاً على تحقق وقوعها، أخرج سعيد بن منصور وأبو نعيم في الفتن وابن أبي شيبة والطبراني وابن مردويه عن علي قال: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم، قلتُ: وذلك حين وقع الشر والفتنة بينهم حتى قتل عثمان في حرب الدار وطلحة والزبير يوم الجمل، وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن عبد الكريم بن رشيد قال ينتهي أهل الجنة إلى باب الجنة وهم يتلاحظون تلاحظ النيران فإذا دخلوها نزع الله تعالى ما في صدورهم من غل فصاروا إخواناً، أو المراد بالآية نزع التحاسد من صدور أهل الجنة على درجات الجنة ومراتب القرب ﴿إِخْوَٰنًا﴾ حال من ضمير في جنت أو من فاعل أدخلوها أو من الضمير في آمنين أو من الضمير المضاف إليه والعامل ههنا معنى الإضافة وكذا قوله ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ ويجوز أن يكونا صفتين لإخوان أو حالين من ضميره لأنه بمعنى متصافين وأن يكون متقابلين حالاً من المستقر في على سرر، أخرج هناد عن مجاهد في هذه الآية قال: لا يرى بعضهم قفا بعض، قال البغوي وفي بعض الأخبار أن المؤمن في الجنة إذا وَدَّ أن يلقي أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان، وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين نزلت في أبي بكر

وعمر ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ قيل: وأيّ غِلٍّ؟ قال: غِلُّ الجاهلية إن بني تميم وبني عدي وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا فأخذت أبا بكر الخاصرةُ فجعل عليٌّ يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبي بكر فنزلت هذه الآية، قلت: على هذه الرواية قوله ونزعنا حال من الضمير المستكن في جنات بتقدير قد نزعنا في الدنيا الإسلام ما كان في صدورهم في الجاهلية من غل ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿نَصَبٌ﴾ أي نصب، استئناف أو حال بعد حال من الضمير في متقابلين ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا﴾ أي من الجنة ﴿بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ فإن تمام لفحة بالخلود. أخرج الطبراني عن عبد الله بن الزبير قال: مر رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه يضحكون قال: أتضحكون وبين أيديكم النار؟ فنزل جبرئيل وقال: يا محمد يقول لك ربك لم تقنط عبادي من رحمتي ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَنِّي﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: اطلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة قال: ألاَ أراكم تضحكون؟ ثم أدبر ثم رجع القهقرى فقال: «إني خرجتُ حتى إذا كنتُ عند الحجر جاء جبرئيل فقال يا محمد إن الله يقول لِمَ تقنط عبادي نبّئ عِبَادِي» الآية وفي نسق الكلام من هذه الآية فذلكة لما سبق من الوعد والوعيد وتقرير له وفي ذكر المغفرة دليل على أن المراد بالمتقين من يتقي الشرك لا من يتقي الذنوب كلها صغيرها وكبيرها، قال البغوي قال قتادة بلغنا أن نبي الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم قدر عذابه لتخرج نفسه» وروى الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة قال قال: رسول الله ﷺ «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في الجنة أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من الجنة»[(١)] وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة وأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدةً فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييئس من الجنة ولو يعلم المؤمن بالذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار»[(٢)] وفي توصيف ذاته بالمغفرة

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات باب: خلق الله مائة رحمة (٣٥٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الرجاء مع الخوف (٦٤٦٩).

والرحمة دون التعذيب ترجيح بجانب الوعد على الوعيد وتؤكيد له، روى أحمد ومسلم عن سلمان وأحمد وابن ماجه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ بلفظ: «إن الله تعالى خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فجعل منها في الأرض رحمة منها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض وأخَّر تسعاً وتسعين فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»[1].

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ في عطف هذه الجملة على نَبِّئْ عِبَادِيْ الآية تحقيق للوعد والوعيد في الدنيا أيضاً كما حققهما في الآخرة فيما سبق، والضيف اسم يطلق على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث والمراد ههنا الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى لبشارة إبراهيم بالولد وإهلاك قوم لوط ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ أي نسلم أو سلمنا سلاماً ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفون لأنهم دخلوا بغير إذن أو بغير وقت أو لأنهم لم يأكلوا طعامه، والوجل اضطراب النفس بتوقع المكروه ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا﴾ رسل ربك ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في مقام التعليل للنهي عن الوجل فإن المبشر لا يخاف منه قرأ حمزة بالتخفيف وفتح النون من المجرد والباقون من التفعيل ﴿بِغُلَـٰمٍ﴾ يعني إسحاق عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ﴾[2] ﴿عَلِيمٍ﴾ ذي علم بالغ إذا كبر فتعجب إبراهيم لأجل كبره وكبر امرأته و ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ أي مع مس الكبر إياي والاستفهام للإنكار أن يبشر في مثل هذه الحالة وكذلك قوله ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي فبأيّ أعجوبة تبشروني فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه عادةً بشارة بغير شيء، قرأ ابن كثير بكسر النون مشددة في كل القرآن على إدغام نون الجمع في نون الوقاية ونافع بكسرها مخففة على حذف نون الجمع استثقالاً لاجتماع المثلين ودلالةً لإبقاء نون الوقاية

(١) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٢).

(٢) سورة هود، الآية: ٧١.

المكسورة على الياء والباقون بفتح النون وتخفيفها ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة ﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق أو باليقين أو بطريقة هي حق وهو قولُ الله عز وجل وأمرهُ الذي لاراد لقضائه ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ أي من الآيسين وذلك لأنه تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين فكيف من شيخ فإن وعجوز عاقر، وكان استعجاب إبراهيم عليه السلام باعتبار العادة دون القدرة ولذلك ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب ههنا وفي الروم ﴿يَقْنِطُونَ﴾ وفي الزمر ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ بكسر النون في الثلاثة والباقون بفتحها ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ أي المخطئون طريق المعرفة فلا يعرفون سعة رحمة الله وكمال علمه وقدرته فإن القنوط من رحمة الله كبيرة كالأمن من مكره.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي شأنكم الذي أرسلتم لأجله سوى البشارة ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ لعله علم أن كمال المقصود ليس البشارة لأنهم كانوا عدداً والبشارة لا يحتاج إلى العدد، ولذلك اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم عليهما السلام، أو لأنهم بشروه في تضاعف الحال لإزالة الوجل ولو كان تمام المقصود لابتدؤا بها ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي مشركين يعني قوم لوط ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ أي أتباعه وأهل دينه إن كان استثناء من قوم كان منقطعاً إذ القوم مقيد بالإجرام وإن كان استثناء من الضمير في مجرمين كان متصلاً والقوم والإرسال شاملين للمجرمين، والمعنى إنا أرسلنا إلى قوم أجرموا كلهم إلاآل لوط منهم لنهلك المجرمين وننجي آل لوط يدل عليه قوله ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾مما يعذب به غيرهم من القوم، خفف همزة والكسائي رشدده الباقون ﴿أَجْمَعِينَ﴾ جملة مستأنفة على تقدير اتصال الاستثناء وجار مجرى خبر لكن على تقدير الانفصال وعلى هذا جاز أن يكون قوله ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ استثناء من آل لوط أو من الضمير المنصوب في منجوهم وعلى تقدير اتصال الاستثناء لا يكون الاستثناء إلا من الضمير لاختلاف الحكمين أي ﴿قَدَّرْنَا﴾ أي قضينا، قرأ أبو بكر هنا وفي سورة النمل بتخفيف الدال والباقون بتشديدها ﴿إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ الباقين في العذاب مع الكفار، علق قدّر مع أن التعليق من خواص أفعال القلوب لتضمنه معنى العلم ويجوز أن يكون قَدَّرَ جار مجرى، قلنا: لأن التقدير بمعنى القضاء قول وهو في الأصل جعل الشيء على مقدار غيره وإسناد الملائكة التقديرَ إلى أنفسهم مع أنه فعل الله تعالى لِمَا لهم من القرب والاختصاص به تعالى أو لأنهم كانوا رسلاً فكلامهم على وجه السفارة مستنداً إليه تعالى.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ

وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ
أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ
ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٧٠) قَالَ
هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ
مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ
لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ
ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ (٧٨) فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ
ٱلْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ
(٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٨٤)﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ (٦١)﴾ ﴿قَالَ﴾ لهم لوط ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي ينكركم نفسي إذ ليس عليكم زي السفر ولستم من أهل القرية فأخاف أن يصل إليَّ منكم مكروه ﴿قَالُوا۟﴾ أي الملائكة ﴿بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يعني ما جئنا بما تنكرنا لأجله بل جئناك بما يَسُرُّك ويشفى لك في أعدائك وهو العذاب الذي تعد بها قومك فيمترون بها ﴿وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ باليقين من عذابهم أو بالعذاب المحقق في علم الله تعالى ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرناك ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ إذهب بهم في الليل قرأ نافع وابن كثير فأسْرِ بهمزة الوصل من السرى ومعناهما واحد ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي طائفة منها وقيل في آخرها ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾ يعني كن على أثرهم حتى تسرع بهم وتطلع على أحوالهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي لا ينظر وراءه فيرى من الهول ما لا يطيقه، أو لئلا يروا ما نزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم فيصيبهم ما أصابهم، أو لا ينصرف أحدكم ولا يتخلف لغرض فيصيبه العذاب، وقيل نهوا عن الالتفات ليوّطنوا نفوسهم على المهاجرة أو جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التوافي والتوقف لأن من يلتفت لا بد له في ذلك من أدنى وقفة ﴿ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥)﴾ يعني إلى حيث أمر الله تعالى قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني الشام وقال مقاتل يعني زغر وقيل أردن ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي أوحينا إلى لوط مقضيًا ولذلك عدي بإلى ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ مبهم يفسره ﴿أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني أصلهم ﴿مَقْطُوعٌ﴾ ومحل أنَّ النصب على البدل منه وفيه تفخيم لذلك الأمر، والمعنى أنهم يستأصلون عن آخرهم لا يبقى منهم أحد ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ أي داخلين في الصبح وهو حال من هؤلاء أو من الضمير في مقطوع،

وجمعه حملاً على المعنى فإن دابر هؤلاء في معنى مدبري هؤلاء.

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ سدوم ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ بأضياف لوط يبشر بعضهم بعضاً طمعاً في الفاحشة بهم فإنهم كانوا في صورة غلمان حسان الوجوه ﴿قَالَ﴾ لهم لوط ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ فإن تفضيح الضيف تفضيح للمضيف ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ارتكاب الفاحشة ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ قرأ يعقوب لا تفضحوني ولا تخزوني بالياء والباقون بحذفها أي لا تذلّوني بسببهم من الخزي وهو الهوان أو لا تخجلوني فيهم من الخزاية وهو الحياء ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ﴾ معطوف على محذوف تقديره أنترك هؤلاء ولم ننهك والاستفهام للإنكار وهو من الإثبات نفي وبالعكس يعني لا نتركهم وقد نهيناك ﴿عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠﴾ أي عن أن تجير منهم أحداً وتحول بيننا وبينهم فإنهم كانوا يقطعون السبيل ويتعرضون كل واحد وكان لوط عليه السلام يمنعهم عنه بقدر وسعه، أو عن ضيافة الناس وإنزالهم عندك فإنا نركب منهم الفاحشة ﴿قَالَ﴾ لهم لوط عليه السلام ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها وقد مر وجوه تأويله في سورة هود عليه السلام ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ قضاء الشهوة أو فاعلين ما أقول لكم فأنكحوهن، قال الله تعالى ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ يا محمد وحياتك قسمي وهولعة في العمر يختص به القسم لا يثار الأخف فيه لأنه كثير الدور على الألسنة، قال البغوي روى عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: ما خلق الله نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته ﴿إِنَّهُمۡ﴾ يعني كفار قريش ﴿لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ أي غوايتهم وشدة انهماكهم في قضاء الشهوات وعدم تميزهم بين الخطاء والصواب الذي يشار به إليهم ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يتحبرون فكيف يسمعون نصحك والجملة معترضة في قصة لوط، وقيل: هذا من كلام الملائكة أضياف لوط حاطبوا لوطاً بقولهم لَعَمۡرُكَ يا لوط إِنَّهُمۡ يعني قومك لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ يعني الصيحة الهائلة المهلكة، قيل صيحة جبرئيل ﴿مُشۡرِقِينَ﴾ أي داخلين في وقت شرق الشمس وإضائتها فكان ابتداء العذاب حين أصبحوا وتمامه حين أشرقوا ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا﴾ أي عالي المرتبة أو عالي قرارهم ﴿سَافِلَهَا﴾ رفعها جبرئيل إلى السماء ثم قلبها ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي من طين متحجر أو طين عليه كتاب من السجل وقد سبق مزيد بيان هذه القصة في سورة هود، والفاء في قوله فجعلنا تدل على تقدم الصيحة على قلب الأرض وأمطار الحجارة والله أعلم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الحديث ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال ابن عباس للناظرين، وقال مجاهد للمتفرسين، وقال قتادة للمعتبرين، وقال مقاتل للمتفكرين، قلتُ: الوسم التأثير والسمة الأثر يعني الناظرين في ظواهر الأشياء وسماتها حتى يتفرسوا بواطنها بسمات ظواهرها ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي مدينة لوط

﴿لِبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي بطريق ثابت واضح يسلكه الناس ويرون آثارها فالمقيم ما لم يندرس آثارها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ البيان ﴿لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله المعتقدين بأن هذا البيان من الله تعالى ﴿وَإِن﴾ أي إنه ﴿كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ أي الأشجار المتكاثفة وهم قوم شعيب كانوا يسكنون غيظة وكانت عامة شجرهم الدوم وهو المقل ﴿لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ اللام للتأكيد ظلموا أنفسهم وعرضوها للنار حيث كفروا بالله وكذبوا شعيباً ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وذلك أن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام ثم بعث الله سحابةً فالتجئوا إليها يلتمسون الرَوحَ فأمطر الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم وذلك عذاب يوم الظلة ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني سدوم قرية قوم لوط والأيكة، وقيل الأيكة ومدين فإنه كان مبعوثاً إليها وكان ذكر إحداهما منبهاً على الأخرى ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي بطريق واضح أفلا يعتبر بهما أهل مكة والإمام اسم لما يؤتم به فسمى به اللوح ومطمر البناء والطريق لأنها مما يؤتم بها.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ يعني ثمود، والحجر واد بين المدينة والشام ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني صالحاً عليه السلام وجميع المرسلين الذين شهد برسالتهم صالح ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يعني آيات الكتاب المنزل على نبيهم أو معجزاته كالناقة وولدها وسقياها ودرها ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الأعداء لوثاقتها أو آمنين من عذاب الله لفرط غفلتهم وحسبانهم أن الجبال تحميهم منه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ صيحة العذاب ﴿مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي حال كونهم داخلين في الصباح ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ أي لم يدفع عنهم العذاب ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾من بناء البيوت الوثيقة واستكثار الأموال والعدد، وقد ذكرنا في تفسير سورة التوبة في قصة غزوة تبوك أنه ﷺ مر لحِجْرٍ فقال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم» وتقنَّع بردائه وهو على الرحل وأسرع حتى أجاز الوادي.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ

﴿ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ أي خلقاً متلبساً بالحق كي يكون دليلاً على وجود الصانع وصفاته وحجةً على المنكرين مزيلاً لعذرهم، أو المعنى متلبساً بالحق لا يلايم استمرار الفساد ودوام الشر فاقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء وإزالة فسادهم من الأرض ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾ فينتقم الله ممن أشرك بالله وكذّب رسله ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ۝٨٥﴾ أي أعرض عنهم ولا تعجل للانتقام منهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ﴾ الذي خلقك وخلق أعدائك وبيده الأمر كله ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بالمحسن والمسيء فيجازي كلاً منهما على حسب عمله، أو هو العليم بحالك وحالهم فهو حقيق بأن تكل إليه أمرك، أو هو الذي خلقكم وعلم ما هو الأصلح لكم والأصلح اليوم الصفح.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ جمع مثناة اسم الظرف أو مثنية اسم الفاعل صفة للآيات أو السور، قال البغوي قال عمر وعليّ وابن مسعود رضي الله عنهم هي فاتحة الكتاب سبع آيات وهو قول قتادة وعطاء والحسن وسعيد بن جبير وروى البخاري عن أبي هريرة قال قال: رسول الله ﷺ «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»[1] وفي وجه التسمية بالمثاني أقوال: قال ابن عباس ﷺ والحسن وقتادة لأنها تثنى في الصلاة فيقرأ في كل ركعة، وقيل: لأنها مقسومة بين الله وبين العبد بنصفين نصفها ثناء ونصفها دعاء، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»[2] الحديث وقد مر في تفسير سورة الفاتحة، وقال الحسين بن الفضل سميت مثاني لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة كل مرة معها سبعون ألفاً من الملائكة، وقال مجاهد سميت مثاني لأن الله تعالى استثناها وادَّخرها لهذه الأمة فما أعطاها غيرهم، وقال أبو زيد البلخي سميت مثاني لأنها تثنى أي تصرف أهل الشر عن الفسق من قولهم ثنيتُ عناني، وقيل: لأنها تثني على الله ﷻ بصفاته العظام، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: سبعاً يعني سبع سور من المثاني للبيان فالمثاني إما من التثنية باعتبار تكرر قراءته أو ألفاظه أو قصصه ومواعظه قال: وهي السبع الطوال أو لها البقرة وآخرها الأنفال مع التوبة فإنهما في حكم سورة واحدة ولذلك لم يكتب بينهما سطر بسم الله،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، الآية: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ (٤٧٠٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٥).

وقيل سابعها التوبة وحدها وقيل يونس، قال ابن عباس إنما سميت السبع الطوال مثاني لأن الفرائض والحدود والأمثال والخير والشر والعبر ثنيت فيها يعني تكررت، وقيل إنها من الثناء باعتبار أنه مُثنِي عليه بالبلاغة والإعجاز ومُثنّي على الله بما هو أهله من اسمائه وصفاته، روى محمد بن نصر عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني الراآت إلى الطواسين مكان الإنجيل وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي» وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أوتي النبي ﷺ السبع الطوال وأعطى موسى ﵇ ستًّا فلما ألقى الألواح رفعت ثنتان وبقيت أربع، وقيل المراد بالسبع الحواميم السبع، روى البغوي بسنده عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المائين مكان الإنجيل وأعطاني مكان الزبور المثاني وفضلني ربي بالمفصل» وقال طاووس المراد بالمثاني القرآن كله بدليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾[١] سمى القرآن مثاني لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه فعلى هذا من للتبعيض والمراد بالسبع السورُ السبعُ، وقيل: المراد بالسبع سبعة أسباع القرآن ومن المثاني القرآن كله فعلى هذا قوله تعالى ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ من قبيل عطف أحد الوصفين على الآخر وعلى التأويلات السابقة من قبيل عطف الكل على البعض أو العام على الخاص.

﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾ يا محمد ﴿عَيْنَيْكَ﴾ أي لا ترفع بصرك طعماً ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ من أمتعة الدنيا ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي من الكفار فإنهم مستحقرة بالإضافة إلى ما أوتيتَه من القرآن. روى إسحاق بن راهوية في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال من أوتي القرآن فرأى أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغَّرَ عظيماً وعظَّم صغيراً، وقال البغوي روي أن سفيان بن عيينة تأول قول النبي ﷺ: «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن»[٢] أي لم يستغن به روى الحديث البخاري عن أبي هريرة وأحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم عن سعد وأبو داود عن أبي لبابة عن عبد المنذر والحاكم عن ابن عباس وعائشة، وروى البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا تغبطن فاجراً بنعمة إن له عند الله قاتلاً لا يموت» ورواه البغوي بلفظ «لا تغبطن فاجراً بنعمة فإنك لا تدري ما

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ (٧٥٢٧).

هو لاقٍ بعد موته إن له عند الله قاتلاً لا يموت» فبلغ ذلك وهب بن منبه فأرسل إليه أبا داود الأعور فقال: يا أبا فلان ما قاتلاً لا يموت قال عبد الله بن مريم النار، وروى أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه والبغوي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «أنظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»(١) ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الكفار بأنهم لم يؤمنوا أو المعنى لا تفتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ أي ليّن جانبك لهم وارفق بهم وأرحمهم ﴿وَقُلْ إِنِّيَ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أنذركم ببيانٍ وبرهانٍ أن عذاب الله نازل بكم أن لم تؤمنوا.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ أي مثل الذي أنزلنا من العذاب فهو وصف لمفعول النذير أقيم مقامه ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ قال البغوي حكي عن ابن عباس أنه قال: هم اليهود والنصارى ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝﴾ أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال: سأل رجل رسول الله ﷺ قال: «أرأيت قول الله تعالى كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ قال: اليهود والنصارى قال: ما عِضِيْنَ؟ قال: آمنوا ببعض وكفروا ببعض» جمع عِضَةٍ كعدة الفرقة والقطعة كذا في القاموس أصلها عِضوة فِعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاءً فاليهود والنصارى اقتسموا القرآن إلى حق وباطل وجعلوه أجزاء صدقوا بعضه وقالوا هذا حق موافق للتوراة والإنجيل وكذبوا بعضه وقالوا هذا باطل مخالف لهما، وقيل: كانوا يستهزءون به فيقول بعضهم سورة البقرة لي ويقول الآخر سورة آل عمران لي، وقال مجاهد هم اليهود والنصارى وأريد بالقرآن ما يقرؤن من كتبهم قسمت اليهود والنصارى كتابهم فعرفوه وتركوه، وقيل المقتسمون قوم اقتسموا القرآن فقال بعضهم سحر وقال بعضهم شعر وقال بعضهم كهانة وقال بعضهم أساطير الأولين، وقيل: الاقتسام هو أنهم فرقوا القول في رسول الله ﷺ فقالوا شاعر ساحر كاهن، وقال مقاتل: كانوا ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا عقاب مكة وطرقها وقعدوا على أنقابها يقولون لمن جاء من الحاجّ لا تغيروا بهذا الخارج الذي يدعى النبوة منّا يقول طائفة منهم أنه مجنون وطائفة أنه كاهن وطائفة أنه شاعر والوليد قاعِدُ على باب المسجد نصبوه حكماً فإذا سئل عنه قال صدق أولئك يعني المقتسمين، والعذاب النازل بالمقتسمين إن كان المراد بهم اليهود فَقَتْلُ بني قريظة وإجْلاءُ بني النضير وغيرهم وإن كانَ المراد بهم

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٦٣).

قريش فما نزل بهم يوم بدر حيث قُتِلوا أجمعون، وقيل: المراد بالمقتسمين الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحاً ﷺ، وقيل عضين جمع عضة أصلها عضرمة ذهبت هاؤها كما نقصوا من الشفة وأصلها شفيهة بدليل التصغير على شفهية والمراد بالعضهة الكذب والبهتان في القاموس العضة الكذب ومنه في حديث البيعة ولا يعضه بعضنا بعضاً أي لا يرميه بالعِضهة وهي البهتان والكذب، وفي حديث آخر «إياكم والعِضَة» قال الزمخشري أصلها فِعلة من العضهة وهو البهت فحذفت لأمه كما حذفت من السنة والشفة كذا في النهاية للجزري، وقيل: العضة السحر في القاموس العضون السحر جمع عضهة بالهاء وإنما جمع جمع السلامة جبراً لما حذف منه ومنه قوله ﷺ لعن الله العاضهة والمستعضهة أي الساحرة والمستسحرة كذا في النهاية، وجاز أن يكون كما أنزلنا متعلقاً بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ فإنه بمعنى أنزلنا إليك والمعنى أنزلنا إليك سبعاً من المثاني إنزالاً كما أنزلنا التوراة والإنجيل على المقتسمين يعني اليهود والنصارى فهو صفة لمصدر محذوف وعلى هذا يكون قوله تعالى ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾ إلى آخره إعتراضاً وعلى ما ذكرنا الموصول أعني قوله ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ صفة للمقتسمين، وإن كان المراد بالمقتسمين المقتسمين على تبييت صالح ﷺ فالموصول مبتدأ خبره.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ ﴿عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي والتقسيم ونسبة القرآن إلى الكذب أو السحر ومجازيهم عليه، قال البغوي قال محمد بن إسماعيل البخاري قال: عدة من أهل العلم يعني عن قول لا إله إلا الله أخرج الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: عن قول لا إله إلا الله، وأخرج مسلم عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ «لا تزول قد ما عبد عن الصراط حتى يسئل عن أربع عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه وعن علمه ما عمِل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه»(١) وأخرج الترمذي وابن مردويه مثله عن ابن مسعود وأخرج الطبراني والأصبهاني في الترغيب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «تناصحوا في العلم ولا يكتم بعضكم بعضاً فإن خيانة الرجل في علمه أشد من خيانته في ماله وإن الله سائلكم عنه» وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «ما من عبد يخطو خطوة إلا يسئل الله عنها ما أراد بها» وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من أمَّ قوماً فليتق الله

(١) وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٦٤).

وليعلم أنه ضامن مسؤول لما ضمن فإن أحسن كان له من الأجر مثل أجر مَنْ خلفه وما كان من نقص فهو عليه» وأخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن معاذ بن جبل قال قال النبي ﷺ: «يا معاذ إن المؤمن سئل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه» وأخرج البيهقي وابن أبي الدنيا عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يخطب إلا الله سائله منها ماذا أراد بها» مرسل جيد الاسناد وأخرج ابن أبي حاتم عن الأنفع بن عبد الله الكلاعي قال: إن لجهنم سبع قناطير والصراط عليهن فيحبس الخلائق على القنطرة الأولى فيقول: قفوهم إنهم مسئولون فيحاسبون على الصلاة ويسئلون منها فيهلك فيها من هلك وينجو من نجا فإذا بلغوا الثانية حوسبوا على الأمانة كيف أدوها وكيف خانوها فيهلك من هلك وينجو من نجا فإذا بلغوا القنطرة الثالثة سئلوا عن الرحم كيف وصلوها وكيف قطعوها فيهلك من هلك وينجو من نجا قال: والرحم يومئذ متدلية إلى الهوى تقول اللهم من وصلني فصله ومن قطعني فاقطعه، وأخرج ابن ماجه عن أبي سعيد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى ليسئل العبد يوم القيامة حتى يقول ما منعك إذا أرأيتَ المنكر أن تنكره فإذا لقن الله حجته قال يا رب رجوتُك وفَرَقْتُ من الناس»(١) وفي الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته قال: الإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»(٢) وفي الباب عن أنس عند ابن حبان وأبي نعيم وعنه عند الطبراني وأخرج الطبراني في الكبير عن المقدام سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يكون رجل على قوم إلا جاء يقدمهم يوم القيامة بين يديه رأيته يحملها وهو يتبعونه فيسئل عنهم ويسئلون عنه» وأخرج أيضاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «ما من أمير يأمر على عشرة إلا سئل عنهم يوم القيامة» وفي باب السؤال أحاديث كثيرة جدًا.

فإن قيل كيف الجمع بين هذه الآية وما في معناها من الأحاديث وبين قوله تعالى

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ (٤٠١٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأحكام، باب: قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ (٧١٣٨).

وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم (١٨٢٩).

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [١] قال ابن عباس وجه الجمع أنه لا يسئل هل عملتم به لأنه أعلم به منهم ولكن يقول لم عملتم كذا وكذا، أخرج البيهقي من طريق أبي طلحة عنه واعتمد عليه قطرب وقال: السؤال ضربان سؤال استعلام وسؤال توبيخ فقوله تعالى ﴿لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ يعني استعلاماً وقوله ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني توبيخاً وتقريعاً، وقال عكرمة عن ابن عباس في جمع الآيتين إن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف فيسئلون في بعض المواقف ولا يسئلون في بعضها نظيره قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[٢] وفي موضع آخر: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾[٣] كذا أخرج الحاكم ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ قال ابن عباس أي أظْهِرْ أمْرُ للنبي ﷺ بإظهار الدعوة، روى عن عبد الله بن عبيدة قال كان مستخفياً حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه، ويروى عن ابن عباس أمضه قال الضحاك أعلم وقال الأخفش افرق بالقرآن بين الحق والباطل وقال سيبويه إقض بما تؤمر وأصل الصدع الإبانة والفصل والتميز ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا تلتفت إليهم قيل: نسخه آية القتال.

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ بقمعهم وإهلاكهم، قال البغوي يقول الله تعالى لنبيه ﷺ فاصدع بأمر الله ولا يخلف أحداً غير الله فإن الله تعالى كافيك ممن عاداك كما كفاك المستهزئين وهم خمسة نفر من رؤساء قريش الوليد بن المغيرة المخزومي وكان رأسهم والعاص بن وائل السهمي والأسود ابن المطلب بن الحارث بن أسد بن عبد العزى أبو زمعة وكان رسول الله ﷺ قد دعا عليه فقال: اللهم أعْمِه بصره وأثْكِلهُ بولده والأسود بن عبد يغوث ابن وهب بن عبد مناف بن زهرة والحارث بن قيس بن الطلالة، فأتى جبرئيل محمداً ﷺ والمستهزؤن يطوفون بالبيت فقام جبرئيل وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه فمر به الوليد بن المغيرة فقال: جبرئيل يا محمد كيف تجد هذا؟ قال: بئس عبد الله قال قد كفيت وأومأ إلى ساق الوليد فمر برجل من خزاعة ينال بريش نباله وعليه برديماني وهو يجر إزاره فتعلقت شظية من نبل بإزاره فمنعه الكبر أن فينزعها وجعلت تضرب ساقه فخدشته فمرض فمات ومر به العاص بن وائل فقال جبرئيل كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: بئس عبد الله فأشار جبرئيل إلى أخمص رجليه وقال: قد كفيتُ فخرج على راحلته ومعه ابنان له يتنزه فنزل شعباً من تلك الشعاب فوطئ على شبرقة فدخلت منها شوكة في

(١) سورة الرحمن، الآية: ٣٩.
(٢) سورة المرسلات، الآية: ٣٥.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٣١.

أخمص رجله فقال لدُغتُ لُدغتُ فطلبوا فلم يجدوا شيئاً وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق بعير فمات مكانه. ومر به الأسود بن المطلب فقال جبرئيل عليه السلام كيف تَجدُ هذا؟ قال: عبد سوء فأشار بيده إلى عينيه وقال قد كفيتُ فعمى، قال ابن عباس رضي الله عنهما رماه جبرئيل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعت عيناه فضرب برأسه الجدار حتى هلك، وفي رواية الكلبي أتاه جبرئيل وهو في أصل شجرة ومعه غلام له فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك فاستغاث بغلامه فقال غلامه لا أرى أحداً يصنع بك شيئاً غير نفسك حتى مات وهو يقول قتلني رب محمد. ومر به الأسود بن عبد يغوث فقال جبرئيل كيف تجد هذا؟ قال: بئس عبد الله على أنه ابن خالي فقال: قد كفيت وأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات جَنْباً وفي رواية الكلبي أنه خرج من أهله فأصابه السموم فاسود حتى صار حبشياً فأتى أهله فلم يعرفوه وأغلقوا دونه الباب حتى مات وهو يقول قتلني رب محمد. ومر به الحارث ابن قيس فقال جبرئيل كيف تجد هذا؟ قال: عبد سوء فاومَأ إلى رأسه وقال: قد كفيتُ فامتخط قيحاً فقتله وقال ابن عباس أنه أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش فلم يزل يشرب عليه من الماء حتى أنفذ بطنه فمات فذلك قوله رضي الله عنه ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ بك وبالقرآن، وأخرج الطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا خمسة من أشراف قريش الوليد ابن المغيرة والعاص بن الوائل وعدي بن قيس والأسود بن عبد يغوث والأسود ابن المطلب يبالغون في إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به، فقال جبرئيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمِرْتُ أن أكفيكهم فأومأ إلى ساق الوليد فمر بنبّال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظماً لأخذه فأصاب عرقاً فقطعه فمات وأومأ إلى أخمص العاص فدخلت فيه شوكة فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات، وأشار إلى أنف عدي بن قيس فامتخط قيحاً فمات وإلى رأس الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشواك حتى مات، وإلى عيني الأسود بن عبد المطلب فعمي، وأخرج البزار والطبراني عن أنس ابن مالك قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم على أناس فجعلوا يغمزون في قفاه هذا الذي يزعم أنه نبي ومعه جبرئيل فغمر جبرئيل فوقع مثل الطفر في أجسادهم فصارت قروحاً حتى نتنوا فلم يستطع أحد أن يدنو منهم فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ عاقبة أمرهم.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ أي يمتلئ صدرك من الغيظ ولا تستطيع إنفاذه ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ من الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فافرغ إلى الله

بالتسبيح والتحميد يشغلك التسبيح والتحميد عن الغيظ ويكفيك الله ويكشف عنك الغم ويذهب عنك الغيظ ويشف صدرك، أو فنزهه عما يقولون حامداً الله على ما هداك إلى الحق قال ابن عباس فصل بأمر ربك ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ من المتواضعين وقال الضحاك يعني قل سبحان الله وبحمده وكن من المصلين، أخرج أحمد وأبو داود وابن جرير من حديث عبد العزيز أخي حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع الصلاة[(١)] ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ أي الموت الموقن به فإنه متيقن لحوقه كل مخلوق حيّ، والمعنى ما دمتَ حيًّا ولا تخل بالعبادة كما في قول عيسى: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[(٢)] روى البغوي بسنده وغيره عن جبير بن نفير قال قال رسول الله ﷺ: «ما أوحي إلي أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحي إلي أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»[(٣)] وعن عمر قال: نظر رسول الله ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً عليه إهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله ﷺ: «أنظروا إلى هذا الذي قد نور الله قلبه لقد رأيتُه بين أبويه يغذ وأنه بأطيب الطعام والشراب ولقد رأيتُ عليه حلة شراها وشربتُ بمائتي درهم فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترونه»[(٤)] تمت تفسير سورة الحجر في السادس والعشرين من الربيع الثاني من السنة الثانية بعد المائتين وألف ويتلوه تفسير سورة النحل إن شاء الله تعالى، تمت سنة ١٢٠٢ هـ.

---

(١) أخرجه أبو داودفي كتاب: الصلاة، باب: وقت قيام النبي ﷺ من الليل (١٣١٧).

(٢) سورة مريم، الآية: ٣١.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية مرسلاً. انظر كنز العمال (٦٣٧٥).

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان والديلمي والحاكم. انظر كنز العمال (٣٧٤٩٥).

# سورة النحل

## مائة وثمانية وعشرون آية مكّية إلا ثلاث آيات من آخرها

روى ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت النحل كلها بمكة إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد حين قتل حمزة ومثل به فقال رسول الله ﷺ: «لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط» فأنزل الله ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ إلى آخر السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي دنا وقرب، قال ابن عرفة يقول العرب أتاك الأمر وهو متوقع بعد، فالإتيان مجاز من الدنو أو من وجوب الوقوع فإن الأمر الواجب والوقوع في المستقبل بمنزلة الماضي في كونه متيقناً وجوده، والمعنى أن أمر الله الموعود وهو قيام الساعة على ما قاله الكلبي وغيره واجب وقوعه استيقنوا به ولا ترتابوا فيه وأعدّوا له كأنه قد أتى ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي لا تستعجلوا وقوعه إذ لا خير لكم فيه ولا خلاص لكم عنه، قال البغوي قال ابن عباس رضي الله عنهما لما نزل قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾[1] قال الكفار

(١) سورة القمر، الآية: ١.

بعضهم لبعض إن هذا الرجل يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ما هو كائن فلما لم ينزل شيء قالوا: ما نرى شيئاً مما تخوّفنا به فنزل قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾(١) فأشفقوا فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوّفنا به فأنزل الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾(٢) فوثب النبي ﷺ ورفع الناس رؤسهم وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزل ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ فاطمأنوا، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال لما نزلت أتى أَمْرُ الله ذعر أصحاب رسول الله ﷺ حتى نزلت فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ، والاستعجال طلب الشيء قبل أوانه، قال البغوي ولمّا نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «بعثتُ أنا والساعة كهاتين فأشار بإصبعيه كادت لتسبقني» قلتُ: وفي الصحيحين عن أنس «بعثتُ أنا والساعة كهاتين»(٣) وروى الترمذي عن المستورد بن شداد عن النبي ﷺ قال: «بعثتُ في نفس الساعة فسبقتُها كما سبقت هذه هذه» وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى»(٤) وقال البغوي قال ابن عباس كان بعث النبي ﷺ من أشراط الساعة ولما مر جبرئيل عليه السلام بأهل السماوات مبعوثاً إلى محمد ﷺ قالوا الله أكبر قامت الساعة، وقال قوم المراد بالأمر ههنا عقوبة المكذبين والعذاب بالسيف وذلك أن النضر بن الحارث قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾(٥) فاستعجلوا العذاب فنزلت هذه الآية وقتل النضر يوم بدر صبراً ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ أي أسبح الله سبحاناً وأنزهه تنزيهاً ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ يعني تعاظم وترافع بالأوصاف الجليلة ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم أو عما يصفه به المشركون، قرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب في الموضعين مطابقاً لقوله تعالى فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ والباقون بالياء على الالتفات أو على أن الخطاب للمؤمنين أو لهم ولغيرهم لما مر في الحديث أنه وثب النبي ﷺ ورفع الناس رؤسهم فنزلت ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾.

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ قرأ العامة بضم الياء وكسر الزاء من الافعال ونصب الملائكة على

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١.

(٢) سورة النحل، الآية: ١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة النازعات (٤٩٣٦) وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة (٢٩٥٠).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في قول النبي ﷺ: «بعثت وأنا والساعة كهاتين» يعني السبابة والوسطى (٢٢١٣).

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

المفعولية وبعقوب بالتاء الفوقانية وفتح الزاء على صيغة المضارع من التفعيل بحذف إحدى التائين ورفع الملائكة على الفاعلية ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ أي بالوحي أو القرآن فإنه يحيى به القلوب الميتة بالجهل ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي بأمره ومن أجله ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أن يتخذه رسولاً ﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ أي أعلموا من نذرت هكذا إذا علمته وأن مفسرة لأن الروح بمعنى الوحي الدال على القول أو مصدرية في موضع الجر على البدل من الروح أو النصب بنزع الخافض، أو مخففة من الثقيلة ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ رجوعُ إلى مخاطبتهم بما هو المقصود أو يقال أنذروا بمعنى خوّفوا أهل الشرك والمعاصي بالعذاب وأعلموا أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ أي خافون، وفي الآية تنبيه على أن الوحي حاصله التنبيه على التوحيد وهو منتهى كمال القوة العلمية والأمر بالتقوى الذي هو أقصى كمالات العلمية والآيات الآتية دالة على الواحدية من حيث أنها تدل على أنه تعالى هو الموجد لأصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة ولو كان له شريك لقدر على ذلك وأمكن التمانع، وفي تعقيب هذه الآية لقوله تعالى ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى الطريق الذي علم الرسول بذلك إتيان الساعة وإزاحة لاستبعادهم باختصاصه بالعلم.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أوجدهما على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة بحيث يدل على صانع قديم واحد قدير حكيم ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ تعاظم وارتفع ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ منهما أو يفتقر في وجوده أو بقائه عليهما وهما لا يقدران على خلقها وفيه دليل على أنه تعالى ليس من قبيل الإجرام ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ جماد لا حس لها ولا حركة سيالة لا يحفظ الوضع والشكل حتى صار قويًا شديداً ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ منطيق مجادل ﴿مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾ للحجة على نفي البعث بقوله ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[١] أو ظاهر الجدال بخالقه قال البغوي نزلت في أبيّ بن خلف الجمحي وكان ينكر البعث فجاء بعظم رميم فقال أتقولون أن الله يحيي هذا بعدما رمّ ونزلت فيه أيضاً: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾[٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ هذه القصة في قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾[٣] الآية، والمعنى أن هذا المنكر لم يتفرس بأن الله تعالى خلقه وقد كان نطفة فأيّ استبعاد في خلقه مرة أخرى بعدما رم ولفظ عام وإن كان المورد خاصًا والله أعلم.

---

(١) سورة يس، الآية: ٧٨.
(٢) سورة يس، الآية: ٧٨.
(٣) سورة يس، الآية: ٧٧.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم منصوب بمضمر يفسره قوله ﴿خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ﴾ وبالعطف على الإنسان وجملة خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ بيان لما خلق لأجله وما بعده تفصيله ﴿فِيهَا دِفۡءٞ﴾ في القاموس أنه نقيض حدة البرد يعني تَسْتَدْفِئُونَ من أبارها وأشعارها وأصواتها ويجعل منها ملابس ولحفاً ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ من النسل والدر والركوب والحمل وسقى الزرع والبيع ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ ما يؤكل منها كاللحوم والشحوم والألبان، وتقديم الظرف للمحافظة على رؤوس الآي أو لأن الأكل منها هو المعتاد المعتمد عليه في المعاش بخلاف الأكل من سائر الحيوانات المأكولة فإنها إما على سبيل التفكه أو التداوي ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ﴾ زينة ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تردونها من مراعيها إلى مراحيها بالعشي ﴿وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ أي تخرجونها بالغداة إلى المراعي فإن الأَفْنِيَة تتزين بها في الوقتين ويجلّ أهلها في أعين الناظرين إليها وتقديم الإراحة لأن الحال فيها أظهر فإنها تروح مِلأ البطون حاقلة الضروع ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾ فضلاً من أن تحملوها على ظهوركم إليه ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ بالمشقة والجهد، قرأ أبو جعفر بفتح الشين والجمهور بكسرها، وهما لغتان نحو رَطل ورِطل ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ حيث خلقها لانتفاعكم بها ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾ عطف على الأنعام ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾ أي لتركبوها ولتتزيَّنوا بها زينةً، وقيل هي معطوفة على محل لتركبوها وتغير النظم لأن الزينة بفعل الخالق والركوب فعل اختياري للمخلوق ولأن المقصود من خلقها الركوب كما أن المقصود من خلق البقر الحرث وإنما يحصل التزيين بالدواب بالعرض، احتج بهذه الآية أبو حنيفة على حرمة لحوم الخيل أو كراهتها قال صاحب الهداية هذه الآية خرج مخرج الامتنان والأكل من أعلى منافعها والحكيم لا يترك الامتنان بأعلى النعم ويمتن بأدناها، قلتُ أكل لحوم الشاة والدجاجة ونحوها أطيب جدًّا من لحوم الخيل ويتيسر ذلك بأدنى مؤنة بخلاف لحوم الخيل فلذلك لم يعتبر أكل لحوم الخيل من منافعها فالقول بأن الأكل أعلى منافعها ممنوع بل أعلى منافعها ما لا يحصل إلا به كالركوب والزينة ولأجل ذلك ذكر الله سبحانه المنفعتين المذكورتين في الامتنان والله أعلم، وكيف يدل الآية على حرمة الخيل والحمر والبغال مع أن الآية مكية وكلها كانت حلالاً حينئذ وإنما حرمت لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر سنة ست من الهجرة وقد مر المسألة في تفسير سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾[1] ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ يعني ما أعد للمؤمنين في الجنة وللكافرين في النار مما لم يره عين ولم يسمعه أذن ولم يخطر على قلب بشر ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ بيان ﴿قَصۡدُ

(١) سورة المائدة، الآية: ٥.

﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ أي الطريق المستقيم الموصل إلى الحق رحمةً وتفضلاً، أو عليه قصد السبيل يعني يصل إلى الله تعالى من يسلكه لا محالة يقال سبيل قصد وقاصد أي مستقيم كأنه يقصد الوجه الذي يقصده السالك لا يميل عنه والمراد بالسبيل الجنس ولذلك أضاف إليها والإضافة بمعنى من ﴿وَمِنْهَا﴾ أي من السبيل ﴿جَآئِرٌ﴾ مائل عن القصد أو عن الله وتغير الأسلوب لأن المقصود بيان سبيله وتقسيم السبيل إلى القصد والجائر إنما جاء بالعرض فالقصد من السبيل السنة والجائر منها الأهواء والبدع وملل الكفر كلها ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ الله هدايتكم أجمعين ﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلى قصد السبيل والمراد بالهداية ههنا الإيصال إلى المطلوب ومن قوله عَلَى الله قَصْدُ السَّبِيلِ إراءة الطريق.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ أي ماءً تشربونه ولكم صلة أنزل أو خبر شراب ومِنْ تبعيضية متعلقة به وتقديمها يُوهِمُ الحصر ووجه الحصر أن مياه الآبار والعيون منه لقوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ﴾[1] وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2] ﴿شَرَابٌ﴾ أي من ذلك الماء ﴿شَجَرٌ﴾ أي شرب أشجاركم وحياة نباتكم ﴿فِيهِ﴾ أي في الشجر ﴿تُسِيمُونَ﴾ أي ترعون مواشيكم من سامت الماشية وأسامها صاحبها وأصلها السومة وهي العلامة لأنها تؤثر بالرعى علامة ﴿يُنۢبِتُ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بالنون على التكلم والباقون بالياء على الغيبة أي ينبت الله ﴿لَكُم بِهِ﴾ أي بالماء الذي أنزل ﴿ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ

(١) سورة الزمر، الآية: ٢١.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.

﴿وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي بعض كل ما يمكن من الثمار وإنما ذكر لفظ التبعيض لأن كل الثمرات لا يكون إلا في الجنة وخلق في الدنيا بعضها ليكون تذكرةً لها، ولعل تقديم ما يسأم فيه على ما يؤكل منه لأنه سيصير غذاءً حيوانياً وهو أشرف الأغذية ومن هذا القبيل تقديم الزرع والتصريح بالأجناس الثلاثة وترتيبها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي دلالةً واضحةً على وجود الصانع وعلمه وحكمته ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن من تأمل أن الحبة تقع في الأرض ويتصل إليها ندوة ينفذ فيها فينشق أعلاها ويخرج منه ساق الشجر وينشق أسفلها فيخرج منه عروقها ثم ينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والأكمام والثمار في بعض الأزمنة دون بعض، ويشتمل كل منها الأجسام المختلفة الأشكال والطبائع مع اتحاد المواد واتحاد نسبة الطبائع السفلية والعلوية إلى الكل علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار تقدس عن منازعة الأضداد والأنداد ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي هَيَّأَ هما لمنافعكم ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ﴾ قرأ ابن عامر الأربعة بالرفع على أنها مبتدأ وخبر وقرأ أهل الحجاز والشام والكوفة غير حفص بنصب الأربعة الثلاثة عطفاً على النهار ﴿مُسَخَّرَٰتٌ﴾ على أنه حال من الجميع أي جعلها بحيث ينفعكم حال كونها مسخرات الله تعالى خلقها ودبّرها كيف شاء أو مسخرات لما خلقن وقرأ حفص ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ بالنصب على العطف ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ﴾ بالرفع على الإبتداء ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي بإيجاده وتقديره أو بحكمه، وفي الآية إيذان بالجواب لمن يقول أن المؤثر في تكوين النبات حركات الكواكب وأوضاعها فإن ذلك إن سلم فلا شك أنها حادثة ممكنة الذات والصفات واقعة على بعض الوجوه المحتملة فلا بد لها من مخصص مختار واجب الوجود دفعاً للدور والتسلسل، والتحقيق أن تأثيرات الأشياء الفلكية أو العنصرية كلها أمور عادية جرى عادة الله تعالى على خلق بعض الأشياء عقيب بعض منها ولا يتصور نسبة الإيجاد على الحقيقة إلى ما هو معدوم في حد ذاته لا يقتضي ذاته وجوده فإنه كيف يقتضي وجود غيره ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ جمع الآية وذكر العقل لأنها تدل أنواعاً من الدلالات الظاهرة لذوي العقول السليمة غير محوجة إلى استيفاء فكر كأحوال النبات ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ أي خلق ﴿لَكُمْ﴾ عطف على الليل أي سخر لأجلكم ما خلق ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الحيوانات والنباتات والمعادن ﴿مُخْتَلِفًا﴾ نصب على الحال ﴿أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ أي أصنافه فإن الأصناف يتخالف باللون غالباً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يعتبرون أن اختلافها في الطباع والهيئات والمناظر ليس إلا بصنع صانع حكيم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي جعله بحيث يتمكنون من الانتفاع به بالركوب

والاصطياد والغوص ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي غضًا جديداً يعني السمك وصفه بالطراوة لأنه أرطب اللحوم فيسرع إليه الفساد فيسارع إلى أكله ووجه كثرة العطش بعد أكل السمك أنها بالطبع ملتزق بالأمعاء فالطبيعة لدفعه من الأمعاء تطلب الماء لا لكونها حاراً أو يابساً، وفي وصفه بالطراوة إظهار لقدرته تعالى في خلقه عذباً طرياً في مَاءٍ زُعاق مُرّ مالح، وتمسك مالك والثوري بهذه الآية على أنه من حلف لا يأكل لحماً حنث بأكل السمك وأجيب عنه بأن مبنى الإيمان على العرف وهو لا يفهم منه عند الإطلاق ألا ترى أن الله تعالى قال: ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾[1] في الكفار ولا يحنث الحالف بأن لا يركب دابة بركوبه على الكافر ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كاللؤلؤ والمرجان أي تلبس نساؤكم فأسند إليهم لأنهن من جملتهم ولأنهن تتزين بها لأجلهم ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ أي السفن عطف على قوله لتأكلوا لأنه في قوة لتركبوا الفلك وجاز أن يكون استينافاً ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي جواري، وقال قتادة مقبلةً ومدبرةً إحداها تقبل وأخرى تدبر تجريان بريح واحدة، وقال الحسن أي مملوةً، وقال الفراء والأخفش شقاق تشق الماء بجناحيها والمخرشق الماء، وقيل المخر صوت جرى الفلك وقال أبو عبيدة المخر صوت هبوب الريح عند شدتها، وقال مجاهد تمخر السفن الرياح أي تستقبل، وفي القاموس مخرت السفينة كمنع مخراً ومخوراً جرت واستقبلت الريح في جريها ومَخَرَ السَّابِحُ شق الماء بيديه والفلك المواخر التي يسمع صوت جريها أو تشق الماء بجاجئها أو المقبلة والمدبرة بريح واحدة، وفي الحديث: «إذا أراد أحدكم البول فليتمخر الريح» وفي لفظ استمخروا الريح «أي اجعلوا ظهوركم إلى الريح كأنه إذا ولاّها شقها بظهره وأخذت عن يمينه ويساره ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي من سعة رزقه بركوبها للتجارة إن كان قوله تعالى ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ معطوفاً على لتأكلوا فهذا معطوف عليه وإن كان مستأنفاً فهذا معطوف على محذوف تقديره لتعتبر وأو لتبتغوا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله إذا رأيتم صنعه فيما سخر لكم ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر لأنه أقوى في باب الأنعام من حيث أنه جعل المهالك سبباً لتحصيل المعاش، قلتُ: وجَعْلُ الأشياء المذكورة بحيث يفضي إلى الشكر من أعظم الإنعامات حيث يفيد مزيد النعمة في الدنيا والثواب الجزيل في دار القرار فهو من تتمة الإحسانات.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي جِبالاً ثوابت ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي لئلا تميد بكم أو كراهة أن تميد بكم والميد الاضطراب وذلك لأن الأرض قبل أن يخلق فيها الجبال كانت

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.

كروية تتحرك بأدنى سبب للتحريك فلما خلقت الجبال على وجهها توجهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد التي تمنعها عن الحركة، قال البغوي قال وهب لما خلق الله الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة إن هذه غير مقرة أحداً على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال فلم تدر الملائكة مما خلقت الجبال، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق قتادة عن الحسين عن قيس ابن عباد قال: إن الله تعالى لمّا خلق الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة ما هذه مقرة على ظهرها أحداً فأصبحت صبحاً وفيها رواسي فلم يدروا من أين خلقت، فقالوا: ربنا هل من خلقك شيء هو أشد من هذا؟ قال: نعم الحديد، فقالوا: هل من خلقك شيء هو أشد من الحديد؟ قال نعم النار، قالوا: ربنا هل من خلقك شيء هو أشد من النار؟ قال: نعم الماء، قالوا: ربنا هل من خلقك شيء هو أشد من الماء؟ قال: نعم الريح، قالوا: ربنا هل من خلقك شيء هو أشد من الريح؟ قال: نعم الرجل، قالوا: ربنا هل من خلقك شيء هو أشد من الرجل؟ قال: نعم المرأة انتهى. فإن قيل: هل ينتهي هذا السؤال إلى حد؟ قلتُ: لا وذلك لأن الله هو القوي المتين ذو مرة والممكنات بأسرها عاجزة بل عديمة في حد ذواتها فحيثما يتجلى قوته يشتد أمره على غيره فالفيل قوي من النملة لكن إذا شاء الله تعالى أن يظهر عجز الفيل جعل النملة مظهراً ومجلاً لتجلي قوته فيشتد أمره على الفيل، والشدة والقوة قد يكون لأحد الأشياء زائداً على غيره بجميع الوجوه وقد يكون بوجه من الوجوه وهذا هو المتحقق في الأشياء المذكورة والله أعلم ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي جعل فيها أنهاراً لأنَّ ألْقى فيه معنى الجَعْل ﴿وَسُبُلًا﴾ أي طرقاً لنيل مقاصدكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى مقاصدكم أو إلى معرفة الله بالاستدلال بها ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ على السبل من الأشجار والجبال والأبنية والنجوم وغير ذلك يستدل بها السابلة ومنها الأسباب والعلل الشرعية كالأوقات لوجوب الصلاة والصوم والزكاة والأسكار للحرمة، ومنها الأدلة الطبيعية والعقلية كسرعة النبض على الحمى والعالَم على الصانع والمعجزة على وفق الدعوى للنبوة وغير ذلك ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ليلاً في الصحاري والبحار والمراد بالنجم الجنس، وقال محمد بن كعب أراد بالعلامات الجبال فالجبال علامات النهار والنجوم علامات الليل، وقال الكلبي أراد بالكل النجوم منها ما يكون علامات ومنها ما يهتدون بها، وقال السديّ أراد بالنجوم الثريا وبنات النعش والفرقدين والجدي يهتدي بها إلى الطرق والقبلة، قلتُ: وذلك لكونها قريبة من القطب الشمالي فقلما تتحرك عن أماكنها لصغر دوائرها والضمير لقريش لأنهم كثيراً ما كانوا يسافرون بالليل للتجارة وكانوا مشهورين بالاهتداء في

أسفارهم بالنجوم، فلذلك قدم النجم وأقحم الضمير وأخرج عن سنن الخطاب للتخصيص كأنه قيل وبالنجم خصوصاً هؤلاء يهتدون فالاعتبار بذلك والشكر عليه ألزم عليهم.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ وهو الله سبحانه ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ أي ما يعبدون من دون الله مغلّباً فيه أولوا العلم، أو المراد بها الأصنام وأجريت مجرى أولي العلم لأنهم سموها آلهة ومن حق الإله أن يعلم أو للمشاكلة بينه وبين من يخلق أو للمبالغة كأنه قيل إن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف بما لا يعلم ولا يشعر، والهمزة للإنكار والفاء للتعقيب يعني بعد هذه الأدلة الواضحة المتكاثرة على كمال علم الله وقدرته وتناهي حكمته وتفرده بالخلق لا معنى لإشراك من ليس مثله في خلق الأشياء بل لا يقدر على خلق شيء من الأشياء الجواهر والإعراض حتى لا يقدر على تحريك الذباب ولا على منعه: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ﴾(١) وكان حق الكلام أفمن لا يخلق كمن يخلق لكنه عكس تنبيهاً على أنهم بالإشراك بالله جعله من جنس المخلوقات العجزة شبيهاً بها ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ إنكار على عدم التذكر والاعتبار بعد مشاهدة ما يوجب التذكرة ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ أي لا تضبطوا عددها فضلاً أن تطيقوا القيام بشكرها يعني ليس نعماء الله تعالى منحصرة فيما ذكر بل هي غير محصورة فحق عبادته تعالى غير مقدور لأحد وإنما المطلوب منكم التوجه بشر أشركم إليه وحده والاعتراف بالتقصير ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ لتقصيركم في أداء شكرها ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم حيث وسع عليكم النعم قبل استحقاقكم ولا يقطعها عنكم بالتقصير والمعاصي ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا

(١) سورة الحج، الآية: ٧٣.

﴿تُسِرُّونَ﴾ من العقائد والنيات والشكر ومعرفة قصور أنفسكم عن أداء حقوق العبودية أو الغفلة والاستكبار ﴿وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ من الأعمال الصالحة أو الفاسدة فيجازيكم عليه ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي تدعونها آلهة كائنة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قرأ عاصم ويعقوب يَدْعُونَ بالياء التحتانية والباقون بالتاء ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا﴾ أصلاً وإن كان محقراً من الجواهر والإعراض فضلاً أن يشاركونه في خلق السموات والأرضين وأمثال ذلك فكيف يدعونها آلهةً وشركاء لله تعالى ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ يعني وجوداتهم مستعارة من غيرها لا يقتضي ذواتها وجوداتها فكيف يتصور منها خلق شيء من الأشياء واقتضاء وجود غيرها ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ خبر مبتدأ محذوف يعني هم أموات فإن كان المراد بالموصول الأصنام فالمعنى هم أموات لم يعتبرهم الحياة أصلاً وإن كان المراد به كلما عُبد غير الله فالمعنى هم أموات في أنفسهم غير أحياء بالذات بل حياتهم مستعارة من الحي القيوم وكلما هذا شأنه لا يكون إلهاً ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ لكونهم أمواتاً مخلوقين ﴿أَيَّانَ﴾ أي متى ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ يعني ليس بعثهم ولا بعث عبدتهم باختيارهم ولا في حيز علمهم فكيف يقدرون على جزاء من عبدهم فأيّ فائدة في عبادتهم فلا يستحقون العبادة وفيه تنبيه على أن البعث من لوازم التكليف.

﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ تكرير للمدعى بعد إقامة الحجة يعني ثبت بالحجة أن إلهكم واحد ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾ لما أنعم الله عليهم مما لا يحصى عدها مع ظهورها بالبداهة والبرهان وإنما إنكار قلوبهم ذلك لأن الله تعالى ما ألقى فيها نور المعرفة فهم عمهون عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصاب من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله»[١] رواه أحمد والترمذي ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عن عبادة الله تعالى لا يرون عليهم له تعالى استحقاق العبادة حيث ينكرون نعماءه ويستكبرون عن اتباع الرسول الله ﷺ ولو أنهم كانوا يعرفون نعماء الله تعالى واستحقاق العبادة له تعالى عليهم لآمنوا بالآخرة التي فيها جزاء العبادة والانتقام على تركها ولم يستكبروا عن اتباع الرسول الله ﷺ بل اجتهدوا في طلب سبيل الرشاد ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حق حقًّا أو لا بد لولا محالة، أو المعنى ليس على ما يبتغى ما هم عليه من الإنكار والاستكبار كسب الكاسب الحُكْم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من إنكار النعم واستحقاق العبادة ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ من الاستكبار عن العبادة واتباع الرسول فَإِنَّ مع جملته على التأويلات السابقة في موضع الرفع بلا جرم

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٢).

وعلى التأويل الأخير في محل النصب على المفعولية وفاعل جرم مضمر ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة مثقال ذرة من كِبْرٍ ولا يدخل النار مثقال ذرة من إيمان، فقال رجل يا رسول الله إن الرجل يحب ان يكون ثوبه حسناً، قال إن الله جميل يحب الجمال الكبر من بطر الحق وغمط الناس»(١) رواه مسلم عن ابن مسعود، قال في النهاية معنى بطر الحق هو أن يجعل ما جعله الله حقًّا من توحيده وعبادته باطلاً، وقيل هو أن يتجبر عند الحق فلا يراه حقًّا، وقيل: هو أن يتكبر عن الحق فلا يقبله قلتُ حاصل الأقوال أن لا يرى عبادة الله عليه واجباً حيث ينكر إنعامه عليه بل يرى ما أنعم الله عليه حقًّا له على الله تعالى ومعنى غمط الناس أي احتقرهم، قلتُ: وجه مقابلة الكبر بالإيمان في الحديث أن المؤمن يرى وجوده وما استتبعه من الكمالات مستعارة من الله تعالى حتى يرى نفسه عاريةً عنها ولا يستكبروا الكافر يرى وجوده وتوابعه من نفسه فيرى نفسه كبيراً وينسى الكبير المتعال، والفناء المصطلح في التصرف عبارة عن رؤية نفسه فانياً عارياً عن الوجود وتوابعه برؤيتها مستعارة من الله تعالى والله أعلم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ أي لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، وذلك أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ حين بلغهم دعواه النبوة فكان إذا جاء الوافد سال عن مشركي مكة الذين اقتسموا عقابها أيام الموسم ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ ماذا منصوب بأنزل يعني أيّ شيء أنزل أو مرفوع بالابتداء يعني أيّ شيء أنزله ربكم ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني مشركي مكة هو ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ السطر الصف من الشيء من الكتاب أو الشجر المغروس أو القوم الوقوف جمعه أَسْطُرٌ وسُطُورٌ وأَسْطَارٌ وجمع الجمع أَسَاطِيرُ وأَسْطُرَة والمعنى أن ذلك المسؤول عنه ليس بمنزل بل شيء كتبه الأولون كذباً لا تحقيق لها نحو قوله: ﴿ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾(٢) ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ﴾ متعلق بقوله قالوا يعني قالوا ذلك ليضلوا الناس فيحملوا ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ أي ذنوب ضلال أنفسهم ﴿كَامِلَةً﴾ فإن إضلالهم نتيجة رسوخهم في الضلال ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ يعني بعض أوزار الذين ضلوا بإضلالهم فإن من ذنوبهم مايخصهم ليس لهؤلاء المضلين فيها تسببٌ ومنها ما حصل بإضلالهم فهم يحملون هذا القسم الأخير مثل ذنوب من تبعهم قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه (٩١).

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٥.

ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»[١] رواه أحمد ومسلم في الصحيح وأصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ أي بغير حجة فهو حال من فاعل يضلونهم، أو المعنى يضلون من لا يعلم أنهم ضلال فهو حال من المفعول وفيه تنبيه على إنَّ جهلَهُم لا يصلح لهم عذراً إذ كان عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين الحق والباطل ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس شيئاً يزرونه أي يحملونه فعلهم أو بئس الذي يزرونه فعلهم فمحل ما رفع على الفاعلية أو نصب على التميز من الضمير المبهم والمخصوص محذوف.

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي سَوُّوا حِيَلاً ليمكروا بها رسل الله ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ يعني أتى أمر الله لإبطال حِيَلِهم من الأصول ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المهلك ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يحتسبون ولا يتوقعون فصارت تلك الحِيَل أسباباً لهلاكهم كمثل قوم بنوا بنياناً ليحرزوا أنفسهم ويأخذوا فيها عدوهم بالحِيَل فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا فالكلام وارد على التمثيل، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس وذكر البغوي عنه وعن وهب أن المراد بالذين من قبلهم نمرود بن كنعان الذي حاج إبراهيم في ربه بنى الصرح ببابل ليصعد إلى السماء وكان طول الصرح في السماء خمسة آلاف ذراع، وقال كعب ومقاتل كان طوله فرسخان فهبت الريح وألقت رأسها في البحر وخر عليهم الباقي فهلكوا ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي يذلهم ويعذبهم عذاب الخزي سوى ما عذبوا في

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة (٢٦٧٤) وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: من دعا إلى السنة (٤٥٩٧) وأخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: فيمن دعا إلى هدى فاتبع أو إلى ضلالة (٢٦٧٤).

الدنيا قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾[1] ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم الله على لسان الملائكة توبيخاً ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أضاف إلى نفسه استهزاءً أو حكايةً لإضافتهم زيادةً في توبيخهم، قرأ البزي بخلاف عنه شُركايَ بغير همزة والباقون بالهمزة ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ﴾ أيها الكفار ﴿تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ الرسول والمؤمنين، قرأ الجمهور تُشَٰقُّونَ بفتح النون أي يخالفون فيهم وقرأ نافع بكسر النون الدال وعلى حذف ياء المتكلم يعني تُشَاقُّوني فإن مشاقة المؤمنين مشاقة الله سبحانه ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي الأنبياء والملائكة والمؤمنون إظهاراً للشماتة وزيادة للإهانة وشكراً على ما أنعم الله عليهم من الهداية وفي هذه الحكاية لطف من الله سبحانه بمن سمعه ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ﴾ أي الذل والهوان ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يوم القيامة ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ أي العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني ملك الموت وأعوانه، قرأ حمزة يتوفاهم في الموضعين بالياء على التذكير والباقون بالتاء لتأنيث الفاعل لفظياً غير حقيقي ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالكفر حيث عرضوها للعذاب المخلد منصوب على الحال ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ فسالموا أو انقادوا قائلين ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ من كفران ولا عدوان ويجوز أن يكون تفسيراً للسَّلَم على أن المراد به القول الدال على الاستسلام فيجيبهم ملائكة الموت ﴿بَلَىٰٓ﴾ كنتم تعملون السيئات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من السيئات فهو يجازيكم عليه ولا ينفعكم إنكارهم، قال عكرمة عنى بذلك من قتل من الكفار ببدر، وقيل: قوله فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ إلى آخر الآيات استئناف ورجوع إلى شرح حالهم يوم القيامة ويحتمل أن يكون الرَّادُّ عليهم هو الله سبحانه وأولوا العلم ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كل صنف باباً أُعِدَّ له وقيل: أبواب جهنم أصناف عذابها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي مقدرين الخلود فيها ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي الكافرين جهنم.

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٢.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن الضلال والإضلال قال لهم الوافد من أحياء العرب ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ أي المؤمنون ﴿خَيْرًا﴾ أي أنزل ربنا خير الكلام ما فيه صلاح الدين والدنيا والآخرة ونصبه دليل على أنهم لم يتوقفوا في الجواب وأطبقوا على السؤال معترفين بالإنزال بخلاف الكفرة فإنهم قطعوا الكلام عن الجواب وأتوا بالرفع على الابتداء ولم يعترفوا بالإنزال حيث قالوا هو أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ يعني ليس بمنزل ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ العقائد والأعمال ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بأحسنوا ﴿حَسَنَةٌ﴾ قال ابن عباس هي تضعيف الأجر إلى العشر، وقال الضحاك هي النصر والفتح، وقال مجاهد هي الرزق الحسن، قلتُ: هي الحياة الطيبة في الدنيا بحيث يرتضيه الخالق وكل من له عقل سليم وطبع مستقيم من الخلق وذلك أن لا يعبد ممكناً عاجزاً مثل نفسه بل الله الواحد القهار ويكتسب معرفة الله ودرجات قربه ويستحل الطيبات ويستحرم الخبائث ولا يؤذي أحداً بغير حق ويعمل أعمالاً يثمر له إلى الأبد ﴿وَلَدَارُ﴾ الحياة ﴿الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من دار الحياة الدنيا للمتقين حيث يرى هُناك ثمرات ما اكتسبه في الحياة الدنيا ويبقى في كرامة الله أبد الآبدين وهو عدة للذين اتقوا على قولهم ويجوز أن يكون بما بعده حكاية بقولهم بدلا وتفسيرا لخير على أنه منتصب بقالوا يعني قالوا هذا القول فقدم عليه تسميته خيراً ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ قال الحسن في الدنيا لأن أهل التقوى يتزودون فيها إلى الآخرة، وقال أكثر المفسرين هي دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح لتقدم ذكرها، قلتُ وجاز أن يكون الإضافة للجنس يعني نعم دار المتقين أيّ دار كانت الدنيا أو الآخرة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي لهم جنات عدنٍ، أو خبر مبتدأ محذوف أي هي أودارهم جنات عدن ويجوز أن يكون هذا مخصوصاً بالمدح ﴿يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من أنواع المشتهيات وفي تقديم الظرف تنبيه على أن الإنسان لا يجد جميع ما يشتهيه إلا في الجنة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل لهذا الجزاء المذكور ﴿يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك وسوء الأعمال ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي لأنه في مقابلة ظالمي أنفسهم وهؤلاء هم الذين حيوا حياة طيبةً، وقال مجاهد زاكية أفعالهم وأقوالهم، وقيل معناه فرحين ببشارة إياهم بالجنة أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية إلى حضرة القدس ﴿يَقُولُونَ﴾ أي الملائكة لهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ وقيل تبلغهم سلام الله ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ حين تبعثون فإنها معدة لكم على أعمالكم أو المعنى يقول لهم الملائكة عند التوفي سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ويقال في في الآخرة ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظر الكفار الذين مر ذكرهم شيئاً ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، قرأ حمزة والكسائي بالياء والباقون بالتاء ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ القيامة أو العذاب المستأصل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فأصابهم ما أصابهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتعذيبه إياهم عذاب الاستئصال ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بكفرهم ومعاصيهم المؤدية إليه ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم على حذف المضاف وتسمية الجزاء باسمها، أو المعنى عقوبات ما عملوا من الكفر والمعاصي ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي نزل وأحاطهم جزاء استهزائهم والمعنى نزل بهم العذاب الذي كانوا به يستهزءون ويقولون على سبيل الاستهزاء: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾(١).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ إنما قالوا ذلك استهزاءً ومنعاً لبعثة الرسل والتكليف متمسكين بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون فما الفائدة فيهما أو إنكاراً لقبح ما هم عليه من الشرك وتحريم البحائر والسوائب ونحو ذلك متمسكين بأنه لولا أن الله رضيها لنا لما شاء الله صدورها عنا، ومبنى الشبهتين أن الرضاء يلازم المشيئة وليس كذلك ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن

(١) سورة المجادلة، الآية: ٨.

﴿قَبۡلِهِمۡۚ﴾ فأشركوا بالله وحرموا حله وردوا له وقالوا مثل قول هؤلاء ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ يعني ليس عليهم الهداية فإنها بيد الله تعالى وعلى مشيئة إنما عليهم التبليغ الموضح لمرضاة الله تعالى.

ثم بيّن أن البعثة أمر جرت السنة الإلهية في الأمم كلها بكونها سبباً لهدى من شاء هدايته وزيادة الضلال لمن شاء ضلاله وكالغذاء الصالح ينفع المزاج الصالح ويقويه ويضر المنحرف ويعينه في الانحراف بقوله ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ يعني أرسله الله إليهم بأن اعبدوا الله ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ أي لا تطيعوا الشيطان الطاغي في معصية الله ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي شاء هدايتهم ووفقهم للإيمان بإرشادهم ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ﴾ أي وجبت بالقضاء السابق ﴿عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ فلم يوفقهم ولم يرد هداهم فأهلكهم الله على كفرهم وأخلى ديارهم فتركوا بئراً معطلةً وقصراً مشيداً ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يا معشر قريش ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ للرسل من عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة، وفيه حل لإشكالهم المبني على كون المشيئة والرضاء متلازمين إذ لو كان كذلك لما عذبهم الله بكفرهم المبني على مشيئة الله ثم بين الله سبحانه لرسول الله ﷺ أن هؤلاء الكفار من قريش ممن حقت عليهم الضلالة حتى لا يُتعب نفسه ولا يحرص على هداهم فقال: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾ قرأ الكوفيون لَا يَهْدِي بفتح الياء وكسر الدال على البناء للفاعل يعني لا يهدي الله من يردْ ضلاله وهو المعنى لِمَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ والباقون بضم الياء وفتح الدال على البناء للمفعول فقوله ﴿مَن يُضِلُّ﴾ مبتدأ خبره لا يُهْدَى يعني مَنْ يُضِلُّهُ الله لا يُهْدَى أي لا هادي له أحد والجملة خبران والله اسمه ﴿وَمَا لَهُم﴾ أي لمن أضلهم الله ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يمنعونهم من جريان حكم الله عليهم ويدفعون عنهم عذابه الذي أعد لهم وتقدير الكلام أن تحرص وتُتعب نفسك يا محمد على هداهم وقد أضلهم الله فلا ينفعك حرصكُ إتعابك نفسك ولا تقدر عليه لأن الله تعالى قوي قاهر لا هادي لمن شاء أن يضله ولا ناصة لمن شاء أن يعذبه فحذف الجزاء وأقيم السبب مقامه والله أعلم.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: كان لرجل خمن المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به والذي أرجوه بعد الموت لكذا وكذا، فقال له المشرك إنك لتزعم أنك تبعث بعد الموت فأقسم بالله جهد يمينه لا يبعث الله من يموت فأنزل الله تعالى ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ معطوف على ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ إيذاناً بأنهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث مقسمين

عليه زيادة في القطع على فساده، قال الله تعالى رداً عليهم بأبلغ الوجوه ﴿بَلَىٰ﴾ يبعثهم ﴿وَعْدًا﴾ مصدر مؤكد لنفسه وهو ما دل عليه بلى أعني يبعثهم وعد من الله ﴿عَلَيْهِ﴾ إنجازه لامتناع الخلف في وعده ولاقتضاء الحكمة البعث ﴿حَقًّا﴾ صفة أخرى للوعد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إن وعد الله حق أو لا يعلمون البعث لعدم علمهم بأنه مقتضى الحكمة التي جرت العادة بمراعاتها ولقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون امتناعه ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ متعلق بما دل عليه بلى أي يبعثهم فيُبَيِّن لهم والضمير لمن يموت وهو يشتمل المؤمنين والكافرين ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي الحق ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ في قولهم ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ وفيه إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث المقتضى له من حيث الحكمة وهو التميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل بالثواب والعقاب وجاز أن يكون ليبين وليعلم متعلقاً بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ يعني بعثنا رسولاً ليبين لهم الرسول ما اختلفوا فيه قبله وأنهم كانوا على الضلالة مفترين على الله الكذب ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ أي أردنا وجوده في المبدأ والمعاد قَوْلُنا مبتدأ خبره ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي فهو يكون قرأ ابن عامر والكسائي هنا وفي يسٓ ﴿فَيَكُونَ﴾ بالنصب عطفاً على نقول أو جواباً لقوله كن وقد ذكرنا كلاماً على تقدير الجواب في سورة البقرة، وفي هذه الآية بيان لإمكان البعث وتقريره أن تكوين الله تعالى بمحض قدرته ومشيته لا توقف له على شيء آخر وإلا لزم التسلسل ولا على تعب وتجشم وإلا لزم العجز المنافي للألوهية، ولمَّا أمكن تكوين الأشياء ابتداء بلا سبق مادة ومثال أمكن له تكوينها إعادة بعده، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل كذَّبني عبدي ولم يكن له ذلك وشتمني عبدي ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد» وفي رواية ابن عباس «وأما شتمه إياي فقوله لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبةً أو ولداً»[1] رواه البخاري.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ﴾ أي في سبيله وحقه ولوجهه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ أي عذبوا وأوذوا أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس وداود ابن هند قال نزلت هذه الآية في أبي جندل بن سهيل، وقال البغوي نزلت في بلال وصهيب وخبّاب

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة الإخلاص (٤٩٧٤).
وأخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: أرواح المؤمنين (٢٠٦٩).

وعمّار وعائش وجبير وأبي جندل بن سهيل أخذهم المشركون بمكة وعذبوهم، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وعبد بن حميد عن قتادة هم أصحاب النبي ﷺ ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة ثم بوّأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي مباءةً حسنةً وهي المدينة أو تبويةً حسنة ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا قال البغوي روى أن عمر بن الخطاب كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءً يقول: خذ بارك الله فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ذخر لك في الآخرة أفضل ثم تلا هذه الآية، وقيل: معناه لنحسنن إليهم الدنيا حسنة، وقيل الحسنة في الدنيا التوفيق والهداية ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الضمير للكفار أي لو علموا إن الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لَمَّا ظلموهم ولوافقوهمو أو للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الشدائد كأذى الكفار ومفارقة الأوطان ومحله النصب أو الرفع على المدح ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ينقطعون إلى الله يفوّضون أمورهم إليه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

ولما أنكر كفار قريش نبوة محمد ﷺ وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فهلا بعث إلينا ملكاً فأنزل الله سبحانه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ إلى الناس ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ دون ملائكة ﴿رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ على السنة الملائكة، قرأ حفص نُوحي بالنون للمتكلم على البناء للفاعل والباقون بالياء على الغيبة ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ يعني إن شككتم في إرسال الله الرجال فاسئلوا أهل العلم بالكتب السابقة من اليهود والنصارى هل أرسل إلى بني إسرائيل موسى وعيسى وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل ومن قبلهم إبراهيم ونوحاً وآدم وغيرهم فإنهم يشهدون بذلك ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفي الآية دليل على وجوب المراجعة

إلى العلماء للجهال فيما لا يعلمون وأن الأخبار مفيدة للعلم إن كان المخبر ثقة يعتمد عليه ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ متعلق بقوله أرسلنا أي ما أرسلنا بالبينات أي المعجزات الواضحات والزبر أي الكتب إلا رجالاً، ويجوز أن يتعلق بأرسلنا داخلاً في الاستثناء أي ما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات، أو متعلق بمحذوف صفة لرجالاً يعني ما أرسلنا إلا رجالاً متلبّسين بالبينات والزبر، أو منصوب على المفعولية أو على الحال من قائم مقام الفاعل ليوحى على قراءة المبني للمفعول وعلى التقادير كلها فاسئلوا اعتراض أو هو متعلق بلا تعلمون على أن الشرط للتبكيت والإلزام ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي القرآن سمي ذكراً لأنه موعظة ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في الذكر بتوسط إنزاله إليك من الوعد والوعيد والأحكام والشرائع المجملة أو مما تشابه عليهم، والبيان قد يكون صريحاً بالقول أو الفعل أو التقرير وقد يكون غير صريح كالأمر بالقياس ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إشارة إلى البحث في نظم الكلام ووجوه دلالاته حتى يظهر لهم المراد من غير حاجة إلى بيان من الشارع كما أن لفظ الحرث يشعر أن المراد في قوله: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ﴾(١) الإتيان في القبل دون الدبر لأنه ليس بمحل للحرث وفي لفظ ثلاثة في قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾(٢) يشعر أن المراد بها الحيض دون الطهر لأن الطلاق المسنون يكون في الطهر إجماعاً فإظهار العدة لا يكون إلا أكثر من الثلاثة أو أقل منها والله أعلم.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي المكرات السيئات هم الذين قصدوا برسول الله ﷺ أن يقتلوه أو يثبتوه أو يخرجوه وأزادوا صد الناس عن الإيمان ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خسف بقارون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بغتة من جانب السماء كما فعل بقوم لوط وأصحاب الأيكة وغيرهم ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ بالعذاب ﴿فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي تصرفهم في الأسفار قال ابن عباس في اختلافهم وقال ابن جريج في إقبالهم وإدبارهم ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي سابقين الله ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ حال من الفاعل أو المفعول أي على تنقص من تخوفته إذا تنقصته وذلك بأن يهلك بعضهم ثم بعضهم حتى يهلك جميعهم، ويقال تخوفه الدهر أي تنقصه في ماله وجسمه، قال البغوي يقال هذه لغة هذيل، وقال الضحاك والكلبي هو الخوف، قلتُ: بأن يهلك قوماً قبلهم فيتخوّفوا فيأتيهم وهو متخوّفون أو بأن يظهر إمارات الهلاك قبل هلاكهم فيهلكوا كما فعل بثمود في ثلاثة أيام

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

اصفرت وجوههم في الأول واحمرت في الثاني واسودت في الثالث ثم أهلكوا وعلى هذا التأويل حاول من المفعول ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن ثم لا يعجل في العقوبة وذلك هو الباعث على كونهم آمنين ولا ينبغي ذلك فإنه تعالى مع ذلك قهار منتقم ذو البطش الشديد لا يطاق انتقامه ولأجل ذلك أنكر الله على أمنهم وقال ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية، والفاء للتعقيب عطف على قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ يعني إذا علموا أن المرسلين لم يكونوا إلا رجالاً فمكرهم بمحمد ﷺ وأمنهم على ذلك المكر مع كونه مثل مَن سبق من الرسل ليس على ما ينبغي.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ بالياء على الغيبة على قراءة الجمهور والضمير إلى الذين مكروا السيئات، وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب إليهم على سبيل الالتفات من الغيبة وكذلك في سورة العنكبوت، والاستفهام للإنكار يعني أنهم قد رأوا ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ فما بالهم لا يدركون كمال قدرته تعالى وقهرمانه ولا يخافون من عذابه وما موصولة مبهمة بيانها من شيء يفيد عموم خلقه جميع الأشياء ﴿يَتَفَيَّؤُا۟﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بالتاء الفوقانية والباقون بالياء التحتانية ﴿ظِلَـٰلُهُۥ﴾ يعني أولم ينظروا إلى المخلوقات التي لها ظلال متفيئة يرجع ظلالها بارتفاع الشمس وانحدارها أو باختلاف مشارقها ومغاربها بتقدير الله تعالى ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ يعني عن أيمانها وشمائلها يعني عن جانبي كل واحد منها استعارة عن يمين الإنسان وشماله، وتوحيد اليمين وجمع الشمائل باعتبار لفظه ما ومعناه كتوحيد الضمير في ظلاله وجمعه في قوله ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي أذلة وهما حالان من الضمير في ظلاله والمراد بالسجود والاستسلام طبعاً أو اختياراً، يقال سجدت النخلة إذا مالت بكثرة الحمل وسجد البعير إذا طأطأ رأسه ليركب، أو سُجَّدًا حال من الظلال وَهُمْ دَٰخِرُونَ وهو داخرون حال من الضمير يعني يرجع ظلها منقادة لما قدر لها من التفيؤ، أو واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة السجود والإجرام في أنفسها أيضاً صاغرة ذليلة منقادة لأفعال الله تعالى، وجمع داخرون بالواو ولأن من جملتها من يعقلها أو لأن الدخور من أوصاف العقلاء.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ وقيل من دابة بيان لهما لأن الدبيب هي الحركة الجسمانية سواء كانت في أرض أو سماء ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ عطف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإن المراد بها ما في السماوات من جنسها من الشمس ونحوها وما في الأرض من جنسها من الدواب وأما الملائكة فليست من جنس شيء منهما ومنهم من ليسوا في السماء ولا في الأرض كحملة العرش وغيرهم،

وقيل خص الملائكة بالذكر تشريفاً كعطف جبرئيل على الملائكة، وما يستعمل للعقلاء وغير العقلاء فكان استعمالها حيث اجتمع القبيلتان أولى من استعمال مَنْ تغليباً، والمراد بالسجود الانقياد أعم من الانقياد لإرادته وتأثيره طبعاً والانقياد لتكليفه وأمره طوعاً ليصح إسناده إلى عامة الخلائق حتى الكفار الذين هم شر الدواب وقيل المراد بسجود الأشياء كلها ظهور أثر الصنع فيها بحيث يدعو الغافلين إلى السجود، والأولى أن يقال المراد بالسجود الطاعة والأشياء كلها مطيعة لله ﷻ من حيوان وجماد فإنها وإن كانت لا تُعْقَلُ طُوَاعاً عندنا لكنها عند الله تعالى مطيعة عاقلة غير خالية عن نوع من الحياة، قال الله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢﴾[2] وقال الله ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥﴾[3] وقال رسول الله ﷺ: «أطت السماء وحق لها أن تأط»[4] لكن على هذا التأويل الآية مخصوصة بما عد الكفار من الجن والإنس فإنها غير مطيعة قال الله تعالى في آية السجدة في سورة الحج: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾[5] ويدل على هذا التخصيص قوله تعالى ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عن عبادته ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ أي يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم أو يخافونه وهو فوقهم أي غالب عليهم بالقهر كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾[6] والجملة حال من الضمير المستكن في لا يَسْتَكْبِرُونَ أو بيان له لأن من خاف الله لا يستكبر عن عبادته ويفعلون ما يؤمرون به من الطاعة ما يليق بهم فإن هذه الصفات هو عدم الاستكبار والخوف وإتيان الأوامر لا توجد في الكفار، اللهم إلا أن يقال إن كان المراد بالسجود الانقياد العام أو ظهور أثر الصنع بحيث يدعو إلى السجود، كان قوله وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ إلى آخره بياناً لحال الملائكة خاصةً والله أعلم. عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء أطاً وحق لها أن تأطّ والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربعة أصابع إلا وملك وأضع جبهته ساجداً لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٢) سورة الانشقاق، الآية: ٢.

(٣) سورة الزلزلة، الآية: ٤ ـ ٥.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا» (٢٣١٢).

(٥) سورة الحج، الآية: ١٨.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٨.

قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجئرون إلى الله، قال أبو ذر يا ليتني كنتُ شجرة تعضد»[(١)] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والبغوي.

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ ذكر العدد مع أن المعدود يدل عليه دلالة على أن مساق النهي إليه أو إيماءً بأن الأثنية ينافي الألوهية كما ذكر الواحد في قوله ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية دون الإلهية والتنبيه على أن الوحدة من لوازم الإلهية ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب مبالغةً في الترهيب وتصريحاً بالمقصود كأنه قيل فأنا ذلك الإله الواحد فإياي ارهبوا فارهبوني لا غير قرأ يعقوب فارهبوني بإثبات الياء والباقون بحذفها ﴿وَلَهُۥ﴾ أي لله المتوحد في الإلهية ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خلقاً فلا يمكن خلق شيء من الأشياء من غيره خلافاً للمعتزلة في أفعال العباد، وملكاً فلا يتصور الظلم منه لأنه هو التصرف في ملك غيره بغير إذنه، ولا يجوز لأحد تصرف في شيء من الأشياء إلا بإباحته وأذنه ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ أي الطاعة والإخلاص ﴿وَاصِبًاۚ﴾ أي دائماً ثابتاً لا يحتمل سقوطه لأنه هو الإله وحده والحقيق بأن يرهب منه فحق العباد أن يطيعوه دائماً في جميع الأحوال كما وصف به الملائكة حيث قال ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[(٢)] حيث قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[(٣)] رواه أحمد والحاكم بسند صحيح عن عمران والحكيم بن عمرو الغفاري، وفي الصحيحين وسنن أبي داود والنسائي عن عليّ بلفظ «لا طاعة لأحد

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا» (٢٣١٢) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الحزن والبكاء (٤١٩٠).

(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٣) رجال أحمد رجال الصحيح.

انظر مجمع الزوائد في كتاب: الخلافة، باب: لا طاعة في معصية (٩١٤٣).

في معصية الله إنما الطاعة في المعروف»[(١)] وفي معناه وله الدين ذا كلفة يعني لا يجوز لأحد تكليف أحد إلا بإذنه لأنه هو المالك لا غيروا المالك يتصرف في ملكه كيف يشاء وليس ذلك لغير المالك إلا بإذنه، وقيل: الدين الجزاء على أعمال العباد دائماً لا ينقطع ثوابه لمن آمن ولا ينقطع عقابه لمن كفر، وقيل: المراد بالدين العذاب على الكفر ومعنى الواصب المرض والسقم اللازم يقال وصب فلان يوصب إذا توجع، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾[(٢)] وفي حديث عائشة أنا وصَّبْتُ رسول الله ﷺ أي مرَّضته، وفي القاموس الوصب المرض وأوصبه الله أمرضه ووصب يصب وصوباً دام وثبت كأوصب ووصب على الأمر وأظب وأحسن القيام عليه، فالمراد بالآية الوعيد لمن اتخذ إلهين اثنين يعني من فعل ذلك فلله العذاب الشديد الدائم ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ استفهام إنكار يعني لا تخافوا غيره إذ لا ضار سواه كما لا نافع غيره كما قال.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ ما إما شرطية أو موصولة متضمنة معنى الشرط يعني أيُّ شيء اتصل بكم أو الذي اتصل بكم من عافية أو غنًى أو خصبٍ أو غيرها ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ أي فهو من الله ومعنى الشرط إنما هو باعتبار الأخبار دون الحصول فإن استقرار النعمة بهم يكون سبباً للأخبار بأنها من الله لا حصولها منه فإنه مقدم على الاستقرار ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ من مرض أو فقر أو جدب أو غيرها ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ أي لا تتضرعون إلا إليه والجواد رفع الصوت في الدعاء والاستغاثة ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ في العبادة غيره وكلمة مِنْ للتبعيض إن كان الخطاب عاماً وإن كان خاصًّا بالكفار فمِنْ للبيان كأنه قال فإذا فريق وهم أنتم، ويجوز أن يكون مِنْ على هذا أيضاً للتبعيض على أن يعضهم يعتبرون قَالَ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾[(٣)] ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من النعماء خصوصاً نعمة الكشف واللام للعاقبة يعني صار عاقبة أمرهم الكفر بنعماء الله لأنهم لما عبدوا غيره فكأنَّهم أثبتوا الأنعام منه ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أمر تهديد ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أغلظ وعيد ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي للأصنام التي هي جماد لا علم لها فيكون الضمير لما، أو المعنى يجعلون لما لا يعلمونها مستحقةً للعبادة لا نافعةً ولا ضادةً

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أخبار الآحاد، باب: ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام (٧٢٥٧) وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (١٨٤٠).

(٢) سورة الصافات، الآية: ٩.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٣٢.

بل يسمونها آلهةً ويقولون جهلاً منهم إنها إلهةٌ تضر وتنفع وتشفع، أو لا يعلمون لها حقًّا فالضمير إلى الكفار والعائد إلى ما محذوف وما على التأويلين موصولة، أو المعنى يجعلون لجهلهم على أن ما مصدرية والمجعول له محذوف للعلم به يعني يجعلون لجهلهم للأصنام ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من الحرث والأنعام ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾[1] ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ من أنها آلهة وهو وعيد لهم عليه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ أي يحكمون بثبوت البنات لله تعالى وهم خزاعة وكنانة قالوا الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهاً لذاته أي أسبحه سبحاناً من نسبة الولد أو تعجب من قولهم ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعني البنين، ويجوز في ما الرفع على الابتداء ولهم خبره والنصب عطفاً على البنات على أن الجعل بمعنى الاختيار وعلى هذا ضمير الفاعل والمفعول لشيء واحد لكن لا يبعد تجويزه في المعطوف وسبحانه حينئذٍ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي بولادة الأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾ أي صار دوام النهار كله فإن النهار زمان الاغتمام والسرور لأجل المذاكرة واختلاط الناس وأما الليل فزمان النوم والغفلة ﴿مُسْوَدًّا﴾ من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ممتلىء حزناً وغيظاً فهو يكظمه أي يمسكه ولا يظهره ﴿يَتَوَٰرَىٰ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٦.

﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ أي يستخفي من قومه ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ أي من أجل سوء المبشر به متردداً فيما يفعل به ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ أي يبقيه حيًا ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ ذل ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أم يخفيه فيه ويدفنه وتذكير الضمير نظراً إلى لفظة ما، قال البغوي إن مضر وخزاعة وتميماً كانوا يدفنون البنات أحياءً خوفاً من الفقر عليهن وطمع غير الأكفاء فيهن، وكان الرجل من العرب إذا ولدت له بنت وأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت سداسية قال لأمها: زيّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها وقد حدر لها بئراً في الصحراء فإذا بلغ بها البئر قال لها انظري إلى هذا البئر فيدفعها من خلفها في البئر ثم يهيل على رأسها التراب حتى يستوي البئر بالأرض، وكان صعصعة جد الفرزدق إذا أحس بشيء من ذلك وجّه إلى والد البنت إبلاً يحييها بذلك فقال الفرزدق مفتخراً:

وجـدي الـذي مـنـع الـوائـدات فـأحـيـا الـوئـيـد فـلـم يـؤد

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون لمن هو متعال عن الولد أسوء الفريقين ولا يختارون ذلك لأنفسهم ويختارون لأنفسهم الذكور نظيره قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾[1] ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي الـذيـن يـصـفـون لله البنات ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي صفة السوء وهي الحاجة إلى الولد لبقاء النسل بعد موته واستبقاء الذكور استظهاراً بهم وكراهية الإناث ووأدهن خشية إملاق ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهو الوجوب الذاتي والغنى المطلق وأنه لا إله إلا هو والاتصاف بجميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء وغيرها والتنزه عن صفات المخلوقين، قال ابن عباس مثل السوء النار ومثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المتفرد بكمال القدرة والحكمة.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ﴾ أي يعاجل بالعقوبة ﴿ٱلنَّاسَ﴾ اللام للعهد والمراد بهم الكفار بقرينة المؤاخذة وإضافة الظلم إليهم في قوله ﴿بِظُلْمِهِم﴾ أي بكفرهم وعصيانهم وعبارة البيضاوي تشعر بأن المراد بالناس كلهم حيث قال ولا يلزم من عموم الناس وإضافة الظلم إليهم أن يكون كلهم ظالمين حتى الأنبياء عليهم السلام لجواز أن يضاف إليهم لما شاع فيهم وصدر عن أكثرهم، قلتُ: ويلزم على هذا أن يؤاخذ الناس كلهم بظلم أكثرهم وهذا مردود بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2] ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي على الأرض كناية عما دلّ عليه

(١) سورة النجم، الآية: ٢١ ـ ٢٢. (٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

لفظ الناس والدابة ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ إما أن يكون المراد به من دابه ظالمة كما ذكر صاحب المدارك عن ابن عباس، أو يكون المراد من دابة من دواب الأرض غير المؤمنين الصالحين، فإنه لا يجوز أن يهلك المؤمنون بظلم الظالمين وذنبهم، إلا إذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فحينئذ يعذبون معهم لرضائهم بذنبهم أو لتركهم ما وجب عليهم، قال رسول الله ﷺ: «إن الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه»[1] رواه ابن ماجه والترمذي وصححه من حديث أبي بكر الصديق، وروى أبو داود وجرير بن عبد الله بمعناه، وأما غير المؤمنين الصالحين من دواب الأرض فجاز أن يهلك بذنب ابن آدم تبعاً لهم لأن خلقتها تبع لخلقة الإنسان ونفع وجودها يعود إليهم، حيث قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[2] قال قتادة في هذه الآية إن الله تعالى قد فعل ذلك في زمن نوح فأهلك من على الأرض إلا من كان في سفينة نوح عليه السلام، وروى البيهقي عن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه قال أبو هريرة بلى والله حتى الحبارى لتموت في وكرها هزلاً بظلم الظالم، وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال: إن الجعل تعذب في جحرها بذنب ابن آدم، وقيل: معنى الآية لو أخذ الله آباء الظالمين بظلمهم انقطع النسل ولم يوجد الأبناء فلم يبق في الأرض أحد ومن أجل ذلك لم يدع نوح على قومه حتى علم بالوحي أن الله تعالى إن يذرهم لا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي يمهل الظالمين بحلمه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ سماه لأعمارهم أو لعذابهم كي يتوالدوا ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ بعد بلوغ الأجل ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ الآجال عطف على إذا جاء.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم من البنات والشركاء في الرياسة والاستخفاف بالرسل وأراذل الأموال ﴿وَتَصِفُ﴾ أي تقول ﴿أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ مع ذلك ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ منصوب على أنه بدل من الكَذِبَ قال يمان يعني بالحسنى الجنة في المعاد، وذلك أنهم كانوا يقولون نحن في الجنة إن كان محمد صادقاً في البعث ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًا

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٢١٦٨).
وأخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم، باب: الأمر والنهي (٤٣٢٩) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

ولا محالة، وقال البغوي قال ابن عباس بلى، قلت: هذا على ما قيل أن لا في لا جرم رد لما سبق وكان فيما سبق زعمهم إن لهم الحسنى ومقتضى ذلك أنهم لا يدخلون النار فرد الله قولهم ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ قرأ نافع بكسر الراء مخففاً من الأفراط في المعاصي في القاموس مُفْرِطُونَ أي مجاوزون لما حُدَّ لهم وقال البغوي المسرفون، وقرأ أبو جعفر بكسر الراء والتشديد من التفريط بمعنى التقصير والتضييع أي المقصرون في الطاعات والمضيعون لأمر الله والباقون بفتح الراء مخففاً، قال في القاموس أي منسيون متروكون في النار أو مقدمون معجلون إليها، قال البغيو قال ابن عباس منسيون في النار، وقال مقاتل متروكون في النار، وقال قتادة معجلون إلى النار، وقال الفراء مقدمون إلى النار منه قوله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض»[1] أي مقدمكم وقال سعيد بن جبير مبعدون.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ رسلاً من الناس ﴿إلى أمم من قبلك﴾ كما أرسلناك إلى هذه الأمة ﴿فزين لهم﴾ أي للأمم أي لأكثرهم ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الخبيثة من الإشراك بالله وتكذيب الرسل فأصروا عليها ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ الضمير لكفار قريش لأن سوق الكلام فيهم والولي الناصر والقرين يعني الشيطان قرين لهؤلاء يزيّن لهم أعمالهم الخبيثة ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ كما كان يزيّن لمن كان قبلهم ناصراً لهم في معاداة المؤمنين، وجاز أن يكون الضمير للأمم السابقة على أنه حكاية حال ماضية يعني فالشيطان كان وليهم في الدنيا حين كان يزيّن لهم، وجاز أن يكون المراد باليوم يوم القيامة والكلام حكاية حال آتية والمعنى فالشيطان قرين لهم يوم القيامة في الأصفاد، أو المعنى فالشيطان ناصر لهم يوم القيامة يعني لا ناصة لهم غيره وهو عاجز عن نصر نفسه فكيف ينصرهم، فهو نفي الناصر لهم على أبلغ الوجوه، وجاز أن يقال بحذف المضاف تقديره فهو ولي أمثالهم من الكفار اليوم يعني كفار قريش ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يوم القيامة ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي للناس ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ من التوحيد والصفات والقدر وأحوال المعاد وأفعال العباد وأحكام الله تعالى ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ معطوفان على محل لِتُبَيِّنَ منصوبان على العلية لكونهما فعلان لفاعل على أنزلنا بخلاف لِتُبَيِّنَ لأنه فعل المخاطب ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: في الحوض (٦٥٧٥).

ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي نباتها يعني جعلها خضراً نامياً ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي يبسها وانخلاعها عن الروح النباتي ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ على جواز البعث ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبرو إنصاف.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ دلالة يعتبر بها من الجهل إلى العلم ﴿نُّسْقِيكُم﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب ههنا وفي المؤمنين بفتح النون من المجرد والباقون بضمها من الافعال وهما لغتان ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ استئناف لبيان العبرة ذكّر الضمير ووحده ههنا نظراً إلى اللفظ وأنثه في المؤمنين نظراً إلى المعنى لأن الأنعام اسم جمع لفظه مفرد عدّه سيبويه في المفردات المبنية على أفعال كأخلاقه وأكباش كذا قال الفراء وأبو عبيدة والأخفش إن النعم والأنعام واحد يذكر ويؤنث فمن أنث فلمعنى الجمع ومن ذكر فلحكم اللفظ، وقال الكسائي رده إلى ما يعني في بطون ما ذكرنا وقال المؤرخ الكناية راجعة إلى البعض فإن اللبن لبعضها دون جميعها وقيل: المراد به الجنس ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ﴾ وهو ما في الكرش من السفل فإذا خرج منه لا يسمى فرثاً ﴿وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ من الدم والفرث ليس عليه لون دم ولا رائحة فرث مع كونه متولداً منهما ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي سهل المرور في الحلق، قال البغوي قال ابن عباس رضي الله عنهما إذا أكلت الدابة العلف فاستقر في كرشها وطحنته فكان أسفله الفرث وأوسطه اللبن وأعلاه الدم، والكبد مسلطة عليها يقسمها بتدبير الله فيجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الفرث كما هو، قال البيضاوي لعل المراد أن أوسطه تكون مادة اللبن وأعلاه مادة الدم الذي يغذي البدن، وقال: الكبد يجذب صفاوة الطعام المنهضم في الكرش ويبقى ثفله ثم يمسكها ثم يهضمها هضماً ثانياً فيحدث أخلاط أربعة معها مائية، فيميز القوة المميزة المائية بما زاد على قدر الحاجة فيدفعها إلى الكلية والمرارة والطحال، ثم يوزع الباقي على الأعضاء فيجري إلى كل حقه على ما يليق به بتقدير الحكيم العليم، ثم إن كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرودة والرطوبة على المزاج فيندفع الزائد أولاً إلى الرحم لأجل الجنين، فإذا انفصل انصبت ذلك الزائد أو بعضه إلى الضروع فيبيض بمجاورة لحومها العذبة البيض فيصير لبناً، ومن تدبر صنع الله تعالى في إحدات الإخلاط والألبان وإعداد مقارّها ومجاريها والأسباب المولدة لها والقوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق اضطر إلى الإقرار بكمال حكمته وتناهي رحمته. ومن الأولى تبعيضية لأن اللبن بعض ما في

بطونها، والثانية ابتدائية كقولك سقيتُ من الحوض لأن بين الفرث والدم المحل الذي يبتدأ منه الإسقاء وهي متعلقة بنسقيكم أو حال من لبناً قدمت عليه لتنكيره والتنبيه على أنه موضع العبرة.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ أي عصيرهما متعلق بمحذوف أي ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب وقوله ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ استئناف لبيان الإسقاء أو هو متعلق بتتخذون ومنه تكرير الظرف تأكيداً، أو من ثمرات النخيل خبر لمحذوف صفته تتخذون تقديره ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه، وتذكير الضمير على الوجهين الأولين لأنه للمضاف الحذوف الذي هوالعصير أو لأن الثمرات بمعنى الثمر، والسَّكَرُ اسم لما يكون من السُّكر أو هو مصدر رسمي به الخمر، قال في القاموس سَكِرَ كفرِحَ سُكراً وسُكراً وسَكْراً وسَكَراً وسَكْراناً نقيض صحا والسُّكُرُ محركة الخمر ونبيذ يتخذ من النص والكشوث وكل ما يسكر وما حرم من ثمره والخل والطعام، قال صاحب الهداية السَّكَرُ هو التي من ماء التمر أي الرطب، قال شريك بن عبد الله أنه مباح بهذه الآية فإن الله تعالى امتن علينا به وهو بالمحرم لا يتحقق ولنا إجماع الصحابة رضي الله عنهم على تحريمه والآية محمولة على الابتداء وكانت الأشربة مباحة كلها يعني في ابتداء الإسلام انتهى كلامه، وقال البغوي قال قوم السَّكَرُ والخمر والرزق الحسن الخل والرُبُّ والتمر والزبيب قالوا: وهذا قبل تحريم الخمر وإلى هذا ذهب ابن مسعود وابن عمر وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد، وقال: روي عن ابن عباس قال السَكَرُ ما حُرِّمَ من ثمرها والرزق الحسن ما أُحِلَّ، وقال أبو عبيدة السَكَرُ الطعم يقال هذا سَكَرٌ لك أي طعم لك، وقال الشعبي السَكَرُ ما شربت والرزق الحسن ما أكلتَ، وروى العوفي عن ابن عباس أن السَّكَر هو الخل بلغة الحبشة، وقال بعضهم السَّكَرُ هو بلغة الحبشة النبيذ المسكر هو نقيع التمر والزبيب إذا اشتد والمطبوخ من العصير وهو قول الضحاك والنخعي، ومن يبيح شرب النبيذ ومن حرَّمه يقول المراد الإخمار لا الإحلال وأولى الأقاويل أن قوله ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ منسوخ انتهى كلام البغوي، وقال البغوي في موضع آخر وجملة القول أن الله أنزل في الخمر أربع آيات نزلت بمكة ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ فكان المسلمون يشربونها وهي حلال لهم يومئذ ثم نزلت في المدينة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾[1] ثم نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾[1] وآخر الآيات نزولاً ما في المائدة وقد ذكرنا قصة نزول الآيات الأربعة في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل في الآيات.

﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ أي ألهمها وقذف في قلوبها ﴿أَنِ ٱتَّخِذِي﴾ أن مفسرة لأن في الوحي معنى القول ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر بضم الراء والباقون بكسرها أي مما يجعلونه سقفاً للبيت يستظل به أو يجعل للكرم، وأصل العرش السقف وذكر بحرف التبعيض لأنه لا يبنى في كل جبل وكل شجرة وكل سقف أو كرم ولا في مكان منها، وإنما سمي ما تبنيه للعسل بيتاً تشبيهاً ببناء الإنسان لما فيه من حسن الصنعة وصحة القسمة التي لا يقوى عليها حذاق المهندسين ولعل ذكره للتنبيه على ذلك ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ اللام للجنس أي من كل ثمرة تشتهيها وتتيسر لها مرها وحلوها وليس معنى الكل الاستغراق ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ يعني كوني سالكة في الطرق التي الهمك ربك وأفهمك في عمل العسل أو إذا أكلتِ الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك فاسلكي راجعة إلى بيوتكِ سبل ربك لا تضليني، أو فاسلكي يعني ادخلي ما أكلت في مسالك التي يستحيل فيها بقدرته النُّورُ عسلاً من أجوافك ﴿ذُلُلٗاۚ﴾ جمع ذلول حال من السبل أي مذلَّلَة ذلَّلها الله وسهلها لك أو حال من الضمير في اسلكي يعني فاسلكي أنتِ منقادة لأمر ربك، ويقال إن أربابها ينقلونها من مكان إلى مكان ولها يعسوب إذا وقف وقفت وإذا سار سارت ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة كأنه عدل به عن خطاب النحل إلى خطاب الناس لأنه محل الأنعام عليهم والمقصود من خلق النحل وإلهامه انتفاعهم ﴿شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ أبيض وأحمر وأصفر وأخضر ﴿فِيهِ﴾ أي في ذلك الشراب ﴿شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾ وقال مجاهد فيه أي في القرآن شفاء والظاهر هو الأول ولفظ الآية يشعر أن في العسل شفاء ولو في الجملة ولو في بعض الأمراض لكونها نكرة وسياق الكلام يقتضي نوعاً من التعميم وإلا فما من شيء من الأشياء إلا وفيه شفاء لبعض الأمراض حتى السموم فإنها تستعمل في الأدوية فيقال التنوين للتعظيم والمعنى فيه شفاء عظيم للناس يعني في أكثر الأمراض وأكثر الأوقات، ويؤيده حديث ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفائين العسل والقرآن»[2] رواه ابن ماجه، والحاكم بسند

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الطب، باب: العسل (٣٤٥٢).

صحيح، فإن هذا الحديث يدل على كونه شفاءً غالباً، وذكر البغوي قول ابن مسعود أن العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور فكأنّه فهم ابن مسعود من الحديث المرفوع التعميم، فقال البيضاوي إن العسل شفاء إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية أو مع غيره كما في سائر الأمراض إذ قل ما يكون معجون إلا والعسل جزء منه، وما في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال «إن أخي استطلق بطنه فقال رسول الله ﷺ «إسقه عسلاً» فسقاه ثم جاء فقال: إني سقيتُه فلم يزده إلا استطلاقاً فقال رسول الله ﷺ «صدق الله وكذب بطن أخيك» فسقا فبرئ[(١)]، يدل على كونه شفاءً منفرداً فيقال أنه من شربه منفرداً بحسن النية لأيّ مرض كان شفاه الله تعالى إن شاء الله تعالى كذا قال السيوطي ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق تدبر علم قطعاً أنه لا بد له من قادر حكيم يلهمها ذلك ويحملها عليه.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ صبياناً أو شباناً أو كهولاً أو شيوخاً ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي أخسّه وهو الهرم قال قتادة أرذل العمر تسعون سنة، وروي عن علي عليه السلام أنه قال أرذل العمر خمس وسبعون سنة وقيل ثمانون، وقد كان في دعائه ﷺ «اللهم إني أعوذ بك من سوء العمر» وفي رواية «مِنْ أنْ أردَّ إلى أرذل العمر»[(٢)] ونحو ذلك روي في الصحيحين وغيرهما ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي ينسى معلوماته كلها فيصير له حالة مشابهة بحال الأطفال في عدم العلم وسوء الفهم قال عكرمة من قرأ القرآن لم يصر بهذه الحالة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمقادير أعمارهم ﴿قَدِيرٌ﴾ على كل شيء يميت الشاب القوي ويبقى الهرم الفاني وفيه تنبيه على أن تفاوت أحوال الناس ليس إلا بتقدير قادر حكيم عليم ولو كان ذلك مقتضى الطباع لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الطب، باب: دواء المبطون (٥٧١٦) وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: التداوي بسقي العسل (٢٢١٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما يتعوذ من الجبن (٢٨٢٢).

ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا
وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ
ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا
وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ فمنكم غني ومالك ومَلِك ينفق ألوف آلاف ومنكم مملوك أو عسكري أو فقير لا يقدر على شيء ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾ يعني الأغنياء والمِلاك ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ﴾ أي معطى فضل رزقهم الذي أعطاهم الله ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي مماليكهم ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ﴾ يعني حتى يستووا هم وعبيدهم في ذلك فهذه جملة اسمية وقعت في موضع الجواب للنفي كأنه قيل فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فيستووا في الرزق فهو رد وإنكار على المشركين حيث يشركون بالله بعض مخلوقاته في الألوهية مع عدم صلاحيتهم لأن يشاركوه في شيء من الأشياء بوجه من الوجوه ولا يرضون أن يشاركهم عبيدهم فيما أنعم الله عليهم فيساويهم فيه مع أن مماليكهم من جنسهم مرزوقين الله تعالى، وجاز أن يكون المعنى ما هم برادّي رزقهم يعني رزق أنفسهم على ما ملكت إيمانهم بل كل ما يردُّون على المماليك من الرزق فهو رزق لمماليكهم جعله الله تعالى في أيديهم فهم فيه سواء، يعني أن الموالى والمماليك سواء في أن الله رزقهم جميعاً فالجزاء لازمة للجملة المتقدمة أو مقرر لها ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ حيث يتخذون له شركاء فإنه يقتضي أن يضاف إليهم بعض ما أنعم الله عليهم وجحود كونها من عند الله أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج بعدما أنعم الله عليهم بإيضاحها والباء لتضمن الجحود معنى الكفر، قرأ أبو بكر بالتاء الفوقانية للخطاب لقوله ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ﴾ والباقون بالتحتانية لقوله ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ لتستأنسوا بها وليكون أولادكم مثلكم، وقيل معناه خلق حواء من آدم وسائر النساء من نطف الرجال والنساء ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ وهم أولاد الأولاد أو المسرع في الخدمة يعمهم قال في القاموس حفد يحفد حفد أو حفداناً خف في العمل وأسرع كاحتفد وخدم والحفدة محركة الخدم والأعوان جمع حافد، وحفدة الرجل أولاد أولاده كالحفيد والأصهار والبنات، قال البغوي قال ابن مسعود والنخعي الحفدة يعني في الآية الأختان على بناته وعن ابن مسعود أيضاً أنهم الأصهار فيكون معنى الآية على هذا القول وَجَعَلَ

﴿لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ﴾ وبنات تزوجوهن فيحصل بسببهن الأختان والأصهار، وقال عكرمة والحسن والضحاك هم الخدم، وقال مجاهد هم الأعوان، وقال عطاءهم ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه، قلتُ: فالمراد في الآية بالحفدة على هذه الأقوال هم البنون أنفسهم والعطف لتغاير الوصفين كذا قال البيضاوي إحدى التأويلات، وقال مقاتل والكلبي البنين الصغار والحفدة كبار الأولاد الذين يعينونه على عمله، وقال قتادة مهنة يمتهنونكم ويخدمونكم من أولادكم وروى مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس أنهم ولد الولد وروى العوفي عنه أنهم بنوا امرأة الرجل ليسوا منه يعني الربائب، قلتُ: لعل ذلك التسمية لأجل أن الرجل أن ربى أولاد غيره يستخدمهم ما لا يستخدم من أولاده وقال البيضاوي إحدى التأويلات أن المراد بالحفدة في الآية البنات إذ البنات يخدمن في البيوت أتم خدمة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من اللذائذ أو من الحلالات ومن للتبعيض فإن المرزوق في الدنيا أنموذج منها ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ حيث يقولون الأصنام ينفعهم ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ حيث أضافوا نعمته إلى الأصنام، قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: إنيّ والجن والإنس في نَبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري»(١) وتقديم الصلة على الفعل لإيهام التخصيص مبالغة ولمحافظة الفواصل وقيل الباطل ما أمرهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة يؤمنون به وبنعمة الله أي بالطيبات من الرزق التي أحل الله لهم يكفرون ويجحدون تحليله، وقيل الباطل الشيطان ونعمة الله محمد ﷺ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني من مطر ونبات ﴿شَيْـًٔا﴾ قال الأخفش هو بدل من الرزق والمراد به المرزوق والمعنى لا يملكون من المرزوقات شيئاً قليلاً ولا كثيراً وقال الفراء رزقاً مصدر وشيئاً منصوب به على المفعولية ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يتملكوه أو لا استطاعة لهم أصلاً وجمع الضمير فيه وتوحيده في لا يملك نظراً إلى لفظة ما ومعناه، ويجوز أن يعود الضمير إلى الكفار يعني لا يستطيع هؤلاء الكفار مع كونهم أحياءً فكيف بالجمادات.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال وأنتم لا تعرفون الله تعالى ولا تعلمون صفاته ولا ما يجوز وصفه به وما لا يجوز فكيف يصح منكم ضرب المثل وقياسكم عليه في هذا المقام باطل لكونه قياساً للغائب على الشاهد ومن غير جامع

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي بلا سند، والبيهقي في شعب الإيمان بسند فيه ضعف.
انظر فيض القدير (٦٠٠٨).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ ضرب الأمثال وكنه الأشياء ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾كنه الأشياء أو المعنى أنه تعالى يعلم خطاء ما تضربون من الأمثال وفساد ما تقولون عليه بالقياس كقولهم عبادة عبيد الملك أدخل في التعظيم من عبادته ويعلم عظم جرمكم فيما تفعلون وأنتم لا تعلمون ذلك ولو علمتموه لما جرأتم عليه فهو تعليل للنهي ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ لنفسه ولمن عُبِدَ دونه ﴿عَبۡدٗا﴾ بدل من مثلاً ﴿مَّمۡلُوكٗا﴾ احتراز عن الحر فإنه أيضاً عبد الله ﴿لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ احتراز عن المكاتب والمأذون ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ من موصولة لكونه معطوفاً على عبد قسيم له فالمعنى وحرًّا غنيًّا كثير المال ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ﴾ مَثَّلَ ما يُشْرَكُ به بالمملوك العاجز عن التصرف رأساً ومَثَّلَ نفسه بالحر الغني السخي ينفق ما يشاء كيف يشاء واحتج بهذا على امتناع الإشراك والتسوية بين الأصنام التي هي أعجز المخلوقات وبين الله الغني القادر ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ جمع الضمير ولم يقل يستويان لأنه للجنسين فإن المعنى هل يستوي الأحرار والعبيد ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ يعني الحمد كله لله تعالى لا يستحقه غيره فضلاً عن استحقاق العبادة لأنه مولى النعم كلها دون غيره ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فيضيفون نعمة الله إلى غيره فيعبدونه لأجلها، وقيل قوله ﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا﴾ لا يقدر مثل للكافر حيث لم يقدّر الله تعالى له أن يقدم خيراً أو ينفق شيئاً في سبيل الله فهو العاجز وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ إلى آخره مثل للمؤمن المنفق، روى ابن جريج عن عطاءٍ عَبْداً مَّمْلُوكاً أي أبو جهل وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا أبو بكر الحمد لله الذي مَيَّزَ المحق من المبطل بل أكثرهم لا يعلمون.

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ
مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ
مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ
أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا
تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى
ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ
﴿٧٩﴾

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾ ولد أخرس لا يفهم ولا يتكلم ﴿لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ من الصنائع والتدابير لنقصان عقله ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ ثقيل ووبال ﴿عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾ أي

على من يلي أمره ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ حيثما يرسله مولاه في أمر ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي لا ينجح لعامة مُهمِّه فهو مثل للصنم لا يسمع ولا ينطق ولا يعقل وهو كل على عابده يحتاج إلى أن يحمله ويضعه وهو لا ينفعه أصلاً ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي هو سليم فهيم مطيق ذو كفاية ورشد ينفع الناس يحثهم على العدل الشامل لجميع الفضائل ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو في نفسه على طريق مستقيم لا يتوجه إلى مطلب إلاّ يبلغه بأقرب ما ينبغي، هذا مثل ضربه تعالى لنفسه، وقيل: وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ رسول الله ﷺ، وقيل: كلا المثلين للمؤمن والكافر يرويه عطاء عن ابن عباس، وقال عطاء في هذه الآية الأَبْكَمُ أبيّ بن خلف وَمَنْ يأْمُرُ بِالْعَدْلِ حمزة وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون، وقال مقاتل نزلت في هاشم بن عمرو بن الحارث من ربيعة القرشي كان قليل الخير يعادي رسول الله ﷺ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ضَرَبَ الله مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً قال نزلت في رجل من قريش وعبده وفي قوله ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ قال: نزلت في عثمان ومولى له كافر وهو أسيد بن أبي العيص كان يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني لا يعلم الغيب أحد غيره تعالى إلا بتعليمه وقد ذكرنا شرح الغيب والشهادة في تفسير سورة الجن ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ أي أمر قيام الساعة في سرعته وسهولته إذا أراد الله تعالى ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ في القاموس لمحَ كمنعٍ اختلاس النظر قلتُ: فمعناه كاختلاس البرق البصر وقال البيضاوي إلا كرَجْعِ الطرف من أعلى الحديقة إلى أسفلها ضرب الله تعالى به المثل لأنه لا يُعْرفُ زمانُ أقلَ منه في العرف ثم قال ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ يعني بل هو أقرب فإنه تعالى محيي الخلائق دفعةً إذا قال له كن فيكون وما يوجد دفعةً كان في آن غير ممتد ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر أن يحيي الخلائق دفعةً كما قدر أن أحياهم في الدنيا متدرجاً، قال البغوي نزلت الآية في الكفار الذين استعجلوا القيامة استهزاءً ثم دل على قدرته فقال ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قرأ الكسائي بكسر الهمزة على لغة أو اتباعاً لما قبلها وحمزة بكسرها وكسر الميم والباقون بضم الهمزة وفتح الميم، والهاء زائدة كما في إهراق ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ جُهَّالاً مستصحبين جهل الجمادية ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ أي الاسماع ﴿وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أداة تتعلّمون بها فتحسّون بمشاعركم جزئيات الأشياء فتدركونها ثم تنبهون بقلوبكم لمشاركات ومبائنات منها بتكرير الإحساس حتى يتحصل لكم بعض العلوم البديهية وتتمكنوا من تحصيل العلوم الكسبية بالنظر فيها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كي تعرفوا ما أنعم الله عليكم

طوراً بعد طورٍ فتشكرونه ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وحمزة بالتاء الفوقانية لتغليب الخطاب على الغيبة والباقون بالتحتانية لقوله تعالى ﴿يَعْبُدُونَ﴾ ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ مذلّلات للطيران بما خُلِقَ لها من الأجنحة والأسباب المواتية ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الهواء بين السماء والأرض، قال البغوي روي عن كعب الأحبار أن الطير يرتفع في الهواء اثنا عشر ميلاً ولا يرتفع فوق ذلك ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الهواء ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بقدرته فإن ثقل جسدها يقتضي سقوطها ولا علاقة فوقها ولا دعامة تحتها تمسكها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي في تسخير الطير بأن خلقها خلقةً يمكن معه الطيران في الجو وأمسكها في الهواء على خلاف طبعها ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم المنتفعون بها.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا
يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾
وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ
سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ التي بني من الحجر والمدر ﴿سَكَنًا﴾ أي موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم فَعَلٌ بمعنى مفعول ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ يعني خياماً وأخبية والقنات من الأدم ويجوز أن يتناول المتخذ من الوبر والصوف والشعر فإنها من حيث أنها ثابتة على جلودها منها ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي تجدونها خفيفة في الحمل والثقيل ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ أي رحلتكم في سفركم قرأ ابن عامر والكوفيون بسكون العين والباقون بفتحها وهما لغتان ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي وقت الحضر أو النزول ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ أي أصواف الأنعام من الضأن ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ من الإبل ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ من المعز وإضافتها إلى الأنعام لأنها من جملتها ﴿أَثَٰثًا﴾ وهو متاع البيت من الفُرُش والأكسية واللباس لا واحد له أو المال أجمع كذا في القاموس ﴿وَمَتَٰعًا﴾ ما يتجّربه ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى مدة أراد الله تعالى بقاءها ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ من الشجر والجبل والأبنية وغيرها ﴿ظِلَٰلًا﴾ تتقون بها حر الشمس ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ أي مواضع تستترون بها وتسكنون فيها من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها جمع كن ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ أي قمصاً من القطن

والصوف والكتان والقز ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ أي والبرد خص أحد الضدين بالذكر والمراد كلاهما لدلالة الكلام على الآخر ﴿وَسَرَابِيلَ﴾ من حديد أوقز أو غير ذلك ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ من السلاح أن يصيبكم في الحرب ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يعني كما أتم عليكم النعماء المذكورة ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ حيث أرسل إليكم رسوله وأيده بالمعجزات وأنزل عليكم كتابه وأوضح لكم الحجة وأعز الإسلام ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ لكي يسلم أكثر الناس ويخلصون لله الطاعة، قال عطاء الخراساني إنما نزل القرآن على قدر معرفتهم فقال ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ وما جعل لهم من السهول أعظم وأكثر لكنهم كانوا أصحاب جبال كما قال ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ لأنهم كانوا أصحاب وبر وشعر وصوف كما قال ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾(١) وما أنزل من الثلج أكثر لكنهم كانوا لا يعرفون الثلج وقال ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وما تقي من البرد أكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن الإسلام ولم يقبلوا منك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يعني إن تولوا فلا تهتم وَلَاتَكُ في ضيق لأنه ما عليك أن يؤمنوا إنما عليك البلاغ وقد ﴿بَلَّغْتَ﴾ كمال الإبلاغ أقيم السبب مقام المسبب، أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد «أن أعرابيًّا أتى النبي ﷺ فسأله فقرأ عليه ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ قال الأعرابي نعم قال. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ قال: نعم ثم قرأ كل ذلك يقول نعم حتى بلغ ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ فولى الأعرابي فأنزل الله تعالى ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ التي عدها عليهم وغيرها حيث يعترفون بها وبأنها من عند الله ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ حيث أعرضوا عن عبادة الله مخصلين له الدين حنفاء غير مشركين، وقال السديّ يعرفون نعمة الله يعني نبوة محمد ﷺ عرفوها بالمعجزات ثم أنكروها عناداً ومعنى ثم استبعاد الإنكار بعد المعرفة، قال البغوي قال مجاهد وقتادة يعرفون ما عدَّ عليهم من النعم في هذه السورة ثم إذا قيل لهم تصدقوا وامتثلوا أمر الله فيها ينكرونها ويقولون ورثناها من آبائنا وقال الكلبي هو أنه إذا ذكر لهم هذه النعم قالوا نعم هذه كلها من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا، وقال عون بن عبد الله هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا لولا فلان لما كان كذا ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ بعد الاعتراف بالنعماء عناداً، وذكر الأكثر إما لأن بعضهم لم يعرف الحق لنقصان العقل

(١) سورة النور، الآية: ٤٣.

أو التفريط في النظر أو لم يقم عليه الحجة لأنه لم يبلغ حد التكليف وإما لأنه قال الأكثر وأراد به الكل.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ تقديره اذكر أو خوّفهم أو يحيق بهم ما يحيق يوم نبعث ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو رسولها يشهد عليهم ولهم بالفكر والإيمان ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار إذ لا عذر لهم، وقيل: في الكلام مطلقاً، وقيل: في الرجوع إلى الدنيا وثم لزيادة ما يحيق بهم من شدة المنع عن الاعتذار لما فيه من الإقناط الكلي بعد شهادة الرسل عليهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي ولا هم يسترضون يعني لا يطلب منهم رضاء ربهم إذ لا يمكن ذلك حينئذ فإن الآخرة ليست بدار التكليف ولا يرجعون إلى الدنيا حتى يتوبوا ويعملوا موجبات مرضاته تعالى ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ عذاب جهنم ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي العذاب بعد الدخول ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون قبل الدخول ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أوثانهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾ أرباباً تعبدهم أو نطيعونهم وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك، أو التماس بأن ينصّف عذابهم ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ أي قالوا لهم يعني أوثانهم ينطقهم الله ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في أنهم شركاء الله أوفي أنهم عبدوهم حقيقة بل إنما عبدوا أهواءهم وحاصل قولهم إنا ما دعوناكم إلى عبادتنا نظيره قوله تعالى: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾[1] أوفي أنهم حملوهم على الكفر وألزموهم إياه كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[2]

---

(١) سورة مريم، الآية: ٨٢.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

﴿وَأَلْقَوْا﴾ يعني الذين ظلموا ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ الاستسلام لحكمه بعد الاستكبار في الدنيا ﴿وَضَلَّ﴾ أي ضاع وبطل ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من أنها يشفع لهم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالمنع عن الإسلام والحمل على الكفر ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا﴾ بصدهم ﴿فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ المستحق بكفرهم قال عبد الله بن مسعود عقارب لها أنياب أمثال النخل الطوال، أخرج ابن مردويه عن البراء عن النبي ﷺ نحوه، وقال سعيد بن جبير حيّات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن اللسعة يجد صاحبها حمتها أربعين خريفاً، وقال ابن عباس ومقاتل يعني خمسة أنهار من صفر مذاب كالنار تسيل من تحت العرش يعذبون بها ثلاثة على مقدار الليل واثنان على مقدار النهار - وقيل إنهم يخرجون من حر النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة الزمهرير إلى الدار مستغيثين بها ﴿بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ في الدنيا بالكفر والصدّ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني نبيهم فإن نبي كل أمة بعث منهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على أمتك ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ استئناف أو حال بإضمار قد ﴿تِبْيَٰنًا﴾ بياناً بليغاً ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ مفصلاً أو مجملاً كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(١) ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾(٣) ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ للجميع وإنما حَرمَ مَنْ حرم من تقصيره ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصة.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ١١٥.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٢.

﴿ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ لفظ العدل يقتضي المساواة ومنه يقال للفدية والجزاء عدلاً باعتبار معنى المساواة ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾[١] ﴿أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[٢] يعني تسووا بينهن في كل شيء فمعنى الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي بالمساواة في المكافآت إن خيراً فخير وإن شراً فشر والإحسان أن يقابل الخير بأكثر وأفضل منه والشر بأقل وأسهل منه وبالمساواة بين المدعي والمدعى عليه إذا حكم ينهما يعني لا يميل إلى أحدهما بل يسوى بينهما ويحكم بما قضى الله تعالى، قلت: أو المراد بالعدل الاستقاقة على الحق ضد الجور وهو الميلان عن الحق في القاموس العدل ضد الجور وما قام في النفوس أنه مستقيم، وقيل: المراد بالعدل التوسى بين الأمور كالتوحيد المتوسى بين التعطيل والتشريك، والقول بالكسب المتوسط بين الجبر والقدر، والتعبد بالواجبات والنوافل بحيث لا يفوّت حقًا من حقوق الله، والعبادة المتوسطتين البطالة والترهب، والجود المتوسط بين البخل والتبذير، والشجاعة المتوسى بين الجبن والتهور، والعفة المتوسطة بين الفجور والحصر، قال البغوي وروي عن ابن عباس العدل التوحيد والإحسان أداء الفرائض وعنه الإحسان الإخلاص في التوحيد، وذلك معنى قوله ﷺ: «الإحسان أن تعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٣] رواه الشيخان في الصحيحين في حديث سؤال جبرئيل عن عمر بن الخطاب . وقال مقاتل العدل التوحيد والإحسان العفو عن الناس، وقيل: العدل الفريضة ومنه قوله ﷺ: «لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»[٤] لا يعني نافلةً ولا فريضة الإحسان النافلة لأن الفرض أن يقع فيه تفريط تجبره النافلة ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي إعطاء ذي قرابته ما يحتاج إليه يعني صلة الرحم ﴿وَيَنْهَىٰ

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عز الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (٥٠) وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٩).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع (٦٨٧٠).

عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي ما اشتد قبحه قولاً أو فعلاً وقال ابن عباس الزنى ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ أي ما أنكره الشرع والعقل السليم ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ أي الكبر والظلم قال البيضاوي الفحشاء الإفراط في متابعة القوة الشهوية كالزنى فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها، والمنكر ما ينكر عن تعاطيه في آثاره القوة الغضبية، والبغي هو الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم فإنها الشيطنة التي هي مقتضى القوة الوهمية، ولا يوجد من الإنسان شر إلا وهو مندرج في هذه الأقسام صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث ولذلك قال ابن مسعود أجمع آية في القرآن هذه، قلت: أخرجه سعيد بن منصور والبخاري في الأدب ومحمد بن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان وأخرج أحمد والبخاري في الأدب وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس إن تلك الآية صارت سبباً لإسلام عثمان بن مظعون، وقال البغوي: قال ابن عيينة العدل استواء السر والعلانية والإحسان أن يكون سريرته أحسن من العلانية والفحشاء والمنكر أن يكون علانيته أحسن من سريرته ﴿يَعِظُكُمْ﴾ بالأمر والنهي والتميز بين الخير والشر ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون، قال البيضاوي: لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ قال البغوي: قال أيوب عن عكرمة إن النبي ﷺ قرأ هذه الآية على الوليد فقال له يا ابن أخي أعِدْ فأعاد عليه فقال: إن له والله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمعذق وما هو قول البشر.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي بميثاقه ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ أخرج ابن جرير عن بريدة قال: نزلت الآية في بيعة النبي ﷺ وقال البغوي العهد ههنا اليمين قال الشعبي العهد يمين وكفارته كفارةُ يمين ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ أي أيمان البيعة أو مطلق الأيمان ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي توثيقها بذكر الله ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ﴾ شاهداً على تلك البيعة فإن الكفيل مراع بحال المكفول به رقيب عليه والجملة حال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من الوفاء بالعهود أو نقضها، وقال مجاهد نزلت الآية في حلف الجاهلية ثم ضرب الله مثلاً لنقض العهد فقال ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ متعلق بنقضت أي نقضت غزلها من بعد إبرامه وأحكامه فجعلته ﴿أَنكَٰثًا﴾ جمع نكث وهو ما ينكث قتله، أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر ابن أبي حفص قال: كانت سعيدة الأسدية مجنونة تجمع الشعر والليف فنزلت هذه الآية، وقال البغوي قال الكلبي ومقاتل هي امرأة خرقاء حمقاء من قريش يقال لها ربطة بنت عمر بن سعد بن كعب بن زيد بن مناة بن تميم وتلقب بجعر وكانت بها وسوسة فكانت تخذت مغزلاً بقدر ذراع أو صارةً مثل الأصبع وفلكة عظيم

على قدرها وكانت تغزل الغزل من الصوف والوبر والشعر وتأمر جواريها بذلك فكن يغزلن من الغداة إلى نصف النهار فإذا انتصف النهار تنقض جميع ما غزلن فهذا كان دأبها، ومعنى الآية لا تكونوا كما كانت أنها لم تكف عن العمل وبعدما عملت لم تكف عن النقض فأنتم إما أن لا تعهدوا وإما أن توفوا إذا عاهدتم ولا تكونوا إن تعاهدوا كل مرة فتنقضوا العهود كلّما عاهدتم ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ حال من الضمير في لا تكونوا أو في الجار والمجرور الواقع موقع الخبر أي لا تكونوا مشبهين بامرأة هذا شأنها متخذي إيمانكم مفسدة ودغلاً وخديعةً وخيانةً بينكم، وأصل الدخل ما يدخل في الشيء ولم يكن منه لأجل الفساد، وقيل: الدخل والدغل أن يظهر الوفاء ويبطن النقض ﴿أَن تَكُونَ﴾ أي لأن تكون ﴿أُمَّةٌ﴾ أي جماعة ﴿ ؟ ژ﴾ يعني أكثر عدداً وأوفر مالاً ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ أخرى، قال مجاهد وذلك أنهم كانوا يحالفون الحلفاء وإذا رأوا قوماً أكثر منهم وأعز نقضوا حلف هؤلاء وحالفوا أعداءهم الأكثرين، فمعناه طلبتم العز بنقض العهد من الضعفاء والعهد من الأقوياء ولا ينبغي ذلك، أو المعنى تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ تكون أمة أنتم فيه ﴿أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ عاهدتم منهم فما باليتم بنقض العهد كما أن قريشاً عاهدوا المؤمنين عامَ الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين ثم نقضوا العهد بعد سنتين لما رأوا جماعة قريش أزيد عدداً وأوفر مالاً من جماعة المؤمنين، هِيَ أَرْبَا مبتدأ أو خبر في موضع الرفع صفة لأمة وأمة فاعل تكون وهي تامة وهي ليست بفصل لوقوعها بين نكرتين ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِۦ﴾ الضمير لأَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ يعني يختبركم الله بكون أمة أربى من أمة فينظر هل تمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله أم تنقضون بكثرة قريش وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم، وقيل: الضمير للرّبْو والمعنى قريب مما ذكر، قيل للأمر بالوفاء يعني يختبركم الله بأمره بالوفاء بالعهد ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ في الدنيا إذا جازاكم على أعمالكم فيظهر الذين وفوا عهودهم بالثواب والذين نقضوا أيمانهم بالعذاب.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متفقةً على الإسلام مُوفُون العهود غير مختلفين ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ بالخذلان ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بالتوفيق ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ سؤال تبكيت ومجازاة ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا﴾ خديعةً وفساداً ﴿بَيْنَكُمْ﴾ فتغرون به الناس حيث يعتمدوا على أيمانكم ويأمنون ثم تنقضونها، تصريح بالنهي عنه بعد التضمين تأكيداً ومبالغةً في قبح المنهى ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ يعني فتهلكوا بعدما كنتم آمنين، والعرب يقول لكل مبتلى بعد عافية أو ساقط في ورطة بعد سلامة زلّت قدمه، أو المعنى

فتزل قدم عن الصراط المستقيم ومحجّة الإسلام بعد ثبوتها وذلك أن بيعة النبي ﷺ كان محجّة الإسلام والوفاء به الاستقامة عليه ونقضه زلّة القدم، والمراد فتزلّ أقدامكم بعد ثبوتها لكن وحد ونكر للدلالة على استعظام مزلّة قدم واحد عن طريق الحق بع الثبوت عليها فكيف بأقدام كثيرة ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ في الدنيا ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ أي بصدُدكم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وخروجكم عن الدين أو بصدكم غيركم لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدوا الجعلوا نقضها سُنَّة لغيرهم يستنّون بها، أو المعنى بما سهلتم طريق نقض العهد على الناس بنقضكم العهد فلا يعتمد أحد على عهدكم قط ويغركم غيركم بالعهود فيصيبكم مصيبة في الدنيا ﴿وَلَكُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بنقض العهود ونكث الأيمان ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسوله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ تطلبون بنقض العهود والبيعة والأيمان نيلاً من الدنيا ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ على الوفاء بالعهود من النصر والنعيم في الدنيا والثواب في الآخرة ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما تطلبون ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فضل ما بين العوضين، أو المعنى إن كنتم من أهل العلم والتميز ما اخترتم الأدنى على الأعلى.

﴿مَا عِندَكُمْ﴾ من الدنيا ﴿يَنفَدُ﴾ أي ينقضي ويفنى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من خزائن رحمته ﴿بَاقٍ﴾ لا ينفد وهو تعليل للحكم السابق عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى»(١) رواه أحمد بسند صحيح والحاكم ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ قرأ ابن كثير وأبو جعفر وعاصم بالنون على التكلم والباقون بالياء التحتانية على الغيبة والضمير راجع إلى الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟﴾ على مصائب الدنيا من المرض والفقر وأذى الكفار ومشاق التكليف وللاستقامة في الجهاد ﴿أَجْرَهُم﴾ أي يعطيهم ثواب صبرهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي بأحسن أجور أعمالهم يضاعف الحسنات إلى عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله وقيل المراد ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الواجبات والمندوبات فإنها أحسن من المباحات والممنوعات ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ

(١) قال الحاكم: صحيح على شرطهما، ورده الذهبي وقال فيه انقطاع، وقال الهيثمي والمنذري، رجال أحمد ثقات.

انظر فيض القدير (٨٣١٣).

يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيّنه بالنوعين لدفع توهم التخصيص ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ لا اعتداد بأعمال الكفار في استحقاق الثواب وإنما المتوقع عليها تخفيف العذاب لأن مبنى الثواب عند الله إلا خلاص وحسن النية وذا مفقود لهم ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾ في الدنيا ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قال سعيد بن جبير وعطاء هي الرزق الحلال، وقال الحسن هي القناعة، وقال مقاتل ابن حبان هي العيش في الطاعة، وقال أبو بكر الوراق هي حلاوة الطاعة، وقال البيضاوي يعيش عيشاً طيباً فإنه إن كان موسراً فظاهر وإن كان معسراً يطيب عيشه بالقناعة والرضاء بالقسمة وتوقع الأجر العظيم في الآخرة بخلاف الكافر فإنه إن كان معسراً فظاهر وإن كان موسراً لم يدع الحرص وخوف الفوات أن يَتَهَنَّأ بعيشه قُلتُ: ذلك هو المعنى من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1].

قلتُ: والأولى أن يقال إن العبد إذا أحب الله تعالى فكل ما وصل إليه من المحبوب من حلاوة أو مرارة يلتذّ به، قال المجدد إيلام المحبوب ألّذ للمحب من إنعامه فإن المراد في الإنعام كائن على مراده وفي الإيلام كائن على مراد المحبوب ومراد المحبوب أحب عنده من مراد نفسه، قال الفاضل الرومي قدس سره:

عاشقم بر لطف وبر قهرت بجد     أي عجب من عاشقم بر بروضد

ناخوش أزوى خوش بودور جان من     جار فدائي ياردل رنجان من

قلتُ: أو يقال قد قال: الله تعالى في أوليائه: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[2] وقد مر تفسيره في سورة يونس ﷺ، فالمؤمن إذا بشر برضاء الله تعالى وعلو مقامه عنده ورفع درجاته لديه حصل له في الدنيا أفضل ما يرجوه في الجنة، حيث قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون ما لنا لا نرضى وقد أعطيتَنا ما لم تعط أحداً من الخلق فقال: أما أعْطِيَنَّكُم أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ٦٤.

أسخط عليكم أبداً»[١] متفق عليه من حديث أبي سعيد وعند الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن جابر نحوه ومن ههنا قال بعض الكبراء كتاب أبيات وترجمتها، كان شيخي وسندي الشيخ محمد عابد المجددي يقول لو علم الملوك والأمراء من أهل الدنيا ما للفقراء من اللذّة والراحة لحسدوهم وأغبطوهم، لا يقال هذه الحالة ينافي الخوف والخوف والرجاء في الدنيا من لوازم الإيمان، لأنا نقول هذه الحالة المترتبة على الإنس والمحبة لا ينافي في الخوف، فإن الخوف مبني على رؤية عظمة الله وكبريائه وهو لا ينفك عن المؤمن في شيء من الأحوال، بل الأنبياء الذين هم قاطعون بحسن الخاتمة ورضوان الله تعالى يرون عظمة الله وكبريائه فوق ما يراه غيرهم ويخافونه فوق ما يخافونه غيرهم، قال رسول الله ﷺ «إنّ أعلمكم وأتقاكم بالله أنا» والصحابة الذين كانوا مبشرين بالجنة بالوحي القاطع حيث قال الله تعالى ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ ونحو ذلك كانوا يخافون الله تعالى كمال الخوف فما بال قوم بشروا برضوان الله بالكشف الظني والله أعلم، قلتُ: وجاز أن يكون المراد بالحياة الطيبة حياة يثمر البركات قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن من إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[٢] رواه أحمد ومسلم في الصحيح عن صهيب وأحمد وابن حبان في الصحيح نحوه عن أنس والبيهقي بسند صحيح نحوه عن سعد، وقال مجاهد وقتادة المراد بالحياة الطيبة الحياة في الجنة ورواه عوف عن الحسن وقال لا يطيب الحياة لأحد إلا في الجنة والظاهر هو المعنى الأول ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يعني إذا أردت قراءة القرآن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ كيلا يوسوس في القراءة ولا يلقى في الأمنية، فإن شأنه أنه ما أرسل الله ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾[٣] عبرّ عن إرادة الفعل بالفعل المسبب عنها للإيجاز والتنبيه على أن من أراد العبادة فليبادر إليها بحيث لا ينفك الإرادة عن الفعل، وحكى عن النخعي وابن سيرين أن يتعوذ بعد القراءة نظراً إلى ظاهر هذه الآية ولأن الدعاء بعد العبادة أقرب إلى الإجابة والتعوذ من الشيطان مطلوب دائماً، وقد صح عن النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦٥٤٩) وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

(٣) سورة الحج، الآية: ٥٢.

أنه كان يصلي قبل القراءة وعليه انعقد الإجماع من السلف والخلف لكنه سنة عند جمهور العلماء، وذهب عطاء على كونه واجباً قبل القراءة احتجاجاً بهذه الآية فإن حقيقة الأمر للوجوب، وكونه لدفع الوسوسة في القراءة لا يصلح صارفاً عنه بل يصح شرع الوجوب معه فلا بد من حمله على الوجوب، قال ابن الهمام والله أعلم بالصارف عن الوجوب على قول الجمهور، قلتُ: الصارف عنه أنهم رأو والنبي ﷺ تَرَكَ التعوذ قبل القراءة في بعض الأحيان ولولا ذلك لما أجمعوا على جواز ترك ما لم يتركه النبي ﷺ قط، وقد روي في كثير من الأحاديث قراءته ﷺ من غير ذكر التعوذ في الصحيحين عن ابن عباس «أنه ﷺ قعد الثلُث الأخير من الليل فنظر إلى السماء فقال ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ العشر الأواخر من آل عمران حتى ختمها ثم قام فتوضأ الحديث»[1] وروى مسلم عن أنس قال: «بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت عليَّ آنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر، إنَّ شانئك هو الأبتر»[2] الحديث.

**مسألة**: اختلفوا في التعوذ قبل القراءة في الصلاة؟ فقال أبو حنيفة وأحمد يتعوذ في أول ركعة، وقال الشافعي في كل ركعة، قال الشيخ ابن حجر استحب التعوذ في كل ركعة الحسن وعطاء وابن سيرين، وقال مالك لا يتعوذ في المكتوبة، قال البيضاوي حجة الشافعي أن الحكم المرتب على شرط يتكرر بتكرره قياساً فالآية دليل على أن المصلي يستعيذ في كل ركعة، واحتج مالك بحديث أنس قال: «كنا نصلي خلف رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وكانوا يستفتحون بأم القرآن فيما يجهر به»[3] وفي لفظ أخرج في الصحيحين «كانوا يفتتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين»[4] قلنا: هذا الحديث لا ينافي التعوذ سِرًّا. ولنا أن النبي ﷺ كان يتعوذ بعد الثناء في الركعة الأولى ولم يُرْوَ عنه ﷺ التعوذ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: رفع البصر إلى السماء (٦٢١٥) وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٦٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: حجة من قال: البسملة آية من اول كل سورة سوى براءة (٤٠٠).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: حجة من قال: لا يجهر بالبسملة (٣٩٩).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الآذان، باب: ما يقول بعد التكبير (٧٤٣) وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: حجة من قال لا يجهر بالبسملة (٣٩٩).

في ركعة غير الأولى، روى ابن ماجه وابن السني عن جبير بن مطعم قال: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل في الصلاة قال: الله أكبر كبيراً ثلاثاً والحمد لله كثيراً ثلاثاً وسبحان الله بكرةً وأصيلاً ثلاثاً أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[١] وروى أحمد وابن حبان وأبو داود عنه من نفخه ونفثه وهمزه، وروى الحاكم نحوه وروى أحمد وأهل السنن والحاكم عن أبي يعيد الخدري قال «كان رسول الله ﷺ إذا قام للصلاة بالليل كبر ثم يقول «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ثم يقول لا إله إلا الله» ثلاثاً ثم يقول «الله أكبر» ثلاثاً ثم يقول «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه»[٢] وروى أحمد من حديث أبي أمامة نحوه وفيه «أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم» وفي إسناده من لم يسم، وروى ابن ماجه وابن خزيمة من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» ورواه الحاكم والبيهقي بلفظ كان إذا دخل في الصلاة وعن أنس نحوه رواه الدارقطني وفيه الحسين بن عليّ بن الأسود وفيه مقال، وفي مراسيل أبي داود عن الحسن أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. **فائدة**: قال صاحب الهداية الأولى أن يقول استعيذ بالله ليوافق القرآن ويقرب منه أعوذ بالله، قلتُ: لكن المستعمل عند الحذاق من أهل الأداء والفقهاء في لفظها أعوذ بالله من الشيطان الرجيم دون غيره لما ذكرنا من الأحاديث، وأخرج الثعلبي والواحدي عن ابن مسعود قال قرأتُ على رسول الله ﷺ فقلتُ أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم قال «قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبرئيل عن القلم عن اللوح المحفوظ» قال أبو عمرو الداني في التيسير بهذا اللفظ بعينه قرأتُ وبه آخذ ولا أعلم خلافاً بين أهل الأداء في الجهر بها عند افتتاح القرآن يعني خارج الصلاة وعند الابتداء برؤس الأجزاء وغيرها في مذهب الجماعة اتباعاً بالنص واقتداء بالسنة وكذلك الرواية عن أبي عمرو يعني ابن العلاء وروى عن حمزة أنه كان يجهر بها في أم القرآن خاصة ويخفيها بعد ذلك في سائر القرآن كذا قال خلف عنه وقال خلاد عنه أنه كان يخيّر الجهر والإخفاء جميعاً والباقون لم يأت عنهم في ذلك شيء منصوص.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿لَيۡسَ لَهُۥ﴾ أي للشيطان ﴿سُلۡطَٰنٌ﴾ أي تسلط واستيلاء ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: الاستعاذة في الصلاة (٨٠٧).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك (٧٧٣).
وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول عند افتتاح الصلاة (٢٤٠).

﴿ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فإنهم لا يطيعون أوامره بحفظ الله تعالى ولا يقبلون وساوسه إلا فيما يحتقرون على ندورو غفلة، ولذلك أمروا بالاستعاذة فذكر السلطنة بعد الأمر بالاستعاذة لئلا يتوهم منه أن له سلطاناً كذا قال البيضاوي، قلتُ: وجاز أن يكون هذه الآية في مقام التعليل للأمر بالاستعاذة، لأن معنى قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾ إنهم يلتجؤن إلى الله تعالى ويحرزون أنفسهم بعزة الله تعالى من تسلط الشيطان إذ لا حول ولا قوة إلا به تعالى وذلك معنى الاستعاذة، فالاستعاذة وهو الإلتجاء إلى الله تعالى والاعتماد عليه من صفات قلوب المؤمنين المخلصين لا ينفك عنهم لكنهم أمروا بالاستعاذة باللسان أيضاً حتى يتادى سنة الدعاء ويطابق الباطنَ الظاهرُ في التضرع والابتهال فيحصل الأمان من الشيطان على وجه الكمال ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ أي يحبونه ويطيعونه فيجعلونه مسلطاً على أنفسهم باختيارهم من غير أن يكون له عليهم سلطان يضطرهم إلى اتباعه فلا منافاة بين هذا وبين قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[1] والله أعلم ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ أي بالله تعالى أو بسبب الشيطان ﴿مُشۡرِكُونَ﴾.

﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾ يعني نسخنا يلاوة آية وأنزلنا مكانها أخرى أو نسخنا حكم آية بحكم آية أخرى ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ أنه كان مصلحة ثم صار مفسدة أو كان مفسدة ثم صار مصلحة، والجملة حال من فاعل بدلنا واسم الله على هذا ظاهر موضع المضمر واستئناف لفظاً لكنه في مقام التعليل سبباً للتبديل يعني بدلنا لأنى أعلم بما هو أصلح للخلق في وقت دون وقت، قرأ أبو عمرو وابن كثير يُنْزِلُ بالتخفيف من الأفعال والباقون بالتشديد من التفعيل ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني الكفار ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿مُفۡتَرِۢ﴾ أي متقوّل على الله قال البغوي قالت المشركون إن محمداً يسخر بأصحابه بأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً ما هو إلا مفتر يتقوّله من تلقاء نفسه، وجملة قالوا جواب إذا ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ حكمة الأحكام ولا يميزون الخطاء والصواب، أو المعنى أكثرهم ليسوا من أهل العلم والتميز ولو كانوا أهل التميز لعرفوا أن القرآن ليس مما يمكن أن يقوّله بشر ومحمد ﷺ أمين لا يصح أن يتهم بالإفتراء:

تبارك الله ما وَحْيُ بمكتسب ولا نبي على غيب بمتهم

﴿قُلۡ﴾ يا محمد ردًا لما قالوا ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ يعني جبرئيل ج وإضافة الروح إلى

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

القدس وهو الطهر بمعني الطاهر كقولهم حاتم الجود، قرأ كثير الْقُدْسِ بسكون الدال والباقون بضمها، وفي يُنَزِّلُ ونَزَّلَهُ تنبيه على أن إنزاله مدرجاً على حسب المصالح مما يقتضي التبديل ﴿مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي متلبساً بالحكمة البالغة ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ على الإيمان بأنه كلام الله فإنهم إذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية الصلاح والحكمة رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم، أو المعنى ليبلوهم بالنسخ حتى إذا قالوا هو الحق من ربنا وهو الحكمة لأن الحكيم لا يفعل إلا ما هو الحكمة حكم لهم بثبات القدم ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه وهما معطو فإن على محل ليثبت أي تثبيتاً وهداية وبشارةً وفيه تعريض بحصول الأضداد لغيرهم.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ آدمي وما هو من عند الله. قال البغوي اختلفوا في هذا البشر قال ابن عباس كان رسول الله ﷺ يعلم قيناً بمكة اسمه بلعام وكان نصرانياً أعجمي اللسان وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج فكانوا يقولون إنما يعلمه بلعام، كذا أخرج ابن جرير في مسنده بسند ضعيف عنه، وقال عكرمة كان النبي ﷺ يقرئ غلاماً لبني المغيرة يقال له يعيش وكان يقرأ الكتب فقالت قريش إنما يعلمه يعيش، وقال الفراء قال المشركون إنما يتعلم من عائيش مملوك كان لحويطب بن عبد العزى وكان قد أسلم وحسن إسلامه وكان أعجمي اللسان، وقالابن إسحاق كان رسول الله ﷺ فيما بلغني كثيراً ما يجلس عند المرْوَة إلى غلام رومي نصراني عبدٍ لبعض بني الحضرمي يقال له جبر وكان يقرأ الكتب، وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي كان لنا عبدان من أهل عين باليمن يقال لأحداهما يسار ويكني أبا فكيهة وجبرُ وكانا يصنعان السيوف بمكة وكانا يقرآن التوراة والإنجيل فربما مر بهما النبي ﷺ وهما يقرآن فيقف ويسمع، كذا أخرج ابن أبي حاتم من طريق حصين بن عبد الله ابن مسلم، قال الضحاك كان النبي ﷺ إذا آذاه الكفار يقعد إليهما فيستروح بكلامهما فقال المشركون إنما يتعلم محمد منهما فنزلت هذه الآية وقال الله تعالى تكذيباً لهم ﴿لِّسَانُ﴾ أي لغة الرجل ﴿الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ قرأ حمزة والكسائي بفتح الياء والحاء من المجرد والباقون بضم الياء وكسر الحاء من الأفعال قال في القاموس لحد إليه مال إليه كالتحد والحد مال وعدل يعني يميلون إليه أي يشيرون إليه، أو المعنى يميلون قولهم عن الصدق والاستقامة إليه ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ غير فصيح بالعربية، قال في القاموس رجل وقوم أعجم والأعجم من لا يفصح كالأعجمي والأخرس والعجمي من جنسه العجم وإن أفصح والعجم خلاف العرب، وقال بعض المحققين العجمة خلاف الإبانة والإعجام الإبهام يقال استعجمت

الدار إذا مات أهلها ولم يبق فيها عريب أي من يبين جواباً ﴿وَهَٰذَا﴾ أي القرآن ﴿لِسَانٌ﴾ لغة ﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ فصيح ذوبيان واضح، والجملتان مستأنفتان لأبطال طعنهم لا محل لهما من الإعراب تقديره من وجهين: أحدهما أن ما يسمع محمد ﷺ منه كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم والقرآن عربي يفهمونه فكيف يكون هذا ذاك، وثانيهما أن معنى القرآن كما هو معجز فلفظه أيضاً معجز فالقرآن وإن كان مطابقاً لما كان الرجل الأعجمي يقرأه من التوراة والإنجيل في المعني لكن تعبير تلك المعاني المنزلة في الكتب بعبارة مثل عبارة القرآن ليس في وسع البشر لما ظهر عجزهم بالتحدي بقوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[1] على أن تعلم العلوم الكثيرة المطوية في الكتب السماوية لا يتصور إلا بملازمة معلم فائق في تلك العلوم مدة متطاولة فكيف يتصور تعلم جميع ذلك من رجل سمع منه في بعض أوقات مروره عليه بلسان أعجمي لا يفهم معناه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا
يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ
مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا
فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي
الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ
جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لا يصدّقون إنها من عند الله ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ لا يرشدهم إلى الحق أو إلى سبيل النجاة أو إلى الجنة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ثم رد أمر الإفتراء على الكفار بعدما رد طعنهم وشبهتهم بأحسن الوجوه فقال ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لأنهم لا يخافون عقاباً حتى يردعهم عنه بخلاف المؤمنين ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ اشارة إلى الكفار أو إلى قريش ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي الكاذبون على الحقيقة لا غيرهم فإن المؤمنين حينئذٍ كلهم كانوا صدوقاً عادلين خير القرون، أو الكاملون

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

في الكذب لأن تكذيب آيات الله ورسوله المعصوم والطعن فيهما بهذه الخرافات بعدما ظهر أمره بالمعجزات أعظمُ الكذب، أو الذين عادتهم الكذب لا يصرفهم عنه دين ولا مرؤة، أو الكاذبون في قولهم إنما أنت مفتر إنما يعلمه بشر، الجملة الفعلية تدل على انحصار صدور الإفتراء عليهم والإسمية على كونها وصفاً لازماً لهم، روى البغوي بسنده عن عبد الله بن حراد قال: قلتُ: يا رسول الله «المؤمن يزني؟ قال: قد يكون ذلك، قلتُ: المؤمن يسرق؟ قال: قد يكون ذلك، قلتُ: المؤمن يكذب؟ قال: «لا قال الله ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[1] «وروى أحمد عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ «يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب»[2] ورواه البيهقي في شعب الإيمان عن سعد بن أبي وقاص، وروى مالك والبيهقي في شعب الإيمان مرسلاً أنه قيل لرسول الله ﷺ أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، فقيل له أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: نعم، فقيل له أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: لا. قلتُ: الظاهر إن المراد بالمؤمن المذكور في الأحاديث الموجودون في زمن النبي ﷺ ولأجل ذلك انعقد الإجماع على كون الصحابة كلهم صدوقاً عدولاً لا يطعن في حديث أحد منهم أو المراد به المؤمن الكامل وهو الصوفي الفاني الباقي.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ مبتدأ تضمن معنى الشرط وخبره المتضمن للجواب محذوف وهو فعليهم غضب من الله ولهم عذاب أليم دل عليه جواب مَن شَرَحَ، وجاز أن يكون بدلاً من ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ويكون ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ اعتراضاً بين البدل والمبدل منه يعني إنما يفتري من كفر إلا من أكره، وجاز أن يكون بدلاً من المبتدأ الذي هو أولئك أو من الخبر وهو الْكَاذِبُوْنَ يعني من كفر بالله هم الكاذبون أو أولئك هم من كفر بالله وجاز أن يكون منصوباً على الذم ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ قال البغوي قال ابن عباس نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر وذلك أن المشركين أخذوه وأباه وأمه سميَّة وصهيباً وبلالاً وخبيباً وسالمَاً وعذبوهم فأما سميّة فإنها رُبِطَتْ بين بعيرين ووُجِئَتْ قبلها بحربة فقُتلت وقُتل زوجها ياسر وهما أول قتيلين في الإسلام عليهما السلام، وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً على ذلك، وقال قتادة

(١) رواه ابن عبد البر في التمهيد، وابن أبي الدنيا في الصمت، قال الدارقطني: الموقوف أشبه بالصواب لكن حكمه الرفع على الصحيح لأنه لا مجال للرأي فيه. انظر كشف الخفاء (١٩٢١).

(٢) رواه أحمد وهو منقطع بين الأعمش وأبي أمامة.

انظر مجمع الزوائد في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء أن الصدق من الإيمان (٢٢٧).

أخذ بنوا المغيرة عماراً وغطوه في بئر ميمون وقالوا له كفرُ بمحمد فتابعهم على ذلك وقلبه كاره، فأخبر رسول الله ﷺ بإن عماراً كفر فقال: كلا إن عماراً مُلِئَ إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمارُ رسول الله ﷺ وهو يبكي فقال له رسول الله ﷺ ما وراءك؟ قال: شرُ يا رسول الله نلتُ منك وذكرتُ قال: كيف وجدّت قلبك؟ قال: مطمئنًا بالإيمان فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه وقال إن عادوا لك فعد لهم بما قلتَ فنزلت هذه الآية. وكذا أخرج الثعلبي والواحدي وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال أراد النبي ﷺ أن يهاجر إلى المدينة أخذ المشركون بلالاً وخبيباً وعمار بن ياسر فأما عمار فقال لهم كلمةً أعجبتهم تقيةً، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ حدثه فقال كيف كان قلبك حين قلتَ أكان منشرحاً بالذي قلتَ قال لا فأنزل الله هذه الآية، وذكر البغوي وكذا أخرج ابن أبي حاتم أنه قال مجاهد نزلت في ناس من أهل مكة آمنوا فكتب إليهم بعض أصحاب رسول الله إن هاجروا فإنا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا فخرجوا يريدون المدينة فأدركتهم قريش في الطريق ففتنوهم فكفروا كارهين، وقال البغوي قال مقاتل نزلت في جبر مولى عامر بن الحضرمي إكرهه سيده على الكفر فكفر مكرهاً ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي ساكن به لم يتغير عقيدته وفيه دليل على أن الركن اللازم للإيمان هو التصديق بالقلب، قال البغوي ثم أسلم مولى جبر وحسن أسلامه وهاجر جبر مع سيده ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي شرح وفتح صدره للكفر بالقبول وطاب نفسه واختاره ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

إعلم أن الإكراه عبارة عن حمل الغير على فعل يكرهه وذلك على نوعين أحدهما ما ينتفي به رضاه ولا يفسد اختياره كالإكراه بالضرب أو الحبس ثانيهما ما يكون ملجئاً يفسد اختياره كالإكراه بالقتل أو قطع العضو ويشترط في كلا القسمين من الإكراه قدرة المكرِه على ما يهدد به وأن يغلب على ظن المكرَه أنه يفعله به، فالقسم الأول من الإكراه غير مراد بالآية وغير مؤثر أصلاً إلا في البيع والشراء والإجارة والاستئجار والإقرار ونحو ذلك فمن أكره على بيع ماله أو على شراء سلعة أو على أن يقرّ لرجل بألف أو يؤاجر داره أو يستأجر فالمكرَه بالخيار إن شاء أمضي العقد بعد زوال الإكراه وإن شاء فسخه لأن هذه العقود تحتمل الفسخ واشترط لصحتها التراضي بقوله تعالى: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[1] وقد فات الرضاء بالإكراه فإن شاء أجاز وأن شاء فسخ فإن قبض الثمن

(١) سورة النساء، الآية: ٢٩.

طوعاً فقد أجاز البيع، والمراد بالآية هو القسم الثاني فقد أجمع العلماء على أنه من أكره على الكفر إكراهاً ملجئاً يجوز له أن يتلفظ بما أكره عليه مطمئنًا قلبه بالإيمان بهذه الآية وقصة عمار فلا يكفر بالتلفظ من غير اعتقاد ولم تَبِنْ منه امرأته، وإن أبى أن يقوله كان أفضل لقصته أبوي عمار وقد مر، وقصة خبيب وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق إنهم اختاروا القتل على الارتداد، ذكر أصحاب السير في سرية الرجيع أن خبيباً حين قتل صلى ركعتين وروى البخاري عن أبي هريرة «أنه أول من سنّ الركعتين عند القتل انتهى»[1] فلما صلى الركعتين جعلوه على الخشبة ثم وجهوه إلى المدينة وأوثقوه رباطاً ثم قالوا: ارجع عن الإسلام نُخلِّ سبيلك قال والله ما أحب أني رجعتُ عن الإسلام وإنّ لي ما في الأرض جميعاً قالوا: أفتحب أن محمداً مكانك وإنك جالس في بيتك؟ قال: لا والله ما أحب أن يشاك محمد ﷺ شوكة وأنا جالس في بيتي، فجعلوا يقولون إرْجِعْ خبيبُ، فقال لا أرجع أبداً قالوا: لئن لم ترجع لقتلناك قال: إن قتلي في الله لقليل. روى البخاري عن أبي هريرة «أن خبيباً حين قتل قال أبياتاً منها قوله :

فلستُ أبالي حين أُقْتَلُ مسلماً     على أيّ شيق كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشاء     يبارك في أوصال شلو ممزع

ذكر ابن عقبة أن زيداً وخبيباً قُتِلا في يوم واحد وأن رسول الله ﷺ سُمِعَ يوم قُتلا وهو يقول وعليكما السلام. وأخرج ابن أبي سيبة عن الحسن مرسلاً وعبد الرزاق في تفسيره عن معمر مفصلاً أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لواحد ما تقول في محمد فقال رسول الله فقال: ما تقول فيّ فقال أنت أيضاً وقال للآخر ما تقول في محمد؟ فقال: رسول الله فقال: ما تقول فيّ؟ قال: أنا أصمُّ فأعاد عليه ثلاثاً فأعاد جوابه فقتله فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أما الأول فقد أخذ برخصة الله وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له».

**مسألة**: ومن أكره على إتلاف مال مسلم وسعه أن يفعل ذلك لأن مال الغير يستباح للضرورة كما في حالة المخمصة وقد تحققت، ولصاحب المال أن يضمن المكرِه بالكسر لأن المكرَه بالفتح آلة له فيما يصلح آلة له والإتلاف من هذا القبيل.

**مسألة**: وإن أكره على قتل غيره لم يسعه أن يقدّم عليه ويجب أن يصبر حتى يقتل فإن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة،وحديث عضل والقارة وعاصم بن ثابت وخبيب وأصحابه (٤٠٨٦).

قتله كان آثماً لأن قتل المسلم لا يستباح لضرورةٍ ما فكذا لهذا الضرورة واختلف العلماء في القصاص هل هو على المكرِه أو المكرَه ولا يسع المقام للكلام فيه.

**مسألة**: وإن أكره على أن يأكل الميتة أو يشرب الخمر جاز له أن يقدم على ما أكره عليه إجماعاً، واختلفوا في أنه إن صبر ولم يأكل حتى قتل هل يجوز له ذلك أم لا؟ فقال أبو حنيفة يجب عليه أكله ولا يسعه أن يصبر كما لو أكره على أكل شيء مباح يجب عليه أكله فإن صبر وقتل أثم لأنه صار معاوناً للمكره في إتلاف نفسه بلا ضرورة وعن أبي يوسف أنه لا يأثم وهو أصح قوليَ الشافعي لأنه رخصة لا إباحة لأن الحرمة قائمة فيكون آخذاً بالعزيمة وقال أبو حنيفة حالة الاضطرار مستثناة بقوله: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾[1] وهو تكلم بالباقي بعد الثُّنْيَا فلا محرم فكان إباحة لا رخصة فصار الميتة حينئذ مباحاً كالزكية بخلاف أكل مال الغير فإنه لو صبر ولم يأكل حتى قتل كان مأجوراً إجماعاً لأن الحرمة هُناك قائمة فمن ههنا ظهر أن الإكراه لا يزيل الخطاب حتى يباح مرة ويفترض ويحرم أخرى، فلأجل ذلك قال أبو حنيفة كل تصرف ينسحب حكمه على التلفظ ولا يتوقف على الرضاء يترتب عليه حكمه إن فعل مكرهاً وهي عشرة تصرفات النكاح والطلاق والرجعة والإيلاء والفيء والظهار والعتاق والعفو عن القصاص واليمين والنذر وبه قال الشعبي والنخعي والثوري، وقال مالك والشافعي وأحمد لا يرتب الحكم على شيء من تصرفات المكرَه محتجين بحديث عائشة قالت سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق»[2] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم وابن الجوزي وأبو يعلى والبيهقي من طريق صفية بنت عثمان عن شيبة عنها صححه الحاكم وفي إسناده محمد بن عبيد المكي ضعفه أبو حاتم الرازي، وجه الاحتجاج أنه قال ابن الجوزي قال قتيبة الإغلاق الإكراه على الطلاق والعتاق وهو مِنْ أغلقتُ الباب كأنّ المكرَه أغلق حتى يفعل قال الحافظ وهو قول الخطابي وابن السيد، ويرد عليه أن في تفسير الإغلاق اختلافاً فقد قيل كما ذكر ابن الجوزي وقيل الإغلاق الجنون فإن المجنون مستور عليه كأنه أغلق عليه، وقيل الغضب وقع ذلك في سنن أبي داود وكذا فسره أحمد لكن تفسيره بالغضب غير مرضي رده ابن السيد وقال: لو كان كذلك لم يقع على أحدٍ طلاق لأن أحداً لا يُطلق حتى يغضب، وبحديث الحسن عن النبي ﷺ: «إن الله عز وجل غفر لكم عن الخطأ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٩.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في الطلاق على غلط (٢١٩٤) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: طلاق المكره والناسي (٢٠٤٦).

والنسيان وما استكرهتم عليه» رواه ابن الجوزي ولا يجوز الاحتجاج بهذا الحديث في هذه المسئلة لأنه لا يدل إلا على مغفرة ما فعله مكرهاً من المعاصي ولا يدل على عدم ترتب الأحكام الدنيوية على ما فَعَلَهُ مكرها، وقد يحتج في المسئلة بما رواه الطبراني عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»(١) وكذا روي من حديث أبي الدرداء قال الحافظ في إسنادهما ضعف وروى ابن ماجه وابن حبان والدارقطني والطبراني والبيهقي والحاكم في المستدرك من حديث الأوزاعي فقيل عنه عن عطاء عن عبيد بن عمير عن ابن عباس، وروى الوليد بن مسلم عن الأوزاعي ولم يذكر عبيد بن عمير، وللوليد اسنادان آخران روى عن محمد بن المصفى عنه عن مالك عن نافع عن ابن عمرو عن ابن لهيعة عن موسى بن داود عن عقبة بن عامر قال ابن أبي حاتم سألتُ أبي عنها فقال: هذه الأحاديث منكرة كأنها موضوعة وقال عبد الله بن أحمد سألتُ أبي عنه فأنكره جدًّا ورواه ابن ماجه من حديث أبي ذر وفيه شهر بن حوشب وفي الإسناد انقطاع أيضاً، فلو صح هذا الحديث فالجواب عنه أن الحديث ليس على ظاهره إذ لا معنى لرفع الخطاء والنسيان فإن ما وجد من الأفعال خطأً أو نسياناً فهي واقعة لا محالة فالمعنى رفع عن أمتي إثم الخطأ والنسيان ولا يجوز تقدير الحكم الذي يعم أحكام الدنيا والآخرة إذ لا عموم للمقتضى، فالمراد إما أحكام الدنيا وإما حكم الآخرة والإجماع على أن حكم الآخرة وهو رفع المؤاخذة مراد فلا يراد الآخَر معه وإلا عمم كذا قال ابن همام، واحتج ابن الجوزي أيضاً بما روى أن رجلاً على عهد عمر بن الخطاب فأقبلت امرأته فجلست على الجبل فقالت: ليطلقها ثلاثاً وإلا قطعت الجبل عليه فذكرها الله والإسلام فأبت فطلقها ثلاثاً ثم خرج إلى عمر بن الخطاب فذكر ذلك له فقال: إرجع إلى أهلك فليس هذا بطلاق.

واحتج أبو حنيفة بأحاديث منها حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة»(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه

---

(١) قال في اللآلئ: لا يوجد بهذا اللفظ، وهو عند ابن ماجه «إن الله وضع عن أمتي».
ورواه ابن عدي في الكامل «رفع الله عن هذه الأمة ثلاثاً».
انظر كشف الخفاء (١٣٩٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الطلاق واللعان، باب: ما جاء في الجد والهزل في الطلاق (١١٨٠) وأخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في الطلاق على الهزل (٢١٩٥) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: من طلق أو نكح أو راجع لاعباً (٢٠٣٩).

رأحمد والحاكم والدارقطني قال الترمذي حسن وقال الحاكم صحيح، قال ابن الجوزي فيه عطاء بن عجلان متروك الحديث قال الحافظ ابن حجر وهم ابن الجوزي حيث قال هو عطاء بن عجلان وهو متروك بل هو عطاء بن أبي رباح صرَّحَ له في روايته أبي داود والحاكم لكنه من رواية عبد الرحمن بن جبير وهو مختلف فيه قال النسائي منكر الحديث ووثقه غيره فهو على هذا حسن. فإن قيل الإكراه لا يجامع الاختيار الذي يعتبر به التصرف الشرعي بخلاف الهازل لأنه مختار في التكلم بالطلاق غير راض بحكمه فيقع طلاقه فلا وجه للاستدلال بهذا الحديث على طلاق المكرَه؟ قلنا: كذلك المكرَه مختار في التكلم اختياراً كاملاً إلا أنه غير راض بالحكم لأنه عرف الشرَّيْن فاختار أهونهما عليه غير أنه محمول على اختياره ذلك قال ابن همام لا تأثير لكونه محمولاً على اختياره في نفي الحكم يدل عليه حديث حذيفة وأبيه حين حلّفهما المشركون فقال لهما النبي ﷺ «نَفِي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم» فبيّن أن اليمين طوعاً وكرهاً سواء فعلم أن لا تأثير للإكراه في نفي الحكم المتعلق بمجرد اللفظ عن اختيار بخلاف البيع لأن حكمه يتعلق باللفظ وما يقوم مقامه مع الرضاء وهو منتف بالإكراه، ومنها حديث أبي هريرة: «كل طلاق جائز إلاطلاق المعتوه المغلوب على عقله»[1] رواه الترمذي وقال الترمذي لا نعرفه إلا من حديث عكرمة بن خالد عن أبي هريرة وإلا من رواية عطاء بن عجلان عن عكرمة بن خالد وعطاء ضعيف ذاهب الحديث، ومنها حديث صفوان بن الأصم عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رجلاً كان نائماً مع امرأته فقامت فأخذت سكيناً وجلست على صدره ووضعت السكين على حلقه وقالت له طلقني أو لأذبحنك فناشدها الله فأبت فطلقها ثلاثاً فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لا قيلولة في الطلاق» قال ابن الجوزي قال البخاري صفوان بن الأصم عن بعض أصحاب النبي ﷺ في المكرَه حديث منكر لا يتابع عليه وذكر ابن همام عن عمر أنه قال: أربع مبهمات معضلات ليس فيهن رديد النكاح والطلاق والعتاق والصدقة، قلتُ: الظاهر أن حجة أبي حنيفة راجحة ولو سلمنا التعارض فالمصير إلى القياس والقياس يقتضي وقوعها كما ذكرنا والله أعلم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الكفر بعد الإيمان أو الوعيد ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ أي بسبب أنهم آثروا ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى﴾ الحياة ﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ وبسبب أن الله ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في علمه إلى ما يوجب الثبات على الإيمان ولا يعصمهم عن الزيغ، ذكر الله سبحانه

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الطلاق واللعان، باب: ما جاء في طلاق المعتوه (١١٨٨).

لأجل كفرهم وعذابهم سببين سبب ظاهري وهو اختيارهم الكفر وعدم التدبير في الآيات وسبب حقيقي وهو عدم إرادة الله تعالى فيهم الهداية فالآية دليل على أن أفعال العباد بين الجبر والقدر ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلا يدركون الحق حقًا ﴿وَسَمْعِهِمْ﴾ فلا يسمعون الحق سماع قبول ﴿وَأَبْصَارِهِمْ﴾ فلا يبصرون الآيات نظر الاعتبار ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة حيث غفلوا عن صانعهم ولم يغفل عنه البهائم والجمادات ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ حيث ضيعوا أعمارهم وصرفوها فيما أمضى بهم إلى العذاب المخلد ولم يكتسبوا شيئاً ينجيهم من العذاب ويفضي بهم إلى الفلاح بخلاف عصاة المؤمنين فإنهم وإن ضيعوا أكثر أعمارهم في الشهوات والمعاصي لكنهم تشبثوا بالتوحيد حتى ينجيهم من عذاب الله إلى الجنة.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ قرأ العامة بضم الفاء وكسر التاء على البناء للمفعول أي منعوا من الإسلام وعذبوا، وثم لتباعد حال هؤلاء عن حال أولئك، أخرج ابن سعد في الطبقات عن عمر بن الحاكم قال: كان عمار بن ياسر يعذب حتى لا يدري ما يقول وكان صهيب يعذب حتى لا يدري ما يقول وكان أبو فكيهة يعذب حتى لا يدري ما يقول وبلال وعمار بن فهيرة وقوم من المسلمين وفيهم نزلت هذه الآية، وقال البغوي نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل من الرضاعة وفي أبي جندل بن سهيل بن عمرو والوليد بن الوليد بن المغيرة وسلمة بن هشام وعبيد الله بن أسيد الثقفي فتنهم المشركون فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم وهاجروا إلى المدينة ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ مع النبي ﷺ الكفارَ ﴿وَصَبَرُوا﴾ على الإيمان والطاعات والجهاد والمشاق وعن المعاصي وقال الحسن وعكرمة نزلت الآية في عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان يكتب للنبي ﷺ فاستزله الشيطان فلحق بالكفار فأمر النبي ﷺ بقتله يوم فتح مكة فاستجار له عثمان وكان أخاه لأمه فأجاره رسول الله ﷺ ثم إنه أسلم وحسن إسلامه فأنزل الله هذه الآية، وقرأ ابن عامر الذين هاجروا من بعد ما فتنوا بفتح الفاء والتاء على البناء للفاعل يعني هاجروا بعدما كفروا أو عذبوا المؤمنين نزلت في عامر الحضرمي أكره مولاه جبر أو عذبه حتى ارتد ثم أسلم عامر وحسن إسلامه، وأسلم جبر حيث كان ارتداده مكرهاً وهاجروا جميعاً ثم جاهدوا الكفار مع النبي ﷺ وصبروا ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ أي بعد الهجرة والجهاد والصبر ﴿لَغَفُورٌ﴾ لما فعلوا قبل ذلك ﴿رَّحِيمٌ﴾ ينعم عليهم في الدنيا والآخرة على ما صنعوا بعد ذلك خبر إنَّ الأولى محذوف دل عليه خبر إنّ الثانية أو يقال إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا تأكيد لفظي لما سبق.

﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ منصوب برحيم أو باذكر ﴿تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ يعني تسعى كل نفس في خلاصها لا يهمها شأن غيرها فالكافر يقول: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾[1] ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾[2] ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[3] ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾[4] والمؤمن يقول رب أسئلك نفسي نفسي ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[5] أخرج ابن جرير في تفسيره عن معاذ قال: سئل رسول الله ﷺ من أين يجاء بجهنم يوم القيامة؟ قال: «يجاء بها من الأرض السابعة لها ألف زمام لكل زمام سبعون ألف ملَك تسبح فإذا كانت من العباد مسيرة ألف سنة زفرت زفرةً فلا يبقى ملَك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثى على ركبتيه يقول: رب نفسي نفسي» وقال البغوي وروي أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار خوِّفنا قال: يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده لو وافيتَ القيامة بمثل عمل سبعين نبياً لأَتَتْ عليك تارات وأنت لا يهمك إلا نفسك وإن لجهنم زفرة ما يبقى ملَك مقرب ولا نبي

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦٧.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

(٤) سورة السجدة، الآية: ١٢.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٥٠.

منتخب إلا وقع جاثياً على ركبتيه حتى إبراهيم خليل الرحمن يقول: يا رب لا أسئلك إلا نفسي وتصديق ذلك في الذي أنزل الله عليكم ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ وروى عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى يخاصم الروح الجسد فيقول الروح يا رب لم يكن لي يدُ أبطش بها ولا رجلُ أمشي بها ولا عينُ أبصرُ بها ويقول الجسد خلقتني كالخشب ليس لي يدُ أبطشُ بها ولا رجلُ أمشي بها ولا عينُ أبصرُ بها فجاء هذا كشعاع النور فيه نَطَقَ لساني وأبْصَرَتْ عيني ومَشَتْ رجلي قال: فضرب الله لهما مثل أعمى ومَقْعَدٍ دخلاَ حائطاً فيه ثمار فالأعمى لا يبصر الثمر والمقعد لا يناله فحمل الأعمى المقعد فأصابا من الثمر فعليهما العذاب، أضيف النفس إلى النفس في قوله تعالى في نفسها لأنه يقال لعين الشيء وذواتِه نفسه ولنقيضه غيره كأنه قال يوم تجادل كل أحد عن ذاته ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي كل أحد جزاء ﴿مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقصون أجورهم.

﴿وضرب ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ أي جعل الله قرية كما وصف مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكروا فأنزل به نقمته، فيجوز أنه تعالى أراد بها قرية مقدرة على هذه الصفة أو قرية من قرى الأولين قد كان بهذه الصفة فضربها مثلاً لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها، وقال البغوي أراد بالقرية مكة فعلى هذ معنى الآية جعل الله تعالى مكة بحال يضرب بها مثلاً لغيرها فإنها ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ لا يهاج أهلها ولا يغادر عليها ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ قارة بأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال لضيق أو خوف كما يحتاج إليه سائر العرب ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ أقواتها ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من نواحيها من البحر والبر ﴿فَكَفَرَتْ﴾ أهلها ﴿بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي بنعمه جمع نعمة على ترك الاعتداء بالتاء كدرع وأدرع أو جمع نعم كبؤس وأبْؤُس ﴿فَأَذَٰقَهَا﴾ أي أذاق أهلها ﴿ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ استعار الذوق لإدراك أثر الضرر واللباس لما اشتمله من أثر الجوع والخوف وهو الهزال وتغير اللون وأوقع الإذاقة عليه بالنظر إلى المستعار له ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ من الكفر والكفران، قال البغوي إبتلى الله أهل مكة بالجوع سبع سنين وقطعت العرب عنهم المَيرة بأمر رسول الله ﷺ حتى جهدوا فأكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب الميتة والعلهز وهو الوبر يعالج بالدم حتى كان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع، ثم إن رؤساء مكة كلموا رسول الله ﷺ وقالوا هذا عاديتَ الرجال فما بال النساء والصبيان فأذن رسول الله ﷺ للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعد مشركون، قلتُ: السورة مكية وإنما أذاق الله أهل مكة الجوعَ إذا قحطوا سبع سنين والخوفَ من سرايا رسول الله ﷺ بعد الهجرة فإما

أن يقال بنزول هذه الآيات بعد الهجرة، وإما أن يقال بالتوجيه الأول يعني أن المراد قرية غير مكة ضربها الله مثلاً لأهل مكة إنذاراً لأهلها من مثل عاقبتها فلما لم يعتبروا به ولم يسمعوا ما ضرب الله لهم من المثل عوقبوا بمثل ما عوقب به أولئك ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني محمد ﷺ والضمير لأهل مكة عاد إلى ذكرهم بعدما ذكر مثلهم ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي حال التيامهم بالظلم والمراد بالعذاب ما أصابهم من الجدب الشديد أو وقعة بدر وهذه الآية أيضاً تدل على كون نزولها بعد الهجرة، ويمكن أن يقال أن قوله ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ في محل النصب على الحال من فاعل كفرت أو مستأنفة لبيان حال تلك القرية التي ضرب بها المثل والمراد بالرسول الرسول المبعوث إلى تلك القرية.

﴿فَكُلُوا۟﴾ أيها المؤمنون الذين أنجاهم الله من الكفر وهداهم للإيمان بمحمد ﷺ ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ يعني نبوة محمد ﷺ وما أنعم عليهم في الدنيا ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ دون غيره، أمر الله سبحانه بأكل ما أحل الله سبحانه وشكر ما أنعم الله عليهم بعدما زجر وهدَّد على الكفر وذكر من التمثيل والعذاب الذي حَلَّ بكفار قومهم صدًّا لهم عن صنيع الجاهلية ومذاهبها الفاسدة وقيل: المخاطبون بهذا الكلام هُمُ المخاطبون بما سبق أمرهم بأكل ما أحل لهم وشكر ما أنعم عليهم بعدما زجرهم عن الكفر وهدَّدهم عليه والمعنى إن كنتم إياه تعبدون في زعمكم كانوا يزعمون أنا نعبد الله وحده والأصنام شفعاؤنا عند الله ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾ أي ألسنة قومكم من الكفار ﴿ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ كما ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾[1] الآية، وقالوا بتحريم البحائر والسوائب ونحوها والحصر المستفاد من سياق الكلام وتصدير الجملة بإنما حصر إضافي بالنسبة إلى ما قالت الكفار بتحريمها فلا مرد لتحريم ما ثبت حرمتها بالأحاديث الصحيحة وقد بسطنا الكلام فيها في سورة المائدة والله أعلم. الكذب منصوب بلا تقولوا أي لا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل أو الحرمة على خلاف ما هي عليه من غير استناد ذلك الوصف إلى علة موجبة للحل أو الحرمة من الله تعالى، وقوله ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ بدل من الكذب أو متعلق بتصف وما مصدرية أي لا تقولوا هذا حلال وهذا

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٩.

حرام لوصف ألسنتكم الكذب أي لا تحلو أو لا تحرموا بمجرد قول ينطق به ألسنتكم من غير دليل ووصف الألسنة بالكذب مبالغةً في وصف كلامهم بالكذب كأنّ حقيقة الكذب كانت مجهولة وألسنتهم تصفها وتعرفها بكلامهم ولذلك عد من فصيح الكلام كقولهم وجهها يصف الجمال وعينها تصف السحر ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أن الله حرم لهذا واللام لتعليل لا يتضمن الغرض ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي ما هم فيه متاع أي منفعة قليلة تنقطع عن قريب يفترون لأجله أو مبتدأ خبره محذوف يعني لهم متاع قليل في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة لأجل افترائهم.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ هذا في سورة الأنعام بقولنا: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾[1] وقوله من قبل متعلق بقصصناأو بحرمنا ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بتحريم بعض الطيبات ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ببغيهم فعوقبوا بتحريمها فيه تنبيه على أن التحريم قد يكون للمضرة في الفعل والمصلحة في الترك وقد يكون للعقوبة ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي بسببها أو متلبسين بها ليعم الجهل بالله وبعقابه وعدم التدبر في العواقب لغلبة الشهوة والسوء يعم الكفر والمعاصي ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟﴾ العمل ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذلك السوء ﴿رَّحِيمٌ﴾ يثيب على الإنابة.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٦.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ قال في القاموس الأمة بالضم الرجل الجامع للخير والإمام ومن هو على الحق ومخالف لسائر الأديان والنشاطُ والطاعةُ والعالمُ وغيرُ ذلك من المعاني ذكرتُ منها ما يناسب المقام، وكان إبراهيم عليه السلام رجلاً جامعاً لفضائل لا تكاد توجد في أشخاص كثيرة، وجعله الله إماماً للناس وكان هو على الحق مؤمناً وحده مخالفاً لسائر الأديان إذ كان حينئذ سائر الناس كفاراً، وكان متصفاً بالنشاط والطاعة فكان نشاطاً وطاعةً على طريقة زيد عدل وكان عالماً بالله وأحكامه، قال ابن مسعود كان معلماً للخير يأتم به أهل الدنيا، فهو فُعْلَةٌ بمعنى المفعول كالرحبة مِنْ أَمَّه إذا قصده، وقال مجاهد كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ أي مطيعاً لله قائماً بأوامره ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً من الباطل وقيل: مستقيماً على دين الإسلام وقيل: مخلصاً ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ رد لما زعمت قريش إنهم على دين إبراهيم ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ ذكر بلفظ القلة للتنبيه على أنه لم يترك الشكر على القليل من النعم فكيف على الكثير ﴿اجْتَبَاهُ﴾ الله ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى دين الإسلام ودعوة الخلق إلى الله ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يعني الرسالة والخلة قال المجدد المراد بها الخلة فإن كل أحد يظهر على خليله كل سر له بمحبه أو محبوبه، ولأجل ذلك طلب رسول الله ﷺ صلاة مثل الصلاة عليه فقال اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، ولمّا كان رسول الله ﷺ مرتقياً إلى أعلى درجات المحبوبية الصرفة لم يتركه المحبوبيةُ أن يستقر في مقام الخلة وإن كانت في الطريق لكونها أسفل وأحط مرتبة من المحبوبية الصرفة ولكن أراد رسول الله ﷺ أن يعطيه الله تعالى استقرار ذلك المقام علاوة على مقامه، ولمّا لم يتصور ذلك لما ذكرنا من المحبوبية أعطاه الله ذلك المقام بأن أعطى لفرد من أفراد أمته بطفيل اتباعه وهو المجدد للألف الثاني الشيخ أحمد السر هندي قد سنا الله تعالى بسره، وذلك أن كل كمال للتابع فهو كمال لمتبوعه لأنه كالجزء من كماله وحاصل بمتابعته فالله سبحانه أجاب دعوته ﷺ بعد ألف سنة من هجرته حتى تم دولته وسلطانه كما يتم دولة السلاطين بفتح بعض أمرائه القلاع المغلقة بسطوته وقهر مانه صلى الله تعالى عليه وآله وأتباعه كما صلى على إبراهيم وآله وأتباعه، وقيل: هي اللسان الصدق والثناء الحسن فإن جميع أهل الأديان يثنون عليه، وقال مقاتل بن حبان يعني الصلاة عليه في قول هذه الأمة اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وقيل أولاداً أبراراً على الكبر ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي من الأنبياء المعصومين فإن كمال الصلاح بالعصمة ومقتضى العصمة في الآخرة بقاء ثواب كل حسنة بلا احتمال حبط شيء منها وذلك مختص بالمعصومين فإن من عمل سيئة صغيرة أو

كبيرة يحتمل ذهاب بعض حسناته في مقابلة تلك السيئة في الميزان إن لم يتداركه رحمة الله ومغفرته، كأنَّ هذه الآية بيان لاستجابة دعوته حيث قال أَلْحِقْنِي بالصَّالِحِينَ.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ في التوحيد والدعوة إلى الله بالرفق وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى والمجادلة مع كل أحد على حسب فهمه وفي التوجه إلى قبلته في الصلاة والتشرع بشرائع دينه ولهذه الجملة من تتمة ما أنعم الله على إبراهيم على قنوته وشكره على ما أنعم الله عليه، وفي كلمة ثم تعظيم لمنزلة نبينا ﷺ وإجلال محله والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة إتباع رسولنا ملته ﷺ.
**فائدة**: أمر الله تعالى رسولنا الله ﷺ بإتباع ملة إبراهيم عليه السلام لأن نبينا ﷺ كان شائقاً لمرتبة الخلة وكان كثير المحبة به عليه السلام يدل عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾[1] قال البغوي كان النبي ﷺ مأموراً بشريعة إبراهيم عليه السلام إلا ما نسخ في شريعته وما لم ينسخ صار شرعاً له ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كرر هذا ردًا على زعم اليهود والنصارى وأهل مكة إنهم على دينه.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ يعني إنما جعل تعظيم السبت وتحريمه والتخلي فيه للعبادة مفروضةً ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ يعني خالفوا نبيهم، قال الكلبي أمرهم موسى عليه السلام بالجمعة وقال تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوماً فأعبدوه يوم الجمعة ولا تعملوا فيه لصنعتكم وستة أيام لصناعتكم، قالوا لا نريد إلا اليوم الذي فرغ الله فيه من الخلق يوم السبت، فجعل الله ذلك اليوم عليهم وشدد عليهم، ثم جاءهم عيسى عليه السلام بيوم الجمعة فقالوا لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا فاتخذوا الأحد، فأعطى الله الجمعة هذه الأمة فقبلوها وبورك لهم فيها، روى الشيخان في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، ثم هذا يومهم الله فرض عليهم يعني الجمعة فاختلفوا فيه فهدانا له والناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد»[2] وروى البغوي هذا الحديث وزاد في أخره قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ وفي رواية لمسلم عنه وعن حذيفة نحوه وقالا في آخر الحديث «نحن الآخرون من أهل الدنيا الأولون يوم

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: فرض الجمعة (٨٣٦) وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٨٥٥).

القيامة المقضى لهم قبل: الخلائق» وقيل معنى الآية ما فرض الله تعظيم السبت وتحريمه إلا على الذين اختلفوا فيه يعني اليهود فقال قوم هو أعظم الأيام لأن الله فرغ من خلق الأشياء يوم الجمعة ثم سبت يوم السبت، وقال قوم بل أعظم الأيام يوم الأحد لأن الله ابتدأ فيه خلق الأشياء فاختاروا تعظيم غير ما فرض عليهم، وقد افترض الله عليهم تعظيم يوم الجمعة، وقيل معنى الآية إنما جعل السبت لعنة ومسخاً على الذين اختلفوا فيه، قال قتادة هم اليهود استحله بعضهم يعني اصطادوا فيه السمك وحرّمه بعضهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمجازاة على الاختلاف فيجازي كل فريق بما يستحقه.

﴿ادْعُ﴾ الناس يا محمد ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي إلى الإسلام ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ يعني بالقرآن الذي هو محكم المقالات لا يتطرق إليه الطعن والمعارضة وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهات وهو الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب وقيل: الموعظة الحسنة هي القول اللين الرقيق من غير غلظة ولا تعسف ﴿وَجَادِلْهُم﴾ أي خاصِم الناس وناظِرْهم ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالخصومة التي هي أحسن الخصومات وهي المناظرة على وجهٍ لا يتطرق إليه طغيان النفس ولا وسواس الشيطان بل يكون خالصاً لوجه الله وإعلاء كلمته ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ يعني إنما عليك البلاغ والدعوة وإما حصول الهداية والمجازاة عليها وعلى الضلالة فلا إليك بل الله أعلم بالضالين والمهتدين وهو المجازي لهم والله أعلم.

روى الحاكم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: فقد رسول الله ﷺ حمزة حين فاء الناس من القتال يوم أحد فقال رجل رأيتُه عند تلك الصخرة وهو يقول: أنا أسد الله وأسد رسوله اللهم أبْرَأُ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني أبا سفيان وأصحابه - وأعتذرُ إليك مما صنع هؤلاء بانهزامهم، فجاء رسول الله ﷺ نحوه فلما رأى جثته بكى فلما رأى ما مثل به شهق ثم قال ألاَ كَفَنٌ فقام رجل من الأنصار فرمى بثوبه عليه ثم قام أخوه فرمى بثوبه عليه فقال يا جابر هذا الثوب لأبيك وهذا العمى، وقال ﷺ: «رحمة الله عليك فإنك كنتَ كما عَلمْتُك فعولاً للخيرات وصولاً للرحم، لولا أن تحزن صفية وفي لفظ نساؤنا وفي لفظ لو لا حزن ما بعدك عليك وتكون سنة من بعدك أتركتُك حتى تحشر في بطون السباع وحواصل الطير» ثم قال «أبشروا جاءني جبرئيل فأخبرني أن حمزة مكتوب في أهل السموات السبع حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله» وقال «لأن ظفرني الله تعالى على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بسبعين منهم مكانك»، فلمّا رأى المسلمون

حُزْنَ رسول الله ﷺ وغَيْظَه على من فعل بعمه ما فعل قالوا والله لئن ظفرنا الله تعالى يوماً بهم من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب» قال أبو هريرة كما رواه ابن سعد والبزار وابن المنذر والبيهقي في الدلائل والحاكم فنزل جبرئيل والنبي ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ العقوبة والعقاب هو جزاء السيئة وإنما سَمى الفعل الأول عقوبةً وإنما هي الثانية لازدواج الكلام كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[1] مع أن الثانية ليست بسيئة والمعنى لا تجاوزوا في جزاء السيئة عن المماثلة ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ عن الانتقام والمعاقبة ﴿لَهُوَ﴾ أي الصبر ﴿خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ من الانتقام وضع المظهر موضع المضمر والتقدير فهو خير لكم ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد، حث الله سبحانه على العفو تعريضاً بقوله ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ وتصريحاً على الوجه الآكد بقوله ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ الآية.

ثم صرح بالعفو لرسول الله ﷺ لأنه أولى الناس به لوفود علمه ووثوقه عليه فقال ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على أذى الكفار ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي بتوفيقه وإعانته ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الكافرين أو على المؤمنين وما فعل بهم ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ﴾ أي ضيق صدر ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي الكفار بالمؤمنين يعني لا تهتم بمكرهم فأنا ناصرك عليهم وعلينا جزاؤهم، قرأ ابن كثير ههنا وفي النمل ضِيقٍ بكسر الضاد والباقون بالفتح في الموضعين وهما لغتان كالقول والقِيل، وقال أبو عمرو الضَيْقُ بالفتح الغم وبالكسر الشدة وقال أبو عبيدة الضِيْقُ بالكسر قلة في المعاش والمساكر فأما ما كان في القلب والصدر فإنه بالفتح وهذان القولان يأبى عنهما كتاب الله فإن القرائتين متواترتان والمراد إنما هو الغم فالصحيح ما قالوا إنهما لغتان بمعني، وقال أبو فتيبة الضَيْقُ بالفتح تخفيف ضَيِّقٍ مثل هَيْنٍ وهَيِّنٍ ولَيْنٍ ولَيِّنٍ فعلى هذا هو صفة كأنه قال فلا تكن في أمر ضَيِّقٍ من مكرهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ المعاصي ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم أو مع الذين اتقوا الله بتعظيم أمره وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ بالشفقة على خلقه، أو مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا العدوان في المعاقبة وَٱلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ إلى الناس بالعفو فالله معهم بالولاية والفضل والعون والنصر معية ذاتية لا كيف لها، قال أبو هريرة في الحديث المذكور الذي رواه ابن سعد وغيره «فكفَّر النبي ﷺ عن يمينه وأمسك عن الذي أراد وصبر» يعني لما نزلت هذه الآيات، وروى ابن المنذر والطبراني والبيهقي عن ابن عباس نحو ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنهم في

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

شأن نزول الآية، وقد ذكرنا في صدر السورة رواية ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء في نزول الآية نحوه، وروى الترمذي وحسنه وعبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند والنسائي وابن المنذر وابن خزيمة وابن حبان والضياء في صحيحيهما عن أبيّ بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم، فقالت الأنصار لأن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لَنُرْبِيَنَّ عليهم، فلما كان فتح مكة أنزل الله تعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ فقال رسول الله ﷺ نصبر ولا نعاقب كفوا عن القوم إلا أربعة، وقال البغوي نزلت الآية في شهداء أحد وذلك أن المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أحد من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين إلا مثل به، غير حنظلة بن الراهب غسيل الملائكة فإن أباه أبا عامر الراهب، قلتُ: الذي سماه رسول الله ﷺ أبا عامر الفاسق كان مع أبي سفيان فتركوا حنظلة لذلك، فقال المسلمون حين رأوا ذلك لأن أظهرنا الله عليهم لنزيدن على صنيعهم ولنمثلنّ بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب بأحد، فوقف رسول الله ﷺ على عمه حمزة وقد جدعوا أنفه وأذنه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه، وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم اشترطتها لتأكلها فلم تلبث في بطنها حتى رمت بها، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: أما أنها لو أكلتها لم تدخل النار أبداً، حمزة أكرم على الله من أن يدخل شيئاً من جسده النار، فلما نظر رسول الله ﷺ إلى عمه حمزة نظر إلى شيء لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه فقال ﷺ رحمة الله عليك أبا السائب فإنك ما علمتُ ما كنتَ إلا فعالاً للخيرات وصولاً للرحم ولولا حزن من بعدك عليك لسَرَّني أن أدعَك حتى تحشر من أفواج شتى، أما والله لأن ظفرني الله بهم لأمثلن منهم بسبعين مكانك فأنزل الله تعالى هذه الآيات فقال ﷺ بل نصبر وأمسكَ عما أراد وكفّر عن يمينه.

**فائدة:** حديث أبيّ بن كعب يدل على تأخر نزول الآيات إلى الفتح وفي حديث أبي هريرة وابن عباس وعطاء بن يسار رضي الله عنهم نزولها بأحد، وجمع ابن الحصار بأنها نزلت أولاً بمكة ثم ثانياً بأحد ثم ثالثاً بعد الفتح تذكيراً من الله لعباده، قال البغوي قال ابن عباس والضحاك رضي الله عنهم كان حكم هذه الآية قبل نزول براءة حين أمِرَ النبي ﷺ بقتال من قاتله ومُنِعَ من الابتداء بالقتال فلما أعز الله الإسلام وأهلَه ونزلت براءة وأمروا بالجهاد نسخت هذه الآية، وقال النخعي والثوري والسديُ ومجاهد وابن سيرين رحمهم الله الآية محكمة نزلت فيمن ظلم بظلامة فلا يحل له أن ينال من ظالمه أكثر مما نال الظالم منه

أمر بالجزاء أو العفو ومنع من الاعتداء **مسألة**: المثلة لا يجوز اجماعاً روى ابن إسحاق عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: ما قام رسول الله ﷺ في مقام قط ففارقه حتى أمر بالصدقة ونهى عن المثلة، وقد روى في النهي عن المثلة أحاديث كثيرة والله أعلم.

تم تفسيره سورة النحل من التفسير المظهري ويتلوه إن شاء الله تعالى تفسير سورة بني إسرائيل ثاني رجب من السنة الثانية بعد المائتين وألف سنة ١٢٠٢ من الهجرة والحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وأصحابه أجمعين.

# سورة بَنِي إسرائيل

## مائة وإحدى عشرة آية مكّيّة إلا ﴿وإنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى آخر ثمان آياتٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١﴾

﴿سُبْحَٰنَ﴾ اسم بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه وقد يستعمل علماً له فيقطع عن الإضافة وبمنع الصرف وانتصابه بفعل متروك إظهاره تقديره سبحوا الله سبحان أو أسبح الله سبحانه، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسده ودل على التنزيه البليغ وتصديرُ الكلام به للتنزيه عن العجز عما ذكر بعد ويكون بمعنى التعجب ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾ يعني سيّر ليلاً ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ منصوب على الظرف وفائدة ذكره مع أن الإسراء لا يكون إلا بالليل الدلالة بتنكيره على تقليل مدة الإسراء ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ كما في الصحيحين عن أنس عن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا في المسجد الحرام بين النائم واليقظان إذ أتاني جبرئيل بالبراق، وفي لفظ بينما أنا في الحطيم مضطجعاً إذ أتاني آتٍ[1] الحديث» وقد ذكرناه في تفسير سورة النجم، وقيل: كان الإسراء من دار أم هانئ فالمراد بالمسجد الحرام حينئذ الحرم سماه المسجد الحرام لأن كله مسجد، أو لأنه محيط به ليطابق المبدأ المنتهي، ويدل على كون النبي ﷺ في البيت دون المسجد ما في الصحيحين عن أنس عن أبي ذر يحدث عن النبي ﷺ فقال: «ففرج عني سقف بيتي وأنا بمكة»[2] الحديث وذكرناه أيضاً في سورة النجم، وما رواه أبو يعلى في

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٧) وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: كيف فرضت الصلوات في الإسراء (٣٤٩) وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦٣).

مسنده والطبراني في الكبير من حديث أم هانئ أنه كان في بيت أم هاني فأسرى به فرجع من ليلته وقص القصة عليها، وقال: مثل لي النبيون فصليتُ بهم، ثم خرج إلى المسجد وأخبرته قريشاً فتعجبوا منه استحالة، وارتد ناس ممن آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر فقال إن كان قال: ذلك فقد صدق قالوا: أتصدقه على ذلك؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك وسمى بذلك الصديق، واستنعته طائفة سافروا إلى بيت المقدس فحلى له فطفق ينظر إليه وينعته لهم فقالوا: ما النعت فقد أصاب فقالوا: أخبرنا عن عيرنا فأخبرهم بعدد جَمالها وأموالها وقال يقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جملاً أورق، فخرجوا يشتدون إلى الثنية فصادفوا العير كما أخبرهم ثم لم يؤمنوا وقالوا مَا هذَا إلاَّ سِحْرُ مُّبِيْنُ، وقلتُ ويمكن الجمع بين الحديثين بتعدد المعراج مرة من الحطيم ومرةً من بيت أم هانئ، قال البغوي قال مقاتل كانت ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة يقال كان في رجب وقيل: في شهر رمضان.

﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ﴾ يعني البيت المقدس سمي أقصى لبعده من المسجد الحرام ولم يكن حينئذ وراءه مسجد، وتعجب قريش لبعده واستحالوه قال البيضاوي والاستحالة مدفوعة بما ثبت في الهندسة أن ما بين طرفي قرص الشمس ضعف ما بين طرفي كرة الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، ثم إن طرفها الأسفل يصل موضع طرفها الأعلى في الأقل من ثانية، وقد برهن في الكلام أن الأجسام متساوية في قبول الإعراض وأن الله تعالى قادر على كل شيء من الممكنات فيَقْدر أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة أو أسرع منها في بدن النبي ﷺ أو فيما يحمله، والتعجب من لوازم المعجزات ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ بالأنهار والأشجار والثمار وقال مجاهد سماه مباركاً لأنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة والوحي ومنه يحشر الناس يوم القيامة ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ يعني عبده محمد ﷺ ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي بعض عجائب قدرتنا كذهابه في برهة من الليل إلى مسيرة أربعين ليلة ومن هُناك إلى السماوات وتمثيل الأنبياء له وما رأى في تلك الليلة من آيات ربه الكبرى، وصرف الكلام من الغيبة إلى التكلم لتعظيم تلك الآيات ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال النبي ﷺ والمجيب لدعائه ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ لأفعاله وأحواله الحفيظ له في ظلمة الليل.

قال البغوي وروي عن عائشة أنها كانت تقول: ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن الله أسرى بروحه، يعني في المنام ويدل عليه ما رواه البخاري من حديث أنس بن مالك يقول «ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاء ثلاثة نفر قبل أو يوحى إليه وهو نائِمُ في المسجد الحرام فقال أولهم أيّهم هو؟ فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم

خذوا خيرهم، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وينام عينه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء ينام أعينهم ولا ينام قلوبهم، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند زمزم فشق جبرئيل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده، وساق حديث المعراج بقصته، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان قال هذا النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر، قال ما هذا يا جبرئيل؟ قال: هذا الكوثر الذي خَبأَ لك ربك وساق الحديث وقال ثم عرج بي إلى السماء السابعة وقال: قال موسى رب لم أظن أن يرفع عليّ أحد، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله، حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه ما أوحى خمسين صلاة كل يوم وليلة فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال يا محمد والله لقد راودتُ بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا عنه وتركوه، وأمتك أضعف أجساداً أو قلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبرئيل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبرئيل، فرفعه عند الخامسة فقال: يا رب إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم واستماعهم وأبدانهم فخفف عنا، فقال: الجبار يا محمد فقال لبيك وسعديك، قال: إنه لا يبدل القول لديَّ كما فرضتُ عليك في أم الكتاب فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك، فقال موسى إرجع إلى ربك فاسأله فليخفف عنك أيضاً قال رسول الله ﷺ والله قد استحييتُ من ربي فيما اختلفتُ عليه، قال: فاهبط بسم الله فاستيقظ وهو في المسجد الحرام»[(١)] وروى مسلم هذا الحديث مختصراً فإن قوله فاستيقظ وهو في المسجد الحرام يدل على كونه رؤيا في المنام، والأكثرون على أن الله تعالى أسرى بعبده محمد ﷺ ليلة المعراج بجسده في اليقظة وتواترت الأخبار الصحيحة بذلك وعليه انعقد الإجماع، ولو كان المعراج في المنام لما أنكر عليه قريش إذ لا استبعاد في الرؤيا، قال البغوي قال شيخنا الإمام قد قال بعض أهل الحديث ما وجدنا لمحمد بن إسماعيل ولمسلم في كتابيهما شيئاً لا يحتمل مخرجاً إلا هذا الحديث المذكور الذي يدل على كون الإسراء في المنام بروحه وأحَال الآفة

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قوله تعالى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ (٧٥١٧).

وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦٢).

فيه إلى شريك بن عبد الله وأنكر أيضاً على أن ذلك قبل أن يوحى إليه، وقد اتفق أهل العلم على أن المعراج كان بعد الوحي بنحو من إثني عشر سنة قبل الهجرة بسنة، ثم قال البغوي قال شيخنا الإمام هذا الاعتراض عندي لا يصح لأن هذا كان رؤيا في المنام أراه الله تعالى قبل الوحي، ثم عرج به في اليقظة بعد الوحي قبل الهجرة بسنة تحقيقاً لرؤياه من قبل، كما أنه رأى فتح مكة في المنام عام الحديبية سنة ست من الهجرة ثم كان تحقُّقه سنة ثمان والله أعلم.

قال البغوي روي أنه لما رجع رسول الله ﷺ ليلة أسرى به فكان بذي طوًى قال: يا جبرئيل إن قومي لا يصدقوني قال: يصدقك أبو بكر وهو الصديق، قال البغوي قال ابن عباس وعائشة عن رسول الله ﷺ «لما كان ليلة أسري بي فأصبحت بمكة قطعتُ بأمري وعرفتُ أن الناس مكذبي» فروي أنه ﷺ قعد معتزلاً محزوناً، فمر به أبو جهل فجلس إليه فقال له كالمستهزئ هل استفدت من شيء؟ قال: نعم قال: إني أسري بي الليلة قال: إلى أين؟ قال إلى بيت المقدس قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا قال: نعم، فلم ير أبو جهل أن ينكر ذلك مخافة أن يحجده الحديث ثم قال أتحدث قومك بما حدثتني؟ قال: نعم، فقال أبو جهل يا معشر بني كعب بن لؤي هلم، قال: فانتقضت المجالس فجاءوا حتى جلسوا إليهما، قال: فحدث قومك ما حدثتني قال: نعم إني أسري بي الليلة قالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس قالوا: ثم أصبحتَ بين ظهرانينا؟ قال: نعم، قال: فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً، وارتد ناس ممن كان آمن به وصدقه، وسعى رجل من المشركين إلى أبي بكر فقال: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال أو قد قال ذلك؟ قالوا: نعم قال: إن كان قال ذلك لصدق، قالوا: وتصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس في ليلة وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة وروحة، فلذلك سمى أبو بكر الصديق قال: وفي القوم من قد أتى المسجد الأقصى فقالوا هل تستطيع أن تنعتَ لنا المسجد؟ قال: نعم، قال: فذهبتُ أنعتُ وأنعتُ فما زلتُ أنعتُ حتى التبس عليّ بعض النعت، قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل فنعتُ المسجد وأنا أنظر إليه، فقالوا: أما النعت فوالله لقد أصاب ثم قالوا يا محمد أخبرنا عن عيرنا فهي أهم إلينا فهل لقيتَ منها شيئاً، قال: نعم مررت على عير بني فلان وهي بالروحاء قد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه، وفي رحالهم قدح من ماء فعطشتُ فأخذتُه فشربتُه ثم وضعتُه كما كان فسلوهم هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا إليه قالوا هذه آية، قال ومررتُ بعير بني

فلانٍ وفلانُ وفلانُ راكبان قعوداً لهما بذي مر فنفر بعيرها مني فاسئلوهما عن ذلك قالوا: وهذه آية، قالوا: وأخبرنا عن عيرنا قال: مررتُ بها بالتنعيم قالوا فما عدتها وأحمالها وهيئتها؟ قال: كنتُ في شغلٍ عن ذلك ثم مثلَتُ له مكانه بالحرورة بعدتها وهيئتها ومن فيها، قال: نعم هيئتها كذا وكذا وفيها فلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان يطلع عليكم عند طلوع الشمس، قالوا: وهذه آية فخرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون: والله لقد قص محمد شيئاً وبيَّنه حتى أتوا كَدَاء فجلسوا عليه فجعلوا ينتظرون متى تطلع الشمس فيكذّبونه إذ قال قائل منهم والله هذه الشمس قد طلعت وقال الآخر والله وهذه الإبل قد طلعت يقدمها بعير أورق فيها فلان وفلان كما قال لهم فلم يؤمنوا وقالوا: إن هذا السحر مبين.

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسئلني عن مسراي، فسألني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتُها فكبرتُ كرباً ما كربتُ مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسئلوني عن شيء إلا أنبأتُهم به، وقد رأيتُني في جماعة من الأنبياء وإذا موسى قائم يصلي فإذا رجل ضرب جعد كأنَّه من رجال شنوؤة أشبه الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم يعني نفسه فحانت الصلاة فأممتُهم فلما فرغتُ من الصلاة قال لي قائل يا محمد هذا مالك صاحب النار فسلم عليه فالتفتُ إليه فبدأني بالسلام»[1] وروى البخاري في الصحيح قال قال رسول الله ﷺ «ليلة أسري به لقيتُ موسى قال: فنعته فإذا هو رجل حسبتُه قال مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة قال: ولقيتُ عيسى فنعته النبي ﷺ فقال ربعة أحمر كأنّما خرج من ديماس يعني الحمام ورأيتُ إبراهيم وأنا أشبه وُلْده به قال: وأوتيتُ بانائين أحدهما فيه لبن والآخر فيه خمر فقيل لي خذ أيهما شئتَ فأخذتُ اللبن فشربتُه فقال لي هديتَ الفطرة أو أصبت الفطرة أما لو أخذتَ الخمر غوت أمتك»[2] وفي الصحيحين عن جابر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لمّا كذّبني قريش في الحجر فجلى الله بيت المقدس فطفقتُ أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[3] وقد ذكرنا أحاديث آخر فيها

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال (١٧٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ (٣٣٩٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: حديث الإسراء (٣٨٨٦) وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال (١٧٠).

قصة المعراج إلى السماوات السبع وسدرة المنتهي في سورة النجم.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧﴾

قوله تعالى ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي موسى أو الكتاب ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ أن مفسرة لفعل دل عليه الكتاب يعني كتبنا وفيه معنى القول تقديره كتبنا إليهم أن لا تتخذوا أو مقدر بحرف الجر يعني لأنْ لا تَتَّخِذُوْا أو قيل أن زائدة والقول مضمر، قرأ أبو عمرو لاَ يَتَّخِذُوْا بالياء التحتانية على الغيبة والباقون بالتاء الفوقانية على الخطاب ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ ربًّا تتوكلون عليه وتكلون إليه أموركم غيري يا ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة فأنجيناهم، فيه تذكير لإنعام الله عليهم في إنجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح في السفينة، ذرية منصوب على الاختصاص أو النداء إن قرأ لا تتخذوا بالتاء الفوقانية للخطاب أو على أنه أحد مفعولي لا تتخذوا ومن دوني حال من وكيلاً فيكون كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾[1] ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني نوحاً عليه السلام ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ أي كثير الشكر أخرج ابن مردويه عن أبي فاطمة أن النبي ﷺ قال: «كان نوح لا يعمل شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلا قال بسم الله والحمد لله فسماه الله عَبْداً شَكُوراً» وأخرج ابن جرير والطبراني عن سعد بن مسعود الثقفي الصحابي قال إنما سمي نوح عَبْداً شَكُوراً لأنه كان إذا أكل أو شرب أو لبس ثوباً حمد الله وفيه حث على الشكر يعني أنتم ذرية من آمن به وحمل معه فكونوا مثله.

قوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ أي أوحينا وحياً مقضيًّا مبتوتاً ﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ التوراة بأنكم ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض الشام وقال ابن عباس وقتادة كلمة إلى بمعنى

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٠.

على ومعنى الآية وقضينا على بني إسرائيل في الكتاب أي اللوح المحفوظ لتفسدن جواب قسم محذوف أو جواب لقضينا إجراء للقضاء المبتوت مجرى القسم ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ إفسادتين أولاهما أن خالفوا أحكام التوراة وركبوا المحارم وقتلوا شعيا بن أمضيا عليه السلام، وثانيتهما أن قتلوا زكريا ويحيى وقصدوا قتل عيسى عليه السلام وقيل: أولاهما قتل زكريا وثانيتهما قتل يحيى وقصد قتل عيسى عليه السلام ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ يعني لتستكبرون عن طاعة الله وتظلمون الناس ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي وعد عقاب أولاهما ﴿بَعَثْنَا﴾ أي سلطنا ﴿عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ يعني سنحاريب من أهل نينوى كذا قال سعيد بن جبير، وقال قتادة يعني جالوت وجنوده الذي قتله داود عليه السلام وقال ابن إسحاق بخت نصر البابلي قال البغوي وهو الأظهر ﴿أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي ذووي قوة وبطش في الحرب ﴿فَجَاسُواْ﴾ أي تردَّدوا ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أي وسط دياركم يطلبونكم ويقتلونكم قال الزجاج الجوس طلب الشيء بالاستقصاء وقال الفراء ماسوا أي قتلوكم بين بيوتكم ﴿وَكَانَ﴾ وعد عقابكم ﴿وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي لا بد أن يفعل ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ أي الدولة والغلبة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على الذين بعثوا قال البيضاوي وذلك بأن الله ألقي في قلب بهمن بن إسفنديار لما ورث الملك من جده كستاسف بن لهراسف شفقة عليهم، فرد أسراهم إلى الشام وملّك دانيال عليهم واستولوا على من كان فيها من أتباع بخت نصر أو بأن سلط داود على جالوت فقتله ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ ممَّا كنتم والنفير من ينفر مع الرجل من قومه، وقيل هو جمع نفر على وزن عَبِيْدِ والنفر قوم مجتمعون للذهاب إلى العدو، فلما رد الله لهم الكرة عاد البلد أحسن مما كان.

قال الله تعالى ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ بالطاعة ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأن ثوابه لها والله تعالى غني عن طاعتكم ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ بالفساد ﴿فَلَهَا﴾ ذكر اللام موضع عليها إزدواجاً يعني وبالها عليها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ﴾ أي وقت وعد عقوبة المرة ﴿ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ﴾ أي بعثناهم ليسؤوا وجوهكم أي يجعلوها بادية آثار المساءة فيها، حذف بعثنا ههنا لدلالة ذكره أولاً عليه، قرأ الكسائي ويعقوب لِنَسُوْءَا بالنون وفتح الهمزة على التكلم والتعظيم على وفق قضينا وبعثنا وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر بالياء التحتانية وفتح الهمزة على صيغة الغائب الواحد أي لِيَسُوْءَا الله وجوهكم أو لِيَسُوْءَا الوعد أو البعث والباقون بالياء التحتانية وضم الهمزة على صيغة الجمع المذكر للغائب أي ليسوء والعبادُ أولوا البأس الشديد وجوهكم، قال البغوي سلط الله عليهم الفرس والروم وخردوش وططيوس حتى قتلوهم وسبوهم ونفوهم عن ديارهم ﴿وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ﴾ يعني بيت المقدس ونواحيه

﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أي ليهلكوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ أي ما غلبوا أو استولوا عليه أو مدة علوهم ﴿تَتْبِيرًا﴾.

قال البغوي قال محمد بن إسحاق كانت بنو إسرائيل فيهم الأحداث والذنوب وكان الله في ذلك متجاوزاً عنهم محسناً إليهم، وكان أول ما نزل بهم بسبب ذنوبهم كما أخبر الله على لسان موسى ﷺ أن ملكاً منهم كان يُدْعى صديقه وكان الله تعالى إذا ملَّك الملِك عليهم بعث معه نبيًّا يسدّده ويرشده لا ينزل عليهم الكتب إنما يؤمرون باتباع التوراة والأحكام التي فيها، فلما ملِك ذلك الملِك بعث الله معه شعيا بن أمضيا وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى ﷺ، وشعيا هو الذي بشر بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام فقال أبشري أورى تعلم الآن يأتيك راكب الحمار ومن بعده صاحب البعير، فملِك ذلك الملِك بني إسرائيل وبيت المقدس زماناً فلما انقضى ملكه عظمت فيهم الأحداث وشعيا معه بعث الله سنحاريب ملِك بابل معه ستمائة ألف راية فأقبل سائراً حتى نزل حول بيت المقدس، والملِك مريض في ساقه قرحة، فجاء النبي شعيا فقال له يا ملِك بني إسرائيل إن سنحاريب ملِك بابل قد نزل بك هو وجنوده بستمائة ألف راية وقد هابهم الناس وفرقوا، فكبر ذلك على الملِك فقال: يا نبي الله هل أتاك وحي من الله فيما حدث فتخبرنا به كيف يفعل الله بنا وبسنحاريب وجنوده؟ فقال: لم يأتيني وحي فبينما هم على ذلك أوحي الله إلى شعيا النبي ﷺ إن أيت ملِك بني إسرائيل فمره أن يوصي وصية ويستخلف على ملكه من يشاء من أهل بيته، فأتى شعيا ملِك بني إسرائيل صُديقة فقال: إن ربك قد أوحي إليّ أن آمرك أن توصي وصيتك وتستخلف من شئتَ على ملكك من أهل بيتك فإنك ميّت، فلما قال ذلك شعيا لصُديقة أقبل على قبلته فصلّى ودعا وبكى فقال وهو يتضرع ويبكي ويتضرع إلى الله بقلب مخلص: اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يا قدوس المتقدس يا رحمان يا رؤوف الذي لا تأخذه سنة ولا نوم أذكرني بعملي وفعلي وحسن قضائي على بني إسرائيل وذلك كله منك وأنت أعلم به مني سري وعلانيتي لك، وإن الرحمان استجاب دعاءه وكان عبداً صالحاً، فأوحى الله إلى شعيا أن تخبر صُديقة أن ربه قد استجاب له ورحمه وأخّرَ أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سخاريب، فأتاه شعيا فأخبره بذلك، فلما قال له ذلك ذهب عنه الروع وانقطع عنه الحزن وخرّ ساجداً وقال: يا إلهي وإله آبائي لك سجدتُ وسبحتُ وكرّمتُ وعظّمتُ أنتَ الذي تعطي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة أنتَ الأول والآخر والظاهر والباطن وأنتَ ترحم وتستجيب دعوة المضطرين أنتَ الذي أجبتَ دعوتي

ورحمتَ تضرعي فلما رفع رأسه أوحي الله إلى شعيا أن قل للملك صديقة فيأمر عبداً من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله على قرحته فيشفي فيصبح وقد بريء ففعل فشفي.

وقال الملِك لشعيا سَلْ ربك أن يجعل لنا علماً بما هو صانع بعدونا هذا قال الله لشعيا قل إني قد كفيتُك عدوك وأنجيتُك منهم وأنهم سيصبحون كلهم موتى إلا سنحاريب وخمسة نفر من كُتَّابه، فلما أصبحوا جاء صارخ فصرخ على باب المدينة يا ملِك بني إسرائيل أن الله قد كفاك عدوك، فاخرج فإن سنحاريب ومن معه قد هلكوا، فلمَّا خرج الملِك التمس سنحاريب فلم يوجد في الموتى فأرسل الملِك في طلبه فأدركه الطلب في مغارة وخمسة نفر من كتابه أحدهم بخت نصر، فجعلوهم في الجوامع ثم أتوا بهم ملِك بني إسرائيل فلما رآهم خرّ ساجداً من حين طلعت الشمس إلى العصر، ثم قال لسخاريب كيف ترى فعل ربنا بكم ألم يقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون، فقال سنحاريب قد أتاني خبر ربكم ونصره إياكم ورحمته التي يرحمكم بها قبل أن أخرج من بلادي فلم أطع مرشداً ولم يُلقني في الشقوة الإقلة عقلي ولو سمعتُ أو عقلتُ ما غزوتُكم، فقال صُديقة الحمد لله رب العزة الذي كفاناكم بما شاء إن ربنا لم يُبقك ومن معك لكرامتك على ربك ولكنه إنما أبقاك ومن معك لتزدادوا شقوةً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، ولتخبروا من ورائكم بما رأيتم من فعل ربنا بكم فتنذر من بعدكم، ولولا ذلك لقتلتُكم ولدمك ودم من معك أهون على الله من دم قراد لو قتلتُ ثم إن ملِك بني أسرائيل أمر أمير حرسه فقذف في رقابهم الجوامع وطاف بهم سبعين يوماً حول بيت المقدس وإيليا وكان يرزقهم كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم، فقال سنحاريب لملِك بني إسرائيل القتل خير مما تفعل بنا فأمر بهم الملِك إلى سجن القتل، فأوحي إلى شعيا النبي ﵇ أن قل لملِك بني إسرائيل يرسل سخاريب ومن معه لينذروا من ورائهم وليكرمهم وليحملهم حتى يبلغوا بلادهم فبلّغ شعيا الملِك ذلك ففعل الملِك صُديقة ما أمر به، فخرج سنحاريب ومن معه حتى قدموا بابل فلما قد مواجمع الناس فأخبرهم كيف فعل الله بجنوده فقال له كهانه وسحرته يا ملِك بابل قد كنا نقص عليك خبر ربهم وخبر نبيهم ووحي الله إلى نبيهم فلم تطعنا وهي أمة لا يستطيعها أحد مع ربهم، وكان أمر سخاريب تخويفاً لهم ثم كفاهم الله تذكرة وعظة ثم لبث سخاريب بعد ذلك سبع سنين ثم مات واستخلف بخت نصر ابن ابنه فخلف بخت نصر على ما كان عليه جده يعمل عمله فلبث سبع عشرة سنة.

ثم قبض الله ملك بني إسرائيل صُدَيقة فمرج أمر بني إسرائيل وتنافسوا الملك بعده حتى قتل بعضهم بعضاً ونبيهم شعيا ﵇ معهم ولا يقبلون منه فلما فعلوا ذلك قال الله

لشعيا قم في قومك فأوحي على لسانك فلما قام النبي أنطق الله على لسانه بالوحي فقال يا سماء اسمعي ويا أرض أنصتي فإن الله يريد أن يقص شأن بني إسرائيل الذين رباهم بنعمته فاصطنعهم لنفسه وخصّهم بكرامته وفضلهم على عباده، وهم كالغنم الضائعة التي لا راعي لها فأوى شاذتها وجمع ضالتها وجبر كسيرها وداوى مريضها وأسمن مهزولها وحفظ سمينها، فلمّا فعل ذلك بطرت فتناطحت فقتل بعضها بعضاً حتى لم يبق منها عظم صحيح يجبر إليه آخر كسير، فويل لهذه الأمة الخاطئة الذين لا يدرون أنىّ جاءهم الحين، أن البعير مما يذكر وطنه فيستأبه وأن الحمار مما يذكر الأرى الذي يشبع عليه فيراجعه وأن الثور مما يذكر الأرى الذي يشبع عليه فيراجعه وإن الثور مما يذكر المرج الذي سمن منه فينتابه، وإن هؤلاء القوم لا يذكرون من حيث جاءهم الحين وهم أولوا الألباب والعقول ليسوا ببقر ولا حمر، أني ضارب لهم مثلاً فليستمعوه قل لهم كيف ترون في أرض كانت خِواء زماناً خربةً مواتاً لا عمر أن فيها وكان لها ربٌّ حكيم قوي فأقبل عليها بالعمارة وكره أن يخرب أرضه وهو قوي أو أن يقال ضيع وهو حكيم فأحاط عليها جداراً وشيَّد فيها قصراً وأنط نهراً وصَفَّ فيها غراساً من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وألوان الثمار كلها، وولّى ذلك واستحفظه ذا رأيٍ وهمةٍ حفيظاً قوياً أميناً فلمّا أطلعت جاء طلعها خروباً قالوا بئست الأرض لهذه، نرى أن يهدم جدارها وقصرها ويدفن نهرها ويقبض فمها ويحرق غرسها حتى تصير كما كانت أول مرة خراباً مواتاً لا عمران فيها، قال الله قل لهم فإن الجدار ديني وأن القصر شريعتي وأن النهر كتابي وأن القيم نبيى وأن الغرس هم، وأن الخروب الذي أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة وأني قد قضيتُ عليهم قضاءهم على أنفسهم وأنه مثل ضربتُه لهم، يتقرّبون إليّ بذبح البقر والغنم وليس ينالني اللحم ولا آكله، ويُدعون أن يتقرّبوا إليّ بالتقوى والكف عن ذبح الأنفس التي حرمتُها فأيديهم مخضوبة منها وثيابهم متزملة بدمائها، ويشيدون لي البيوت مساجد ويطهرون أجوافها وينجسون قلوبهم وأجسادها ويدنسوها، ويروقون لي المساجد ويزيّنونها ويخربون عقولهم وأخلاقهم ويفسدونها، فأيّ حاجة لي إلى تشييد البيوت ولستُ أسكنها وأيّ حاجة لي ترويق المساجد ولستُ أدخلها إنما أمرتُ برفعها لأذكر وأسبح فيها، يقولون صُمْنا فلم يُرفع صيامنا وصلينا فلم تُنور صلاتنا وتصدقنا فلم تزك صدقاتنا ودعونا بمثل حنين الحمار وبكينا بمثل عواء الذئاب في كل ذلك لا يستجاب لنا، قال الله: فاسَألهم ما الذي يمنعني أن استجيب لهم؟ ألستُ أسمع السامعين وأبصر الباصرين وأقرب المجيبين وأرحم الراحمين؟ فكيف أرفع صيامهم وهم يُلبّسونه بقول الزور يتقوون عليه بطعمة الحرام،

وكيف أنور صلاتهم وقلوبهم صاغية إلى من يحاربني ويحادّني وينتهك محارمي، أم كيف يزكوا عندي صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غيرهم إنما آجر عليها أهلها المعصومين، أم كيف أستجيب دعاءهم وإنما هو قول بألسنتهم والفعل من ذلك بعيد إنما أستجيب للوادع اللين وإنما أسمع قول المستعف المسكين، وإن من علامة رضائي رضاء المساكين، يقولون لما سمعوا كلامي وبلّغتهم رسالتي أنها أقاويل متقوّلة وأحاديث متوارثة وتأليف مما يؤلف السحرة والكهنة، وزعموا أنهم لو شاءوا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا، ولو شاءوا أن يطلعوا على علم الغيب بما يوحِي إليهم الشياطين اطلعوا، وأني قد قضيتُ يوم خلقتُ السماء والأرض قضاءً أثبتُه وحتمتُه على نفسي وجعلتُ دونه أجلاً مؤجلاً لا بد أنه واقع فإن صَدَقوا بما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أنفُذه أو في أيّ زمان يكون، وإن كانُوْا أن يقدروا على أن يأتوا بما يشاءون فليأتوا بمثل القدرة التي بها أمضيه فإني مظهره على الدين كله ولو كره المشركون وإن كانوا يقدرون على أن يؤلفوا ما يشاءون فليؤَلفوا مثل الحكمة التي بها أدبّر أمر ذلك القضاء إن كانوا صادقين، وإني قد قضيتُ يوم خلقتُ السماوات والأرض أن أجعل النبوة في الإجراء وأن أجعل الملك في الرعاء والعز في الأذلاء والقوة في الضعفاء والغني في الفقراء والعلم في الجهلة والحكم في الأميين، فسَلهم متى هذا ومن القائم به ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره إن كانوا يعلمون، فإني باعث لذلك نبيًا أميًا ليس بفظّ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا متزين بالفحش ولا قوال للحياء، أسدده لكل خميل وأهب له كل خلق كريم ثم أجعل السكينة لبأسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل سيرته والحق شريعته والهدى أمامه والإسلام ملته وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة وأعلم به من الجهالة وأرفع به بعد الخمالة وأشهر به بعد النكرة وأكثر به بعد القلة وأغنى به بعد العيلة وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتة وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر توحيداً إلى وإيماناً بي وإخلاصاً لي، يصلُّون لي قياماً وقعوداً وركعاً وسجوداً ويقاتلون في سبيلي صفوفاً وزحوفاً، ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء رضواني، ألهمهم التكبير والتوحيد والتسبيح والتحميد والمدحة والتمجيد لي في مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم، يكبرون ويهللون ويقدسون على روؤس الأشراف ويطهرون لي الوجوه والأطراف ويعقدون الثياب على الأنصاف، قربانهم دماؤهم وأنا جيلهم صدورهم رهبان بالليل ليوث بالنهار، وذلك فضلي أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم، فلما فرغ شعيا

من مقالته عدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم فلقيته شجرة فانفلقت له فدخل فيها فأدركه الشيطان وأخذ بهدبة من ثوبه فأراهم إياها فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها.

واستخلف الله على بني إسرائيل بعد ذلك رجلاً منهم يقال له ناشيه بن أموص وبعث لهم أرميا بن حلقيا نبيًّا من سبط هارون بن عمران، وذكر ابن إسحاق أنه الخضر عليه السلام واسمه أرميا سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فقام عنها وهي تهتز خضراء فبعث الله أرميا إلى ذلك الملِك يسدده ويرشده ثم عظمت الأحداث في بني إسرائيل وركبوا المعاصي واستحلوا المحارم فأحى الله إلى أرميا أن أيت قومك من بني إسرائيل فأقصص عليهم ما آمرك به وذكّرهم نعمى وعرفهم بأحداثهم، فقال أرميا يا رب إني ضعيف إن لم تقوني عاجز إن لم تبلغني مخذول إن لم تنصرني، قال الله تعالى ألم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيّتي وأن القلوب والألسنة بيدي أقلبها كيف شئتُ إني معك ولم يصل إليك شيء معي، فقام أرميا فيهم ولم يدر ما يقول فألهمه الله في الوقت خطبة بليغة بيَّن لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية وقال في آخرها عن الله رضي الله عنه وإني حلفتُ بعزتي لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ولأسلطنَّ عليهم جباراً قاسياً ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عسكر مثل سواد الليل المظلم، ثم أوحى الله إلى أرميا إني مهلك بني إسرائيل بيافث بيافث أهل بابل فسلط الله عليهم بخت نصر فخرج عليهم في ستمائة ألف رأية ودخل بيت المقدس بجنوده ووطئ الشام وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم وخرّب بيت المقدس وأمر جنوده أن يملأ كل واحد منهم ترسه تراباً ثم يقذفه في بيت المقدس ففعلوا ذلك حتى ملأوه ثم أمرهم أن يجمعوا مَنْ في بلاد بيت المقدس كلهم فاجتمع عندهم كل صغير وكبير من بني إسرائيل فاختار منهم سبعين ألف صبي، فلمَّا خرجت غنائم جنده وأراد أن يقسمهم فيهم قالت له الملوك الذين كانوا معه أيها الملك لك الغنائم كلها وأقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتَهم من بني إسرائيل، فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل رجل منهم أربعة غِلمة، وفرق من بقي من بني إسرائيل ثلاث فرق فثُلُثاً أقِرَّ بالشام وثُلُثاً سُبِيَ وثُلُثاً قُتِل، وذهب بناشية بيت المقدس وبالصبيان السبعين الألف حتى أقدمهم بابل فكانت لهذه الوقعة الأولى التي أنزل ببني إسرائيل بظلمهم فذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[1] يعني بخت نصر وأصحابه.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥.

ثم إن بخت نصر أقام في سلطانه ما شاء الله، ثم رأى رؤيا أعجبته إذ رأى شيئاً أصابه فأنساه الذي رأى، فدعا دانيال وحنانياً وعزارياً وميشائيل وكانوا من ذراري الأنبياء وسألهم عنها قالوا: أخبرنا عنها نخبرك بتأويلها قال: ما أَذْكُرُهَا ولئن لم تخبروني بها وبتأويلها لأنزعن أكتافكم، فخرجوا من عنده فدعوا الله وتضرعوا إليه فأعلمهم الذي سألهم عنه فجاءوه فقالوا رأيت تمثالاً قدماه وساقاه من فخارو ركبتاه وفخذاه من نحاس وبطنه من فضة وصدره من ذهب ورأسه وعنقه من حديد قال صدقتم فبينا أنتَ تنظر إليه قد أعجبك أرسل الله صخرة من السماء فَدَقَّتْهُ فهي التي أنسيتها، قال: صدقتم فما تأويلها؟ قالوا: تأويلها أنك أرِيتَ ملك الملوك بعضهم كان ألين ملكاً وبعضهم كان أحسن ملكاً وبعضهم كان أشد ملكاً، الفخار أضعفه ثم فوقه النحاس أشد منه ثم فوق النحاس الفضة أحسن من ذلك وأفضل والذهب أفضل وأحسن من الفضة ثم الحديد ملكك فهو أشد وأعز مما كان قبله والصخرة التي رأيتَ أرسل الله من السماء فَدَقَّتْهُ هي يبعثه الله من السماء فيدق ذلك أجمع ويصير الأمر إليه.

ثم إن أهل بابل قالوا لبخت نصر أرأيتَ هؤلاء الغلمان الذي كنا سألناك أن تعطينا ففعلتَ فإنا قد أنكرنا نساءنا منذ كانوا معنا لقد رأينا نساءنا انصرفت عنا وجوههن إليهم فأخرُجهم من بين أظهرنا أو أقتلهم قال شأنكم بهم فمن أحب منكم أن يقتل من كان في يده فليفعل، فلما قربوهم إلى القتل بكوا إلى الله وقالوا: يا رب أصابنا البلاء بذنوب غيرنا فوعدهم الله أن يحييهم فقتلوا إلا من استبقى بخت نصر منهم دانيال وحنانياً وعزارياً وميشائيل، ثم لما أراد الله هلاك بخت نصر انبعث فقال لمن في يده من بني إسرائيل أرأيتم هذا البيت الذي أخربتُ والناس الذين قتلتُ منهم فما هذا البيت، قالوا: هذا بيت الله وهؤلاء أهله كانوا من ذراري الأنبياء فظلموا وتعدّوا فسلطتَّ عليهم بذنوبهم، وكان ربهم رب السماوات والأرض ورب الخلق كلهم يكرّمهم ويعزّهم فلمّا فعلوا ما فعلوا أهلكهم وسلط عليهم غيرهم، فاستكبر وظن أنه بجبروته فعل ذلك ببني إسرائيل قال: فأخبروني كيف لي أن أطلع إلى السماء العليا فأَقْتُلُ من فيها واتخذها ملكاً فإني قد فرغتُ من ملك الأرض؟ قالوا: ما يقدر عليها أحد من الخلائق قال: لتفعلُن أو لأقتلنكم عن آخركم فبكوا وتضرعوا إلى الله فبعث الله عليه بقدرته بعوضة فدخلت منخره حتى عضت بأم دماغه فما كان يقر ولا يسكن حتى يؤجاله رأسه على أم دماغه فلما مات شقوا رأسه فوجدوا البعوضة عاضة على أم دماغه لِيُرِيَ الله العباد قدرته، ونجىّ الله من بقي من بني إسرائيل في يده فردّهم إلى الشام فبنوا فيه وكثروا حتى كانوا على أحسن ما كانوا عليه

ويزعمون أن الله تعالى أحيا أولئك الذين قتلوا فلحقوا بهم.

ثم إنهم لما دخلوا الشام دخلوها وليس معهم عهد من الله عز وجل وكانت التوراة قد أحرقت، وكان عزير من السبايا الذين كانوا ببابل فرجع إلى الشام يبكي عليها ليلة ونهاره وقد خرج من الناس وهو كذلك، إذ أقبل إليه رجل وقال يا عزير ما يبكيك قال: أبكي على كتاب الله وعهده الذي كان بين أظهرنا لا يصلح دنيانا وآخرتنا غيره قال أفتحبّ أن ترد إليك إرجع فصم وتُطَهِّرُ وطَهِّرُ ثيابك ثم موعدك هذا المكان غداً، فرجع عزير فصام وتَطَهَّرَ وطَهَّرَ ثيابه ثم عمد إلى المكان الذي وعده فجلس فيه فأتاه ذلك الرجل بإناء فيه ماء وكان ملَكاً بعثه الله إليه فسقاه من ذلك الإناء فتمثلت التوراة في صدره، فرجع إلى بني إسرائيل فوضع لهم التوراة فأحبوه حبًّا لم يحبوا حبه شيئاً قط قبضه الله، وجعلت بنو إسرائيل بعد ذلك يحدثون الأحداث ويعود الله عليهم ويبعث فيهم الرسل ففريقاً يُكَذّبون وفريقاً يقتلون حتى كان آخر من بعث الله فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وكانوا من بيت آل داود فمات زكريا وقيل قتل زكريا.

فلما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى بعث الله عليهم مِلِكاً من ملوك بابل يقال له خردوش فسار إليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام فلما ظهر عليهم أمر رأساً من رؤس جنوده يدعى يبورزاذان صاحب الفيل فقال: إني قد كنتُ حلفتُ بإلهي لأن أظفرتُ على أهل بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري إلا أن لا أجد أحداً أقتله، فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم وأن يبورزاذان دخل بيت المقدس فقام في البقعة التي كانوا يقربون فيها قربانهم، فوجد فيها دماً يغلي فسألهم فقال يا بني إسرائيل ما شأن هذا الدم يغلي أخبروني خبره، قالوا: هذا آدم قربان لنا قربناه فلم يقبل منا فكذلك يغلي ولقد قرّبنا منذ ثمان مائة سنة القربان فيقبل منا إلا هذا، فقال ما صدقتموني قالوا: لو كان كأول زماننا ليقبل منا ولكن قد انقطع منا الملك والنبوة والوحي فلذلك لم يقبل منا، فذبح منهم يبورزاذان على ذلك الدم سبعمائة وسبعين زوجاً من رؤسهم فلم يهدأ، فأمر فأتى بسبعمائة غلام من غلمانهم فذبحهم على الدم فلم يبرد، فلما رأى يبورزاذان أن الدم لا يهدأ قال لهم يا بني إسرائيل ويلكم أصدُقوني وأصبروا على أمر ربكم فقد طال ما ملكتم في الأرض تفعلون فيها ما شئتم قبل أن لا أترك منكم نافخ نار ذكر ولا أنثى إلا قتلتُه، فلمَّا رأوا الجهد وشدة القتل صدقوا الخبر فقالوا: إن هذا دم نبيّ كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله فلو أطعناه فيها لكان أرشد لنا وكان يخبرنا بأمركم فلم نصدقه فقتلناهُ فهذا دمه، قال: يبورزاذان ما كان اسمه؟ قالوا: يحيى بن زكرياَ قال:

الآن صدقتموني لمثل هذا ينتقم ربكم منكم، فلما رأى يبورزاذان أنهم صدقوه خر ساجداً وقال لمن حوله أغلقوا أبواب المدينة وأخرجوا من كان ههنا من جيش خردوش وخلا في بني إسرائيل، وقال: يا يحيى بن زكريا قد علم ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك وما قتل منهم فاهدا بإذن ربك قبل أن لا أبقي من قومك أحداً فهدا الدم بإذن الله، ورفع يبورزاذان عنهم القتل وقال آمنتُ بما آمنت به بنو إسرائيل وأيقنتُ أنه لا رب غيره، وقال لبني إسرائيل أن خردوش أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره وإني لست استطيع أن أعصيه، قالوا له إفعل ما أمرتَ به فأمرهم فحفروا خندقاً وأمر بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم فذبحها حتى سال الدم في العسكر وأمر بالقتلى الذين قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم فلم يظن خردوش إلا أن ما في الخندق من بني إسرائيل، فلَمَّا بلغ الدم عسكره أرسل إلى يبورزاذان أن أرفع عنهم القتل ثم انصرف إلى بابل وقد أفنى بني إسرائيل أو كاد يفنيهم وهي الوقعة الأخيرة التي أنزل الله لبني إسرائيل فقوله تعالى ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾[1] فكانت الوقعة الأولى بخت نصر وجنوده والأخرى خردوش وجنوده وكانت أعظم الوقعتين، فلم تقم بعد ذلك لهم رأية وانتقل الملك بالشام ونواحيها إلى الروم واليونانية، إلا أن بقايا بني إسرائيل كثروا وكانت لهم الرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك، وكانوا في نعمة إلى أن بدلوا وأحدثوا الأحداث فسلط الله عليهم طَطيوس بن أسيانوس الرومي فأخرب بلادهم وطردهم عنها ونزع الله عنهم الملك والرياسة وضرب عليهم الذلة فليسوا في أمة إلا وعليهم الصِغار والجزية وبقي بيت المقدس خراباً إلى أيام عمر بن الخطاب فعمّره المسلمون بأمره.

وقال قتادة بعث الله عليهم في الأولى جالوت فسبّى وخرّب ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرصة عَلَيْهِمْ﴾ في زمان داود: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ﴾[2] بعث الله عليهم بخت نصر فسبّى وخرّب ثم قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾[3] فعاد الله عليهم بالرحمة ثم عاد القوم بشر ما بحضرتهم فبعث الله عليهم ما شاء نقمته وعقوبته، ثم بعث عليهم العرب كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[4] فهم منهم في عذاب إلى يوم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٦٧.

القيامة، وذكر السديّ بإسناده أن رجلاً من بني إسرائيل رأى في النوم أن خراب بيت المقدس على يَدَي غلام يتيم ابن أرملة بابل يدعى بخت نصر وكانوا يَصْدُقُوْنَ فتَصْدَقُ رؤياهم، فأقبل يسئل عنه حتى نزل على أمه وهو يحتطب فجاء وعلى رأسه حزمة حطب فألقاها ثم قعد وكلمه ثم أعطاه ثلاثة دراهم فقال إشتر بهذا طعاماً وشراباً فأشتري بدرهم لحماً وبدرهم خبزاً وبدرهم خمراً فأكلوا وشربوا، وفعل في اليوم الثاني كذلك وفي الثالث كذلك، ثم قال إني أحب أن تكتب لي أماناً أن أنتَ ملكتَ يوماً من الدهر قال أتسخر مني، فقال: إني لا أسخر منك ولكن ما عليك أن تتخذ بها عندي يداً، فكتب له أماناً فقال: إن جئتُ والناس حولك قد حالوا بيني وبينك، قال: ترفع صحيفتك على قصبة فأعرفك فكتب له وأعطاه.

ثم إن ملك بني إسرائيل كان يكرّم يحيى بن زكريا عليه السلام ويدني مجلسه وأنه هوياء بنت امرأته، وقال ابن عباس ابنة أخته فسأل يحيى فنهاه عن نكاحها، فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحيى وعمدت حين جلس الملِك على شرابه فألبستها ثياباً رقاقاً حمراً وطيبتها وألبستها الحلي وأرسلتها إلى الملِك وأمرتها أن تسقيه، فإن راودها على نفسه أبت عليه حتى يعطيها ما سألته، فإذا أعطاها سألته رأس يحيى ين زكريا أن يؤتي به في طست، ففعلت فلما أرادها فقالت: لا أفعل حتى تعطيني ما أسئلك قال: ما تسئلني؟ قالت: رأس يحيى بن زكريا في هذا الطست فقال: ويحكِ سليني غير هذا، فقالت: ما أريد إلا هذا فلما أبت عليه بعث فأتى برأسه فوضع بين يديه والرأس يتكلم يقول لا تحل لك، فلمّا أصبح إذا دمه يغلي فأمر بتراب فألقي عليه فإذا الدم يغلي وألقى عليه من التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يغلي، فبعث صخابين ملِك بابل جيشاً إليهم وأمّر عليهم بخت نصر فسار بخت نصر حتى إذا بلغوا ذلك المكان تحصنوا منه في مداينهم فلما اشتد عليه المقام أراد الرجوع، فخرجت إليه عجوز من عجائز بني إسرائيل فقالت: تريد أن ترجع قبل فتح المدينة قال نعم قد طال مقامي وجاع أصحابي قالت: أرأيت إن فتحتْ لك المدينة تعطيني ما أسئلك فتقتل من آمرك بقتل وتكف إذا أمرتك أن تكف قال: نعم، قالت: إذا أصبحتَ فاقسم جندك أربعة أرباع ثم أقم على كل زاوية ربعاً ثم ارفعوا أيديكم إلى السماء فنادوا إنَّا نستفتحك بالله بدم يحيى بن زكريا فإنها سوف تساقط ففعلوا فتساقطت المدينة ودخلوا من جوانبها فقالت كف يدك وانطلقَت به إلى دم يحيى بن زكريا عليه السلام، وقالت: أقتل على هذا الدم حتى تسكن فقتل عليه سبعين ألفاً حتى سكن، فلما سكن قالت: كف يدك فإن الله لم يرض إذا قُتِلَ نبي حتى يُقْتَلَ من قتله ومن

رضِيَ بقتله، وأتاه صاحب الصحيفة بصحيفته فكف عنه وعن أهل بيته فخرب بيت المقدس وطرح فيه الجيف وأعانه على خرابه الروم من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا عليه السلام وذهب معه وجوه بني إسرائيل وذهب بدانيال وقوم من أولاد الأنبياء وذهب معه برأس جالوت.

فلما قدم بابل وجد صخابين قد مات فملك مكانه، وكان أكرم الناس عنده دانيال وأصحابه فحسدهم المجوسُ ووشوا بهم إليه وقالوا: إن دانيال وأصحابه يُكَذِّبون إلهك ولا يأكلون ذبيحتك فسألهم، فقالوا: أجل إن لنا رباً نعبده ولسانا نأكل من ذبيحتكم فأمر بخدّ فخدّ لهم وألقوا فيه وهم ستة وأُلْقِيَ معهم سَبُع ضار ليأكلهم فذهبوا ثم راحوا فوجدوهم جلوساً والسبع مفترش ذراعيه معهم لم يخدش منهم أحداً، ووجدوا معهم رجلاً سابعاً فقال: ما هذا السابع إنما كانوا ستة فخرج السابع وكان ملَكاً فلطمه لطمة فصار في الوحش ومسخه الله سبع سنين، وذكر وهب أن الله تعالى مسخ بخت نصر نسراً في الطير ثم مسخه ثوراً في الدواب ثم مسخه أسداً في الوحش فكان مسخه سبع سنين وقلبه في ذلك قلب إنسان ثم رد الله إليه ملكه فآمن، فسئل وهب أكان مؤمناً فقال: وجدتُ أهل الكتاب اختلفوا فيه فمنهم من قال مات مؤمناً ومنهم من قال أحرق بيت الله وكتبه وقتل الأنبياء فغضب الله عليه فلم يقبل توبته، قال السديّ ثم إن بخت نصر لما رجع إلى صورته بعد المسخ ورد الله إليه ملكه كان دانيال وأصحابه أكرم الناس عليه فحسدهم المجوس وقالوا لبخت نصران دانيال إذا شرب الخمر لم يملك نفسه أن يبول وكان ذلك فيهم عارًا فحمل لهم طعاماً وشراباً فأكلوا وشربوا وقال للبواب أنظروا أول من يخرج ليبول فاضربه وإن قال أنا بخت نصر فقل كذبتَ بخت نصر أمرني، فكان أول من قام ليبول بخت نصر فلما رآه شدّ عليه فقال: ويحك أنا بخت نصر فقال كذبتَ بخت نصر أمرني فضربه فقتل.

قال البغوي هذا ما ذكره في المبتدأ إلا أن رواية من روى أن بخت نصر غزا بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا عليه السلام غلط عند أهل السير بل هم مجمعون على أن بخت نصر إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم شعيًا في عهد أرميا ومن وقت إرميا وتخريب بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا عليه السلام أربعمائة وإحدى وستون سنة وذلك أنهم يعدون من لدن تخريب بخت نصر بيت المقدس إلى حين عمرانه في عهد كيرش بن أخشورش ابن أصبَهْبَدُ بابل من قبل بهمن بن إسفنديار سبعين سنة ومن بعد عمر أنه إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانية وثمانين سنة ثم من بعد مملكته إلى مولد يحيى

بن زكريا ثلاثمائة وثلاثاً وستين سنة والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد ذلك إن آمنتم بمحمد ﷺ وأصلحتم أعمالكم باتباع القرآن ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى المعصية ومخالفة الرسول الله ﷺ ﴿عُدْنَا﴾ إلى العقوبة والإنتقام فرحم الله مَنْ آمن منهم بمحمد ﷺ مثل عبد الله بن سلام ومن معه والنجاشي وكعب الأحبار وغيرهم وأثنى عليهم بقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾(١) الخ وبقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾(٢) الخ، وعاد بنوا قريظة وبنوا النضير وأشباههم فأرادوا قتل النبي ﷺ وسحروه وجعلوا السم في طعامه وحاربوه فعاد الله عليهم بالإنتقام فقتل بني قريظة وأجلى بني النضير وضرب عليهم الجزية يؤدونها عن يدوهم صاغرون ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ محبساً في الآخرة لا يقدرون على الخروج منها أبداً، وقيل: بساطاً كما يبسط الحصير ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي﴾ للحالة وللطريقة التي ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ الحالات أو الطرق وأعد لها أو الكلمة التي هي أعدل وهي شهادة أن لا إله إلا الله ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالتخفيف من الأفعال والباقون بالتشديد من التفعيل يعني يبشر القرآن ﴿الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي الجنة ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ أي النار عطف على أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا يعني يبشر المؤمنين ببشارتين ثوابهم وعذاب أعدائهم أو على يُبَشِّرُ بإضمار يخبر.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٣. (٢) سورة المائدة، الآية: ٨٣.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ سقط الواو من يدعو من اللفظ لاجتماع الساكنين ومن الخط توقيفاً على خلاف القياس، يعني يدعو الله عند غضبه على نفسه وأهله وماله ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ أو يدعوه بما يحسبه خيراً وهو شر كمن يدعو أن يعطي الله حظه في الدنيا ﴿دُعَآءَهُۥ﴾ أي مثل دعائه ﴿بِٱلْخَيْرِ﴾ وذلك أن يعطيه ربه في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويقيه من النار ولو استجاب الله دعاءه على نفسه لهلك ولكن الله تعالى قد لا يستجيب بفضله عليه ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ يسارع إلى كل ما يخطر بباله لا ينظر عاقبته فيدعو على نفسه ما يكره أن يستجاب له وقال ابن عباس يدعو ضجر الأصبر له على سراء ولا على ضراء، قيل: المراد بالإنسان آدم فإنه لما انتهى الروح إلى سرته ذهب لينهض فسقط، أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروى الواقدي في المغازي من طريق مولى عائشة عنها أن النبي ﷺ دخل عليها بأسير فقال: اختفى به قالت: فلهوتُ مع امرأة فخرج ولم أشعر، فدخل النبي ﷺ فسأل عنه فقالت: لا أدري وغفلتُ عنه فخرج فقال: قطع الله يدك ثم خرج عليه السلام فصاح به فخرجوا في طلبه حتى وجدوه، ثم دخل على فراشي وأنا أقلّب يدي فقال: ما لكِ؟ قلتُ: أنتظر دعوتك، فرفع يديه وقال: «اللهم إنما أنا بشر أسف وأغضب كما يغضب البشر فأيما مؤمن أو مؤمنة دعوتُ عليه بدعوة فاجعلها زكاة وطهراً والله أعلم. والظاهر أن المراد بالإنسان الكافر وبالدعاء الدعاء بالعذاب استعجالاً واستهزاءً كقول النضر بن الحارث اللهم انصر خير الحربين ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فضرب عنقه يوم بدر صبراً.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ علامتين دالتين على القادر الحكيم بتعاقبهما على نسق واحد مع إمكان غيره ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي الآية التي هي الليل والإضافة بيانية كإضافة العدد إلى المعدود يعني جعلناها مظلمة ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ يعني جعلنا النهار مضيئاً مبصراً للناس وقيل: المراد بالآيتين الشمس والقمر وتقدير الكلام وجعلنا بين الليل والنهار آيتين أو جعلنا الليل والنهار ذوي آيتين فمحونا آية الليل يعني القمر يعني أنقصنا نوره شيئاً فشيئاً إلى المحاق وجعلنا آية النهار يعني الشمس مبصرة ذات شعاع دائم يُبصر الأشياء بضوئها، قال الكسائي يقول العرب أبصر النهار إذا صار بحيث يبصر بها، قال ابن عباس جعل الله ضوء الشمس سبعين جزءاً ونور القمس كذلك فمحى من نور القمر تسعة وستين جزءاً فجعلها مع نور الشمس حتى إن الله تعالى أمر جبرئيل فأمرَّ جناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقى فيه النور، وسأل ابن الكوا عليًّا عليه السلام عن السواد الذي في القمر فقال هو أثر المحو ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي الراحة والفراغ

للطاعة بالليل وأسباب المعاش بالنهار ﴿وَلِتَعْلَمُواْ﴾ باختلافهما أو بحركاتهما ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَ﴾ جنس ﴿وَٱلْحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ تحتاجون إليه في أمور الدين والدنيا ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي بيّناه بياناً شافياً غير ملتبسين فأزحنا عللكم وما تركنا لكم حجةً علينا.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ قال ابن عباس عمله وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان، وقال الكلبي ومقاتل خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به وقال الحسن يُمْنُه وشؤمه، قال أهل المعاني أراد بالطائر ما قضى عليه أنه عامله وما هو صائر إليه من سعادة أو شقاء، سمي طائراً على عادة العرب فيما كانت تتفاءل وتتشاءم به من سوانح الطير وبوارحها، وقال أبو عبيدة والقتيبي أرد بالطائر حظه من الخير والشر من قولهم طارسهم فلان بكذا، وخص العنق من سائر الأعضاء لأنه موضع القلائد والأطواق وغيرها مما يُزِينُ أو يُشينُ، فجرى كلام العرب بتشبيه الأشياء اللازمة إلى الأعناق، وعن مجاهد قال: ما من مولود إلا في عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ هي صحيفة عمله قرأ الجمهور نُخْرِجُ بالنون على التكلم والتعظيم من الأفعال، وكتاباً منصوباً على المفعولية أو على أنه حال من مفعول محذوف وهو الطائر ويؤيده قراءة يعقوب وأبي جعفر، وقرأ يعقوب والحسن ومجاهد بفتح الياء المثناة التحتانية وضم الراء أي يَخْرُجُ لَهُ الطائر يوم كتاباً ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف يعني يلقي الإنسان ذلك الكتاب أي يؤتاه، والباقون بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف أي يراه ﴿مَنشُورًا﴾ وهما صفتان لكتاب أو بلقاه صفة ومنشوراً حال من مفعوله، قال البغوي جاء في الآثار إن الله تعالى يأمر الملك بطيّ الصحيفة إذا تم عمر العبد فلا تنشر إلى يوم القيامة ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ أي يقال له ـ أو خط فيها اقرأ كتابك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي كفى نفسك والباء زائدة وحسيباً تميز وعلى صلته، لأنه إما بمعنى الحاسب كالصريم بمعنى الصارم من حَسِبَ عليه كذا، أو بمعنى الكافي وضع موضع الشهيد لأنه يكفي المدعي ما أهمه وتذكيره على أن الحساب والشهادة مما يتولاه الرجال، كأمه قيل كفى بنفسك اليوم رجلاً حسيباً، أو على تأويل النفس بالشخص. أخرج البيهقي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «الكتب كلها تحت العرش فإذا كان الموقف بعث الله تعالى ريحاً فتطير بالأيمان والشمائل» وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئاً في الدنيا، وقال البغوي قال الحسن لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك وأخرج ابن المبارك عن الحسن قال: كل أوتي في عنقه قلادة فيها نسخة عملها فإذا طويت قلدها وإذا بعث نشرت له، وقيل له ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ

﴿عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ وأخرج أصبهاني عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليؤتى كتابه منشوراً فيقول: يا رب فأين حسنات كذا وكذا عملتُها ليست في صحيفتي؟ فيقول: محوتُ باغتيابك للناس».

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ لها ثوابها لا ينجي اهتداؤه غيره ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ عليها عقابه لا يردى ضلاله سواه والله أعلم. أخرج ابن عبد البر بسند ضعيف عن عائشة قالت: سألتُ خديجة رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين؟ قال: «هم من آبائهم» ثم سألته بعد ذلك فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين ـ ثم سألته بعدما استحكم الإسلام فنزلت ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾» أي لا تحمل حاملة حمل نفس أخرى أي ثقلها من الآثام بل إنما تحمل وزر نفسها ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يبيّن الحجج ويمهّد الشرائع فيلزمهم الحجة، قال الشافعي في هذه الآية دليل على أنه لا وجوب قبل البعثة بالعقل فلا يعذب من لم يبلغه الدعوة على الشرك ولا على شيء من المعاصي وقال أبو حنيفة ﷺ: الحاكم هو الله تعالى لكن العقل قد يدرك بعض ما وجب عليه، وهو التوحيد والتنزيهات والإقرار بالنبوة بعد مشاهدة المعجزات، فهذه الأمور غير متوقفة على الشرع وإلا لزم الدور لأن الشرع يتوقف عليها، فيجب على الإنسان إتيان هذه الأمور قبل بعثت الرسل ويعذب المشرك وإن لم يبلغه الدعوة، ويؤيد هذا القول ما في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «يقول الله: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، قال: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير وتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيد، قالوا: يا رسول الله أيُّنا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف»[1] الحديث. وجه الاستدلال أن يأجوج ومأجوج رجال وراء السد لم يبعث فيهم رسول، فلولا التعذيب على الشرك قبل بعثة الرسل لما عذبت يأجوج ومأجوج، وقد ورد في أهل الفَتْرَةِ ومن لم يبلغه الدعوة من الأمم أحاديث تدل على أنهم يمتحنون يوم القيامة، منها ما أخرج البزار عن ثوبان أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة جاءت أهل الجاهلية يحملون أوزارهم على ظهورهم، فيسئلهم ربهم،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج (٣٣٤٨) وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: قوله ﷺ «يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين» (٢٢٢).

فيقولون ربنا لم ترسل إلينا رسولاً ولم يأتنا أمر لك، ولو أرسلتَ إلينا رسولاً لَكُنَّا أطوع عبادك، فيقول لهم ربهم أرأيتم إن أمرتُكم بأمر تطيعوني فيأخذ على ذلك مواثيقهم، فقال: اعمدوا لها فأدخلوها أي النار فينطلقون حتى إذا رأوها فرَقوا فرجعوا فقالوا: ربنا فرِقنا منها فلا نستطيع أن ندخلها، فيقول: أدخلوها داخرين» فقال النبي ﷺ «لو دخلوها أول مرة كانت عليهم برداً وسلاماً» وما أخرج أحمد وابن راهويه في مسنديهما والبيهقي في كتاب الاعتقاد وصححه عن الأسود بن سريغ أن النبي ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فَتْرَة فأما الأصم فيقول: رب جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول يا رب جاء الإسلام والصبيان يخذفونني بالبعر، وأما الهرم فيقول: لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في فترة فيقول: يا رب ما أتاني لك رسول، فأخذ مواثيقهم ليطيعنَّه فيرسل إليهم أن أدخلوا النار فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً» وما أخرج الثلاثة أيضاً من حديث أبي هريرة مرفوعاً مثله غير أنه كان في آخره فمن دخلها كانت عليه برداً أو سلاماً، ومن لم يدخلها يسحب إليها، وأخرج ابن المبارك عن مسلم بن يسار قال لي إنه يبعث يوم القيامة عبد كان في الدنيا أعمى أصم أبكم كذلك لم يسمع شيئاً قط ولم يبصر شيئاً قط ولم يتكلم شيئاً، فيقول الله تعالى ما عملتَ فيما وليّت فيما أمرت به؟ فيقول: أي رب والله ما جعلتَ لي بصراً أبصر به الناس فأقتدي بهم، وما جعلتَ لي سمعاً فأسمع به ما أمرتَ به ونهيتَ عنه، وما جعلتَ لي لساناً فأتكلم بخير أو بشر، وما كنتُ إلا كالخشبة فيقول الله عز وجل تطيعني الآن فيما آمرك به قال نعم فيقول: قع في النار فيأبى فيدفع فيها.

قلتُ: على ما قالت الحنفية أن المشرك يعذب إن كان عاقلاً قبل أن تبلغه الدعوة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾(١) فإنه يعم أصحاب الفَتْرَةِ، تحمل هذه الأحاديث على أن بعض المشركين من أهل الفَتْرَة لعلّهم يجادلون الله تعالى ويعتذرون بالجهل فيلزمهم الله تعالى الحجة بالامتحان، كما أن المشركين لما ينكرون شركهم ويقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(٢) ويطلبون على أنفسهم شهوداً، فحينئذ يشهد عليهم جوارحهم فيلزمهم الحجة ولله الحجة البالغة، لا ينصب نفساً شاء أن يعذبها إلا

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

عذبها، وهو عادل فيه هذا في التوحيد، وأما سائر الشرائع فالعقل غير كاف في إدراكها، فلا تجب على الإنسان إتيانها قبل البعثة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾(١) وبناءعلى مذهب الحنفية قال صاحب المدارك في تفسير هذه الآية ما صح منا أن نعذب قوماً عذاب استئصال في الدنيا إلا بعد أن نبعث إليهم رسولاً فنلزمهم الحجة، قلتُ وهذا التأويل بعيد جدًا، لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾(٢) يدل على عموم نفي التعذيب لوقوع النكرة في سياق النفي، ولا وجه للتخصيص بالتعذيب في الدنيا ولا بتعذيب في الآخرة بالطريق الأولى، فالأولى أن يقال إن عدم التعذيب قبل البعثة مخصوص بالمعاصي دون الشرك حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(٣) فالتقدير مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ عَلَى المَعَاصي حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً يبين لهم ما يتقون، وقيل: المراد بالرسول أعم من البشر والعقل فإن العقل أيضاً رسول من الله يدرك به الخير والشر، فما يدركه العقل ويكفي في إدراكه من الواجبات يعذب الله العاقل عليها على عدم إتيانها.

**فصل**: هذه الآية تدل على عدم تعذيب الصغار والمجانين وإن كانوا من عداوي المشركين حيث لم يبلغهم دعوة رسول بشراً كان أو عقلاً، كما يدل عليه سياق الآية حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(٤) ومن الأحاديث ما رواه أحمد بسند حسن عن خنساء بن معاوية بن مريم قال: حدثني عمي قال: قلتُ: يا رسول الله من في الجنة؟ قال: «النبي في الجنة والشهيد في الجنة والمولود في الجنة والوئيد في الجنة»(٥) وما رواه البخاري سمرة بن جندب في حديث المنام الطويل أنه ﷺ مرّ على شيخ تحت شجرة وحوله ولدان، فقال جبرائيل: هذا إبراهيم وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين، قالوا: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: نعم وأولاد المشركين»(٦) ولما روى الطيالسي عن أنس أنه سئل عن أطفال المشركين فقال: قال رسول الله ﷺ «لم يكن لهم

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في فضل الشهادة (٢٥١٩) وأخرجه أحمد في المسند المجلد الخامس/تابع مسند البصريين.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح (٧٠٤٧).

سيئات فيكونوا من أهل النار ولم يكن لهم حسنات فيجازوا بها فيكونوا من مملوك أهل الجنة هم خدم أهل الجنة» وما أخرج ابن جرير عن سمرة قال: سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين؟ فقال: هم خدم أهل الجنة، وأخرج مثله عن ابن مسعود موقوفاً. فإن قيل: في الصحيح ما يدل على عدم الجزم بذلك، أخرج الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «أنه سئل عن أطفال المشركين؟ فقال «الله أعلم بما كانوا عاملين»[1] وأخرج مثله من حديث ابن عباس، قلت: هذا الحكم أعني عدم الجزم بكونهم في الجنة الذي دل عليه هذان الحديثان منسوخ كان قبل نزول آية الفتح الناسخة لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾[2] فإنه ﷺ كان قبل ذلك يَرُدُّ بها على من شهد لأحد بعينه بالجنة، ورد بها على من شهدت لعثمان بن مظعون كما في الصحيح فلما نزلت آية الفتح سرّ بها كثيراً وشهد بعدها لجماعة بأعيانهم بالجنة، وهذا هو الجواب لحديث رواه مسلم عن عائشة قالت: «دُعِيَ رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار فقالت: يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدرك، فقال: «أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم»[3] فإن هذا الحديث يدل على التوقف في أطفال المسلمين أيضاً وقد انعقد الإجماع على كونهم في الجنة، نقله الإمام أحمد وابن أبي زيد وأبو يعلى من الفراء وغيرهم ونصوص الكتاب والأحاديث صريحة في ذلك كذا قال النووي والسيوطي، وهو الجواب عما رواه ابن حبان في صحيحه والبزار عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أمر هذه الأمة متقارباً ما لم يتكلموا في القدر والولدان» قال ابن حبان يعني أطفال المشركين فإنا نحمل هذا الحديث أيضاً على كونه قبل آية الفتح وقبل أن يعلم رسول الله ﷺ كونهم في الجنة.

فإن قيل: بعض الأحاديث يدل على كون أطفال المشركين في النار، منها ما أخرج أبو يعلى عن البراء قال: سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين فقال: «هم مع آبائهم» وسئل عن أطفال المشركين فقال: «هم مع آبائهم» وما روى أبو داود عن عائشة قالت:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٤) وأخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٦٠).

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٩.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٦٢).

قلتُ: يا رسول الله ذراري المؤمنين؟ قال: «من آبائهم» فقلتُ يا رسول الله بلا عمل؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» قلت فذراري المشركين» قال من آبائهم، قلتُ بلا عمل» قال «الله أعلم بما كانوا يعملون»(١) وأخرج أحمد عن عائشة بسند ضعيف جداً أنها ذكرت لرسول الله ﷺ أطفال المشركين فقال: «إن شئت أسمعتكِ تصاعدهم في النار» وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند بسند فيه مجهول وانقطاع وابن أبي حاتم في السنة عن عليّ قال سَألت خديجةُ رسول الله ﷺ عن ولدين ماتا في الجاهلية؟ فقال هما في النار فلما رأى الكراهية في وجهها قال لها ولو رأيتِ مكانهما لأبغضتهما قالت: فولدي منك؟ قال: إن المؤمنين وأولادهم في الجنة وإن المشركين وأولادهم في النار، ثم تلا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾(٢) وأخرج أبو داود عن ابن مسعود بسند حسن قال: قال رسول الله ﷺ «الوائدة والموءودة في النار»(٣) وأخرج أيضاً بسند حسن عن سلمة بن قيس الأشجعي قال أتيتُ أنا وأخي النبي ﷺ فقلنا: إن أمَّنا ماتت في الجاهلية وكانت تقري الضيف وتصل الرحم وإنها وأدت أختاً لها في الجاهلية لم تبلغ؟ فقال: «الوائدة والموءودة في النار إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فتسلم» قلنا: أما الموءودة الواردة في الحديث فالمراد بها الموءودة لها يعني الأم، والوائدة هي القابلة دفعاً للتعارض، وأما الأحاديث المذكورة في كون أطفال المشركين في النار فليس شيء منها يقوي قوة الأحاديث المتقدمة فسقطت بالأحاديث الصحيحة فضلاً عن مصادمة القرآن، والقول بكون تلك الأحاديث منسوخة لا يجوز لأن الأخبار لا يحتمل النسخ، اللهم إلا أن يقال إن الله رفع عنهم العذاب بعدما كتب عليهم بشفاعة النبي ﷺ، يدل عليه حديث ابن أبي شيبة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «سألتُ ربي اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم» قال ابن عبد البر: هم الأطفال لأن أعمالهم كاللهو واللعب من غير عقل ولا عزم.

قال السيوطي: اختلف الناس قديماً وحديثاً في أطفال المشركين على أقوال: أحدها أنهم في النار للأحاديث المذكورة التي دلت على ذلك لكنها ضعيفة لا تقوم بها حجة، والثاني أنهم في الجنة والثالث: أنهم خدم أهل الجنة، (قلتُ لا تعارض بين هذين

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في ذراري المشركين (٤٧٠٠).
(٢) سورة الطور، الآية: ٢١.
(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في ذراري المشركين (٤٨٠٤).

القولين فإن خدم أهل الجنة في الجنة) والرابع: أنهم في مشيئة الله لا يحكم عليهم وهذا ما نقل عن الحمادين وابن المبارك وابن راهويه والشافعي ونقله النسفي عن أبي حنيفة (قلتُ: ومبنى هذا القول على الاحتياط والصحيح أن هذا الحكم منسوخ كما ذكرنا) والخامس أنهم يمتحنون في الآخرة كما يمتحن أصحاب الفترة، لما أخرج البزار وأبو يعلى عن أنس قال قال رسول الله ﷺ «يؤتى بأربعة يوم القيامة بالمولود والمعتوه ومن مات في الفَتْرَة والشيخ الفاني كلهم يتكلم بحجته فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من النار أبرز ويقول: إني كنت أبعث إلى عبادي رسلاً من أنفسهم وإني رسول نفسي إليكم ادخلوا هذه فيقول: من كتب عليه الشقاء يا رب أندخلها ومنها كنا نفر ومن كتب عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعاً فيقول الله تعالى أنتم كنتم لرسلي أشد تكذيباً ومعصية فيدخل هؤلاء إلى الجنة وهؤلاء إلى النار» وأخرج البزار ومحمد بن يحيى الذهبي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «يحتج الهالك في الفترة والمعتوه والمولود يقول الهالك في الفترة رب لم يأتيني كتاب ويقول المعتوه رب لم تجعل لي عقلاً أعقل به خيراً ولا شراً ويقول المولود رب لم أدرك العقل فترتفع لهم نار فيقول: ردوها فيردها من كان في علم الله سعيداً لو أدرك العمل ويمسك عنها من كان في علم الله شقيًّا لو أدرك العمل فيقول: إياي عصيتم فكيف لو رسلي أتتكم» وأخرج الطبراني وأبو نعيم عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: «يؤتى يوم القيامة بالممسوح عقلاً وبالهالك فترة وبالهالك صغيراً فيقول: الممسوح عقلاً رب لو آتيتني عقلاً ما كان من آتينه عقلاً بأسعد مني وذكر في الهالك في الفترة والصغير نحو ذلك فيقول الرب تبارك وتعالى إني آمركم بأمري فتطيعوني فيقولون: نعم فيقول: اذهبوا فادخلوا النار، قال: لو دخلوها ما ضرتهم فيخرج عليهم فرائض فيظنون أنها قد أهلك ما خلق الله من شيء فيرجعون سراعاً ثم يأمر الثانية فيرجعون ذلك فيقول الرب تعالى: قبل أن خلقتُكم علمتُ ما أنتم عاملون».

قلتُ: وهذا القول الخامس لا يلائم ضروريات الدين قال رسول الله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يكبر»[1] رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن عائشة بسند صحيح وعن

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الحدود، باب: في المجنون يسرق أو يصيب حداً (٤٣٨٨) وأخرجه النسائي في كتاب: الطلاق، باب: من لا يقع طلاقه من الأزواج (٢٤٢٣) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: طلاق المعتوه والصغير والنائم (٢٠٤١).

علي وعمر بسندصحيح، وفي لفظ آخر «رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ وعن المبتلى حتى يبرأ وعن الصبي حتى يكبر» رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم عن عائشة بسند صحيح، وقد ثبت بالحديث أنه من همّ بسيئة لا يؤاخذ بها ما لم يعملها، فكيف بمن لم يهمّ بها ولم يعقلها، وقال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[2] ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[3] وأجمع الأمة على أن مناط التكليف العقل والبلوغ، فلعل لفظ المولود والمجنون في هذه الأحاديث من وهم الرواة أو المولود والمجنون يَمْتَثِلُونَ أمر الله ويدخلون النار عند الامتحان فينجون بخلاف المشركين من أهل الفترة، قال السيوطي وقيل في أطفال المشركين أنهم يكونون في برزخ بين الجنة والنار، وقيل يصيرون تراباً، ولا دليل على ذلك وأما الأولاد المسلمين فلم يجر فيهم خلاف بل الإجماع أنهم في الجنة والله أعلم.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي متنعميها وجبابرتها، قرأ مجاهد أمَّرنا بالتشديد أي سلَّطنا وجعلناهم أمراء، وقرأ الحسن وقتادة ويعقوب آمَرْنا بالمدّأي أكثرنا، وقرأ الجمهور مقصوراً مخففاً أي أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا بالطاعة على لسان رسول بعث إليهم، ويدل على هذا التقدير قوله تعالى فيما قبل ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وفيما بعد ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ فإن الفسق هو الخروج عن الطاعة والتمرد في العصيان، فيدل على الطاعة، وقيل: معنى الآية أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا بالفسق ففسقوا، كقولك أمرته فجلس فإنه لا يفهم

(١) (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٣) سورة النجم، الآية: ٣٩.

منه إلا الأمر بالجلوس، والأمر حينئذ ليس بمعناه الحقيقي فإن الله لا يأمر بالفحشاء لكنه مجاز من الحمل عليه والتسبب له، بأن صبَّ عليهم من النعم ما أبصرهم وأمضى بهم إلى الفسوق، وقيل: معناه معني كَثَّرنا يقال أمرُ الشيء وأمرتُه فأمر أي كثرتُه فكثر، وفي الحديث «خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة» أي طريقة مصطفة من النخل مصلحة، وولد الفرس أنثى أي كثير النسل والنتاج ومنه قول أبي سفيان في حديث هرقل لقد آمر أمر ابن أبي كبشة أي كثر وارتفع شأنه، يعني النبي ﷺ ومنه الحديث أن رجلاً قال له مالي أرى أمرك يأمر، قال: والله ليأمرن أي يزيد على ما ترى، ومنه حديث ابن مسعود قال: كنا نقول في الجاهلية قد آمر بنوا فلان أي كثروا، وفي القاموس آمَرَه وأَمَرَهُ كَنَصَرَهُ لُغَيَّة كثر نسله وماشيته، ويحتمل أن يكون منقولاً من أمر بالضم أمارة أي جعلناهم أمراء، وتخصيص المترفين لأن غيرهم يتبعهم، ولأنهم أسرع إلى الحماقة وأقدر على الفجور ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي وجب عليها الكلمة السابقة بالعذاب بحلوله أو الكلمة السابقة بظهور معاصيهم أو انهماكهم فيها ﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ أي أهلكناها بهلاك أهلها وتخريب ديارها، روى البخاري عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً وهو يقول: «لا إله إلا الله ويل للعرب من شرّ قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج وأجوج مثل هذه وحلق بأصبعيه الإبهام والتي يليها، قالت زينب فقلتُ: يا رسول الله أنهلك وفيها الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»[١].

﴿وَكَمۡ﴾ أي كثيراً ﴿وَكَمۡ مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ بيان لِكَمْ وتميز له، والقرن القوم المقترنون في زمان واحد، يعني يكون ولادتهم في وقت واحد، في القاموس يقال هو على قرني أي على سني وعمري، وإنقضاء القرن أن لا يبقى منهم أحد، في القاموس هو كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد، قلتُ: وأما قرن الصحابة وقرن التابعين فيقال باعتبار مقارنتهم في مصاحبة الرسول الله ﷺ أو مصاحبة أحد ممن صاحبه ﷺ، وقيل: القرن مدة من الزمان عشرة سنين أو عشرون أو ثلاثون أو أربعون أو خمسون أو ستون أو سبعون أو ثمانون أو مائة سنة أو مائة وعشرون كذا في القاموس من الأقوال، واعتبرت الحنفية في مدة المفقود تسعين سنة والأصح أنه مائة سنة، لما روى محمد بن القاسم عن عبد الله ابن بُسر المازني أن رسول الله ﷺ وضع يده على رأسه وقال: «يعيش هذا الغلام قرناً» قال محمد بن القاسم ما زلنا نعد له حتى تَمَّتُ مائة سنة ثم مات ﴿مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ﴾ كعاد وثمود وغيرهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج (٣٣٤٦).

تخويف لكفار مكة ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ في محل الرفع والباء زائدة ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ متعلق بما بعده على سبيل التنازع ﴿خَبِيرًا﴾ وإن أخفوها في الصدور ﴿بَصِيرًا﴾ وإن أرخوا عليها الستور.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ يعني الدار العاجلة أي الدنيا مقصوراً عليها همته ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ أعطيناه في العاجلة ﴿مَا نَشَآءُ﴾ كل يريده أو بعضه قيد به لأنه لا يجد كل أحد جميع ما يتمناه غالباً ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ أنْ نفعل به ذلك بدل من لَهُ بدل البعض قيد به لأنه لا يجد كل متمنّ متمنَّاه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ يدخل نارها ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ مطروداً مبعداً من رحمة الله ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا﴾ أي للآخرة حق ﴿سَعْيَهَا﴾ وهو الأئتمار بالأوامر والانتهاء عن المناهي، لا بمجرد التمني أو التقرب بما يخترعون بآرائهم فهو منصوب على المصدرية، وجاز كونه منصوباً على المفعولية، وفائدة اللام اعتبار النية والإخلاص ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيماناً صحيحاً لا شرك معه ولا تكذيب فإنه العمدة ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ أي الجامعون للشرائط الثلاثة ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ من الله أي مقبولاً عنده مثاباً عليه فإن شكر الله الثواب على الطاعة ﴿كُلًّا﴾ التنوين بدل من المضاف إليه أي كل واحد من الفريقين ﴿نُّمِدُّ﴾ بالعطاء مرة بعد أخرى، ونجعل آخره مدد السابقة ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾ بدل من كُلاً ﴿مِنْ عَطَآءِ﴾ أي من معطاة ﴿رَبِّكَ﴾ متعلق بِنُمِدُّ ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ممنوعاً لا يمنعه في الدنيا من مؤمن ولا من كافر تفضلاً ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الرزق والجمال في الدنيا وانتصاب كَيْفَ بفَضَّلْنَا على الحال ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ أي التفاوت في الآخرة أكثر من التفاوت في الدنيا لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودركاتها والله أعلم ﴿لَّا تَجْعَلْ﴾ الخطاب للرسول الله ﷺ والمراد أمته، أو لكل واحد أي لا تفعل أيها الإنسان ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ﴾ أي فتصير من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة، أو فتعجز من قولك قعد عن الشيء إذا عجز عنه ﴿مَذْمُومًا﴾ من الملائكة والمؤمنين ﴿مَّخْذُولًا﴾ غير منصور.

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي أمر أمراً مقطوعاً به كذا قال ابن عباس وقتادة والحسن والربيع بن أنس ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلا إياه لأن العبادة التي هي غاية التعظيم لا يحق إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإنعام، وهو كالتفصيل لسعي الآخرة، ويجوز أن يكون أن مفسرة لأنّ في قضي معنى القول ولا يجوز كونها ناصبة ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي وأن تُحسنوا أو أحسنوا بالوالدين إحساناً لأنهما السبب الظاهري للوجود والتعيش ﴿إِمَّا﴾ أن شرطية زيدت عليها ما للتأكيد فأدغمت النون في الميم، ولذلك صح لحوق النون المؤكدة في الفعل وإن أفردت إنْ لم يصح دخولها، إذ لا يقال إنْ تكرمن زيداً ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ قرأ حمزة والكسائي يَبْلُغَانِّ بالألف على التثنيه، والضمير راجع إلى الوالدين ﴿عِندَكَ﴾ أي في كنفك وكفالتك ﴿ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ﴾ بدل من ضمير التثنية في يَبْلُغَانِّ ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ عطف على أحدهما وقرأ الجمهور بغير ألف وفاعل الفعل أحدهما مع ما عطف عليه أي أن يبلغ الكبر أحدهما أو كلاهما ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ قرأ نافع وحفص وأبو جعفر هنا وفي الأنبياء والأحقاف بالتنوين للتنكير كتنوين صهٍ وكسر الفاء، وابن كثير وابن عامر ويعقوب فتح الفاء من غير تنوين، والباقون بكسرها من غير تنوين، وهي كلمة كراهية صوت يدل على التضجّر، وقيل اسم للفعل الذي هو التضجر، قال أبو عبيدة: أصل الأف والتف الوسخ على الأصابع، وفي القاموس الأفُّ قُلامة الظفر ووسخه، أو وسخ الأذن وما رفعته من الأرض من عود أو قصبة، أو الأف معناه القلة يعني لا تقل لهما كلمة تدل على أدنى كراهة فيحرم بذلك سائر أنواع الإيذاء بدلالة النص بالطريق الأولى، يقال فلان لا يملك النقير ولا القطمير ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي لا تزجرهما عما لا يعجبك ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ حسناً جميلاً ليناً قال ابن المسيب كقول العبد المذنب للسيد الفظّ قال مجاهد إذا بلغا عندك من الكبر فلا تقذرهما ولا تقل لهما أف حين تميط عنهما الخلاء والبول كما كانا يميطان عنك صغيراً.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ أي تذال لهما وتواضع فيهما جعل للذل جناحاً وأمره بخفضهما مبالغة، أو أراد جناحه كقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] وإضافته إلى الذل للبيان والمبالغة، كما أضيف حاتم إلى الجود والمعنى واخفض لهما جناحك الذليل واخضع، وقال عروة بن الزبير لِنْ لهما حتى لا يمتنعا من شيء أحباه ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي من فرط رحمتك عليهما لافتقارهما إلى من كان أفقر خلق الله إليهما ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٨.

يعني أدع الله لهما أن يرحمهما برحمته الباقية ولا تكتف برحمتك الفانية، قال البغوي أراد إن كانا مسلمين، قال ابن عباس هذا منسوخ بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾[1] وقال البيضاوي وإن كانا كافرين لأن من الرحمة أن يهديهما للإسلام ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أي رحمة مثل رحمتهما عليّ وتربيتهما عليّ وإرشادهما لي في صغري وفاءً بوعدك للراحمين، عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: «الوالد أوسط أبواب الجنة فحافظ إن شئتَ أو ضيع»[2] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم بسند صحيح، وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «رضاء الله في رضاء الوالد وسخط الله في سخط الوالد»[3] رواه الترمذي والحاكم وصححه وروى البزار عن ابن عمرو، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر»[4] ورواه النسائي والدارمي عن ابن عمر، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرتُ عنده فلم يصل عليّ ورغم أنف رجل أتى عليه شهر رمضان فلم يغفر له ورغم أنف رجل أتى عليه شهر رمضان فلم يغفر له ورغم أنف رجل أدرك أبويه الكبر فلم يدخلاه الجنة»[5] رواه البغوي والترمذي والحاكم وصححه، ورواه مسلم وأحمد بلفظ «رغم أنفه ثم رغم أنفه ثم رغم أنفه قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك عنده الكبر أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة»[6] وعن أبي أمامة أن رجلاً قال يا رسول الله «ما حق الوالدين على ولدهما» قال: «هما جنتك ونارك»[7] رواه ابن ماجه، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح لله مطيعاً في والديه أصبح له بابان مفتوحان من الجنة وإن كان واحداً فواحداً، ومن أمسى عاصياً لله في والديه أصبح له بابان مفتوحان من النار وإن كان واحداً فواحداً، قال رجل وإن ظلماه»؟ قال: وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه» وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من ولد بار ينظر والديه نظر رحمة

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٣.
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء من الفضل في رضا الوالدين (١٩٠٣) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: الرجل يأمره أبوه بطلاق امرأته (٢٠٨٩).
(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء من الفضل في رضا الوالدين (١٩٠٤).
(٤) أخرجه النسائي في كتاب: الأشربة، باب: الرواية في المدمنين في الخمر (٥٦٧١).
(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: قول رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل» (٣٥٤٥).
(٦) أخرجه مسلم في كتاب: البروالصلة والآداب، باب: رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة (٢٥٥١).
(٧) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الآدب، باب: بر الوالدين (٣٦٦٢).

إلا كتب الله له بكل نظرة حجة مبرورة، قالوا: وإن نظر كل يوم مائة مرة؟ قال: نعم الله أكبر وأطيب» وعن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الذنوب يغفر الله منها ما يشاء إلا عقوق الوالدين فإنه يعجل لصاحبه في الحياة قبل الممات» روى الأحاديث الثلاثة البيهقي في شعب الإيمان والأول منها ابن عساكر، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ «كل الذنوب يؤخر الله ما شاء منها إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإنه يعجل لصاحبه في الحياة الدنيا قبل الممات» رواه الطبراني بسند ضعيف والحاكم.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من البر إليهما والاعتقاد بما يجب لهما من التوقير فكأنه تهديد على أن يَضْمَر لهما كراهيةً واستثقالاً، وجاز أن يقال معناه ربكم أعلم بنياتكم في بر الوالدين إن كان ذلك احتساباً وامتثالاً لأمر الله تعالى فاجره على الله وإن كان لغرض من أغراض الدنيا فهو على ما نوى ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ أي قاصدين الأجر عند الله والصلاح. وقال البغوي أن تكونوا أبراراً مطيعين بعد تقصير كان منكم في القيام بما لزمكم من حق الوالدين ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ أي التوابين بعد المعصية في حقهما ﴿غَفُورًا﴾ لما فرط منهم، قال سعيد بن جبير في هذه الآية هو الرجل يكون منه البادرة إلى أبويه لا يريد بذلك إلا الخير فإنه لا يؤاخذ به، وجاز أن يكون الآية عامة لكل تائب ويندرج فيه الجاني على أبويه لوروده على أثره، قال سعيد بن المسيب الأواب الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب وقال سعيد بن جبير الرجاع إلى الخير، وعن ابن عباس قال هو الرجاع إلى الله فيما يجزيه وينوبه، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: هم المسبحون دليله قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾(١) وقال قتادة المصلون، وقال عوف العقيلي هم الذين يصلُّون صلاة الضحى، روى البغوي عن زيد بن أرقم قال: «خرج رسول الله ﷺ على أهل قباء وهم يصلُّون الضحى فقال: «صلاة الأوّابين إذا رمضت الفصال من الضحى»(٢) ورواه أحمد ومسلم ورواه عبد بن حميد وسيبوبه عن عبد الله بن أبي أوفى، قال البغوي وروي عن ابن عباس أنه قال: إن الملائكة لتحفُّ بالذين يصلُّون بين المغرب والعشاء وهي صلاة الأوّابين.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٠.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: صلاة الأوابين حين ترمض الفصال(٧٤٨).

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ
كَانُوٓا إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن
رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ
ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ
خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا
كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ
ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ
مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ
ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ
تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي ذوي قرابتك ﴿حَقَّهُۥ﴾ من صلة الرحم وحسن المعاشرة والبر عليهم وعليه أكثر المفسرين، وقال أبو حنيفة يجب النفقة على الغني لكل ذي رحم محرم إذا كان صغيراً فقيراً أو امرأةً بالغةً فقيرةً أو ذكراً زمناً أو أعمى فقيراً، لأن فيه إبقاء النفس وهو أصل البر والصلة، وقد ذكرنا هذه المسئلة في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾[1] وذكر البغوي عن علي بن الحسين ﷺ، وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن السديّ وأخرج الطبراني وغيره عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاها فدك، وروى ابن مردويه عن ابن عباس مثله، قال ابن كثير هذا مشكل فإنه يشعر بأن الآية مدنية والمشهور خلافه، قلتُ: وأيضاً المشهور المعتمد عليه أن فاطمة سألت رسول الله ﷺ فدك فلم يعطها، كذا روى عن عمر بن عبد العزيز، ولو كان رسول الله ﷺ أعطاها فاطمة لما منعها عنها الخلفاء الراشدون لا سيّما علي في خلافته والله أعلم ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قد مر في سورة البقرة ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ أي لا تنفق مالك في المعصية، قال مجاهد لو أنفق الإنسان ماله كله في الحق ما كان تبذيراً ولو أنفق مداً في الباطل كان تبذيراً، وسئل عن ابن مسعود عن التبذير فقال: إنفاق مال في غير حقه، قال شعبة كنتُ أمشي مع أبي إسحاق في طريق الكوفة فأتى على جدار بُنِيَ بجص وآجر فقال هذا التبذير في قول عبد الله إنفاق المال في غير حقه ﴿إِنَّ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

﴿ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي أمثالهم في الشرارة قال البغوي يقول العرب لكل ملازم سنة قوم هو أخوهم ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ جحوداً للنعمة مبالغاً في الكفر والكفران، فليس ينبغي أن يطاع اعلم أن الشكر على ما قاله أهل التحقيق صرف النعمة في رضاء المنعم، والتبذير صرف المال في المعصية فهو ضد الشكر، فمن أتى به كان كفوراً والله أعلم.

أخرج سعيد بن منصور عن عطاء الخراساني قال: جاء ناس من مزينة يستحملون رسول الله ﷺ، فقال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾ ظنوا ذلك من غضب رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾ إن شرطية وما زائدة والمعني إن تعرض يا محمد ﴿عَنْهُمُ﴾ يعني عن ذوي القربى والمساكين وابن السبيل، أراد بالإعراض عدم الإنفاق عليهم على سبيل الكناية، وقال البغوي نزلت في مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب كانوا يسئلون النبي ﷺ ما يحتاجون إليه ولا يجد فيعرض عنهم حياءً ويمسك عن القول، فنزل ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ يعني حياءً من الرد ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ﴾ أي لأجل انتظار رزق ﴿مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أن يأتيك فتعطيه أو منتظراً له، وقيل معناه لفقد رزق من ربك ترجوه أن يفتح لك، فوضَعَ الابتغاء موضع الفقدان لأنه مسبب عنه، وجاز أن يكون الابتغاء متعلقاً بقوله ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي قل لهم قولاً ليناً كي يرحمك الله برحمتك عليهم بإجمال القول، والميسور مِن يسر الأمر مثل سعد الرجل ونحس، قال البغوي هو العدة أي عِدْهم وعداً جميلاً، وقيل: الدعاء لهم بالميسور وهو اليسر مثل أغناكم الله ورزقنا الله وإياكم والله أعلم.

أخرج سعيد بن منصور عن سيار أبي الحكم قال: أُتِيَ رسول الله ﷺ ببزٍّ، وكان معطياً كريماً فقسَّمه بين الناس، فأتاه قوم فوجدوه قد فرغ منه، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ وأخرج ابن مردويه وغيره عن ابن مسعود قال جاء غلام إلى النبي ﷺ فقال: إن أُمِّي تسئلك كذا وكذا فقال: ما عندنا اليوم شيء، قال فتقول اكسني قميصك فدفعه إليه فجلس في البيت حاسراً، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخرج ابن أبي حاتم عن المنهال بن عمرو بمعناه وأخرج أيضاً عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال لعائشة أَنْفِقي ما ظهر كفى قالت: إذن لا يبقى شيء فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال البغوي قال جابر أتى صبي فقال: يا رسول الله إن أُمِّي تستكسيك درعاً، ولم يكن لرسول الله ﷺ إلا قميصه، فقال للصبي من ساعة إلى ساعة يظهر فعد وقتاً آخر، فعاد إلى أمه فقالت له قل إن أُمِّي تستكسيك الدرع الذي عليك فدخل رسول الله ﷺ داره ونزع قميصه

فأعطاه، وقعد عرياناً فأذّن بلال بالصلاة فانتظروه فلم يخرج فشغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عرياناً فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ يعني لا تمسك يدك عن النفقة في الحق كالمغلول يده لا يقدر على ردها ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ بالعطاء ﴿كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ فتعطي جميع ما عندك بحيث لا تقدر على أداء حقوق نفسك وأهلك ومن له الحق عليك، قال البيضاوي هذان تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبذّر نهي عنهما وأمر بالاقتصاد بينهما الذي هو الكرم ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ أي تصير ملوماً عند الله وعند الناس بالإمساك مع السعة أو بالإسراف وسوء التدبير ﴿مَّحْسُورًا﴾ قال قتادة نادماً على ما فرط منك في الفصلين، أو المعنى تصير ملوماً يلومك السائلون بالإمساك إذا لم تعطهم مع السعة محسوراً منقطعاً بك لا شيء عندك، مِنْ حسرة السفر إذا بلغ فيه، وحسرته بالمسئلة إذا لحفت عليه، فيكون الشر على ترتيب اللف ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ﴾ أي يوسع ﴿ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده وليس البسط إليك ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيق الرزق على من يشاء على ما يقتضيه حكمته، فلا لوم عليك إن أمسكت بعض ما تحتاج إليه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يعلم سرهم وعلانيتهم فيعلم من مصالحهم ما يخفي عليهم ويرزقهم على حسب مصالحهم ويجوز أن يراد أن البسط والقبض من أمر الله الذي يعلم سرائرهم وظواهرهم، وأما العباد فعليهم أن يقتصدوا، أو يراد أنه تعالى يبسط تارةً ويقبض أخرى فاستنوا بسنته ولا تقبضوا كل القبض ولا تبسطوا كل البسط، ويجوز أن يكون هذا تمهيداً لقوله.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ يعني البنات كما كانوا يفعلون ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ مخافة الفقر نهاهم عن القتل وضمن لهم أرزاقهم فقال ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا﴾ قرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان وأبو جعفر بفتح الخاء والطاء مقصوراً، وابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ممدوداً، والباقون بكسر الخاء وسكون الطاء، قال البغوي معنى الكل واحد أي إثماً ﴿كَبِيرًا﴾ وقال البيضاوي على قراءة الجمهور مصدر من خَطَأَ خِطأً كأثم إثماً، وعلى قراءة ابن عامر اسم من أخطأ يضاد الصواب وقيل: لغة فيه كمَثَل ومِثْل وحَذَر وحِذْر، وعلى قراءة ابن كثير إما لغة أو مصدر خاطَأَ خِطَاءً كقاتل قتالاً. عن ابن مسعود قال: سألتُ رسول الله ﷺ «أيّ الذنب أعظم؟ قال «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك» قلتُ: إن ذلك لعظيم ثم أيٌّ»؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»(١) متفق عليه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ أي لا تأتوا بدواعيها من العزم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المحاربين، باب: إثم الزناة (٦٨١١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده(٨٦).

عليه، أو على بعض مقدماتها فضلاً أن تباشروه ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الزنى ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ فعلة ظاهرة القبح زائدته ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ بئس طريقاً طريقه، وهو الغصب على الأبضاع المؤدي إلى قطع الأنساب وهيجان الفتن، عن بريدة عن النبي ﷺ قال: «إن السماوات السبع والأرضين السبع ليَلْعَنَّ الشيخ الزاني وإن فروج الزناة لتؤذي أهل النار بنتن ريحها» رواه البزار وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «المقيم على الزنى كعابد وثن» رواه الخرابطي، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان فكان عليه كالظلة فإذا قلع رجع إليه الإيمان»[١] رواه أبو داود واللفظ له والترمذي والبيهقي والحاكم، وفي الصحيحين عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[٢].

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها من مسلم أو ذمي ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يعني بحد أو قصاص أو بغي أو سب الصحابة رضي الله عنهم ونحو ذلك وأما المرتد فنفسه ليست مما حرم الله قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟﴾[٣] الآية، وقال الله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى﴾[٤] وقال الله تعالى: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾[٥] وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة»[٦] رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وليس المراد بتارك دينه المولد لأنه ليس بامرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله بل المراد به الفاني في الهوى المفارق للجماعة من الروافض والخوارج وأمثال ذلك والله أعلم..

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: الدليل على زيارة الإيمان ونقصانه (٤٦٧٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الحدود، باب: ما يحذر من الزنا وشرب الخمر (٦٧٧٢) وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كما له (٥٧).

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ٩.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب: الديات، باب: قول الله تعالى (أن النفس بالنفس) (٦٨٧٨): وأخرجه مسلم في كتاب: القسامة، باب: ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦).

**فصل** عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يقضى يوم القيامة في الدماء»[(١)] متفق عليه، وعن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق»[(٢)] رواه ابن ماجه بسند حسن والبيهقي وزاد «لو أهل سماواته وأهل أرضه اشتركوا في دم مؤمن لأدخلهم الله النار» وروى النسائي من حديث بريدة قال قال رسول الله ﷺ: «قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا»[(٣)] وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله»[(٤)] رواه ابن ماجه والأصبهاني وزاد قال ابن عيينة هو أَنْ يقول أُقْ لا يتم كلمة أُقْتُل، وأخرج البيهقي من حديث ابن عمر نحوه وعن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو يقتل مؤمناً متعمداً»[(٥)] رواه النسائي وصححه الحاكم وأخرج أبو داود وصححه ابن حبان والحاكم من حديث أبي الدرداء نحوه، وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أصبح إبليس بث جنوده مَنْ أضل اليوم مسلماً أُلْبِسُه التاج قال فيجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى طلّق امرأته، فيقول: أوشك أن يتزوج، قال ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى عق والديه، فيقول: أوشك أن يبرهما، ويجيء هذا فيقول لم أزل به حتى أشرك فيقول أنتَ أنتَ ويجيء هذا فيقول لم أزل به حتى قتل فيقول أنت أنتَ ويُلْبِسُه التاج» رواه ابن حبان في صحيحه ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ غير مستوجب للقتل عمداً ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي لمن يلى أمره بعد وفاته وهو الوارث ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي قوة وتسلطاً بالمؤاخذة بالقصاص ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ قرأ حمزة والكسائي لا تُسْرِفْ بالتاء الفوقانية على الخطاب، والباقون بالياء التحتانية على الغيبة، قيل: الخطاب للقاتل والضمير راجع إليه، يعني لا يسرف القاتل في القتل بأن يقتل من لا يحق قتله فإن العاقل لا يفعل ما يعود عليه بالهلاك في الدنيا والآخرة، وقال ابن عباس وأكثر المفسرين الخطاب والضمير لولي المقتول والمعنى لا يقتل الولي غير القاتل، وذلك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الديات (٦٨٦٤) وأخرجه مسلم في كتاب: القسامة، باب: المجازاة بالدماء في الآخرة وأنها أول ما يقضي فيه بين الناس يوم القيامة(١٦٧٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الديات، باب: التغليظ في قتل مسلم ظلماً (٢٦١٩).

(٣) أخرجه النسائي في كتاب: تحريم الدم، باب: تعظيم الدم (٣٩٨٦).

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الديات، باب: التغليظ في قتل مسلم ظلماً (٢٦٢٠) قال في الزوائد: في إسناده يزيد بن أبي زياد بالفوافي تصنيفه.

(٥) أخرجه النسائي في كتاب: تحريم الدم (٣٩٨٤).

أنهم كانوا في الجاهلية إذا قُتِلَ منهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله حتى يقتلوا أشرف منه، وقال سعيد بن جبير إذا كان القاتل واحداً فلا يقتل جماعة بدل واحد وكان أهل الجاهلية إذا كان المقتول شريفاً لا يرضون بقتل القاتل وحده حتى يقتلوا معه جماعة من أقربائه، وقال قتادة معناه لا يمثّل بالقاتل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ قال مجاهد الضمير راجع إلى من قُتِلَ ظلماً يعني أن المقتول ظلماً منصور في الدنيا بإيجاب القواد على قاتله، وفي الآخرة بتكفير خطاياه وإيجاب النار لقاتله، وقال قتادة الضمير راجع إلى وليه يعني إنه منصور على القاتل باستيفاء القصاص منه يجب على الأئمة نصره وقيل: الضمير راجع إلى الذي يقتله الولي إسرافاً بإيجاب القصاص والوزر على المسرف.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ فضلاً أن تتصرفوا فيه ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى﴾ أي بالطريقة التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ الطرق من محافظة مال اليتيم والتجارة فيه لأجله ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غاية لجواز التصرف الصالح الذي دل عليه الاستثناء ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ أي بما عاهدكم الله من تكاليفه وما عاهدتم الناس عهداً مشروعاً ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ أي مطلوباً يطلب من العاهد أن لا يضيعه ويفيء به أو مسؤولاً عنه فيسئل عن الناكث ويعاتب عليه أو يسئل العهد تبكيتاً للناكث كما يقال للموءودة: ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾[1] ويجوز أن يراد صاحب العهد بحذف المضاف ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ ولا تبخسوا فيه ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص هنا وفي الشعراء بكسر القاف والباقون بضمها وهو الميزان، قال مجاهد هو لفظ رومي عرّب، ولا يقدح ذلك في كون القرآن عربياً لأن اللفظ العجمي إذا استعمل في الكلام العربي وأجري عليه ما يجري على العربي من الإعراب والتعريف والتنكير صار عربيًا، وقال الأكثر هو عربي مأخوذ من القسط بمعنى العدل ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ السوي ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ في الدنيا ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي عاقبة تفعيل من آل إذا رجع.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

(١) سورة التكوير، الآية: ٩.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي لا تتبع من قَفَا يَقْفُوا إذا تبع أثره، ومنه القافة لتتبعهم الآثار ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي ما لم يتعلق به علمك بالحس أو الخبر الصادق أو البرهان، احتج بهذه الآية من قال: إنه لا يجوز العمل بالأدلة الظنّية، وجوابه أن المراد بالعلم ههنا الاعتقاد الراجح المستفاد من سند سواء كان قطعيًا أو ظنيًا واستعماله بهذا المعنى شائع، وقيل: إنه مخصوص بالعقائد، وقيل: برمي المحصنات وشهادة الزور قال مجاهد معناه لا ترمِ أحداًو أليس لك به علم، وقال قتادة معناه لا تقل رأيتُ ولم تره وسمعتُ ولم تسمعه وعلمتُه ولم تعلمه، قلتُ: وجوب العمل بأحاديث الآحاد الجامعة للشرائط في الرواة والقياس الصحيح والحكم بشهادة رجلين أو رجل وامرأتين ثبت بالأدلة القطعية من النصوص والإجماع، كقوله تعالى ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[2] وقوله تعالى ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾[3] الآية، وبما تواتر عن النبي ﷺ أنه كان يرسل آحاد الصحابة لتبليغ الأحكام فاتباعها أتباع للعلم لاستناد الظن بالعلم والله أعلم ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ ضمير عنه راجع إلى مصدر لا تَقْفُ يعني كل واحد من هذه الأعضاء كان عن ذلك القُفْوَةِ والأتباع مسئولاً، أو الضمير راجع إلى كُلُّ يعني كل من هذه الأعضاء كان مسئولاً عن نفسه يعني عما فعل به صاحبه، أو الضمير راجع إلى صاحب السمع والبصر يعني هذه الأعضاء يسئل عن صاحبها فيسئل السمع أنه هل سمع صاحبه ما قال سمعتُه، ويسئل البصر هل أبصر صاحبه ما قال رأيتُ، ويسئل القلب هل علم صاحبه ما قال علمتُ، عن شكل بن حميد قال أتيتُ النبي ﷺ فقلتُ: «يا نبي الله علمني تعويذاً أتعوذ به؟ فأخذ بيدي فقال: «قل: أعوذ بك من شر سمعي ومن بصري وشر لساني وشر قلبي وشر منيّي، قال حفظتها»[4] رواه الترمذي وأبو داود والنسائي والحاكم وصححه والبغوي، قال سعيد يعني راوي الحديث المني ماؤه يعني يضع ماؤه في ما لا يحل، والأعضاء لما كانت مسئولة عن أحوالها شاهدة على صاحبها أجريت مجرى العقلاء وأطلق عليها لفظ أولئك، أو يقال أن أولاء وإن غلبت في العقلاء لكنه من حيث أنه اسم جمع لذا وهو يعم القبيلتين

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في الاستعاذة (١٥٥٠) وأخرجه النسائي في كتاب: الاستعاذة، باب: الاستعاذة من شر السمع والبصر (٥٤٤٢).

جاء لغيرهم، وخص الأعضاء الثلاثة بالذكر لأنها آلات لتحصيل العلوم التي يجب الحصر على أتباعها فإن أكثر المحسوسات يدرك بالسمع والبصر، والمعقولات بأسرها تدرك بالقلب.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي ذا مرح وهو الكبر والاختيال ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ بشدة وطأتك وتكبرك ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ بتطاولك واستعلائك وهو تهكم بالمختال وتعليل للنهي بأن الاختيال حماقة محضة لا أصلاً ولا يقدر المختال على شيء أصلاً إلا بمشيئة الله، عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»(١) رواه مسلم، وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»(٢) الحديث رواه مسلم، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يقول: الله الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما أدخلته النار»(٣) رواه مسلم، وعن سلمة بن الأكوع قال قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم»(٤) رواه الترمذي، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ قال: «يحشر المتكبرون أمثال الذر يوم القيامة في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بُولَسُ تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال»(٥) رواه الترمذي، وعن اسماء بنت عميس قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بئس العبد عبد تخيل واختال ونسي الكبير المتعال»(٦) الحديث رواه الترمذي والبيهقي في شعب الإيمان، وعن عمر قال وهو على المنبر «يا أيها الناس فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من تواضع لله رفعه الله فهو في نفسه صغير وفي أعين الناس

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥) وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في التواضع (٤٨٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه (٩١).

(٣) في رواية مسلم «والعز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته» في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الكبر (٢٦٠٢).

أما بهذه الرواية فهي عند أبي داود في كتاب: اللباس، باب: ما جاء في الكبر(٤٠٨٥).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: البرو الصلة، باب: ما جاء في الكبر (٢٠٠٨).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٩٢).

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٤٨) وقال. ليس إسناده بالقوي.

كبير من تكبر وضعه الله في أعين الناس صغير وفي نفسه كبير حتى لهو أهون عليهم من كلب أو خنزير» والله أعلم.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل ثم قرأ ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآيات ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بضم الهمزة والهاء على التذكير مرفوعاً على أنه اسم كان وما بعده خبره، فذلك إشارة إلى الخصال المذكورة من قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وضمير سيئة راجع إلى الكل، أضاف السيّء إلى الكل يعني أن المنهى عن الأشياء المذكورة فإن من الأشياء المذكورة مأمورات ومنهيات، وقرأ أهل الحجاز والبصرة سَيِّئَةً بفتح التاء للتأنيث مع التنوين منصوباً على أنه خبر كان، والاسم ضمير كل وذلك إشارة إلى ما نهي عنه خاصة من قوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ إلى هُنا فإنها سيئات لا حسنة فيها وعلى هذا قوله ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ بدل من سيئة أو صفة لها محمولة على المعنى فإنه بمعنى سيئاً، ويجوز أن يكون مكروهاً منصوباً على الحال من المستكن في كان أو في الظرف على أنه صفة سيئة، والمراد بالمكروه المبغوض المقابل للمرضي ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأحكام المتقدمة ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ في القاموس الحِكمة بالكسر العدل والعلم والحلم بمعنى الإناءة والعقل والنبوة والقرآن والإنجيل، قلتُ: والمراد هها العلم النافع ﴿وَلَا تَجْعَلْ﴾ أيها الإنسان ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ كرره للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر وشرط لصحة الأعمال كلها ومنتهاه فإنه من قصد بفعله أو تركه غير وجه الله ضاع سعيه وأنه رأس الحكمة وملاكها، فالتوحيد علم مقصود بذاته والعلوم غيره مقصودة للعمل ورتب عليه أولاً ما هو عائدة الشرك في الدنيا وثانياً ما هو نتيجة في العقبى فقال ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ تلوم نفسك ويلومك الله والخلائق كلها ﴿مَّدْحُورًا﴾ مبعداً عن رحمة الله ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾ خطاب لمن قال الملائكة بنات الله، والاستفهام للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أجعل لكم البنين فأصفاكم اختاركم ﴿رَبُّكُم﴾ بما هو الصفوة من الأولاد أي ﴿بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ﴾ لنفسه بناتاً ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ وهذا خلاف ما عليه عقولكم وعادتكم ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ في القباحة حيث تنسبون الأولاد إليه تعالى وهي من خواص بعض الأجسام التي يتطرق إليها سرعة الزوال ثم تجعلون له تعالى من الأولاد أدون الصنفين ثم تجعلون الملائكة الذين هم ألطف خلق الله أدونها.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ

﴿كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي كررنا هذا المعنى بوجوه من التقرير ﴿فِي﴾ مواضع عديدة من ﴿هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ أو المعنى ولقد كررنا بوجوه من التقرير ما ذكرنا في هذا القرآن من العبر والحكم والأمثال والأحكام والحجج والتذكير، ويجوز أن يراد بهذا القرآن إبطال نسبة الولد لا سيما البنات إليه تعالى، والتقدير ولقد صرفنا القول في هذا المعنى والتشديد في صرفنا للتكثير ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ قرأ الجمهور بتشديد الذال من التذكر أي ليتعظوا فلا ينسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق به ويأتوا بما أمروا وينتهوا عما نهوا عنه، وقرأ حمزة والكسائي بسكون الذال وضم الكاف وكذلك في الفرقان من الذكر وهو أيضاً بمعنى التذكر ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تصريفنا وتذكيرنا شيئاً ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي ذهاباً عن الحق وتباعداً ﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ قرأ ابن كثير وحفص بالياء على الغيبة على أن الكلام مع الرسول والباقون بالتاء على الخطاب للمشركين ﴿إِذًا﴾ أي إذا كان كذلك ظرف لما بعده ﴿لَّابْتَغَوْا﴾ لطلبوا ﴿إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ﴾ الذي هو مالك الملك ﴿سَبِيلًا﴾ بالمغالبة والقهر كما هو عادة الملوك وإمكان التمانع ثابت بالبداهة والتمانع يستلزم عجز أحدهما أو كليهما وهو مناف للألوهية والجملة جواب لقولهم وجزاء للو ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزه الله تنزيهاً عن التمانع والعجز المنافي للألوهية ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي المشركون ﴿عُلُوًّا﴾ أي تعالياً ﴿كَبِيرًا﴾ أي تباعد غاية البعد فإنه تعالى في أعلى مراتب الوجود والبقاء كذاته، واتخاذ الولد من أدنى مراتبه فإنه من خواص ما يتسارع إليه الفناء، والمشاركة من أدنى مراتب المالكية، قرأ حمزة والكسائي تَقُولُونَ بالتاء خطاباً للمشركين والباقون بالياء للغيبة على أنه تعالى تنزه به نفسَه عن مقالتهم.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ قرأ أبو عمرو وحفص وحمزة والكسائي ويعقوب تسبح بالتاء لتأنيث الفاعل والباقون بالياء التحتانية للحائل وكون التأنيث غير

حقيقي ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ له أي ينزهه عما هو من لوازم الإمكان وتوابع الحدوث ومناف للألوهية متلبساً ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ على جمال ذاته وكمال صفاته وتواتر إنعاماته بلسان المقال التي أعطاها الله إياه ويسمعها من أعطى الله سبحانه سماعاً لقلبه، عن عبد الله بن مسعود قال: كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفاً «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلّ الماء فقال: «أطلبوا فضلة من ماء» فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يعني رسول الله ﷺ يده في الإناء ثم قال حي على الطهور المبارك والبركة من الله، فلقد رأيتُ الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل»[(١)] رواه البخاري، وقال مجاهد كل الأشياء تسبح لله حيًّا كان أو جماداً وتسبيحها سبحان الله وبحمده، وقال إبراهيم النخعي وإن من شيء جمادٍ أو حيٍ إلا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف، وحصر بعضهم التسبيح على الحي من الأشياء، وقال قتادة تسبح الحيوانات والناميات، وقال عكرمة الشجرة تسبح والأسطوانة لا تسبح، ولا وجه للقول بالتخصيص وقد صح حنين الأسطوانة بمفارقة النبي ﷺ، وقال الله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾[(٢)] وقال رسول الله ﷺ: «إن الجبال ينادي الجبل هل مر بك أحد ذكر الله فإذا قال نعم استبشر» رواه الطبراني عن ابن مسعود وأيضاً يسبح كل شيء بلسان الحال حيث يدل بإمكانها وحدوثها على الصانع القديم الواجب الوجود لذاته المنزه عما لا يليق به من النقص والزوال المتصف بصفات الكمال، والاقتصار على القول بأحد النوعين من التسبيح تقصير ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ﴾ أيها الناس يعني أكثرهم ﴿تَسْبِيحَهُمْ﴾ المقالي والمشركون لكمال غباوتهم والعُمْهِ غافلون عن التسبيح الحالي أيضاً ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وشرككم ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب منكم.

أخرج ابن المنذر عن ابن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا القرآن على مشركي قريش ودعاهم إلى الله، قالوا يهزؤن به: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[(٣)] فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا﴾ يحجب القلوب عن فهمه والانتفاع به قال قتادة هو الأكنة ﴿حِجَابًا﴾ ذلك الحجاب عن الحس أو مستوراً بحجاب آخر حيث لا يفهمون ولا يفهون أنهم لا يفهمون، وقيل: المستور ههنا بمعنى الساتر كما في قوله

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام (٣٥٧٩).
(٢) سورة سبأ، الآية: ١٠.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٥.

تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾[١] يعني آتيًا، وفسر بعضهم بالحجاب بين رسول الله ﷺ وبين الناس يحجبه ﷺ عن الأعين الظاهرة كما قال البغوي أنه روى عن سعيد بن جبير أنه لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ جاءت امرأة أبي لهب ومعها حجر والنبي ﷺ مع أبي بكر فلم تره، فقالت لأبي بكر أين صاحبك؟ بلغني أنه هجاني فقال: والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله، فرجعت وهي تقول: قد كنتُ أتيتُ بهذا الحجر لأرضخ به رأسه، فقال أبو بكر ما رأتك يا رسول الله؟ قال: لا لم يزل ملك بيني وبينها يسترني، قلتُ: فحينئذ الآية واقعة حال إذ لم يكن أنه ﷺ كلما قرأ القرآن لا يراه الكفار ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية تكنها وتحول دونها عن إدراك الحق وقبوله ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي كراهة أن يفقهوه أو لئلا يفقهوه، ويجوز أن يكون مفعولاً لما دل عليه قوله وجعلنا على قلوبهم أكنة أي منعناهم أن يفقهوه ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنعهم عن السماعة سماع قبول ولما كان القرآن معجزاً من حيث اللفظ والمعنى أثبت لمنكريه مانعاً عن فهم المعنى وعن إدراك حسن النظم ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ عنه هرباً من استماع التوحيد ونفرةً فهو منصوب على العلية أو نفوراً يعني تولية فهو منصوب على المصدرية، أو نفوراً يعني نافرين جمع نافر كعاقد وعقود منصوب على الحال.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أي نحن أعلم بالحال أو بالطريقة التي يستمعون القرآن بسببه ولأجله أو متلبساً به من الاستهزاء بك وبالقرآن فمفعول يستمعون محذوف وبه صلة أو حال وبيان لِمَا أي يستمعون القرآن للاستهزاء أو هازئين والواجب أن يستمعوه جادين ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ وأنت تقرأ القرآن ظرف لأ عْلَمُ وكذا ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ مصدر بمعنى الفاعل أو محمول بتقدير ذو، أو جمع نجى يعني نحن أعلم بغرضهم من الاستماع حين هم يستمعون إليك مضمرون له، أو حين هم يتناجون بينهم أي يتحدثون أو ذووا نجوى ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني الوليد بن المغيرة وأصحابه، أو بدل من إذ قبله وضع المظهر أي لفظ الظالمين موضع المضمر للدلالة على أن قولهم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ ظلم والمسحور الذي سحر به فزال غفلة، وقال مجاهد مخدوعاً وقيل: مصروفاً عن الحق يقال ما سحرك عن كذا يعني ما صرفك، وقال أبو عبيد يعني ذا سحر والسحر الرية يعني بشراً إذا رية مثلكم يأكل ويشرب ويتنفس.

﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فقال بعضهم ساعدو قال بعضهم ساحر

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦١.

ومسحور وقال بعضهم كاهن وقال بعضهم مجنون ﴿فَضَلُّوا﴾ عن الحق حيث ضربوا أمثالاً لا مصداق لها أصلاً ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى الحق والرشاد حيث جعل الله على قلوبهم أكنة، أو المعنى لا يستطيعون سبيلاً إلى ما يريدون من الطعن الموجه بل يأتون طعناً غير موجه، فيتها فتون ويخبطون في أمره كالمتحير في أمره لا يدري ما يصنع.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ
حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ
فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ
ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ
يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن
دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ
رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا
﴿٥٧﴾﴾

﴿وَقَالُوٓا۟﴾ يعني مشركي مكة ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ بعد الموت ﴿وَرُفَٰتًا﴾ وهو ما تكسرو بلى من كل شيء كالفتات والحطام، في القاموس رفته يرفته كسره ودقَّه وانكسر واندق لازم ومتعدٍ وكغُرابِ الحُطَّام، وقال مجاهد يعني تراباً ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ مجدَّداً، إنكار واستبعاد لما بين غضاضة الحي ويبوسة الرميم من المنافاة، وخلقاً منصوب على المصدرية من مبعوثين، أو حال من النائب مناب فاعله والعامل في إذا ما دل عليه مبعوثون لا نفسه لأن ما بعد أنَّ لا يعمل فيما قبلها ﴿قُلْ﴾ يا محمد جواباً لهم ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿أَوْ خَلْقًا﴾ أي مخلوقاً آخر ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي من جنس ما يبعد عندكم من قبول الحياة حتى يكون أبعد في الصدور لقبول الحياة من العظام الرميمة كالسموات والأرضين والجبال، فإن الله قادر على إحيائكم على ذلك. التقدير أيضاً لاشتراك الأجسام في قبول الإعراض فكيف إذا كنتم عظاماً مرفوقة وقد كانت غضة موصوفة بالحياة قبل ذلك والشيء أقرب للقبول بما عهد فيه مما لم يعهد وليس هذا أمر تكليف وإلزام بل أمر تقدير أي افرضوا أنفسكم حجارةً أو حديداً في الشدة وقوة الجمادية

بحيث لا يقبل الحياة في زعمكم ﴿فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا﴾ حيًّا بعد الموت ﴿قُلْ﴾ يعيدكم حيًّا بعد الموت ﴿ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقد كنتم تراباً وهو أبعد من الحياة، وليس أول الخلق بأهون من الإعادة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ أي يحركون ﴿إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ تعجباً واستهزاءً ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ هو أي بعثكم وأعادتكم حيًّا ﴿قَرِيبًا﴾ فإن كل ما هو آت قريب، أو المعنى يكون أقرب زماناً من بدء خلق العالم، وقريباً منصوب على الخبر وجاز أن يكون اسم عيسى مضمراً وأنْ يَكُونَ خبره وقريباً منصوب على الظرف أي في زمان قريب.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي فتجيبون من القبور بدل من قوله قَرِيباً على تقدير كونه خبراً أو ظرفاً، أو هو منصوب بأذكر أي يوم يدعوكم الله من القبور إلى موقف القيامة للمحاسبة على لسان إسرافيل عليه السلام فتجيبونه وقيل: معناه يبعثكم فتبعثون استعار لهما الدعاء والاستجابة للتنبيه على سرعتها والمقصود منها الإحضار للمحاسبة والجزاء ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ حال من فاعل تستجيبون أي حامدين على كمال قدرته مقرين بأنه خالقهم وباعثهم يحمدون حين لا ينفعهم الحمد، أو المعنى منقادين لبعته انقياد الحامدين عليه، وقيل هذا خطاب مع المؤمنين فإنهم يبعثون حامدين بخلاف الكفار، فإنهم يبعثون قائلين ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾[(١)] ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[(٢)] روى الختلي في الديباج عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أخبرني جبرئيل أنَّ لا إله إلا الله أنسٌ للمسلم عند موته وفي قبره وحين يخرج من قبره يا محمد لو تراهم حين يقومون من قبورهم ينفضون رؤوسهم، هذا يقول لاَ إله إلا الله والحمد لله فيبيض وجهه، وهذا ينادي يَحَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنْبِ ٱللَّهِ مسودة وجوههم» وروى الطبراني وابن حاتم وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور كأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون: الْحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ» وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ﴾ في الدنيا أو في القبور ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لما يرون من الهول قال قتادة يستحقرون مدة الدنيا في جنب القيامة.

---

(١) سورة يس، الآية: ٥٢.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٦.

قال الكلبي كان المشركون يؤذون المسلمين فشكوا إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله ﷻ ﴿وَقُل﴾ يا محمد ﴿لِعِبَادِى﴾ المؤمنين ﴿يَقُولُوا﴾ الكلمة ﴿الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الكلمات يعني الدعوة إلى الإسلام وقول لا إله إلا الله بالرفق واللين وإقامة البراهين وإظهار النصح بلا خشونة مع المشركين ولا أن تكافؤهم بسفههم، وقال الحسن يقول له يهديك الله وكان هذا قبل الأذن في القتال، وقيل: نزلت في عمر بن الخطاب شتمه بعض الكفار فأمره بالعفو، وقيل: أمر الله المؤمنين بأن يقولوا ويفعلوا الكلمة والخلة التي هي أحسن الكلمات والخلل، وقيل: الأحسن كلمة الإخلاص لا إله إلا الله ﴿إِنَّ الشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ النزغ إيقاع الشر وإفساد ذات البين، يعني لا يقولوا ما يتطرق إليه الشيطان بالفساد فيفسد ويلقي العداوة بينهم ﴿إِنَّ الشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ظاهر العداوة فيفضى الكفار إلى جهنم ويفضي المؤمنين إلى الشر العاجل ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ أي يوفقكم للإيمان فيرحمكم ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ أي يميتكم على الشرك فيعذبكم كذا قال ابن جريج، قيل: هذا تفسير للتي هي أحسن وما بينهما إعتراض، أي قولوا لهم هذه الكلمة ونحوها يعني لا تسافهوهم ولا تشاتموهم ولا تصرحوا بإنكم من أهل النار، فإنه يُهَجِّهم على الشر مع أن اختتام أمرهم غيب لا يعلمه إلا الله، وقال الكلبي هذا خطاب من الله للمؤمنين والمعنى إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ فينجيكم من أهل مكة أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ فيسلطهم عليكم ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعني على الكفار ﴿وَكِيلًا﴾ موكولاً إليك أمرهم حتى تكرههم على الإيمان وتهتم بكفرهم إنما أرسلناك مبشراً ونذيراً فدارهم ومر أصحابك باحتمال الأذى منهم.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ من غيره يعلم من هو أهل لنبوته وولايته ومخلوق ومخبول للسعادة ومن هو على نقيض ذلك، فهو رد لاستبعاد قريش أن يكون يتيم أبي طالب نبيًّا ويكون فقراء الناس كبلال وصهيب أولياءه ومن أهل الجنة ويكون شرفاء قريش من أهل النار ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالفضائل النفسانية والتبرّي عن العلائق الجسمانية لا بكثرة الأموال والأولاد ونحو ذلك، قال قتادة في هذه الآية اتخذ الله إبراهيم خليلاً وكلم موسى تكليماً وقال لعيسى كن فكان (قلتُ: كلمه في المهد صبيًّا وآتاه الكتاب والحكمة وعلمه التوراة والإنجيل وأيده بروح القدس

قال وآتى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده يعني سخر له الجن والإنس والشياطين مقرنين في الأصفاد وآتى داود زبورا كما قال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ يعني فضله بما أوحى إليه من الكتاب لا بما أوتي من الملك، ففي هذه الآية على ما أنكر كفار مكة فضل

النبي ﷺ بأن فضل الأنبياء إنما كان بالفضائل النفسانية والتبرّي عن العلائق الجسمانية والعلوم الموحي إليهم ومراتب القرب من الله تعالى وشيوع الهداية لا بكثرة الأموال والأولاد ونحو دلك، فالله سبحانه فضله على سائر النبيين بجعله خاتم النبيين وأمته خير الأمم المدلول عليه بما كتب ﴿فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[1] وأعطاه القرآن أقل حجماً وأكثر علماً وأظهر معجزة، ورفعه درجات: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩﴾[2] قال البغوي الزبور كتاب علمه الله داود يشتمل على مائة وخمسين سورة كلها دعاء وتحميد وثناء على الله عز وجل ليس فيها حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود انتهى، وتنكيره ههنا وتعريفه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾[3] لأنه في الأصل فعول للمفعول كالودود بمعنى المودود، أو للمصدر كالقبول ويؤيده قراءة حمزة بالضم فهو كالعباس والفضل، أو لأن المراد بعض الزبور أو بعضاً من الزبور فيه ذكر رسول الله ﷺ والله أعلم.

أخرج البخاري وغيره عن ابن مسعود قال: «كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجنيون واستمسك الآخرون بعبادتهم»[4] فأنزل الله تعالى ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ أنها آلهة ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ من الجن ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ﴾ أي لا يستطيعون ﴿كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ﴾ كالمرض والفقر والقحط ﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ أي تحويل ذلك منكم إلى غيركم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي يدعوهم المشركون آلهة ويعبدونهم من الجن ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ حيث آمنوا برسول الله ﷺ يطلبون إلى الله القربة بالطاعة، وقيل: الوسيلة التوصل إلى شيء برغبة وهي أخص من الوصيلة لتضمنها معنى الرغبة، فالوسيلة إلى الله مراعاة سبيله بالعلم والعمل وتحرى مكارم الشريعة فهي القربة، وفي القاموس الوسيلةُ والواسلةُ المنزلةُ عند الملك الدرجةُ والقربةُ ووسّل إلى الله تعالى توسُّلاً عمِل عملاً تقرب به إليه ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ بدل من واو يبتغون أي يبتغي من هو أقرب منهم إلى الله الوسيلة فكيف بغير الأقرب كذا قال الزجاج، وقيل: معناه يطلبون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به أو ضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون فكأنه قال يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة النجم، الآية: ٨ ـ ٩.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ (٤٧١٤).

وذلك بالطاعة وازدياد الخير ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ فكيف يزعمون أنها آلهة ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقاً بأن يحذره كل أحد حتى الرسل والملائكة، وقال البيضاوي المراد إن الذين زعمتم أنها آلهة من دونه كالملائكة والمسيح وعزير لا يملكون كشف الضر ويبتغي أقربهم إلى الله الوسيلة قال ابن عباس ومجاهد عيسى وأمه عزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم يطلبون إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذَابه، وقال البغوي أصاب المشركين قحط شديد حتى أكلوا الميتة والجيف فاستغاثوا بالنبي ﷺ ليدعو لهم فأنزل الله تعالى قُلْ للمشركين أدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ إنها آلهة مِنْ دُونِ الله فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَإِن﴾ أي ما ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ من القرى ﴿إِلَّا﴾ قرية ﴿نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي مخربوها ومهلكوا أهلها بالموت ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إذا كفروا وعصوا قال مقاتل وغيره يعني مهلكوها في حق المؤمنين بالإماتة أو معذبوها في حق الكفار بأنواع العذاب قال ابن مسعود إذا ظهر الزنى والربا في قرية أذن الله في هلاكها ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي في اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوباً عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب، قال: ما أكتب»؟ قال: أكتب القدر فكتب ما كان وما هو كائن إلى الأبد»(١) رواه الترمذي وقال: هذا حديث غريب إسناداً والله أعلم.

أخرج الطبراني والحاكم عن ابن عباس والطبراني وابن مردويه عن ابن الزبير نحوه

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: التفسير، باب: في قوله تعالى ﴿أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ (٣٠٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر (٢١٥٥).

أبسط منه أنه سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا، فأوحى الله إلى رسوله إن شئتَ إن استأني بهم فعلتُ وإن شئتَ أن أوتيهم ما سألوا فعلتُ فإن لم يؤمنوا أهلكتُهم كما أهلكتُ من كان قبلهم فقال النبي ﷺ لا بل تستانّ بهم فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ التي سألها الكفار استعير المنع لترك إرسال الآيات وأنْ مع صلتها في موضع النصب على أنه مفعول ثان لمنعنا ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا﴾ أي بالآيات المقترحة المستثنى في محل الرفع بمَنَعْنَا ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي كفار الأمم السابقة الذين كفار مكة أمثالهم في الطبع والعادة فأهلكوه، وأنه لو أرسلنا بالآيات لكذَّب هؤلاء كما كذّب أولئك فيهلك هؤلاء كما أهلك أولئك، لأن من سنتنا في الأمم أنهم إذا سألوا الآيات ثم لم يؤمنوا بعد إرسال الآيات أن نهلكهم ولا نمهلهم، وقد حكمنا بإمهال هذه الأمة قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾[1] ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بسبب تكذيب الآيات المقترحة فقال ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ بسؤالهم ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي آية بينة ذات إبصار ﴿فَظَلَمُوا۟﴾ أي كفروا ﴿بِهَا﴾ أو ظلموا أنفسهم بعقرها فأهلكوا ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ المقترحة الباء زائدة ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ من نزول العذاب المستأصل في الدنيا، فإن لم يخافوا نزل بهم العذاب في الدنيا، أو المعنى ما نرسل بالآيات التي نرسلها يعني غير المقترحة من المعجزات أو آيات القرآن إِلَّا تَخْوِيفًا بعذاب الآخرة منصوب على العلية وجاز أن يكون بالآيات في موضع الحال ويكون المفعول محذوفاً، أي ما نرسل الرسل متلبسين بالآيات إلا لأجل التخويف من عذاب الآخرة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ أي أذكر إذ أوحينا إليك ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ ذاتاً وعلماً وقدرةً فلا تُبال أحداً منهم وبلّغ ما أرسلتَ به، أو المعنى أحاط بقريش بمعنى أهلكهم من أحاط بهم العدو، فهو بشارة بوقعة بدر والتعبير بلفظ الماضي لتحقق وقوعه والله أعلم.

أخرج أبو يعلى عن أم هاني وابن المنذر عن الحسن نحوه أنه ﷺ لما أسري به يعني ليلة المعراج أصبح يحدث نفراً من قريش وهم يستهزءون به، فطلبوا منه آية فوصف لهم بيت المقدس وذكر لهم قصة العير، فقال الوليد بن المغيرة هذا ساحر، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ﴾ ليلة المعراج من الآيات ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ حيث أنكرها كفار مكة وارتد ناس ممن آمن به، ومن هذه الآية قال من قال أن المعراج كان بالمنام أسرى بروحه دون بدنه كما ذكرنا قول عائشة ويدل عليه حديث رواه البخاري،

(١) سورة القمر، الآية: ٤٦.

وقال ابن عباس المراد بالرؤيا ههنا رؤيا عين وهو قول سعيد ابن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج والأكثرين، والعرب تقول رأيتُ بعيني رؤيةً ورؤياً، وقال بعضهم كان له ﷺ معراجان معراج رؤية بالعين ومعراج رؤية بالقلب، وأخرج ابن مردويه عن الحسين بن علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ أصبح يوماً مهموماً فقيل مالك يا رسول الله قال: إني رأيتُ في المنام كأنَّ بني أمية يتعاورون منبري هذا، فقيل: يا رسول الله لا تهتم فإنها دنيا تنالهم فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ والمراد بالفتنة على هذا ما حدث في أيامهم من البدعة والفسوق، وأخرجه ابن جرير من حديث سهل بن سعد بلفظ رأى رسول الله ﷺ بني فلان ينزون على منبره نزوة القردة فساءه ذلك فأنزل الله لك وأخرجه ابن أبي حَاتم من حديث عمرو بن العاص ومن حديث يعلى بن مرة، وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن سعيد بن المسيب مرسلاً قال: رأى رسول الله ﷺ بني أمية على المنابر فساءه ذلك فأوحى الله إليه إنما أعطوها فقرت عينه، وأسانيد هذه الأحاديث ضعيفة. وقال قوم أراد بهذا الرؤيا ما رأى النبي ﷺ عام الحديبية أنه دخل مكة هو وأصحابه فعجّل السير إلى مكة قبل الأجل فصده المشركون فرجع فكان رجوعه في ذلك العام بعدما أخبر أنه يدخلها فتنةً وموجباً للشك لبعض الناس حتى دخلها في العام المقبل فأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾[1] قال البيضاوي وفيه نظر إذ الآية مكية إلا أن يقال رآها بمكة وحكاها حينئذ، قلتُ: وهو أيضاً غير سديد وقال: لعله رؤيا رآها ما كان في وقعة بدر كقوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾[2] فقد روي أنه لما ورد ماءه قال: «لكأنيّ أنظر إلى مصارع القوم هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان» فتسامعت به قريش واستسخروا منه.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ﴾ يعني شجرة الزقوم عطف على الرؤيا يعني وما جعلنا الشجرة ﴿ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ إلا فتنة للناس، قال البغوي وذلك الفتنة من وجهين أحدهما أن أبا جهل قال إن ابن كبشة يوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنها تنبت فيها شجرة وتعلمون أن النار تحرق الشجرة، ولم يشعر السفيه أن من قدر على أن يحفظ دبر السمندل من أن يحرقه النار وأحشاء النعامة من أذى الحمر وقطع الحديد المحماة التي تبلعها قادر على أن يخلق في النار شجرة لا يحرقها، قال في المدارك السمندل دويبة ببلاد الترك يتخذ منها مناديل

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٣.

إذا توسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالماً لا يعمل فيه النار، وفي القاموس هو طائر ببلاد الهند لا يحترق بالنار، ثانيهما أن ابن الزبعري قال: إن محمداً يخوّفنا بالزقوم نعرف الزقوم إلا الزبد والتمر، فقال: أبو جهل يا جارية تعالى زَقِّمِيْنَا فأتت بالزبد والتمر فقال يا قوم تزقموا فإن هذا ما يخوّفكم به محمد فوصفه الله في الصافات. وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: لما ذكر الله الزقوم وخوّف به هذا الحي من قريش قال أبو جهل هل تدرون ما هذا الزقوم الذي يخوّفكم به محمد؟ قالوا: لا قال: عجوة يثرب بالزبد أمَا لئن أمكننا منها لنتزقّمنّها تزقماً فأنزل الله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ﴾ الآية وأنزل: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾[1] ولعنُها في القرآن بمعنى لعن طاعمها وصَفه به على المجاز للمبالغة أو وصفها به لأنها في أصل الجحيم وهو أبعد مكان من الرحمة، أو لأنها مكروهة مؤذية يقول العرب لكل طعام كريه ضار ملعون وقد أولت بالشيطان وأبي جهل والحكم بن أبي العاص ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بأنواع التخويف ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تخويفنا شيئاً ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ أي تمرداً وعتواً عظيماً.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ أي لمن خلقته من طين فنصبه بنزع الخافض أو على التميز، ويجوز أن يكون حالاً من الراجع المحذوف إلى الموصول أي خلقته وهو طين وحمله باعتبار ما كان أو وهو من طين، وفيه على الوجوه إيماء لعلة الإنكار، قال البغوي وذلك ما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن الله بعث إبليس حتى أخذ كفًّا من تراب الأرض من عذبها وملحها فخلق منه آدم فمن خلقه من العذب فهو سعيد وإن كان ابن كافرين ومن خلقه من الملح

(١) سورة الدخان، الآية: ٤٣ ـ ٤٤.

فهو شقي وإن كان ابن نبيين، وروى أحمد والترمذي وأبو داود والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي موسى الأشعري قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنوا آدم من قدر الأرض منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب»[١] ﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ الكاف لتأكيد الخطاب لا محل له من الإعراب ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ هذا مفعول أول لا رَأيتَ والموصول صفته والمفعول الثاني محذوف لدلالة صلته عليه، والمعنى أخبرني عن هذا الذي كرمتَه عليّ وتأمروني بالسجود له لم كرّمتَه عليّ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ أثبت الياء في الحالين ابن كثير وأثبتها في الوصل فقط نافع وأبو عمرو وحذفها الباقون في الحالين والمعنى لئن أمهلتني ولا تميتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ولهذا كلام مبتدأ واللام موطئة للقسم وجوابُه ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي لأستأصلنَّهم بالإغواء من احتنك الجراد الزرع إذا أكله كله، أو المعنى لأقودنَّهم كيف شئتُ واستولينَّ عليهم من قول العرب حنك الذابة يحنكها إذ أشد في حنكها الأسفل حبلاً يقودها، في القاموس احتنكه استولى عليه والجرادُ الأرضَ أكلت ما عليها ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني المعصومين الذين استثناهم الله تعالى وقال ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ قال البيضاوي إنما عَلِمَ أن ذلك يتسهل له ما استنباطاً من قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾[٢] مع التقرير أو تفرساً من خلقته ذا وهم وغضب وشهوة.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿ٱذْهَبْ﴾ إمض لما قصدته وهو طرد وتخلية بينه وبين ما سولت له نفسه ثم عقبه بما أفضى إليه سوء اختياره فقال ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أي جزاؤك وجزاء أتباعك فغلّب المخاطب على الغائب ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي وافراً مكملاً من قولهم وفر لصاحبك عرضه، وانتصاب جزاء على المصدر بإضمار فعله أو حال موطية لقوله ﴿مَّوْفُورًا﴾ ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ أي استخف واستزل واستجهل، في القاموس استفزه استخفه وأخرجه من داره ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ أن تستفزه ﴿مِنْهُم﴾ أي من ذرية آدم ﴿بِصَوْتِكَ﴾ قال ابن عباس أي بدعائك إياهم إلى المعصية وكل داع إلى معصية الله فهو من جند إبليس، وقال الأزهري اي ادعهم دعاءً تستفزهم به إلى جانبك وقال مجاهد أي بالغناء والمزامير ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ جلبه يجلُبه اجتلبه ساقه من موضع إلى آخر كذا في القاموس، ومنه في

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة (٢٩٥٥) وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (٤٦٨١).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

الحديث لاَ جَلَبَ، قال في النهاية الجلب في شيئين أحدهما أن يَّقْدِمَ المصدق على الزكاة فينزل موضعاً يرسل من يجلب إليه فنهى عن ذلك وأمر أن تؤخذ صدقاتهم على مياههم وأماكنهم، ثانيهما في السباق وهو أن يتبع الرجل فرسه فيزجره ويجلب عليه ويصيح حثًّا له على الجري فنهى عن ذلك وفي القاموس أجلب على الفرس زجره وأيضاً الجلبة الصوت، في القاموس رعد فجلب أي فصوّت وأجلب عليه إذا صاح به واستحثه في حديث الزبير يقود الجيش ذا الجلب قال القتيبي هو جمع جلبة وهو الأصوات، وأيضاً الجلب الاجتماع، قال في النهاية يقال أجلبوا عليه إذا تجمعوا وأجلبه أي أعانه في حديث العقبة إنكم تبايعون محمداً ﷺ على أن تحاربوا العرب والعجم مجلبة أي مجتمعة على الحرب، فمعنى الآية اجمع مكائدك وخيلك ورجلك أو المعنى صح عليهم وحثهم على المعاصي أو المعنى سقهم إلى المعاصي أو المعنى أعنهم على المعاصي وقال معناه استعن عليهم ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي بركبانك ومشاتك، قال أهل التفسير كل راكب وماش في المعاصي فهو من جند إبليس، وقال مجاهد قتادة إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس وهو كل من يقاتل في المعصية، وقال البيضاوي معناه صح عليهم بإغوائك من راكب وراجل، ويجوز أن يكون تمثيلاً لتسلطه على من يغويه بمن عدا على قوم فاستفزهم من أماكنهم وأجلب عليهم بجنده حتى استأصلهم، قرأ حفص رَجِلِكَ بكسر الجيم والباقون بسكونها وهما لغتان ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام وصرفها فيها كذا قال مجاهد والحسن وسعيد بن جبير، وقال عطاء هو الربا وقال هو ما كان المشركون يحرمونه من الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وقال الضحاك وما كانوا يذبحونه لآلهتهم ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ روي عن ابن عباس أنها المؤودة، وقال مجاهد والضحاك هم أولاد الزنى، وقال الحسن وقتادة هو أنهم هوّدوا أولادهم ونصّروهم ومجّسوهم، وعن ابن عباس رواية أخرى هو تسمية الأولاد عبد الحارث وعبد الشمس وعبد العزى وعبد الدار ونحوها، وروي عن جعفر بن محمد عليه السلام: «إن الشيطان يقعد على ذكر الرجل فلم يقل بسم الله أصاب معه امرأته وأنزل في فرجها كما ينزل الرجل» قال البغوي وفي بعض الأخبار إن فيكم مغربين قيل: ومَنِ المغربين؟ قال: الذين شارك فيهم الجن ﴿وَعِدْهُمْ﴾ المواعيد الباطلة كشفاعة الأصنام والاتكال على كرامة الآباء وتأخير التوبة وأن لا جنة ولا نار ولا بعث فإن قيل: هذا أمر بالمعصية والله لا يأمر بالفحشاء؟ قلنا: هذا أمر بمعنى التهديد كقوله تعالى: ﴿ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾[1] أو للإهانة

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

يعني لا يخلّ ذلك بملكي ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ اعتراض لبيان مواعيده والغرور تزيين الباطل بما يظن أنه حق.

قال البغوي في الآثار أن إبليس لما أخرج إلى الأرض، قال: يا رب أخرجتني من الجنة لأجل آدم فسلطني عليه وعلى ذريته، قال: أنتَ مسلط فقال: لا أستطيعه إلا بك فزدني قال ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾[1] الآية، وقال آدم يا رب سلطتَ إبليس عليّ وعلى ذريتي وإني لا أستطيعه إلا بك، قال: لا يولد لك ولد إلا وكلتُ به.

قال: زدني قال: الحسنة بعشر أمثالها، قال: زدني قال: التوبة معروضة ما دام الروح.

قال: زدني قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟﴾[2] الآية. وفي الخبر أن إبليس قال: يا رب بعثتَ أنبياء وأنزلتَ كُتُباً، فما قراءتي؟ قال: الشعر، قال: فما كتابي؟ قال: الوشم، قال: ومن رسلي؟ قال: الكهنة، قال: وأين مسكني؟ قال: الحمّامات، قال: وأين مجلسي؟ قال: الأسواق، قال: أي شيء مطعمي؟ قال: ما لم يذكر عليه اسمي، قال: ما شرابي؟ قال: كل مسكر، قال وما حبالتي؟ قال النساء، قال وما أداتي؟ قال المزامير ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ أي المخلصين والإضافة للتعظيم ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ﴾ أي على إغوائهم ﴿سُلْطَٰنٌ﴾ قدره ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي من يتوكلون به في الاستعاذة منك ويوكلون إليه أمورهم فهو يحفظهم منك.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٤. (٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

﴿رَبُّكُمُ ٱلَّذِى﴾ أي هو الذي ﴿يُزْجِى﴾ أي يسوق ويجري ﴿لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي السفن ﴿فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ الربح وأنواع الرزق ما ليس عندكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه وَسَهَّلَ لكم ما تَعَسَّرَ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ شدة الخوف من الغرق ﴿فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ﴾ أي ذهب عن خواطركم ﴿مَن تَدْعُونَ﴾ أي من تدعونه آلهة ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي إلا الله تعالى فإنكم لا تذكرون حينئذ سواه، أو ضل من تدعونه آلهة عن إغاثتكم ولكن الله يذهب عنكم الضر فالاستثناء حينئذ منقطع ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ من الغرق ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن التوحيد ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ للنعم هذا كالتعليل للإعراض ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض ولا ينبغي ذلك فإنه من قدر أن يهلككم في البحر بالغرق قدر ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أي يقلب الله ناحية البر وأنتم عليه أو يقلبه بسببكم فيهلككم فقوله بكم إما حال أو صلة ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي ريحاً يحصب به أي يرمي بالحصباء أي الحصى وهي الحجارة الصغار ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ مانعاً يحفظكم من ذلك إذ لا راد لفعله ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي في البحر ﴿تَارَةً﴾ مرة ﴿أُخْرَىٰ﴾ يخلق دواعي يلجيكم إلى أن ترجعوا فتركبوا البحر ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ قال ابن عباس أي عاصفاً وهي الريح الشديدة، وقال عبيدة التي تقصف أي تدق وتحطم كل شيء وقال القتيبي هي التي تقصف الشجر أي تكسره ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي بسبب إشراككم أو بكفرانكم نعمة الإنجاء أول مرة، قرأ ابن كثير وأبو عمرو أن نخسف ونرسل ونعيد ونغرقكم بالنون فيهن على التكلم والتعظيم والباقون بالياء على الغيبة غير أن أبا جعفر ويعقوب قرأ فَتُغْرِقَكُمْ بالتاء الفوقانية على التأنيث والضمير راجع إلى الريح ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ أي ناصراً وثائراً يتبعنا مطالباً بالثأر وقيل: من يتبعها بالإنكار.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بحسن الصورة والمزاج الأعدل واعتدال القامة والتميز بالعقل والإفهام بالنطق والإشارة والخط والتهدي إلى أسباب المعاش والمعاد والتسلط على ما في الأرض بأن سخر لهم سائر الأشياء والتمكن من الصناعات واتساق الأسباب والمسببات العلوية والسفلية إلى ما يعود عليهم بالمنافع وأن يتناول الطعام بيده إلى فيه بخلاف سائر الحيوانات والعشق والمعرفة والوحي ومراتب القرب من الله تعالى، أخرج الحاكم في التاريخ والديلمي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «الكرامة

الأكل بالأصابع»[١] ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ على الدواب ﴿وَالْبَحْرِ﴾ على السفن من حملته حملاً إذا جعلت له ما يركبه أو حملناهم فيهما حتى لا يخسف بهم الأرض ولم يغرقهم الماء ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي المستلذّات من المطاعم والمشارب ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الفضل في اللغة الزيادة والمراد ههنا الزيادة في الثواب ومراتب القرب إلى الله تعالى فالضمير المنصوب في فضلناهم راجع إلى بني آدم باعتبار بعض أفراده يعني المؤمنين كما في قوله تعالى ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ أي الرجعيات منهن ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾[٢] وذلك لأن الكفار منهم هم أدون خلق الله وأبغضهم إليه وأخبثهم ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦﴾[٣] وظاهر الآية تدل على أن فضلهم على كثير من الخلائق لا على كلهم فقال قوم فضلوا على جميع الخلق إلا الملائكة، وقال الكلبي فضلوا على الخلائق كلهم إلا على طائفة من الملائكة منهم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وقال قوم فضلوا على جميع الخلق وعلى الملائكة كلهم وقد يوضع الأكثر موضع الكل كما قال الله تعالى ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۝٢٢١﴾[٤] إلى قوله﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾[٥] أي كلهم ويؤيده حديث جابر يرفعه قال «لما خلق الله آدم وذُرِّيّته قالت الملائكة يا رب خلقتَهم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال الله تعالى لا أجل من خلقتُه بيدي ونفختُ فيه من روحي كمن قلتُ له كن فكان» رواه البيهقي في شعب الإيمان.

والتحقيق أن عوام المؤمنين أي الصالحين منهم وهم أولياء الله أفضل من عوام الملائكة وأما غير الأولياء من المؤمنين فبعدما يمحصون من الخطايا إما بالمغفرة وإما بالعقاب بقدر ذنوبهم ويدخلون الجنة يلتحقون بالأولياء، وخواص المؤمنين وهم الأنبياء عليهم السلام أفضل من خواص الملائكة قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧﴾[٦] وروي عن أبي هريرة أنه قال: المؤمن أكرم على الله من

---

(١) رواه الديلمي عن جابر.
انظر كشف الخفاء (٢٩٧٠).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٣) سورة البينة، الآية: ٦.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٢٢١.

(٥) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٣.

(٦) سورة البينة، الآية: ٧.

الملائكة الذين عنده» كذا ذكر البغوي، ورواه ابن ماجه بلفظ «المؤمن أكرم على الله من بعض ملائكته»[١] يعني جنس المؤمن أكرم على الله من بعض ملائكته قلتُ: قيد الأكثر في هذه الآية وكذا قيد البعض في حديث أبي هريرة عند ابن ماجه لا ينفي أفضلية بعض المؤمنين يعني الأنبياء على جميع الملائكة إلا بالمفهوم ولا عبرة بالمفهوم لا سيما في مقابلة عموم منطوق قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾. ألا ترى أن معنى الآية فضلنا جميع المؤمنين يعني كل واحد منهم على كثير من الخلائق، وذا لا ينافي ما قال أهل السنة في كتب العقائد أن الخواص منهم فضلوا على كل ملك حتى خواصهم ووجه فضلهم على الملائكة أنهم مجبولون على الطاعة فيهم عقل بلا شهوة وفي البهائم شهوة بلا عقل وفي الإنسان عقل وشهوة فمن عَمِل على مقتضى عقله وترك شهوته جاهد في الله حق جهاده فاجتباه الله وقال الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾[٢] ومن عمل بشهوته وأهمل عقله: ﴿وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٣٨﴾[٣] فالجحيم له المأوى وهم: ﴿كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾[٤].

﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ﴾ منصوب بإضمار اذكر أو ظرف لما دل عليه ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ﴾ ﴿كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ قال مجاهد وقتادة أي بنبيهم، وقال أبو صالح والضحاك بكتابهم الذي أنزل إليهم، أخرج ابن مردويه عن علي قال: قال رسول الله ﷺ «يُدعى قوم بإمام لهم وكتاب ربهم» وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: بإمام زمانهم الذي دعاهم في الدنيا إلى ضلالة أو هدى قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾[٥] وقال: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾[٦] وقيل: بمعبودهم، وعن سعيد بن المسيب قال: كل قوم يجتمعون إلى رئيسهم في الخير والشر، وقال الحسن وأبو العالية أعمالهم التي قدموها، وقال قتادة أيضاً بكتابهم الذي فيه أعمالهم بدليل سياق الآية ويسمى الكتاب إماماً، قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾[٧] وقيل: بالقُوى الحاملة لهم على عقائدهم وأفعالهم، وقال محمد بن كعب بأمهاتهم جمع أم كخف وخفاف والحكمة في ذلك إجلال عيسى عليه السلام

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب المسلمون في ذمة الله عز وجل (٣٩٤٧) في الزوائد. إسناده ضعيف لضعف يزيد بن سفيان أبي المهزم.

(٢) سورة العنكبوت الآية: ٦٩.

(٣) سورة النازعات الآية: ٣٨.

(٤) سورة الأعراف الآية: ١٧٩.

(٥) سورة الأنبياء الآية: ٧٣.

(٦) سورة القصص الآية: ٤١.

(٧) سورة يس، الآية: ١٢.

وإظهار شرف الحسن والحسين عليهما السلام، وأن لا يفتضح أولاد الزنى، قوله بإمامهم حال أي مختلطين بمن أيتمُّوا به من نَبِيٍّ أو كتاب أو رئيس في الخير أو الشر أو حاملين أعمالهم أو صحائفها، أو صلة لنَدْعُوا يعني ندعوهم باسم إمامهم يقال يا أمة فلان يا أتباع فلان يا أهل دين وكتاب كذا يا أصحاب أعمال كذا يا ابن مريم يا ابن فاطمة ونحو ذلك ﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ من المدعوين ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ أي كتاب عمله ﴿بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ۝٧١﴾ منصوب على المصدرية أي لا يظلمون ظلماً قدر فتيل، أو على المفعولية بتضمين ينقصون أي لا تنقص من أجورهم أدنى شيء قدر فتيل، والفتيل ما يكون في شق النواة أو ما فتلتَه بين أصابعك من الوسخ، وجمع اسم الإشارة والضمير لأن من أوتي في معنى الجمع وتعليق القراءة بإيتاء الكتاب باليمين يدل على من أوتي كتابه بشماله أو وراء ظهره إذا اطلع ما فيه غشيهم من الخجل والحيرة ما يحبس ألسنتهم من القراءة فلا يقرؤون بل يقولون ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾[1] ولم يذكر الكفار وإيتاء كتبهم اكتفاء بقوله ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ قيل: هذه إشارة إلى النعم التي عدها الله من قوله: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ﴾[2] إلى قوله ﴿تَفۡضِيلٗا﴾[3] يعني من كان في هذه النعم التي قد عاين أعمى فهو في الآخرة التي لم يره أشد عمًى وأضل سبيلاً، ويروى هذا عن ابن عباس، وقيل: إشارة إلى الدنيا يعني من كان في هذه الدنيا أعمى القلب عن رؤية أدلة التوحيد وطريق الحق ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ قيل: معناه التفضيل يعني أشد عمًى منه في الدنيا لا يرى طريق النجاة أصلاً. فإن قيل: أفعل التفضيل شرطه أن لا يكون من لون أو عيب فكيف اعتبر فيه معنى التفضيل؟ قلنا: المراد بالعمى ههنا عمى القلب والمانع من بناء أفعل التفضيل العيب الظاهري، فالأعمى ههنا كالأحمق والأجهل والأبله ولذلك أمال أبو عمرو ويعقوب في الأول فقط، ولم يميلا في الثانية لأن أفعل التفضيل إذا استعمل بمن كانت ألفه في حكم المتوسط فلا يمال بخلاف أفعل الصفة وأما أبو بكر وحمزة والكسائي فقرءوا بالإمالة في الحرفين وورش بين بين فيهما والباقون بالفتح فيهما على أصولهم فهم لا يعتبرون معنى التفضيل ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ منه في الدنيا لزوال الاستعداد وفقدان الآلة والمهلة وكان في الدنيا تقبل توبته إن تاب وفي الآخرة لا تقبل توبته أو المعنى أضل سبيلاً من الأعمى.

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٢٥.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٦.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ
خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ
ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ
ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا
قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ
وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ
أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ
وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا
﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

أخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة عن ابن عباس قال: خرج أمية بن خلف وأبو جهل بن هشام ورجال من قريش فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد تعال فتمسَّح بآلِهتِنا وندخل معك في دينك وكان يجب إسلام قومه فرق لهم فأنزل الله تعالى ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية، قال صاحب لباب النقول في أسباب النزول هذا أصح ما ورد في سبب نزولها وهو إسناد جيد وله شواهد، أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: كان رسول الله ﷺ يستلم الحجر فقالوا: لا ندعك تسلتم حتى تُلِمَّ بآلهتنا، فقال رسول الله ﷺ «وما عليّ لو فعلتُ والله يعلم مني خلافه» وذكر البغوي نحوه وفيه والله يعلم أني لكاره بعد أن يدعوني حتى أستلم الحجر، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب نحوه والله أعلم، وأخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن قريشاً أتوا النبي ﷺ فقالوا: إن كنتَ أُرسِلْتَ إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم فنكون نحن أصحابك فركن رسول الله ﷺ إليهم فنزلت، وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي أنه ﷺ قرأ النجم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾[1] فألقى عليه الشيطان تلك الغرانيق العلى إن شفاعتهن لترتجى فنزلت هذه الآية فما زال مهموماً حتى أنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾[2] الآية، وفي هذه الأحاديث دليل على أن هذه الآية مكية، وقيل: إنها مدنية وذكر سبب نزوله ما أخرجه ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس أن ثقيفاً

---

(١) سورة النجم، الآية: ١٩.
(٢) سورة الحج، الآية: ٥٢.

قالوا للنبي ﷺ أجّلنا سَنَةً حتى تُهْدى لآلهتنا فإذا قبضنا الذي تهدى للآلهة أحرزنا بم أسلمنا، فهمّ أن يؤجلهم فنزلت وإسناده ضعيف وذكر البغوي هذه القصة بأنه قال ابن عباس وفد ثقيفٌ على النبي ﷺ فقالوا: نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال قال: وما هن؟ قالوا: لا نحني في الصلاة أي لا نخني، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا، وأن تمتعنا باللات يوم عبارة والعزى سنة من غير أن نعبدها، فقال ﷺ: لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود وأما أن لا تكسروا أصنامكم بأيديكم فذلك لكم وأما الطاغية يعني اللات فإني غير متمتعكم بها» قالوا يا رسول الله إنا نحب أن يسمع العرب أنك أعطيتَنا ما لم تعط غيرنا فإن خشيت أن يقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا فقل الله أمر بذلك فسكت رسول الله ﷺ، فطمع القوم في سكوته أن يعطيهم ذلك فأنزل الله تعالى ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الآية، إن هي المخففة واللام هي الفارقة والمعنى إن الشأن أنهم قاربوا بمبالغتهم أن يوقعوك في الفتنة بالاستنزال عن الذي أوحينا إليك من الأحكام ﴿لِتَفْتَرِىَ﴾ أي لتختلق ﴿عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ أي غير ما أوحينا إليك ﴿وَإِذًا﴾ أي إذا فعلت ذلك الافتراء ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ وليًا لهم.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ يعني لولا ثَبّتَ تثبيتنا إياك على الحق ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ أي لقاربت أن تميل إلى اتباع مرادهم ﴿شَيْـًٔا﴾ من الركون والميل ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على المصدرية يعني كنت على قرب من الركون إليهم لقوة خدعهم وشدة احتيالهم وحرصك على إسلامهم قليلاً من الركون لا كثيراً منه لولا عِصْمَتُنا إياك ولكن أدركتك عصمتنا فمنعتَ أن تقرب من أدنى الركون إليهم فضلاً من القرب إلى شدة الركون ومن نفس الركون بالطريق الأولى، فالآية دلت على كمال الاستقامة والصلاح في استعداد النبي ﷺ، بحيث لو لم يتداركه العصمة والتثبيت من الله فرضاً لا تقرب من الميلان إلى المعصية إلا قليلاً وقليل الاقتراب إلى المعصية لا يقتضي الوقوع في المعصية فكيف إذا أدركته العصمة ومنعته من قليل الاقتراب من الركون فضلاً من كثير الاقتراب وشتّان بينه وبين نفس الركون فالآية صريح في أنه ﷺ ما همَّ بإجابتهم مع قوة الداعي والله أعلم ﴿إِذًا﴾ أي إذا قاربت إلى الركون شيئاً قليلاً ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ضعف ما يعذب به في الدارين غيرك لأن خطأ الخطير أخطر، وكان أصل الكلام عذاباً ضعفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في الممات يعني مضاعفاً ثم حذف الموصوف وأقيم الصفة مقامه ثم أضيفت لما تضاف موصوفها، وقيل: الضعف من أسماء العذاب سمى العذاب ضعفاً لتضاعف الألم فيه والمعنى عذاب الحياة الدنيا ومن عذاب الممات ما

يكون بعد الموت، وقيل: المراد بضعف الحياة عذاب الآخرة وبضعف الممات عذاب القبر ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يدفع العذاب عنك والله أعلم.

أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل من حديث شهر بن حوشب عن عبد الرحمن ابن غنم أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: إن كنتَ نبيًّا فالحقْ بالشام فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء فصدَّق رسول الله ﷺ ما قالوا وغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى آيات من سورة بني إسرائيل ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أي ليزعجونك والاستفزاز الإزعجاج بسرعة ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي المدينة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ فأمره بالرجوع إلى المدينة فقال له جبرئيل سَل ربك فإن لكل نبي مسئلة فقال: ما تأمرني أن أسئل قال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾(١) فهؤلاء نزلن في رجعته من تبوك هذا مرسل ضعيف وله شواهد من مرسل سعيد بن جبير عند أبي حاتم ولفظه قالت المشركون للنبي ﷺ كانت الأنبياء تسكن الشام فمالك والمدينة فهمّ أن يشخص فنزلت، وله طريق أخرى مرسلة عند ابن جرير أن بعض اليهود قال له، وذكر البغوي قول الكلبي أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة كره اليهود مقامه في المدينة حسداً فأتوه وقالوا: يا أبا القاسم لقد علمت ما هذه بأرض الأنبياء وإن أرض الأنبياء الشام وهي الأرض المقدسة وكان بها إبراهيم والأنبياء عليهم السلام فإن كنتَ نبيًّا مثلهم فأت الشام، وإنما يمنعك من الخروج إليها مخافتك الروم وإن الله سيمنعك منهم إن كنتَ رسوله فعسكر النبي ﷺ على ثلاثة أميال من المدينة وفي رواية إلى ذي الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويخرج فأنزل الله هذه الآية، وقال مجاهد وقتادة الأرض أرض مكة والآية مكية هَمَّ المشركون أن يخرجوه منها فكفهم الله عنها حتى أمره الله بالهجرة فخرج بنفسه، قال البغوي وهذا أليق بالآية لأن ما قبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية، وقيل: هم الكفار كلهم أرادوا أن يستفزوه من أرض العرب باجتماعهم وتظاهروا عليه فمنع الله رسوله ﷺ ولم ينالوا منه ما أملوه والله أعلم ﴿وَإِذًا﴾ أي إذا استفزوك ﴿لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب خِلافَكَ بكسر الخاء والألف بعد اللام والباقون بفتح الخاء وإسكان اللام والمعنى واحد يعني بعد خروجك أو بعد استفزازك ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا زماناً قليلاً، قيل: وكان كذلك فإن يهود المدينة قتل منهم بنوا قريظة وأجلي بنو النضير وأجلي يهود خيبر في خلافة عمر وقتل مشركوا مكة بعد خروج النبي ﷺ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٠.

يوم بدر وأُخرج الكفار كلهم من جزيرة العرب، وقيل لم يتحقق الاستفزاز ولو استفزوا لاستوصلوا ﴿سُنَّةَ﴾ نصب على المصدر أي سن الله ذلك سنة وهو أن يملك كل أمة أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم فهذه سنة الله تعالى وإنما أضاف إلى الرسل حيث قال ﴿مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ لأن ذلك السنة كان لأجل الرسل ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي تغيراً.

﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ اللام للتأنيث كما في قولك لثلاث خلون، يعني صل وقت دلوك الشمس، ومعناه الزوال على قول ابن عباس وابن عمر وجابر وهو قول عطاء وقتادة ومجاهد والحسن وأكثر التابعين كذا روى ابن مردويه عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ وكذا روى البزار وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عمر عن النبي ﷺ ويدل عليه ما رواه إسحاق بن راهويه في مسنده وابن مردويه في تفسيره والبيهقي في المعرفة من حديث أبي مسعود الأنصاري قوله ﷺ «أتاني جبرئيل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بيَ الظهر» الحديث وهو من الدلك لأن الناظر إليها يدلك عينه ليدفع شعاعها، وقيل معناه الغروب قال البغوي روي عن ابن مسعود أنه قال: الدلوك الغروب وهو قول إبراهيم النخعي ومقاتل بن حبان والضحاك والسديّ ومعنى اللفظ يجمعهما لأن أصل الدلوك الميل والشمس يميل إذا زالت أو غربت، وفي القاموس دلكت الشمس دلوكاً غربت أو اصفرت أو زالت عن كبد السماء، قال البيضاوي أصل التركيب للانتقال ومنه الدلك فإن الدالك لا يستقر يده وكذا ما يتركب من الدال واللام كدلج ودلح ودلع ودلف ودله، قال البغوي والحمل على الزوال أولى القولين لكثرة القائلين به ولأنا إذا حملنا عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها حيث قال الله تعالى ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أي إلى غيبوبة شفق الليل وامتلائه ظلمة ومعنى الغسق الامتلاء كما ذكرنا في سورة الفلق وفي القاموس الغسق ظلمة أول الليل والغاسق القمر أو الليل إذا غاب الشفق فذكر فيه مواقيت أربع من الصلوات الخمس الظهر والعصر والمغرب والعشاء وذكر وقت الفجر بقوله ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ أي صلاة الفجر سميت الصلاة قرآناً لأن القرآن ركن فيها، كما سميت ركوعاً وسجوداً، وانتصاب القرآن إما على أنه عطف على الصلاة أي وأقم قرآن الفجر قاله الفراء، وقال أهل البصرة هو على الإغراء أي وعليك قرآن الفجر، وجاز أن يكون التقدير واقرأ قرآن الفجر يعني اقرأ القرآن في صلاة الفجر، فيكون أمراً بالقراءة في صلاة الفجر عبارةً وفي غيرها دلالة، وقد ذكرنا مواقيت الصلاة في سورة النساء في تفسير قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾(١) ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار وعن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تفضل صلاة الجميع على صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءاً ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر، ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ۝٧٨﴾»(٢) رواه البخاري وغيره، قال البيضاوي أو يشهده شواهد القدرة من تبدل الظلمة بالضياء والنوم الذي هو أخو الموت بالانتباه، أو كثير من المصلين أو من حقه أن يشهده الجم الغفير، وقيل: المراد بالصلاة في قوله تعالى أَقِمِ الصَّلاةَ صلاة المغرب لِدُلُوكِ الشَّمْسِ أي وقت غروبها إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ أي إلى غيبوبة الشفق ففيه بيان لمبدأ وقت المغرب ومنتهاه ودلّت الآية على هذا على كون وقت المغرب ممتد إلى غيبوبة الشفق فحينئذ أمر الله بالصلاتين لكمال اهتمامهما.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي بعض الليل ﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ أي فاترك الهجود يعني النوم للصلاة والضمير في به للقرآن، في القاموس الهُجود بضم الهاء النوم كالتهجد وتَهَجَّدَ اسْتَيْقَظ كَهَجَدَ ضد وأهجد نام وأنام كهجَّد وهَجَده تهجيداً أيقظه ونوّمه ضد، والحاصل أن التشديد إن كان للإزالة فمعناه ترك النوم وهو المراد ههنا وإن كان للتعدية فمعناه نومه، قال البغوي التهجد لا يكون إلا بعد النوم يقال تهجد إذا قال بعد ما ينام، قلتُ: لما كان معناه ترك النوم للصلاة فهو يشتمل من ترك النوم الليل كله أو بعضه بعد النوم أو قبله فلا وجه لاشتراط النوم قبل الصلاة لقيام الليل. عن أبي ذر قال: صمنا مع رسول الله ﷺ فلم يقم بنا شيئاً من الشهر حتى بقي سبع، فقام بنا حتى ذهب ثلث الليل فلما كانت السادسة لم يقم بنا فلما كانت الخامسة قام بنا حتى ذهب شطر الليل، فقلتُ: يا رسول الله لو نفلتنا قيام هذه الليلة، قال: «إن الرجل إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف حُسِبَ له قيام ليله» فلما كانت الرابعة لم يقم بنا حتى بقي ثلث الليل فلما كانت الثالثة جمع أهله ونساءه والناس فقام بنا حتى خشينا أن يفوتنا الفلاح، قلتُ: ما الفلاح؟ قال: السحور ثم لم يقم بنا بقية الشهر»(٣) رواه أصحاب السنن إلا أن الترمذي لم يذكر ثم لم يقم بقية الشهر،

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجماعة والإمامة، باب: فضل صلاة الفجر في جماعة (٦٢١).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في تمام قيام شهر رمضان (١٣٧٤) وأخرجه النسائي في كتاب: السهو، باب: ثواب من صلى مع الإمام حتى ينصرف (١٣٥٧) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في قيام شهر رمضان (١٣٢٧).

وعن السائب بن يزيد قال: أَمَرَ عمر أبيّ بن كعب وتميماً الداري أن يقوما للناس بإحدى عشر ركعة فكان القارئ يقرأ بالمئين حتى كنا نعتمد على العصا من طول القيام، فما كنا ننصرف إلا في فروع الفجر رواه مالك وعن أبيّ ابن كعب كان يقول: كنا ننصرف في رمضان من القيام فيستعجل الخدم بالطعام مخافة السحور وفي رواية مخافة الفجر رواه مالك، وقد كان رسول الله ﷺ يسافر إلى قريب من الصبح وفي حديث ابن عمر قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي في السفر على راحلته حيث توجهت به يومئ إيماءً صلاة الليل إلا الفرائض ويوتر على راحلته»[1] متفق عليه وقال ابن عباس كان صلاتهم أول الليل هي أشد وطأ، بمعنى أجدر أن يحصو ما فرض الله عليكم من القيام لأن الإنسان إذا نام لم يدر متى يستيقظ، لكن التهجد آخر الليل أفضل وأكثر ثواباً منها أول الليل لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر»[2] الحديث، وعن عبد الرحمن بن عبد القارى قال: «خرجتُ مع عمر بن الخطاب ليلة إلى المسجد يعني في رمضان فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلي الرجل لنفسه ويصلي الرجل ويصلي بصلاته الرهط فقال عمر لو جمعتُ هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل ثم عزم فجمعهم على أبيّ بن كعب، قال: ثم خرجتُ معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم قال عمر: نعمت البدعة هذه والتي تنامون عنها أفضل من التي تقومون يريد آخر الليل وكان الناس يقومون أوله»[3] رواه البخاري والله أعلم.

**مسألة**: كانت صلاة الليل فريضة على النبي ﷺ في الابتداء وعلى الأمة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾[4] ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخاً في حق الأمة بالصلوات الخمس وبقي الاستحباب قال الله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾[5] واختلفوا في أنه هل بقي وجوب قيام الليل في حق النبي ﷺ خاصة أم صار منسوخاً في

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الوتر، باب: الوتر في السفر (١٠٠٠) وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: جواز صلاة النافلة على الدابة في السفر حيث توجهت (٧٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل (١١٤٥) وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل (٧٥٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: صلاة التراويح، باب: فضل من قام رمضان (٢٠١٠).

(٤) سورة المزمل، الآية: ١ ـ ٢.

(٥) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

حقه أيضاً؟ فقال بعض الناس ببقاء وجوب قيام الليل في حق النبي ﷺ لما روي عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «ثلاث هن عليّ فريضة وهي سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل»(١) فالأمر على هذا في هذه الآية للوجوب ومعنى قوله تعالى ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فريضة زائدة على سائر الفرائض فرضها الله تعالى عليه والمختار عندي أن افتراض قيام الليل نسخ عن النبي ﷺ أيضاً وكان له تطوعاً كما هو مدلول هذه الآية صحيحاً ولو كان المعنى فريضة زائدة لقال نافلة عليك فإن صلة الوجوب يكون على دون اللام. فإن قيل: فما وجه تخصيصه بالنبي ﷺ وهونافلة للعباد كلهم؟ قلنا: وجه التخصيص أن نوافل العباد كفارة لذنوبهم والنبي ﷺ كان معصوماً لم يكن عليه ذنب وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يعني زلاته، وما هو من قبيل ترك الأولى فيبقى له التهجد نافلة أي زائدة في رفع الدرجات، كذا روى مجاهد والحسن وأبو أمامة ويدل على كون التهجد تطوعاً في حق النبي ﷺ حديث المغيرة قال: قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه فقيل له لم تصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكورا»(٢) ولم يقل إنه فريضة عليّ خاصة وحديث ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ «يصلي في السفر على راحلته حيث توجهت به يومئ إيماء صلاة الليل إلا الفرائض ويوتر على راحلته»(٣) متفق عليه. **مسألة**: اختلفوا في أن التهجد في حق الأمة من المؤكدات أو من المستحبات»؟ والمختار عندي أنه من المؤكدات لمواظبة النبي ﷺ ولحديث ابن مسعود قال: ذكر عند النبي ﷺ رجل فقيل له ما زال نائماً حتى أصبح ما قام إلى الصلاة قال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه»(٤) متفق عليه، ولا شك أن تارك المندوبات لا يستحق اللوم والعتاب، وقوله تعالى ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ منصوب على أنه حال من الضمير المجرور في به أو على المصدرية وضع نافلة موضع تهجداً نافلةً أي عبادةً زائدةً مفروضةً أو تطوعاً وقد ذكرنا

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك وأحمد في مسنده.
قال الذهبي: حديث منكر، وأورده ابن عدي في منكرات أبي جناب. انظر فيض القدير (٣٤٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه (١١٣٠) وأخرجه مسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الوتر، باب: الوتر في السفر (١٠٠٠).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: إذا نام ولم يصل بال الشيطان في أذنه (١١٤٤) وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح (٧٧٤).

فضائل صلاة الليل وبعض مسائلها ومقدار ما ينبغي القراءة فيها في تفسير سورة المزّمل.

**فصل**: كيف كان قيام رسول الله ﷺ حين يتهجد من الليل؟ عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: لأرمقن صلاة رسول الله ﷺ الليلة فتوسدتُ عتبته أو فسطاطه فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين طويلتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة»[١] رواه مسلم، ذكر البغوي قوله ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثلاث مرات، وذكره في المشكاة أربع مرات وقال: هكذا في صحيح مسلم وأفراده من كتاب الحميدي وموطأ مالك وسنن أبي داود وجامع الأصول فمعنى قوله أوتر على هذا أوتر بواحدة وعلى ما ذكره البغوي معناه أوتر بثلاث، وعن عائشة قالت: ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشر ركعة يصلي أربعاً فلا تسئل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي أربعاً فلا تسئل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثاً، قالت عائشة فقلتُ يا رسول الله أتنام قبل أن توتر؟ فقال: «يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي»[٢] متفق عليه، وعنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة يسلم من كل ركعتين ثم يوتر بواحدة ويسجد سجدتين قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه وإذا سكت المؤذن من أذان الفجر وتبين له الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن للإقامة فيخرج»[٣] متفق عليه، وعن أنس بن مالك قال: ما كنا نشاء أن نرى رسول الله ﷺ من الليل مصلياً إلا رأيناه وما نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه، وقال: كان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئاً ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئاً»[٤] رواه النسائي، وعنها قالت:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٦٥).
وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في صلاة الليل (١٣٦٥) وأخرجه مالك في الموطأ في كتاب: الصلاة، باب: صلاة الليل (١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: قيام النبي ﷺ بالليل في رمضان وغيره (١١٤٧) وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل (٧٣٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: من انتظر الإقامة (٦٢٦) وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل (٧٣٦).

(٤) أخرجه النسائي في كتاب: قيام الليل وتطوع النهار، باب: ذكر صلاة رسول الله ﷺ بالليل (١٦١٨).

كان النبي ﷺ يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة منها الوتر وركعتا الفجر»[١] رواه مسلم، وعن مسروق قال سألت عائشة عن صلاة رسول الله ﷺ بالليل؟ قالت: سبع وتسع وإحدى عشرة ركعة سوى ركعتي الفجر»[٢] رواه البخاري، وعن عائشة قالت: كان النبي ﷺ «إذا قام من الليل ليصلي افتتح صلاته بركعتين خفيفتين»[٣] رواه مسلم، وروى أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً «إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين» وعن ابن عباس رضي الله عنهما «أنه رقد عند رسول الله ﷺ فاستيقظ فتسوك وهو يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حتى ختم السورة يعني آل عمران ثم قام فصلى ركعتين أطال فيهما القيام والركوع والسجود ثم انصرف فنام حتى نفخ ثم فعل ذلك ثلاث مرات ست ركعات كل ذلك يستاك ويتوضأ ويقرأ هؤلاء الآيات ثم أوتر بثلاث»[٤] رواه مسلم، وعن عائشة قالت: لمّا بدن رسول الله ﷺ كان أكثر صلاته جالساً»[٥] متفق عليه، وعن حذيفة أنه رأى النبي ﷺ يصلي من الليل فكان يقول: الله أكبر ثلاثاً والملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع ركوعه نحواً من قيامه فكان يقول سبحان ربي العظيم ثم رفع رأسه من الركوع فكان قيامه نحواً من ركوعه يقول لربي الحمد، ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه فكان يقول: في سجوده سبحان ربي الأعلى ثم رفع رأسه من السجود وكان يقعد فيما بين السجدتين نحواً من سجوده وكان يقول: رب اغفر لي رب اغفر لي فصلى أربع ركعات قرأ فيهن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة أو الأنعام شك شعبة»[٦] رواه أبو داود، وعن أبي ذر قال: قام رسول الله ﷺ حتى أصبح بآية والآية ﴿إِن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: كيف كان صلاة النبي ﷺ وكم كان النبي ﷺ يصلي من الليل (١١٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: كيف كان صلاة النبي ﷺ وكم كان النبي ﷺ يصلي من الليل (١١٣٩) وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل (٧٣٨).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٦٧).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٦٣).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: جواز النافلة قائماً وقاعداً وفعل بعض الركعة قائماً وبعضها قاعداً (٧٣٢).

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٧٢).

﴿تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾»[١] وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: لمَّا صلى رسول الله ﷺ صلاة العشاء اضطجع هوياً من الليل ثم استيقظ فنظر في الأفق فقال ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ثم أهوى إلى فراشه فاستل منه سواكاً ثم أفرغ في قدح من أدواة عندنا فاستن ثم قام فصلى حتى قلتُ: قد صلى قدر ما نام ثم اضطجع حتى قلتُ قد نام قدر ما صلى ثم استيقظ ففعل كما فعل أول مرة وقال مثل ما قال ففعل رسول الله ﷺ ثلاث مرات قبل الفجر»[٢] رواه النسائي، وعن أم سلمة قالت: «كان رسول الله ﷺ ينام قدر ما صلى ثم يصلي قدر ما نام ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح ثم نعتت قراءته فإذا هي تنعت قراءةً مفسرةً حرفاً حرفاً»[٣] رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ﴾ يوم القيامة ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ منصوب على الظرف بإضمار فعله أي فيقيمك مقاماً مَحْمُوداً، أو بتضمين يبعثك معنى يقيمك أو على الحال بمعنى يبعثك ذا مقام محمود يحمده الأولون والآخرون، قال البغوي عن أبي وائل عن عبد الله عن النبي ﷺ قال «إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً وإن صاحبكم خليل الله وأكرم الخلق على الله ثم قرأ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قال: يجلسه على العرش» وعن عبد الله بن سلام قال يقعده على الكرسي، والصحيح أن المقام المحمود مقام الشفاعة، أخرج أحمد وابن أبي حاتم والترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي، وفي الصحيحين عن أنس أن النبي ﷺ قال «يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهموا بذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون: أنتَ آدم أبو الناس خلقك الله بيده وأسكنك في جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء إشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول: لستُ هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب أكله من الشجرة وقد نهى عنها ولكن أتوا نوحاً أول نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتون نوحاً فيقول: لستُ هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب سؤاله ربه بغير علم ولكن إيتوا إبراهيم خليل الرحمن قال: فيأتون إبراهيم فيقول: إني لستُ هناكم ويذكر ثلاث كذبات

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: ترديد الآية (١٠٠٤) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في القراءة في صلاة الليل (١٣٥٠).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: قيام الليل وتطوع النهار، باب: بأي شيء تستفتح صلاة الليل (١٦١٧).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ (٢٩٢٣) وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: تزيين القرآن بالصوت (١٠١٦).

كذبهن ولكن ائتوا موسى عبداً آتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجيًا، قال: فيأتون موسى فيقول: إني لستُ هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب قتله النفس ولكن إيتوا عيسى عبد الله ورسوله وروح الله وكلمته، قال: فيأتون عيسى فيقول: لستُ هناكم ولكن إيتوا محمداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال: فيأتوني فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيتُه وقعتُ ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني فيقول: إرفع محمد وقل تُسمَع واشفع تُشَفَّع وسَل تعطه قال: فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود الثانية فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيتُه وقعتُ ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: إرفع محمد قل تُسمع واشفع تشفع وسَل تعطه قال: فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيتُه وقعتُ ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: إرفع محمد قل تُسمع وأشفع تُشفع رسَل تعطه قال: فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة حتى ما يبقى في النار إلا من قد حبسه القرآن أي وجب عليه الخلود ثم تلا هذه الآية ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ قال: وهذا المقام المحمود الذي وعده نبيكم»(١) وفي رواية في الصحيحين حديث أنس في الشفاعة بمعناه وفيه «فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها لا يحضرني الآن فأحمده بتلك المحامد وأخرّ له ساجداً فقال: يا محمد إرفع رأسك وقل تسمع وسَل تعطه واشفع تشفع فأقول: رب أمتي أمتي فيقال: أنطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجداً فذكر مثله ثم يقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان، فأنطلق فأفعل ثم أعود الرابعة فذكر مثله، وقال: يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ (٧٤٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٧٥١٠).

وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣).

قال السيوطي: في هذا الحديث إشكال قوي نبه عليه العلماء وذلك أن أول الحديث في الإراحة من كرب الموقف وآخره في الشفاعة في الإخراج من النار وذلك إنما يكون بعد التحول من الموقف والمرورِ على الصراط وسقوطِ من يسقط في تلك الحالة في النار ثم تشفع الشفاعة في الإخراج بعد ذلك، قال الداروردي. راوي الحديث: كبر سنًّا على غير أصله وقد وقع في حديث حذيفة على الصواب وهو ذكر الصراط عقيب هذه الشفاعة وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد في الأمر بإتباع كل أمة ما كانت تعبد ثم تميز المنافقين من المؤمنين ثم وضع الصراط والمرور عليه ثم الشفاعة في الإخراج فكانّ الأمر بإتباع كل أمة ما كانت تعبد هو أول فصل القضاء والإراحة من كرب الموقف والإخراج من النار آخر الشفاعة كذا قال القاضي عياض والنووي وغيرهما، قلتُ: وهذا لا يضر فكأنّ في الحديث حذف واختصار ذكر أول الشفاعة للإراحة من كرب الموقف ثم أتبعه آخر الشفاعة شفاعة الإخراج من النار وقد ثبت كل من الشفاعتين في أحاديث أخر، قلتُ: والمراد بقوله ﷺ «أستأذن على ربي في داره» يعني في الجنة والإضافة إليه للتشريف ولأن رؤيته تعالى يختص بالجنة، وأخرج البخاري عن ابن عمر قال: إن الناس يصيرون جَثيًا كل أمة تتبع نبيها يقولون يا فلان أشفع لنا حتى ينتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً»[1] وفي لفظ له أن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذان فبينما هم كذلك فاستغاثوا إلى آدم فيقول: لستُ بصاحب ذلك ثم بمحمد ﷺ فيشفع فيقضي الله تعالى بين الخلق فيمشي حتى يأخذ باب الجنة فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم، وأخرج البزار والبيهقي عن حذيفة قال: يجمع الله الناس في صعيد واحد لا يتكلم نفس فيكون أول من يُدعى محمد ﷺ فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك والمهدي من هديتَ وعبدك بين يديك وبك وإليك لا منجا منك إلا إليك تباركتَ وتعاليتَ رب البيت فعنده يشفع فذلك قوله تعالى ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ وأخرج الترمذي وحسنه وابن خزيمة وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر فيفزع الناس ثلاث فزعات فيأتون آدم فيقولون: أنت أبونا فاشفع لنا فيقول: أذنبتُ ذنباً أهبطتُ إلى الأرض ولكن ائتوا نوحاً فيقول: إني دعوتُ على أهل الأرض دعوةً فأهلكوا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ (٤٧١٨).

ولكن إذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقول: إني كذبتُ ثلاث كذبات، (ثم قال رسول الله ﷺ ما منها كذبة إلا وهو بما حل بها عن دين الله) ولكن ائتوا موسى فيقول: إني قتلتُ نفساً ولكن ائتوا عيسى فيقول: إني عُبدتُ من دون الله ولكن ائتوا محمداً فيأتون: فأنطلقُ معهم نأخُذُ بحلقة باب الجنة فأقعقعها فيقال: من هذا؟ فأقول: محمد فيفتح لي ويقولون: مرحباً فأخرُّ ساجداً فيلهمني الله من الثناء والحمد والمجد فيقال: إرفع رأسك وسَل تعطه واشفع تشفع وقل تسمع فذلك هو المقام المحمود»[1] قال القرطبي قوله ﷺ «فيفزع الناس ثلاث فزعات» إنما ذلك والله أعلم حين يؤتى بالنار تجر بأزمَّتها فإذا رأت الخلائق تمحلت وسبقت، وأخرج ابن خزيمة والطبراني بسند صحيح عن سلمان قال: تعطي الشمس يوم القيامة حر عشر سنين ثم تدنى من جماجم الناس، قال: فذكر الحديث قال: فيَلقَون النبي ﷺ فيقولون: إشفع لنا فيقول: أنا صاحبكم فيخرج حتى ينتهي إلى باب الجنة فيأخذ بحلقة في الباب فيقرع الباب فيقال: من هذا؟ فيقول محمد فيفتح له حتى يقوم بين يدي الله فيسجد فنادى إرفع رأسك سل تعطه وإشفع تشفع فذلك المقام المحمود» أورده غير تام وأخرجه ابن أبي حاتم في السُنَّة وابن أبي شيبة بتمامه فذكر الحديث بطوله وفي آخره فيشفع في كل من كان في قلبه مثقال حبة من حنطة من إيمان أو مثقال شعيرة من إيمان أو مثقال حبة من خردلة من إيمان فذاك المقام المحمود، وأخرج الطبراني عن كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «يبعث الناس يوم القيامة فأكون وأمتي على تل يوم القيامة فيكسوني ربي حلة خضراء ثم يؤذن لي فأثني عليه بما هو أهله فذلك المقام المحمود».

**فائدة**: ورد في الشفاعة العظمى في فصل القضاء والإراحة في طول الموقف مطولاً من حديث أبي بكر الصديق رواه البزار وأبو يعلى وأبو عوانة وابن حبان في صحيحهما وحديث أبي هريرة رواه الشيخان وغيرهما وحديث ابن عباس رواه أحمد وأبو يعلى وحديث حذيفة وأبي هريرة رواه مسلم والحاكم وحديث عقبة ابن عامر رواه الطبراني وابن المبارك وابن جرير وغيرهم وقد مر ذلك في سورة إبراهيم في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾[2] قال القرطبي هذه الشفاعة العامة التي خص بها نبينا ﷺ من بين سائر الأنبياء عليهم السلام هي المرادة بقوله ﷺ: «لكل نبيّ دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة بني إسرائيل (٣١٣٧).

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

وأنا اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي»[١] وهذه الشفاعة لأهل الموقف وقال وإنما هي ليعجل حسابهم ويُرَاحوا من هول الموقف، قلتُ: عندي أن المراد بقوله ﷺ «اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي» الشفاعة الثالثة لأجل إخراج المذنبين من النار ويكون للنبي ﷺ ثلاث شفاعات يدل عليه ما أخرج ابن جرير في تفسيره والطبراني في المطولات وأبو يعلى في مسنده والبيهقي في البعث وأبو موسى المديني في المطولات وعلي بن معبد في كتاب الطاعة والعصيان وعبد بن حميد وأبو الشيخ في كتاب العظمة عن أبي هريرة حديثاً طويلاً في خَلْقِ الصور ونفخه نفخة الفزع والصعق والبعث إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وأن يخرج المؤمنون من النار مكتوباً في رقابهم الجهنّميون عتقاء الله، وأنا أذكره منتخباً قد ذكر في ذلك الحديث «أن الناس يقفون موقفاً واحداً لا يقضى بينهم فيصيحون ويقولون: من يشفع لنا؟ فيأتون آدم ويقول: ما أنا بصاحب ذلك فيأتون الأنبياء نبياً نبياً فلما جاءوا نبياً يأبى عليهم حتى يأتوني فأنطلق معهم حتى آتي القحص أي قدام العرش فأخرُّ ساجداً فيقول الله ما شأنك وهو أعلم، فأقول: يا رب وعدتني الشفاعة فشفعني في خلقك فاقض بينهم، فيقول: شفعتك آتيكم فأقضي بينكم فذكر الحديث بطوله فذكر القضاء في البهائم والوحش ثم يقضي في العباد في الدماء والمظالم ثم يقول: ليلحق كل قوم بآلهتهم فيلحقون ويبقى المؤمنون وفيهم المنافقون فيكشف لهم عن ساق فيخر المؤمنون ساجدين ويخر كل منافق على قفاه يجعل أصلابهم كصياصي البقر ثم يضرب الصراط فيمرون عليه إلى قوله فناج سالم وناج مخدوش ومكدوش على وجهه في جهنم، فإذا مضى أهل الجنة إلى الجنة قالوا: من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة؟ فيقول: من أحق من أبيكم آدم؟ فيأتونه فيذكر ذنباً فيقول: ما أنا بصاحب ذلك ولكن عليكم بنوح فيأتونه فيقول نحو ذلك فيأتون إبراهيم وموسى وعيسى كل يقول نحو ذلك فيأتوني ولي عند ربي ثلاث شفاعات وَعَدَنيهن فَأنطلق إلى الجنة فلخذ بحلقة الباب ثم أستفتح فيفتح لي فإذا نظرت إلى ربي خررتُ ساجداً، فيأذن لي في حمده وتمجيده ما لم يؤذن لأحد من خلقه ثم يقول ارفع رأسك يا محمد إشفع تشفع سَل تعطه فأقول: رب وعدتني الشفاعة فشفعني في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة فيشفعني، فذكر الحديث بطوله إلى أن قال فإذا وقع أهل النار في النار وقع فيها خلق كثير ممن خلق ربك قد أوثقهم أعمالهم فمنهم من تأخذه إلى قدميه ولا تجاوز ذلك ومنهم من تأخذ إلى نصف ساقيه ومنهم من تأخذه إلى

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته (١٩٩).

ركبتيه ومنهم من تأخذه إلى حقويه ومنهم من تأخذ جسده كله إلا وجهه حرم الله صورتهم عليها، قال رسول الله ﷺ فأقول: يا رب من وقع في النار من أمتي فيقول: أخرجوا من النار من عرفتم فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ثم يأذن الله الشفاعة فلا يبقى نبي ولا شهيد إلا شفع فيقول: أخرجوا من وجدتم في قلبه زنة الدينار إيماناً ثم يقول: أخرجوا من وجدتم في قلبه إيماناً ثلثي دينار نصف دينار ثلث دينار ربع دينار قيراط حبة من خردل حتى لا يبقى في النار من عمِل لله خيراً قط، ولا يبقى أحد له شفاعة إلا شفع ثم يقول الله بقيتُ أنا وأنا أرحم الراحمين فيدخل الله يده في جهنم فيخرج منها ما لا يحصيه كثرةً كأنهم الحمم الحديث.

قال الحافظ: مدار هذا الحديث على إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة وقد تكلم فيه بسبب هذا الحديث وفي بعض سياقه نكارة، وقد قيل إنه جمع من طرق وأماكن متفرقة فساقه سياقاً واحداً، قال الحافظ أبو موسى المديني هذا الحديث وإن كان في إسناده من تكلم فيه فالذي فيه يروى مفرقاً باسانيد ثابتة وقد اختلف الناس في تصحيح هذا الحديث وتضعيفه فصححه ابن العربي والقرطبي وصوبه الحافظ ابن حجر، وضعفه البيهقي وقال السيوطي ذكر يحيى بن سلام البصري في تفسيره عن الكلبي أنه إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار بقي زمرة من آخر زمر الجنة فيقول لهم أهل النار وقد بلغت النار منهم كل مبلغ أما نحن فقد أخِذنا بالشك والتكذيب فما نفعكم توحيدكم فيصرخون عند ذلك فيسمعهم أهل الجنة ويأتون آدم فذكر الحديث إلى أن قال: فيأتون محمداً ﷺ فينطلق فيأتي رب العزة فيسجد له ثم يقول: أناس من عبادك أصحاب ذنوب لم يشكّوا بك فعيرهم أهل الشرك بعبادتهم إياك فيقول وعزتي لأخرجنهم، قال ابن حجر هذا لو ثبت لدفع الإشكال السابق عن الداوردي من ذكر الإخراج في آخر حديث الشفاعة في الإراحة من كرب الموقف ولكنه ضعيف ومخالف لصريح الأحاديث الصحيحة أن السؤال إنما يقع في الموقف قبل دخول المؤمنين الجنة، قال السيوطي يحتمل الجمع بالتعدد مرتين مرةً في الموقف للإراحة ومرة في الجنة للإخراج من النار من بقي من المؤمنين، قلتُ: يقال بوقوع ذلك السؤال ثلاث مرات مرةً في الموقف للإراحة ومرةً للإذن في الدخول لأهل الجنة ومرةً للإخراج من النار لمن بَقِيَ فيها من المؤمنين وهو المعنى بقوله ﷺ «ولي عند ربي ثلاث شفاعات وعدنيهن» والمقام المحمود مقام الشفاعة وهي يعم كل شفاعة من الشفاعات الثلاث.

**مسألة**: وأنكر الخوارجُ والمعتزلةُ الشفاعةَ وقالوا: إن أهل الكبائر إذا ماتوا من غير

توبة لا شفاعة لهم ولا يخرجون من النار أبداً، وقد ورد في الشفاعة أحاديث كثيرة بلغت حد التواتر بالمعنى منها ما أخرج مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ «ذكر قول إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ وقول عيسى ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ فرفع يديه وقال: أمتي أمتي ثم بكى فقال الله تعالى يا جبرئيل إذهب إلى محمد فقل له إنّا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك»[1] وما أخرج البزار في الأوسط وأبو نعيم بسند حسن عن عليٍّ أن رسول الله ﷺ قال: «أشفع لأمتي حتى يناديَ ربي تبارك وتعالى أرضيتَ يا محمد؟ فأقول: أي رب رضيتُ» ومنها حديث: «إن ربي خيّرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة بغير حساب وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة وهي لكل مسلم» وفي لفظ «لمن مات لا يشرك بالله شيئاً»[2] رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه وابن حبان والبيهقي والطبراني عن عوف بن مالك الأشجعي، وأحمد والطبراني والبزار بسند حسن عن معاذ بن جبل وأبي موسى، وأحمد والطبراني والبيهقي بسند صحيح عن ابن عمر وفي آخره أترونها للمتقين ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين، ومنها حديث «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[3] رواه أبو داود والترمذي والحاكم والبيهقي وصححاه عن أنس، والطبراني وأبو نعيم عن عبد بن بشير بمعناه، والطبراني في الأوسط عن ابن عمر نحوه، وفي الكبير عن أم سلمة بمعناه، والترمذي والحاكم عن جابر نحوه، وأخرج عن كعب بن عجرة، وعن طاووس قال البيهقي هذا مرسل حسن يشهد لكون هذا اللفظ يعني شفاعتي لأهل الكبائر شائعة بين التابعين، أخرج ابن أبي حاتم في السنة عن أنس يرفعه قال: «ما زلتُ أشفع إلى ربي ويشفعني حتى أقول أي رب شفعني فيمن قال لا إله إلا الله فيقول: هذا ليس لك يا محمد ولا لأحد هذه لي وعزتي وجلالي ورحمتي لا أدع أحداً في النار يقول لا إله إلا الله» ومنها حديث «نعم الرجل أنا لشرار أمتي وقال: أما شرار أمتي فيُدخلهم الله الجنة بشفاعتي وأما خيارهم فيُدخلهم الله الجنة بأعمالهم» وأخرج الطبراني عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده أنا لسيد الناس يوم القيامة بغير فخر وما من الناس إلا تحت لوائي يوم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: دعاء النبي ﷺ لأمته وبكاؤه شفقة عليهم (٢٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٤١) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة (٤٣١١).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في الشفاعة (٤٧٢٨) وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٣٦).

القيامة ينتظر الفرج وإن معي لواء الحمد أمشي ويمشي الناس معي إلى باب الجنة فأستفتح فيقال: من هذا؟ فأقول: محمد فيقال: مرحباً بمحمد فإذا رأيتُ ربي خررتُ ساجداً له شكراً فيقال: إرفع رأسك قل تعطه إشفع تشفع فيخرج من أجرم برحمة الله وشفاعتي» وفي الأوسط عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «آتي جهنم فاضرب بابها فيفتح لي فأدخلها فأحمد الله بمحامد ما حمده أحد قبلي ولا يحمده أحد بعدي ثم أخرج منها من قال لا إله إلا الله مخلصاً فيقوم إليّ ناس من قريش فينتسبون لي فأتركهم في النار» وأخرج البخاري عن عمران بن حصين مرفوعاً «يخرج قوم النار بشفاعة محمد ويدخلون الجنة ويسمون الجهنميون»(١) وفي الصحيحين عن جابر مرفوعاً «إن الله يخرج قوماً من النار بالشفاعة فيدخلهم الجنة» والطبراني بسند حسن عن ابن عمر مرفوعاً قال: «يدخل من أهل هذه القبلة النار من لا يحصى عددهم إلا الله بما عصوا واجترءوا على معصية الله فيؤذن لي بالشفاعة فأثني الله ساجداً كما أثني قائماً فيقال: لي: ارفع رأسك وسَل تعطه واشفع تشفع» وأخرج أحمد والطبراني بسند لا بأس به عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى قال: يا محمد إني لم أبعث نبياً ولا رسولاً إلا وقد سألني مسئلة أعطيتُها إياه فسل يا محمد تعطه فقلتُ: مسئلتي شفاعتي لأمتي يوم القيامة فقال أبو بكر يا رسول الله وما الشفاعة؟ قال: فأقول يا رب شفاعتي التي اختبأت عندك فيقول الرب تعالى نعم فيدخل ربي بقية أمتي فيدخلهم الجنة» ومنها حديث «لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وأنا اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي»(٢) رواه الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة، ومسلم عن أنس وجابر، وأحمد عن عبد الله بن عمر وأبي سعيد الخدري، والبزار والبيهقي عن عبد الرحمن بن عقيل.

قال السيوطي هذا حديث متواتر، قلتُ: فتعس من أنكر الشفاعة روى الشيخان في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه خطب فقال «إنه سيكون في هذه الأمة قوم يكذّبون بالرجم وبالدجّال ويكذّبون بطلوع الشمس من مغربها ويكذبون بعذاب القبر ويكذبون بالشفاعة ويكذّبون بقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا» وأخرج سعيد بن منصور

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء أن للنار نفسين وما ذكر من يخرج من النار من أهل التوحيد (٢٦٦٠) أما لفظ البخاري فهو «يخرج قوم من النار بعد مامسهم منها سفع فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات باب: لكل نبي دعوة مستجابة (٦٣٠٥) وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته (١٩٨).

والبيهقي وهناد عن أنس قال: من كذّب بالشفاعة فلا نصيب له ومن كذّب بالحوض فليس له فيه نصيب، وأخرج أبو نعيم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي لا ينالهما شفاعتي يوم القيامة المرجئة والقدرية» وأخرج البيهقي عن شبيب ابن أبي فضلة المكي قال: ذكروا عند عمران بن حصين الشفاعة فقال رجل يا أبا نجيد إنكم لتحدثون أحاديث لا نجد لها أصلاً في القرآن فغضب عمران بن حصين وقال للرجل قرأت القرآن؟ قال: نعم قال: فهل وجدتَ صلاة العشاء أربعاً وصلاة المغرب ثلاثاً وصلاة الفجر ركعتين والظهر أربعاً والعصر أربعاً؟ قال: لا قال: فعمّن أخذتم هذا ألستم عنّا أخذتموه وأخذنا عن النبي ﷺ ووجدتم في كل أربعين درهماً درهم، وفي كل كذا شاة وكل بعير كذا، أوجدتم في القرآن هكذا؟ قال: لا قال: ووجدتم في القرآن: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[(١)] ووجدتم طوفوا سبعاً واركعوا ركعتين خلف المقام أوجدتم هذا في القرآن أو عمَّن أخذتموه ألستم أخذتموه عنا وأخذنا عن رسول الله ﷺ قالوا بلى قال أوجدتم في القرآن لا جلب ولا جنب ولا شغار في الإسلام قالوا قال فإن الله قال في كتابه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[(٢)] أو قد أخذنا عن النبي ﷺ أشياء ليس لكم بها علم، وذكر البغوي أنه روى عن يزيد بن صهيب الفقير قال كنتُ قد شغبني رأى من رأى الخوارج وكنتُ رجلاً شابًّا فخرجنا في عصابة نريد أن نحج فمررنا على المدينة فإذا جابر بن عبد الله يحدث عن رسول الله ﷺ وذكر الجهنميين فقلتُ له يا صاحب رسول الله ما هذا الذي تحدثون والله ﷻ يقول ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾[(٣)] و ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾[(٤)] فقال أي فتى تقرأ القرآن قلتُ نعم قال سمعتُ مقام محمد المحمود الذي يبعثه الله فيه قلتُ نعم قال فإنه مقام محمد المحمود الذي يخرج الله به من يخرج من النار ثم نعت الصراط وممر الناس عليه وقال إن قوماً يخرجون من النار بعد ما يكونون فيها.

**فصل**: في شفاعة الأنبياء وغيرهم روى ابن ماجه والبيهقي عن عثمان مرفوعاً قال «يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»[(٥)] وأخرجه البزار وزاد في آخره«ثم

---

(١) سورة الحج الآية: ٢٩.

(٢) سورة الحشر الآية: ٧.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٩٢.

(٤) سورة السجدة الآية: ٢٠.

(٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة (٤٣١٣) وهو ضعيف.

المؤذن» وأخرج الديلمي عن ابن عمر موقوفاً يقال للعالم اشفع في تلامذتك ولو بلغت عدد نجوم السماء، وأخرج أبو داود وابن حبان عن أبي الدرداء مرفوعاً «الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته»(١) وأحمد والطبراني مثله عن عبادة بن الصامت مرفوعاً وابن ماجه مثله عن المقدام بن معديكرب مرفوعاً، وأخرج البيهقي عن الحسن والحاكم وصححه والبيهقي وهناد عن الحارث بن قيس وأحمد مثله عن أبي بردة وهناد مثله عن أبي هريرة وأحمد والطبراني والبيهقي بسند صحيح عن أبي أمامة قالوا: قال رسول الله ﷺ «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر» وفي الباب أحاديث كثيرة لا يسعها المقام تدل على شفاعة غير نبينا ﷺ فإن قيل: لما لم يبق أحد في النار بشفاعة محمد ﷺ فأين يكون شفاعة غيره؟ قلتُ: لعل شفاعة الأنبياء غير نبينا ﷺ يختص بأمته ولا يشتمل جميعهم وشفاعة نبينا ﷺ ينال غير أمته أيضاً ولا يترك أحداً من أمته في النار وأما غير الأنبياء فلعلهم إما يشفعون إلى النبي ﷺ والنبي ﷺ يشفع لهم عند ربه وإما أن يحصل لغير النبي ﷺ الإذن في الشفاعة بشفاعة محمد ﷺ. **فائدة:** قال البيهقي قوله: ﷺ «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» تدل على أن الشفاعة لأهل الكبائر يختص برسول الله ﷺ دون الملائكة، والملائكةُ إنما يشفعون في الصغائر واستزادة الدرجات.

**فائدة:** قال المجدد للألف الثاني رضي الله عنه تعقيب قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ بعد قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ يشعر بأن لصلاة التهجد مدخلاً تاماً في قيام الرجل مقام الشفاعة والله أعلم.

أخرج الترمذي عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فنزلت عليه ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ يعني المدينة ﴿وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ يعني مكة كذا قال الحسن وقتادة، والمدخل والمخرج اسم ظرف منصوب على الظرفية أو مصدر يعني أدخلني المدينة إدخالاً مرضياً لا أرى فيه ما أكره وأخرجني من مكة إخراجاً مرضياً لا ألتفتُ بقلبي إليها، وقال الضحاك معناه أخرجني من مكة مخرج صدق آمناً من المشركين وأدخلني مكة مدخل صدق ظاهراً عليها بالفتح، وقال مجاهد أدخلني في أمرك الذي أرسلتَني به من النبوة مدخل صدق وأخرجني من الدنيا وقد قمتُ بما وجب عليّ من حقها مخرج صدق، وعن الحسن قال: أدخلني مدخل صدق الجنة وأخرجني مخرج صدق من مكة، قلتُ: الأولى أن يقال في مقابلة أدخلني الجنة مدخل صدق أخرجني من الدنيا

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في الشهيد يشفع (٢٥٢٠).

مخرج صدق، وقال البيضاوي أدخلني في القبر إدخالاً مرضيًا وأخرجني منه عند البعث إخراجاً تلقي بالكرامة، وقيل: معناه أدخلني في طاعتك وأخرجني من المناهي، وقيل: المراد إدخاله في كل ما يلابس من مكان أو أمر وإخراجه منه أي لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه فإن ذا الوجهين لا يكون أميناً عند الله وحيها، وقيل: المراد إدخاله الغار وإخراجه منه سالماً، ووصف الإدخال والإخراج بالصدق لما يؤل إليه الخروج والدخول من مرضاة الله تعالى والنصر والعز والكرامة ودولة الدين كما وصف القدم بالصدق فقال: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1] والتحقيق في ذلك أن الصدق والكذب في الأصل هما صفتا القول بل الخبر منه دون الإنشاء وهو مطابقة الخبر الواقع وقد يطلق على الإنشاء لتضمنه معنى الإخبار كقول القائل أزيد في الدار يتضمن أنه جاهل بحاله، وقد يستعملان في أفعال الجوارح فيقال: صدق في القتال إذ وفى حقه وفعل على ما ينبغي ومنه: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ﴾[2] أي حققوا العهد، وقوله تعالى: ﴿صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾[3] أي حقق أيضاً، ويعبر بالصدق عن كل فعل فاضل ظاهراً وباطناً فيضاف إليه ذلك الفعل الذي يوصف به ومنه قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾[4] و: ﴿لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾[5] ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾[6] ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ﴾[7] فإن ذلك سؤال أن يجعل الله ذلك صالحاً بحيث إذا أثنى عليه أحد كان صادقاً والله أعلم ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ قال مجاهد حجة بينة، وقال الحسن مُلكاً قوياً تنصر به على من ناوأني وعزًّا ظاهراً أقيم به دينك، فوعده الله لينزعن ملكَ فارس والروم وغيرهما فيجعله له، قال قتادة علم نبي الله ﷺ أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان نصير من الله تعالى فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله وحدوده وإقامة دينه، قلتُ: بل علّمه الله ذلك وأمره بأن يسئل من تعالى سلطاناً نصيراً، قيل: سأل رسول الله ﷺ حجةً ومُلكاً ينصر الإسلام على الكفر فاستجاب الله بقوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[8] ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[9] ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[10].

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٧.
(٤) سورة القمر، الآية: ٥٥.
(٥) سورة يونس، الآية: ٢.
(٦) سورة الإسراء، الآية: ٨٠.
(٧) سورة الشعراء، الآية: ٨٤.
(٨) سورة المائدة، الآية: ٥٦.
(٩) سورة التوبة، الآية: ٣٣.
(١٠) سورة النور، الآية: ٥٥.

﴿وَقُلْ﴾ يا محمد عند دخولك مكة حين فتحت ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي الإسلام وعبادة الله وحده أو القرآن ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي ذهب وهلك الشرك وعبادة الأصنام من زهق روحه إذا خرج ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي حقيقاً للزهوق وعدم الثبات لبنائه على ما لا أصل له، عن ابن مسعود قال: دخل النبي ﷺ يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾»[١] رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، وأخرج الطبراني في الصغير وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس نحوه.

﴿وَنُنَزِّلُ﴾ قرأ البصريان بالتخفيف من الافعال والباقون بالتشديد من التفعيل ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ من للبيان ﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ من أمراض الكفر والجهالات جلاءٌ لظلمات القلوب والأنفس، ماحٍ لكدورات القلبية والقالبية والنفسانية، دافعة لرذائلها، وقيل: من للتبعيض والشفاء الشفاء من الأمراض الظاهرة والمراد من بعض القرآن ما هو يشفي السقيم كالفاتحة ونحوها، وهو المعنى بقوله ﷺ «عليكم بالشفائين العسل والقرآن»[٢] وقد مر في سورة النحل ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من الله تعالى ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي للذين آمنوا وانتفعوا به خاصة يفيد لهم الفوائد الدينية والدنيوية والآخروية ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المنكرين بالقرآن ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ لتكذيبهم وكفرهم به قال قتادة لن يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان قضى الله تعالى الذي قضى ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ (٤٧٢٠) وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، ، باب: إزالة الأصنام من حول الكعبة (١٧٨١).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الطب، باب: العسل (٣٤٥٢) قال في الزوائد: اسناده صحيح ورجاله ثقات.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بالصحة والسعة أو بنزول القرآن ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكر الله يعني لم يشكره ﴿وَنَـَٔا﴾ قرأ الجمهور على وزن رمى بمعنى تباعد وقرأ ابن ذكوان ههنا وفي فصلت على وزن جَاءَ ومعناه نهض وقيل: معناه بَعُدَ كذا في القاموس والمآل واحد، أمال الكسائي وخلف فتحة النون والهمزة ههنا وفي فصلت وأمال خلاد فتحة الهمزة فيهما فقط، وقد روي عن أبي شعيب مثل ذلك وأمال أبو بكر فتحة الهمزة ههنا وأخلص هُناك والباقون بفتحها وورش على أصله في ذوات الياء ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ أي لوى عنقه وبَعُدَ بنفسه كأنه مستغن عنه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ من مرض أو فقر ﴿كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ شديد اليأس والقنوط من روح الله.

﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي كل واحد من الناس الشكور والكفور ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قال ابن عباس على ناحيته أي جانبه الذي يميل إليه من الهدى أو الضلال، وقال الحسن وقتادة على نيته يعني من كان يميل إلى الدنيا ينوي بعمله صلاح الدنيا ومن كان يميل إلى الآخرة ينوي بعمله وجه الله وصلاح الآخرة، وقال مقاتل على جبلته وقال الفراء على طريقته التي جبل عليها، وقال القتيبي على طبيعته وخليقته ومآل الأحوال الثلاثة واحد يعني على حسب استعداده الذي أودع الله فيه فهو نظير قوله ﷺ: «كل ميسر لما خلق له»[1] في الحديث متفق عليه عن علي مرفوعاً وعن أبي الدرداء قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ نتذكر ما يكون إذ قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوه وإذا سمعتم برجل تغير عن خلقه فلا تصدقوا فإنه يصير إلى ما جبل عليه» رواه أحمد، والاستعداد عبارة عن الكيفية الحاصلة لكل أحد باعتبار علته الفاعلية والمادية أما باعتبار علته الفاعلية فكونه ظلاً من ظلال الاسم الهادي أو الاسم المضل وأما باعتبار علته المادية فهو الكيفية المزاجية الحاصلة من تركيب العناصر الأربعة وإنما اختلاف شهوات النفوس على حسب اختلاف ثوران بعض العناصر دون بعض واختلاف طبائع الأجزاء الأرضية كما مر قوله ﷺ: «فجاء بنوا آدم على قدر الأرض منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب»[2] وقيل: على شاكلته أي سبيله الذي اختاره لنفسه، قال البيضاوي أي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ (٤٩٤٩) وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٧).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة (٢٩٥٥) وقال: حديث حسن صحيح.

على طريقته التي تشاكل حاله في الهدى أو الضلالة أو جوهر روحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه وفي القاموس الشكل الشبه والمثل وما يوافقك ويصلحك وصورة الشيء المحسوسة والمتوهمة والشاكلة الشكل والناحية والنية والطريقة والمذهب ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي أسدُّ طريقاً وأبينُ منهجاً يعني من هو على طريقة موصلة الحق من العقائد والأعمال ومن في طريقته اعوجاج قليل أو كثير والله أعلم.

أخرج البخاري عن ابن مسعود قال: كنتُ أمشي مع النبي ﷺ في حرث المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه فمر على نفر من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح وقال بعضهم لا تسئلوه لا يجيء إلا بشيء تكرهونه فقال بعضهم لنسئلنه فقام رجل منهم فقال يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت فقلتُ: إنه يوحى إليه فقمتُ فلما إنجلى عنه الوحي قال ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ أي الذي يحيى به بدن الإنسان ويدبره ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي من الإبداعيات الكائنة بقوله كن من غير مادة ونولد عن أصل كأعضاء الجسد ولما كان هذا غاية البيان باللسان على قياس فهم السائلين بحيث يحصل به امتياز الروح عن سائر الماديات ولم يكن مفيداً اللعلم بحقيقته المسؤلة بقولهم وما الروح اعتذر عنه وقال ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ أيها السائلون ﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بالأشياء الكائنة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ما تستفيدونه بتوسط حواسكم فإن اكتساب العقل للمعارف النظرية إنما هو من الضروريات المستفادة من إحساس الجزئيات ولذلك قيل من فَقَدَ حسًّا فقد فَقَدَ علماً ولعل أكثر الأشياء لا يدركها الحس فلا يحصل عنده ذاتياتها فلا يدرك بعضها إلا بعوارض تُمَيِّزُه عما يلتبس به والألفاظ إنما وضعت بإزاء أشياء محسوسة أو معقولة منتهية اكتسابها إلى أشياء محسوسة ولذلك أقتصر موسى عليه السلام في جواب قول فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(1) بذكر بعض صفاته، وهذه الآية لا يقتضي نفي العلم بالروح للنبي ﷺ ولأصحاب البصائر من أتباعه، فإن طور علمهم وراء طور علم العالمين بتوسط الحواس والاكتساب فإنهم يلهمون من الله تعالى حقائق الأشياء بلا توسط الحواس والاكتساب، فإن لقلوبهم أسماع يسمعون بها ما لا يسمعه الآذان وأبصار يبصرون بها ما لا يبصره العيون، قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٢٥) وأخرجه مسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح (٢٧٩٤).

به وبصره الذي يبصر به»[١] الحديث، وقد أدرك أصحاب البصائر حقيقة الروح وظهر لهم أن لكل إنسان خمسة من الأرواح العلوية، والروح السفلي المسمى بالنفس سادسها، والخمسة القلب والروح والسر والخفي والأخفى، يمتاز عندهم كل منها عن الآخر ذاتاً وصفاتاً، ويعرفونها كما يعرفون أبناءهم، وقد يشتبه عند بعضهم بعضها ببعض، بل قد تشتبه هي لأجل لطافتها بمراتب الوجوب، حتى قال بعضهم عبدتُ الروح ثلاثين سنة ثم أظهر الله تعالى حقيقته وإمكانه وحدوثه عليه، فقال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾[٢] فإن قيل أخرج ابن مردوية عن عكرمة إنه ﷺ لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب قال بل نحن وأنتم فقالوا ما أعجب شأنك ساعة تقول: ﴿مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾[٣] وساعة تقول هذا، فنزلت: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ﴾[٤] الآية وهذه الرواية تدل على أن النبي ﷺ أيضاً لم يكن عارفاً بحقيقة الروح، قلنا لو صح هذه الرواية فالمعنى أن الخطاب بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ يعم كلا الفريقين فلا شك أن علوم الأنبياء والملائكة وسائر الخلائق قليلة في جنب علم الله تعالى كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ﴾[٥] الآية، ولا منافاة بين كون الحكمة الموهوبة للأنبياء وكمل إتباعهم ومنها العلم بحقيقة الروح وغير ذلك خيراً كثيراً في نفسه متكفلاً لكمالات الإنسان ظاهراً وباطناً وبين كونها قليلاً بالنسبة إلى علم الله الغير المتناهي.

**فائدة:** ما ذكرنا من القصة يدل على كون الآية مدنيةً، وقال البغوي روي عن ابن عباس أنها نزلت بمكة حيث قال: إن قريشاً اجتمعوا، وقالوا: إن محمداً أنشأ فينا بالأمانة والصدق وما اتهمناه بكذب وقد ادعى ما ادعى، فابعثوا نفراً إلى اليهود بالمدينة واسئلوهم عنه فإنهم أهل كتاب، فبعثوا جماعة إليهم فقالت اليهود سَلوه عن ثلاثة أشياء فإن أجاب عن كلها أو لم يجب عن شيء منها فليس بنبيّ، وإن أجاب عن الإثنين ولم يجب عن الواحد فهو نبي، فسلوه عن فتية قد أووا في الزمن الأول ما كان من أمرهم فإنه كان لهم حديث عجيب، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها ما خبره، وعن الروح. فَسألوه فقال لهم

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: التواضع (٦٥٠٢).

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٧٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٥) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

(٦) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

النبي ﷺ: أخبركم بما سألتم غداً ولم يقل إن شاء الله فلبث الوحي قال مجاهد اثنتا عشرة ليلة، وقيل: خمس عشرة، وقال عكرمة أربعين يوماً وأهل مكة يقولون: وعدنا محمد غداً وقد أصبحنا لا يخبرنا بشيء، حتى حزن رسول الله ﷺ من مكث الوحي وشقّ عليه ما يقول أهل مكة، إذ نزل جبرئيل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[١] ونزل في الفتية: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾[٢] ونزل فيمن بلغ الشرق والغرب: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ﴾[٣] ونزل في الروح: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾[٤] وروى الترمذي هذه القصة مختصراً عنه قال ابن كثير يجمع بين الحديثين بتعدد النزول، وكذا قال الحافظ ابن حجر وزاد أو يحمل سكوته حين سؤال اليهود على توقع مزيد بيانٍ في ذلك، وإلا فما في الصحيح أصح وأيضاً يرجح ما في الصحيح بأنه رواية حاضر القصة بخلاف ابن عباس، وقال البغوي وروي عن ابن عباس أن الروح الذي وقع السؤال عنه هو جبرئيل وهو قول الحسن وقتادة قلتُ: وكذا أخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الضحاك، وقال البغوي وروي عن عليّ عليه السلام أن الروح هو ملَك له سبعون ألف وجه لكل وجه سبعون ألف لسان يسبح الله تعالى بكلها، وقال مجاهد هو خلق على صورة ابن آدم لهم أيدٍ وأرجل ورؤوس وليسوا بملائكة ولا ناس يأكلون الطعام، وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله خلقاً أعظم من الروح غير العرش لو شاء أن يبتلع السموات السبع والأرضين السبع ومن فيها بلقمة واحدة لفعل، صورة خلقه على صورة الملائكة وصورة وجهه على صورة وجه الآدميين، يقوم يوم القيامة على يمين العرش وهو أقرب الخلق إلى الله عز وجل عند الحجب السبعين، وأقرب إلى الله يوم القيامة وهو يشفع لأهل التوحيد لولا أن بينه وبين الملائكة ستراً من نور لاحترق أهل السماوات من نوره، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال: الروح أعظم خلقاً من الملائكة، ولا ينزل ملَك إلا ومعه روح، وقيل: الروح القرآن ومعني قوله تعالى ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ إنه من وحي الله وقيل المراد عيسى فإنه روح الله وكلمته، ومعنى الآية إنه ليس كما يقول اليهود حيث بهتوا أمه، ولا كما يقوله النصارى أنه ابن الله، بل هو مخلوق من أمر الله بكلمة كن من غير أب.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٩.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٨٣.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

ولما ذكر الله سبحانه أن علم العالمين قليل بالنسبة إلى علمه تعالى، نبّه على نعمة الوحي وأنه أوتي من العلوم ما لم يؤت غيره حثًّا بالصبر على أذى الكفار بقوله ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ اللام الأولى موطية للقسم وقوله لَنَذْهَبَنَّ جوابه النائب مناب جزاء الشرط، والمعنى إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه عن المصاحف والصدور ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ يتوكل علينا استرداده محفوظاً ومسطوراً ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ يعني إلا أن ينالك رحمة من ربك فهي لسترده، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً ومعناه ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به، فيكون امتناناً بإبقائه بعد المنة في تنزيله ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ حيث بعثك نبيًّا وأنزل عليك الكتاب والتزم عليه جمعه في المصاحف والصدور وقرآنه وبيانه وأعطاك المقام المحمود والحوض المورود وغير ذلك، قال البغوي قال ابن مسعود إقرؤوا القرآن قبل أن يرفع فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع، قيل هذه المصاحف يرفع فكيف بما في الصدور، قال: ليسري عليه ليلاً فيرفع ما في صدورهم فيصبحون لا يحفظون شيئاً ولا يجدون في المصاحف شيئاً، ثم يُفيضون في الشعر، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل له دوي حول العرش كدوي النحل فيقول الرب ما لكَ؟ فيقول: يا رب أتلى ولا يُعمَل بي، قلتُ هكذا ذكر البغوي وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسألوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[(١)] وروى أحمد وابن ماجه عن زياد بن لبيد قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال ذلك عند أوان ذهاب العلم، قلتُ: يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُقرِءه أبناءَنا ويُقرِئه أبناؤنا أبناءَهم إلى يوم القيامة؟ قال: فقال: «ثكلتك أمك زيادُ إن كنتُ لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤن التوراة والإنجيل لا يعملون بشيء مما فيهما»[(٢)] وروى الترمذي عنه، نحوه وروى الدارمي عن أبي أمامة نحوه، قلتُ: ولعل ابن مسعود زعم رفع القرآن عن المصاحف والصدور بما سمع من رسول الله ﷺ يقول «تعلموا العلم وعلموه الناس تعلموا الفرائض وعلموها الناس تعلموا القرآن وعلموه الناس فإني امرؤ مقبوض والعلم سيقبض ويظهر الفتن حتى يختلف اثنان في فريضة لا يجدان

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: كيف يقبض العلم (١٠٠) وأخرجه مسلم في كتاب: العلم، باب: رفع العلم وقبضه (٢٦٧٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: ذهاب القرآن والعلم (٤٠٤٨) وفيه انقطاع.

أحداً يفصل بينهما» رواه الدارقطني والدارمي عن ابن مسعود، ومقتضى حديث الصحيحين أن يحمل قبض العلم في هذا الحديث على قبضة بقبض العلماء لا بالانتزاع، مقتضى حديث زياد أن معنى ذهاب العلم ذهاب توفيق العمل به، قلتُ: والجمع بينهما أنه يذهب توفيق العمل بالعلم أولاً كما تراه في زماننا، ثم يذهب العلم مطلقاً بقبض العلماء كما ترى قلة العلم في ذلك الزمان إلى هذا الغاية بقلة العلماء بعدما كان كثيراً بكثرة العلماء وقلة توفيق التعليم والتعلم والله أعلم.

أخرج ابن إسحاق وابن جرير من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال: أتى النبي ﷺ سلام بن مشكم في جماعة يهود سماهم فقالوا كيف نتّبعك وقد تركتَ قبلتنا وأن هذا الذي جئتَ به لا نراه متناسقاً كما تناسق التوراة فأنزل علينا كتاباً نقرؤه نعرفه وإلا جئناك بمثل ما تأتي به فأنزل الله تعالى ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ في البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أي لا يقدرون على ذلك وفيهم العرب العَرْباء وأرباب البيان والشعراء وأهل التحقيق والبلغاء، وهو جواب قسم دل عليه اللام الموطئة ولولا هي لكان جواب الشرط بلا جزم يكون الشرط ماضياً ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي لبعضهم ﴿ظَهِيرًا﴾ عوناً ومظاهراً على الإتيان به وقال البغوي نزلت الآية حين قال الكفار: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾[(١)] فكذّبهم الله وفيه معجزة حيث كان كما أخبر الله تعالى به، ولم يقدروا على إتيان أقصر سورة منه مع كمال حرصهم على المعارضة، قال البيضاوي لعله لم يذكر الله تعالى الملائكة لأن إتيانهم بمثله لا يخرجه عن كونه معجزة ولأنهم كانوا وسائط في إتيانه، قلتُ المراد بالإتيان الأتيان من عند أنفسهم على سبيل المعارضة والمجادلة من غير وحي من الله تعالى ولا شك أن الملائكة أيضاً لا يقدرون على إتيان كلام مثل كلام غير مخلوق، لكنهم لم يذكروا لأن الإتيان المذكور كفر إنما يتصور من المنكر، والملائكة معصومون يؤمنون به ولا يتصور منهم الإنكار والله أعلم وجاز أن يكون الآية تقريراً لقوله: ﴿لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾[(٢)] ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كررنا بوجوه مختلفة في التقرير والبيان ﴿لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل معنى من العبر والأحكام والوعد والوعيد وغيرها هو كالمثل في غرابته وحسنه ووقوعه موقعاً في الأنفس ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ جاز ههنا وقوع المستثنى مفرغاً

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٦.

في الإثبات لكونه في قوة النفي ومعناه فلم يرض ولم يأت أكثرهم إلا كفوراً أي جحوداً وإنكاراً.

ذكر البغوي عن عكرمة عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان ابن حرب ورجلاً من بني عبد الدار سماه البغوي النضر بن الحارث وأبا البختري والأسود بن المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله ابن أبي أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ومنبياً ومنبهاً ابني الحجاج اجتمعوا ومن اجتمع منهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعَذَّروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً، وهو يظن أنه بدا لهم في أمره بدءًا وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم حتى جلس إليهم فقالوا: يا محمد إنا بعثنا إليك لِنُعَذر فيك وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمتَ الآباء وعبت الدين وسفهتَ الأحلام وشتمتَ الآلهة وفرقت الجماعة فما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت جئتَ بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالاً، وإن كنتَ إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد ملحاً ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك ربِّيًا تراه قد غلب عليك لا تستطيع رده بذلنا لك أموالنا في طلب الطب (وكانوا يسمون التابع من الجن الربيّ) فقال رسول الله ﷺ ما بي ما تقولون ما جئتكم بما جئتُكم به لطلب أموالكم ولا الشرف عليكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليَّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشياً ونذيراً فبلغتكم رسالته ونصحتُكم فإن تقبلوا مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيننا وبينكم، قالوا: يا محمد فإن كنتَ غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمتَ أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً ولا أقل مالاً ولا أشد عيشاً منا فاسئل لنا ربك الذي بعثك فليسيّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا مَنْ قد مضى من آبائنا وليكن منهم قُصِيّ بن كلاب فإنه كان شيخاً صدوقاً فنسئلهم عما تقول أحق هو أم باطل فإن صدَّقوك صدّقناك، فقال رسول الله ﷺ «ما بهذا بعثتُ فقد بلغتُكم ما أرسلتُ به فإن تقبلوا فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه أصبر لأمر الله» قالوا: فإن لم تفعل هذا فسَل ربك أن يبعث لنا مَلكاً يصدِّقك وسَله أن يجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضةٍ يغنيك بها عما نراك فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، قال: «ما بعثتُ بهذا

ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً» قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك لو شاء فعل، فقال: ذلك إلى الله إن شاء فِعْلَ ذلك بكم فَعَلَه، وقال قائل منهم لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً. فلمَّا قالوا قام رسول الله ﷺ وقام معه عبد الله بن أبي أمية وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سَألوك لأنفسهم أموراً يعرفون بها منزلتك من الله فلم تفعل ثم سألوك أن تعجل ما تخوّفهم به من العذاب فلم تفعل فوالله لا أؤمن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلّماً ثم ترقىٰ فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك نسخة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك بما تقول وايم الله لو فعلتَ ذلك لظننتُ أن لا أصدقك فانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً لما رأى من مباعدتهم فأنزل الله تعالى ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على أبى ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ الآية إلى قوله ﴿بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

وأخرج ابن جرير من طريق ابن إسحاق عن شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس، وأخرج سعيد بن منصور عن سعيد بن جبير في هذه الآية قال: نزلت في أخي أم سلمة عبد الله بن أمية قال في لباب النقول: هذا مرسل صحيح شاهد لما قبله يجبر المبهم في إسناده، يعني قال كفار مكة تعنتاً واقتراحاً بعد ما لزمتهم بيان إعجاز القرآن وانضمام غيره من المعجزات لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ﴾ قرأ الكوفيون بفتح التاء وضم الجيم مخففاً من المجرد، والباقون بضم التاء وفتح الفاء وكسر الجيم مشدداً من التفعيل ﴿لَنَا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أرض مكة ﴿يَنبُوعًا﴾ أي عيناً لا ينضب ماؤها يفعول من نبع الماء ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ بستان ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ﴾ من التفعيل باتفاق القراء ﴿الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا﴾ وسطها ﴿تَفْجِيرًا﴾ تشقيقاً ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ يعنون قوله

تعالى: ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾(١) قرأ نافع وابن عمر وعاصم بفتح السين كقِطَع لفظاً ومعنى جمع كِسْفَةٍ وهي القطعة والباقون بسكون السين على التوحيد وجمعه كسياف وكسوف أي يسقطعها طبقاً واحداً وقيل: معناه أيضاً القِطَعُ وهي جمع مثل سِدْرَة وسِدْرٍ، وقرأ في الشعراء كِسَفاً بالفتح حفص، وفي الروم ساكنةً أبو جعفر وابن عامر ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ قال ابن عباس والضحاك أي كفيلاً لما تدّعيه أي شاهداً على صحته ضامناً لدركه، وقال قتادة أي مقابلاً نراهم عياناً كالعشير بمعنى المعاشر وقال الفراء هو من قول العرب لقيتُ فلاناً قبيلاً وقبلا أي معاينة، وهو حال من الله والحال من الملائكة محذوف لدلالتها عليه، وقال مجاهد هو جمع القبيلة أي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة صنفاً صنفاً فيكون حالاً من الملائكة ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي ذهب وأصله الزينة ﴿أَوْ تَرْقَىٰ﴾ أي تصعد ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ في معارجها هذا قول عبد الله بن أمية ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي لصعودك وحده ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ وكان فيه تصديقك ونؤمر فيه باتباعك ﴿قُلْ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر على صيغة الماضي أي قال محمد والباقون على صيغة الأمر أي قل يا محمد تعجباً من اقتراحاتهم وتنزيهاً لله تعالى من أن يأتى أو يتحكم عليه أو يشاركه أحد في القدرة ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ﴾ أي ما كنتُ ﴿إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ يعني ليس ما سألتم في طوق البشر بل لو أراد الله أن ينزل ما طلبوا لفعل ولكنه لا ينزل الآيات على ما يقترحه البشر غالباً وقد أعطى الله تعالى لرسوله من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر ونبعالماء من بين الأصابع وما أشبهها وهذا هو الجواب المجمل وأما التفصيل فقد ذكر في آيات أخر ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾(٢) الآيـــــة ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾(٣) ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾(٤) يعني لم يؤمنوا ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾(٥).

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ محل أن النصب على أنه مفعول ثان لمنع ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي النبي والقرآن ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ محله الرفع على أنه فاعل منع ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ يعني ما منعهم عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن بعد نزول الوحي وظهور الحق

(١) سورة سبأ، الآية: ٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧.
(٣) سورة الحجر، الآية: ١٤.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٣١.
(٥) سورة الرعد، الآية: ٣١.

شيء إلا قولهم على سبيل الإنكار يعني إلا إنكارهم أن يرسل الله بشراً، وهذا الإنكار واقع غير موقعه فإن النقل والعقل حاكم بأن الرسول لا بد أن يكون من جنس المرسل إليهم حتى يبلّغهم رسالات ربهم فيستفيدون منه لأجل المناسبة نبّه الله سبحانه على هذا المعنى بقوله ﴿قُل﴾ يا محمد جواباً لشبهتهم ﴿لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ كما يمشي بنوا آدم ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ ساكنين فيها غير ذاهبين إلى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب عليهم ﴿تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ يعني لا نرسل إلى قوم رسولاً إلا من جنسهم ليمكنهم من الاجتماع به والتلقي منه، وملَكاً يحتمل أن يكون حالاً من الرسول أو موصوفاً به وكذلك بشراً والأول أوفق ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على أني رسوله إليكم فإنه تعالى أظهر المعجزات على يدي على وفق دعواي أو على أني بلغتُ ما أرسلتُ به إليكم وأنكم عاندتم بعد ظهور الحق فهو يحكم بيننا وبينكم بإثباته المحق وتعذيب المبطل، وشَهيداً نصب على الحال أو التميز ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ المنذِرين والمنذَرين ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يعلم بظواهر أحوالهم وبواطنها فيجازيهم عليه، فيه تسلّية للنبي ﷺ وتهديد للكفار.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أثبت الياء في الوصل نافع وحذفها الباقون في الحالين ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي من يخذله ولم يعصم حتى قبل وساوس الشيطان ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ يهدونه ﴿مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يمشون ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أو يسحبون عليها عن أنس أن رسول الله ﷺ «سئل كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه»[١] متفق عليه، وأخرج أبو داود والبيهقي

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر (٦٥٢٣) وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة الجنة والنار، باب: يحشر الكافر على وجهه (٢٨٠٦).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف ركباناً ومشاةً وعلى وجوههم، فقال رجل يا رسول الله أو يمشون على وجوههم؟ قال «الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيَهم على وجوههم»[١] وكذا أخرج الترمذي وحسنه، وروى الترمذي وحسنه عن معاوية بن حيدة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنكم تحشرون رجالاً وركباناً وتجرون على وجوهكم»[٢] وأخرج النسائي والحاكم والبيهقي عن أبي ذر قال: «حدثني الصادق المصدوق ﷺ أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج فوج طاعمين كاسين راكبين وفوج يمشون ويسعون وفوج يسحبهم الملائكة على وجوههم»[٣] ﴿عُمْيًا﴾ لا يرون ما تقرّبه أعينهم ﴿وَبُكْمًا﴾ لا ينطقون بحجة أو اعتذار يقبل منهم ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون شيئاً يَسُرُّهم لأنهم في الدنيا لم يستبصروا بالآيات والعبر وتصاموا عن استماع الحق وأبوا أن ينطقوا بالصدق كذا ذكر البغوي قول ابن عباس فلا منافاة بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾[٤] قوله تعالى: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾[٧] وغيرها من الآيات التي تثبت لهم الرؤية والكلام والسمع، وقيل: يحشرون كما وصفهم الله تعالى ثم يعطي لهم السمع والبصر والنطق إذا عرضوا على النار وعند الحساب، وقيل: يحشرون بعد الحساب من الموقف إلى النار مؤفي القوى والحواس، وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن محمد بن كعب قال: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله في أربع فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١﴾ فيجيبهم ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾[٨] الآية ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ فيجيبهم ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾[٩] الآية ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فيجيبهم ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة بني إسرائيل (٣١٤٢).
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقاق والورع، باب: ما جاء في شأن الحشر (٢٤٢٤).
(٣) أخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: البعث (٢٠٧٧).
(٤) سورة الكهف، الآية: ٥٣.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ١٣.
(٦) سورة الفرقان، الآية: ١٢.
(٧) سورة السجدة، الآية: ١٢.
(٨) سورة غافر، الآية: ١١ ـ ١٢.
(٩) سورة السجدة، الآية: ١٢ ـ ١٤.

قبل ما لكم من زوال﴾[١] الآية ثم يقولون: ﴿ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل﴾[٢] فيجيبهم ﴿أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾[٣] الآية ثم يقولون: ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ﴿١٠٦﴾ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴿١٠٧﴾﴾[٤] فيجيبهم ﴿إخسئوا فيها ولا تكلمون﴾[٥] فلا يتكلمون بعدها أبداً ﴿مأواهم جهنم كلما خبت﴾ أي سكن لهبها بأن أكلت جاودهم ولحومهم ﴿زدناهم سعيرا ﴿٩٧﴾﴾ وقوداً فيتوقد النار بأن يبدل جلودهم ولحومهم كأنهم لمّا كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جزاهم الله بأنهم لا يزالون على الإفناء والإعادة وإليه أشار بقوله.

﴿ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴿٩٨﴾﴾ فإن الإشارة بذلك إلى ما تقدم من عذابهم ﴿أولم يروا﴾ الاستفهام للإنكار والعطف على محذوف تقديره أنكروا البعث ولم يعلموا ﴿أن الله الذي خلق السماوات والأرض﴾ مع عظمها وشدتها من غير سبق مثال ﴿قادر على أن يخلق مثلهم﴾ مع صغرهم وضعفهم فإنهم ليسوا أشد خلقاً منهن ولا الإعادة أصعب عليه من الإبداء ﴿وجعل لهم﴾ عطف علي خبر أنَّ يعني ألم يعلموا أن الله جعل لهم ﴿أجلا﴾ أي وقتا لعذابهم ﴿لا ريب فيه﴾ أي في أن يأتيهم قيل: هو الموت وقيل: يوم القيامة ﴿فأبى الظالمون﴾ مع وضوح الحق ﴿إلا كفورا﴾ أي جحوداً وإنكاراً عطف على لم يروا يعني ألم يروا قدرة الله على خلقه وجعله لهم أجلاً فأبوا كل شيء إلا جحوداً، وفيه وضع الظاهر أي الظالمون موضع الضمير للتصريح بكونهم ظالمين في الإنكار والكفر ﴿قل﴾ يا محمد ﴿لو أنتم﴾ أيها الناس مرفوع بفعل يفسره ﴿تملكون﴾ وفائدة الحذف والتفسير المبالغة والدلالة على الاختصاص مع الإيجاز ﴿خزائن رحمة ربي﴾ أي رزقه وسائر نعمائه قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إذا﴾ أي إذا ملكتم ظرف لما بعده ﴿لأمسكتم﴾ وبخلتم ﴿خشية الإنفاق﴾ أي لأجل الخوف من الفقر بالإنفاق، وقيل: خشية النفاد يقال نفق الشيء إذا ذهب ﴿وكان الإنسان قتورا﴾ بخيلاً ممسكاً لأن بناء أمره على الحاجة والبخل بما يحتاج إليه وملاحظته العوض فيما يبذل بخلاف الله سبحانه فإنه جواد غير محتاج إلى شيء قادر على إيجاد أضعاف غير متناهية مما وجد فلا ينفد خزائنه.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٤. (٢) سورة فاطر، الآية: ٣٦.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٦.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٥) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٨.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي معجزات واضحات قال ابن عباس والضحاك هي العصا، واليد البيضاء، والعقدة التي كانت بلسانه فَحَلّها، وفلق البحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. وقال عكرمة ومجاهد وعطاء هي الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. والعصا، واليد، والسنون، ونقص الثمرات، قال: وكان رجل منهم مع أهله في فراشه وقد صارا حجرين والمرأة منهم قائمة تختبز فصارت حجراً، وذكر محمد بن كعب القرظي الطمس وانفلاق البحر ونتق الطور على بني إسرائيل، وقيل: الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الثلاثة الأخيرة، وعن صفوان بن عسال قال: قال يهودي لصاحبه إذهب بنا إلى هذا النبي فقال له صاحبه لا تقل له نبي إنه لو سمعك لكان له أربع أعين فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن تسع آيات بينات فقال رسول الله ﷺ لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تولوا للفرار يوم الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعتدوا في السبت، قال: فقبّلا يديه ورجليه وقالا: نشهد أنك نبي، قال: فما يمنعكم أن تتبعوني؟ قالا: إن داود عليه السلام دعا ربه أن لا يزال من ذريته نبي وإنا نخاف إن تبعناك أن يقتلنا اليهود»[1] رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح والحاكم وقال صحيح لا نعرف له علة، وروى البغوي بلفظ أن يهودياً قال لصاحبه تعال حتى نسئل هذا النبي فقال الآخر لا تقل له إنه نبي أنه لو سمع صارت له أربع أعين فأتياه فسألاه عن هذه الآية ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ الحديث فعلى هذا المراد بالآيات الأحكام العامة للملل الثابتة في كل الشرائع، سمى بذلك لأنها تدل على حال

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الاستئذان والآداب، باب: ما جاء في قبلة اليد والرجل (٢٧٣٣).

وأخرجه النسائي في كتاب: تحريم الدم، باب: السحر (٤٠٧٦).

من يتعاطى متعلقها في الآخرة من السعادة والشقاوة وقوله وعليكم خاصة اليهود أن لا تعتدوا حكم مستأنف زائد على الجواب ولذلك غير فيه سياق الكلام ﴿فَسْئَلْ﴾ أي فقلنا لموسى فاسئل ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ من فرعون ليرسلهم معك، أو سَل يا موسى بني إسرائيل عن دينهم ويؤيد كون الخطاب لموسى قراءة رسول الله ﷺ فَسَأَلَ على لفظ الماضي بغير همزة الوصل أخرجه سعيد بن منصور في سننه وأحمد في الزهد عن ابن عباس ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾ متعلق بقلنا مقدر أو المعنى فاسئل يا محمد بني إسرائيل عمّا جرى بين موسى وفرعون إذ جاءهم وعن الآيات ليظهر للمشركين صدقك أو لتسلّي نفسك وتعلم أنه تعالى لو أتى بما اقترحوا الأصروا على العناد والمكابرة كمن قبلهم أو ليزدادَ يقينك لأن تظاهر الأدلّة توجب قوة اليقين وطمأنية القلب، وعلى هذا كان إذ منصوباً بآتَيْنا أو بإضمار يخبروك على أنه جواب الأمر أو بإضمار أذكر على الاستيناف ﴿فَقَالَ لَهُۥ﴾ أي لموسى ﴿فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ سُحِرْتَ فاختل عقلك حيث تدعى أمراً مستحيلاً يعني الرسالة من الله تعالى كذا قال الكلبي، وقيل: مصروفاً عن الحق، وقال الفراء وأبو عبيدة ساحراً وضع المفعول موضع الفاعل، وقال محمد بن جرير معطىً علم السحر فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك.

﴿قَالَ﴾ موسى في جوابه ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ قرأ الكسائي بضم التاء على أخباره عن نفسه أي عَلِمْتُ أنا ويروى ذلك عن عليّ، وقال: لم يعلم الخبيث أن موسى على الحق ولو علم لا من ولكن موسى هو الذي علم، وقرأ الباقون بفتح التاء أي لقد علمتَ أنت يا فرعون، قال ابن عباس علمه فرعون ولكن عاند قال الله تعالى ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[1] ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ جمع بصيرة أي بينات يبصرك صدقي ولكنك تعاند وانتصاب على الحال ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ قال ابن عباس ملعوناً وقال مجاهد هالكاً، وقال قتادة مهلكاً، وقال الفراء مصروفاً ممنوعاً عن الخير مطبوعاً على الشر من قولهم ما ثبرك عن هذا أي ما صرفك، نَازَعَ ظنه بظنه وشتّان ما بين الظنين فإن ظن فرعون باطل معارض للأدلّة الموجبة لليقين، وظن موسى يحوم حول اليقين من تظاهر أماراته ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ أي يستخف ويخرج موسى وقومه ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر والأرض مطلقاً بالقتل والاستئصال ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ على عكس ما أراد بموسى وقومِهِ يعني فاستفززناه وقومه بالإغراق ﴿وَقُلْنَا مِنۢ

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

بَعۡدِهِۦ﴾ أي من بعد فرعون وإغراقه ﴿لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ التي أراد فرعون أن يستفزكم منها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي الكرة أو الحياة أو الساعة أو الدار الآخرة يعني قيام القيامة ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ أي جميعاً مختلطين إياكم وإياهم ثم يحكم ويميز سعداءكم من أشقيائكم، واللفيف الجماعات من قبائل شتى إذا اختلطوا وجمع القيامة كذلك فيهم المؤمن والكافر والبرُّ والفاجر وقال الكلبي فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ يعني مجيء عيسى من السماء جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا أي كل قوم من ههنا وههنا لقوا جميعاً.

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ تقديم الظرف يفيد الحصر يعني ما أنزلنا القرآن إلا متلبساً بالحق أي بالحكمة المقتضيّة لإنزالها وما نزل إلا متلبساً بالحق أي الحكمة والصدق الذي اشتمل عليه، وقيل: معناه ما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً بالرصد من الملائكة وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين، أراد نفي اعتراء البطلان أوله وآخره ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرٗا﴾ للمطيعين بالجنة ﴿وَنَذِيرٗا﴾ للعاصين من النار، فليس عليك إلا التبشير والتنذير دون جبرهم على الهداية.

﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾﴾

﴿وَقُرۡءَانٗا﴾ منصوب بفعل يفسره ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ يعني نزلناه نجوماً متفرقاً ولم ننزله جملة، بدليل قراءة ابن عباس بالتشديد لكثرة نجومه فإنه نزل في عشرين سنة، أو معناه فصلناه وبيناه وقال الحسن معناه فرقنا فيه الحق من الباطل فحذف كما حذف في قوله ويوماً شهدناه ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ أي مهلة فإنه أيسر للحفظ وأعون للفهم ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ على حسب الحوادث.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ﴾ أي بالقرآن ﴿أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ هذا على طريق التهديد والوعيد يعني إيمانكم وإنكاركم لا يعود على القرآن منفعةً، فإن إيمانكم لا يزيده كمالاً بل لأنفسكم، وامتناعكم عنه لا يورثه نقصاناً بل يضركم وقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾

تعليل له يعني فإن لم تؤمنوا فقد آمن غيركم الذين هم خير منكم، وهم علماء أهل الكتاب الذين قرؤا الكتب السابقة، وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة، وتمكنوا من التميز بين المحق والمبطل، حيث قرؤا نعتك وصفة ما أنزل إليك في تلك الكتب، وقيل المراد بالموصول الذين كانوا يطلبون الدين قبل مبعث النبي ﷺ ثم أسلموا بعد مبعثه مثل زيد بن عمرو بن نفيل وسلمان الفارسي وأبو ذر وغيرهم، ويجوز أن يكون تعليلاً على سبيل التسلّية كأنه قيل تسلّ بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة ولا تكترث بإيمانهم وإعراضهم ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ قال ابن عباس أراد به الوجوه أي يسقطون على وجوههم ﴿سُجَّدًا﴾ تعظيماً لأمر الله وشكراً لإنجازه وعدَه في تلك الكتب ببعثة محمد ﷺ على فترة من الرسل، وإنزال القرآن عليه ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ﴾ عن خلف الموعد ﴿إِن كَانَ﴾ يعني أنه كان ﴿وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ كائناً لا محالة يعني ما وعد الله تعالى في الكتب المنزلة وبشر به من بعثه محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه كان منجزاً كائناً البتة ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ كرر لاختلاف الحال أو السبب فإن الأول للشكر عند إنجاز الوعد، والثاني لما أثَر فيهم من مواعظ القرآن، وجملة يبكون في محل النصب على الحال يعني يخرون حال كونهم باكين من خسية الله، وذكر الذقن لأنه أول ما يلقى الأرض من وجه الساجد واللام فيه لاختصاص الخرور بها ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ سماع القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ أي يزيدهم علماً ويقيناً وخشوعاً لأجل نزول بركات القرآن على بواطنهم.

**مسألة**: يستحب البكاء عند قراءة القرآن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يلج النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري مسلم أبداً»(١) رواه البغوي ورواه الحاكم وصححه والبيهقي عنه بلفظ: «حرم على عينين أن تنالهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس الإسلام وأهله من أهل الكفر» وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «حرمت النار على ثلاثة أعين عين بكت من خشية الله وعين سهرت في سبيل الله وعين غُضت عن محارم الله» رواه البغوي، وعن أبي ريحانة قال: قال رسول الله ﷺ: «حرمت النار على عين بكت من خشية الله وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله وحرمت النار على عين غُضت عن محارم الله أو عين فقئت في سبيل الله» رواه الطبراني في

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في فضل البكاء من خشية الله تعالى (٢٣١١).
وأخرجه النسائي في كتاب: الجهاد، باب: فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٣٠٩٨).

الكبير وصححه وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد مؤمن يخرج من عينه دموع وإن كان مثل رأس الذباب من خشية الله ثم يصيب شيئاً من حر وجهه إلا حرمه الله على النار»[١] رواه ابن ماجه والله أعلم.

أخرج ابن مردويه وغيره عن ابن عباس قال: صلىّ رسول الله ﷺ ذات يوم فدعا فقال في دعائه يا الله يا رحمن فقال المشركون أنظروا إلى هذا الصابيء ينهانا أن ندعو إلهين فأنزل الله تعالى ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ وذكر البغوي قول ابن عباس أنه سجد رسول الله ﷺ بمكة ذات ليلة فجعل يقول في سجوده يا الله يا رحمن فقال أبو جهل إن محمداً ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين فأنزل الله تعالى هذه الآية ومعناها أنهما اسمان لذات واحدة وإن اختلفا اعتبار إطلاقهما وذلك لا ينافي توحيد ذات واحدة يستحق العبادة هو لا غير، وكلمة أو للتخيير، وقيل: قالت اليهود إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثره الله في التوراة فأنزل الله تعالى هذه الآية والمعنى أنهما متساويان في حسن الاطلاق والإفضاء إلى المقصود ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الدعاء ههنا بمعنى التسمية وهو معدى إلى مفعولين حذف أولهما استغناء عنه، والتنوين في أيًا عوض عن المضاف إليه وما صلة لتأكيدِ ما في أيّ من الإبهام، والضمير في له للمفعول الأول المحذوف يعني أيا ما تدعوه فله أي لذات المعبود بالحق الأسماء الحسنى، وجملة له الأسماء الحسنى واقعة موقع الجزاء للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه وكان أصل الكلام أيّ اسم من هذين الإسمين تدعوا الله أي تسموه به فهو حسن صحيح لأن له تعالى الأسماء الحسنى منها هذين الإسمين وكونها حسنى لدلالتها كلها على صفات الجلال والكمال والتنزه عن النقص والزوال، وقد ذكرنا أسماء الله سبحانه وما يتعلق بها في سورة الأعراف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[٢] الآية.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك في الصلاة بحيث يسمعها المشركون ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ كل المخافة بحيث لا يسمع من خلقك من المؤمنين ﴿وَٱبْتَغِ﴾ أي أطلب ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي كمال الجهر والمخافة ﴿سَبِيلًا﴾ متوسطاً فإن خير الأمور أوسطها، والمراد بالصلاة صلاة الليل فريضة كانت أو نافلة للإجماع على وجوب الأخفاة في صلاة النهار للنقل المتوارث، أو المعنى وابتغ بين ذلك سبيلاً يعني بالإخفاء نهاراً وحيث يكون بمسمع

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الحزن والبكاء (٤١٩٧) قال في الزوائد: إسناده ضعيف.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

من المشركين وبالجهر المتوسط ليلاً، روى البغوي من طريق البخاري عن أبي بشير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختفي بمكة كان إذا صلىّ بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمعه المشركون سبُّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك فيستمع المشركون فيسبُّوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم وروى البخاري عن أبي بشير بإسناد مثله وزاد ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ لسمعهم ولا تجهر حتى لا يأخذوا عنك القرآن[(١)]، قال البغوي وقال قوم الآية في الدعاء وهو قول عائشة والنخعي ومجاهد ومكحول رضي الله عنهم روى البخاري عن عائشة ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قالت: أنزل ذلك في الدعاء، وأخرج ابن جرير من طريق ابن عباس مثله ثم رجح الرواية الأولى بكونها أصح سنداً، وكذا أرجحها النووي وغيره قال الحافظ ابن حجر لكن يحتمل الجمع بينهما بأنها نزلت في الدعاء داخل الصلاة، وقد أخرج ابن مردويه من حديث أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلّى عند البيت رفع صوته بالدعاء فنزلت قلتُ: وهذا الجمع عندي غير مرضي لأن الدعوات المأثورة في الصلاة المتوارث فيها إلا خفاة ولا خوف إلا في دعاء القنوت وأيضاً قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾[(٢)] يقتضي الإخفاء في الدعوات كلها في الصلاة وخارجها فالأولى أن يقال: المراد بالدعاء في قول عائشة أنها نزلت في الدعاء وكذا في حديث أبي هريرة رفع صوته بالدعاء سورة الفاتحة لاشتمالها على قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ الخ وما أخرج ابن جرير والحاكم عن عائشة قالت: اللهم ارحمني فنزلت وأمروا أن لا تخافتوا ولا تجهروا، وما قال البغوي قال عبد الله بن شداد كان أعراب بني تميم إذا سلم النبي ﷺ قالوا: اللهم ارزقنا مالاً وولداً ويجهرون بذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية يجب رده للنقل المتوارث فلا يصادم ما في الصحيح في سبب نزول هذه الآية والله أعلم.

روى البغوي من طريق الترمذي عن عبد الله بن رباح الأنصاري أن النبي ﷺ قال لأبي بكر «مررتُ بك وأنتَ تقرأ وتخفض من صوتك» فقال: إني أسمعتُ من ناجيتُ فقال «إرفع قليلاً» وقال لعمر «مررتُ بك وأنتَ ترفع صوتك» فقال: إني أوقظ الوسنان وأطرد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ (٤٧٢٢).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

الشيطان قال «أخفض قليلاً»[١] وروى أبو داود وغيره من حديث أبي قتادة نحوه، وقد ذكرنا بعض مسائل الجهر بالقراءة والإخفاء بها في سورة الأعراف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾[٢] الآية وذكرنا مسئلة ذكر الجهر والخفي أيضاً في تلك السورة في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[٣] الآية.

**فصل**: كيف كان قراءة رسول الله ﷺ عن أبي هريرة قال: «كانت قراءة النبي ﷺ يرفع طوراً ويخفض طوراً»[٤] رواه أبو داود، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت قراءة النبي ﷺ على قدر ما يسمعه من في الحجرة وهو في البيت[٥] رواه أبو داود، وعن أم مسلمة أنها نعتت قراءته ﷺ فإذا هي تنعت قراءةً مفسرةً حرفاً حرفاً[٦] رواه أبو داود والترمذي والنسائي وعن أم هانئ قالت «كنتُ أسمع قراءة النبي ﷺ الليل وأنا على عريشي»[٧] رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وعن عبد الله بن قيس قال سألتُ عائشة عن قراءة النبي ﷺ كان يسر بالقراءة أم يجهر؟ قالت: كل ذلك قد كان يفعل ربما أسرو ربما جهر، قلتُ: الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة[٨]، قال الترمذي حديث حسن صحيح غريب والله أعلم.

أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في قراءة الليل (٤٤٤) وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل (١٣٢٧).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل (١٣٢٦).

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل (١٣٢٥).

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ (٢٩٢٣).
وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: كيف يستحب الترتيل في القراءة (١٤٦٥).
وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: تزيين القرآن بالصوت (١٠١٦).

(٧) أخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: رفع الصوت بالقرآن (١٠٠٧) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في القراءة في صلاة الليل (١٣٤٩).

(٨) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في قراءة الليل (٤٤٦).

الله ولداً وقالت العرب لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك وقال الصابئون والمجوس لولا أولياء الله لذلّ فأنزل الله تعالى ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي في الألوهية ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي ولي يواليه من أجل مذلة به ليدفعها بولايته، نفى عنه أن يكون له ما يشاركه من جنسه ومن غير جنسه اختباراً واضطراراً، وما يعاونه ويقويه، ورتب الحمد عليه للدلالة على أنه يستحق جنس الحمد لأنه كامل الذات المتفرد بالإيجاد المنعم على الإطلاق وما عداه ناقص مملوك نعمة أو منعم عليه فكل حمد راجع إليه تعالى ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي عظِّمه عن أن يكون له شريك أو وليٌّ تعظيماً بالغاً، روى أحمد في مسنده والطبراني بسند حسن عن معاذ الجهني عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «آية العز ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ إلى آخر السورة» والله أعلم، في هذه الآية تنبيه على أن العبد وأن بالغ في التنزيه والتمجيد واجتهد في العبادة والتحميد ينبغي أن يعترف بالقصور عن حقه في ذلك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الحمادون الذين يحمدون في السراء والضراء» رواه الطبراني والحاكم وصححه والبيهقي، وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده» رواه البيهقي وعبد الرزاق في الجامع، وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إن أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا إله إلا الله»(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وعن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ «أحب الكلام إلى الله أربع لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بأيتهن بدأت»(٢) رواه مسلم وأحمد بسند صحيح وروى البغوي الأحاديث الأربعة وعن عمران بن حصين «إن أفضل عباد الله يوم القيامة الحمادون» رواه الطبراني، وعن أبي ذر «أحب الكلام إلى الله أن يقول العبد سبحان الله وبحمده»(٣) رواه أحمد ومسلم والترمذي، وعن أنس كان رسول الله ﷺ إذا أفصح الولد من بني عبد المطلب علمه ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية، وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة، وكذا أخرج من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ورواه عبد الرزاق وابن أبي شيبة

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (٣٣٨٣).
وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء، باب: فضل الحامدين (٣٨٠٠).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الآداب، باب: كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه (٢١٣٧).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل سبحان الله وبحمده (٢٧٣١).

في مصنفهما من حديث عمرو بن شعيب مفصلاً والله أعلم.

الحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين.

تم تفسير سورة بني إسرائيل من التفسير المظهري ويتلوه إن شاء الله تعالى تفسير سورة الكهف قد تم ثالث رمضان من السنة الثانية بعد المائتين وألف سنة ١٢٠٢ من الهجرة.

# سورة الكهف

## مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

أخرج ابن جرير من طريق إسحاق عن شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا: سلوهم عن محمد وصِفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره وبعض قوله فقالوا لهم سَلوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنه كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طاف مشارق الأرض ومغاربها ما كان نَبَأه، وسلوه عن الروح ما هو، فأقبلا حتى قدما على قريش، فقالا: قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، فجاؤوا رسول الله ﷺ فسألوه، فقال: «أخبركم غداً بما سألتم عنه» ولم يستثن فانصرفوا ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله في ذلك وحياً ولا يأتيه جبرائيل حتى أرجف أهل مكة، حتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل من الله بسور أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل

الطواف وقول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أثنى الله على نفسه بإنعامه على خلقه بما هو أعظم نعمائه على الناس من إنزال القرآن على واحد منهم، لأنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد الداعي إلى ما به ينتظم لهم صلاح المعاش والمعاد، وفيه تلقين للعباد كيف يثنون عليه ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ قرأ حفص عِوَجاً في الوصل بسكتة لطيفة على الألف من غير قطع والباقون يصلون ذلك من غير سكت يعني شيئاً من العِوَج باختلال في اللفظ أو تناف في المعنى وانحراف من الدعوة إلى جناب المقدس وخروج شيء منه من الحكمة، وهو في المعاني بكسرا العين وفتح الواو كالعَوَج بفتح العين والواو في الأعيان، يقال في رأيه عِوَجٌ وفي عصاه عَوَجٌ، وقيل معناه لم يجعله مخلوقاً، روى عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾[2] أي غير مخلوق ﴿قَيِّمًا﴾ قال ابن عباس أي عدلاً يعني مُستقيماً مُعتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط، وقال الفراء قيماً على الكتب كلها يشهد بصحتها وينسخ بعض أحكامها، وقيل: أي قيماً بمصالح العباد فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال منصوب بمضمر، قال قتادة تقديره: أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ولكن جعله قيماً، أو على الحال من الضمير في له أو من الكتاب على أن الواو وفي ولم يجعل للحال دون العطف، إذ لو كان للعطف لكان المعطوف فاصلاً من المعطوف عليه ولذلك قيل فيه تقديم وتأخير يعني على تقدير كون الواو للعطف تقديره أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عِوَجاً، وفائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة وفي أحدهما غنًى عن الآخر التأكيد فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة لا يخلو من أدنى عوج عند التصفح ﴿لِّيُنذِرَ﴾ العبد بالقرآن الذين كفروا، حذف المفعول الأول اكتفاءً بدلالة القرينة، واقتصاراً على الغرض المسوق إليه ﴿بَأْسًا﴾ أي عذاباً ﴿شَدِيدًا﴾ في نار جهنم ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي صادراً من عنده وأبو بكر بإسكان الدال وإشمامها شيئاً من الضم بضم الشفتين كقُبلة المحبوب وبكسر النون والهاء ويصل الهاء بياء، والباقون بضم الدال وإسكان النون وضم الهاء وابن كثير يصلها بواو ﴿وَيُبَشِّرَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالتخفيف من الأفعال، والباقون بالتشديد من التفعيل ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ ذكر المفعول الأول ها هنا تعظيماً لهم وحثاً على الإيمان والأعمال

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٨.

﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنة ورضوان الله تعالى ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾ أي مقيمين في ذلك الأجر ﴿أَبَدًا﴾ بلا انقطاع ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ خصصهم بالذكر فكرر الإنذار متعلقاً بهم استعظاماً لكفرهم ولم يذكر المنذر به ها هنا استغناءً بتقدم ذكره ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ أي بالولد أو باتخاذه أو بالقول ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني يقولون ذلك عن جهل مفرط وتوهم باطل أو تقليد لما سمعوه من أوائلهم من غير علم بالمعنى الذي أرادوا به، فإنهم كانوا يطلقون الأب والابن بمعنى المؤثر والأثر أو ما لهم بالله من علم لو علموه لما جوّزوا نسبة اتخاذ الولد إليه، أو يقال: عدم العلم بالشيء قد يكون لعدم انكشافه مع وجوده، وقد يكون لإنعدامه واستحالته والمراد ها هنا ذلك ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذين تقوّلوه بمعنى التنبي ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي عظمت مقالتهم هذه في الكفر لما فيه من التشبيه والتشريك وإبهام احتياجه إلى ولد يُعينه ويخلفه إلى غير ذلك من الزيغ وكلمة منصوب على التميز وفيه معنى التعجب والضمير في ﴿كَبُرَتْ﴾ مبهم يفسره ﴿كَلِمَةً﴾، أو راجع إلى قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ ويطلق الكلمة على الكلام المركب أيضاً حيث يسمون القصيدة كلمة، وقيل أصله من كلمة وهو في محل الرفع على الفاعلية ومن زائدة، ثم حذف من فانتصب بنزع الخافض ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ صفة لكلمة تفيد استعظام اجترائهم على إخراجها من أفواههم والخارج بالذات هو الهواء الحامل لها، وقيل: الجملة صفة لمحذوف هو المخصوص بالذم، لأن كبُرَ ها هنا معنى بئس تقديره قول يخرج ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ أي ما يقولون ذلك ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾ صفة لمصدر محذوف أي إلا قولاً كذباً يعني ليس لهذا القول مصداق بوجه من الوجوه.

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: اجتمع عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبو جهل بن هشام والنضر بن الحارث والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأبو البختري في نفر من قريش، وكان رسول الله ﷺ ما رأى من خلاف قومه إياه، وإنكارهم ما جاء به من النصيحة فأحزنه حزناً شديداً فأنزل الله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ أي قاتل ﴿نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾أي بعد توليتهم عن الإيمان، شبه النبي ﷺ وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الأسف على توليتهم عن فارقته أحبَّته فهو يتحسر على آثارهم وينجع نفسه وجداً عليهم ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي القرآن شرط مستغن عن الجزاء بما مضى ﴿أَسَفًا﴾ منصوب على العلية أو الحال أي للتأسف عليهم، أو متأسفاً عليهم لحرصك على إيمانهم والأسف فرط الحزن والغضب ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ من الحيوان والنبات والمعادن ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ ولأهلها فإن قيل: أي زينةٍ في الحياة والعقارب والشياطين؟ قيل:

فيها زينة من حيث أنها تدل على صانعها ووحدته وصفاته الكاملة، وقال ابن عباس: أراد بهم الرجال خاصة هم زينة الأرض وقيل أراد بهم العلماء والصلحاء، وقيل: الزينة بنبات الأشجار والأنهار كما قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾[1] وقيل المراد بما على الأرض ما يصلح أن يكون زينة لها من زخارف الدنيا، قلت ويمكن أن يراد بما على الأرض على العموم كما هو الظاهر وكونها زينة من حيث النظام الجملي أو من حيث إن لكل شيء مدخل في الزينة، لأن حسن الأشياء الحسنة تعرف كما هي عند معرفة قبح أضدادها ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ﴾ أي الناس المفهوم في ضمن قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴿٤﴾﴾ ﴿أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ في تعاطيه وهو من تزهَّد فيه ولم يغتر به وقنع منه بما كفى وصرفه على ما ينبغي، قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون»[2] ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ أي ما جعلناها زينة من الحيوان والنبات وغير ذلك من الأشياء جاعلوها تراباً ورفاتاً.

﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذۡ أَوَى
ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴿١٠﴾ فَضَرَبۡنَا
عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ
أَمَدٗا ﴿١٢﴾ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴿١٣﴾
وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ
قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ
بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ
إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى
ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي
فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا
مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الرقاق، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساب (٢٧٤٢).

﴿بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

﴿أَمْ﴾ بل ﴿حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾ استفهام تقرير يعني أعلمت أنهم كانوا آية عجباً من آياتنا عجيبةً، وصفوا بالمصدر مبالغةً أو على أنه بمعنى الفاعل أي معجباً أو ذات عجب، وقيل: الاستفهام على سبيل الإنكار يعني أنهم ليسوا بأعجب آياتنا فإن خلق السماوات والأرض وخلق ما على الأرض من الأجناس والأنواع التي لا تعد ولا تحصى مخلوقة منها على طبائع متباعدة وهيئاتٍ مختلفةٍ ثم ردها إليها كما كانت أعجب منهم، والكهف الغار الواسع في الجبل، واختلفوا في الرقيم؟ قال سعيد بن جبير هو لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وقصتهم روى هذا أظهر الأقاويل ثم وضعوه على باب الكهف وكان اللوح من رصاص وقيل: من حجارة، وعلى هذا يكون الرقيم بمعنى المرقوم أي المكتوب والرقم الكتابة، وحكي عن ابن عباس أنه اسم للواد الذي فيه كهفهم فعلى هذا هو من رقمة الوادي وهو جانبه، وقال كعب الأحبار هو اسم للقرية التي خرج منها أصحاب الكهف وقيل اسم للجبل الذي فيه الكهف، وقيل: أصحاب الرقيم قوم آخرون. أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن النعمان بن بشير أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن أصحاب الرقيم أنهم ثلاثة نفر دخلوا إلى الكهف. وأخرجه أحمد وابن المنذر عن أنس عن النبي ﷺ: «أن ثلاثة نفر فيما سلف من الناس انطلقوا يرتادون لأهلهم فأخذتهم السماء فأووا إلى الكهف فانحطت صخرة وسدت بابه، فقال أحدهم اذكروا أيكم عَمِلَ حسنة لعل الله يرحمنا ببركته، فقال واحد استعملتُ أجراء ذات يوم فجاء رجل وسط النهار وعمل بقيته مثل عملهم فأعطيتُه مثل أجرهم، فغضب أحدهم ونزل أجره فوضعته في جانب البيت ثم مَرَّ بي نفر فاشتريتُ به فصيلةً فبلغت ما شاء الله، فرجع إليَّ بعد حين شيخاً ضعيفاً لا أعرفه وقال: إن لي عندك حقاً وذكره حتى عرفتُه فدفعتها إليه جميعاً، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك لوجهك فاخرج عنا فانصدع الجبل حتى رأوا الضوء، وقال الآخر كانت لي فضيلة وأصاب الناس شدةٌ فجاءتني امرأةٌ فطلبت مني معروفاً فقلتُ ما هو دون نفسكِ فأبَتْ ثم رجعتُ ثلاثاً ثم ذكرتْ لزوجها، فقال: أجيبي له وأعيني عيالكِ فأتت وسلَّمت إليَّ نفسها، فلما تكشفت وهممتُ بها ارتعدت فقلت مالك؟ قالت أخاف الله فقلتُ خِفيته في الشدة ولم أخفه في الرخاء فتركتُها وأعطيتُها ملتمسها، اللهم إن كنت فعلتُه لأجلك فافرج عنا فانصدع حتى تعارفوا، وقال الثالث كان لي أبوان هرمان وكانت لي غنم وكنتُ أطعمهما وأسقيهما ثم أرجع إلى غنمي فحبسني ذات يوم غنم فلم أرح حتى أمسيتُ فأتيتُ أهلي

وأخذتُ محله فحلبتُ فيه ومضيتُ إليهما فوجدتُهما نائمين، فشق عليَّ أن أوقظهما فتوقفتُ جالساً ومحلبي على يدي حتى أيقظهما الصبحُ فسقيتهما، اللهم إن فعلته لوجهك فأفرج عنا ففرج الله عنهم فخرجوا»(١) والله أعلم.

ثم ذكر الله قصة أصحاب الكهف فقال: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾ يعني اذكر إذ أوى الفتية أي صاروا ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ يقال أوى فلان إلى موضع كذا أي اتخذه منزلاً، قال البغوي وهو غار في جبل بيجلوس واسم الكهف جيرم ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ يوجب لنا الهداية في الدين والمغفرة من الذنوب والرزق والآمن من العدو ﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾ قال البيضاوي وأصل التهيئة أحداث هيئة الشيء ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي من الأمرالذي نحن عليه من الإيمان ومفارقة الكفار ﴿رَشَدًا﴾ أو المعنى اجعل لنا أمرنا كله رشداً، كقولك رأيت منك رشداً أي استقامة على طريق الحق مع تصلت فيه كذا في القاموس وفيه رشد كنصر وفرح رشداً ورشداً ورشاداً اهتدت كاسترشد واسترشد طلبه والرشيد في صفات الله تعالى بمعنى الهادي إلى سواء الصراط والذي حسن تقديره فيما قدر.

قال البغوي اختلفوا في سبب مصيرهم إلى الكهف؟ قال محمد بن إسحاق مرج أهل الإنجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكين بعبادة الله عزَّ وجلَّ وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس عبد الأصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه، وكان ينزل قرى الروم ولا يترك في قرية نزلها أحداً إلا فتنه حتى يذبح للطواغيت ويعبد الأصنام أو يقتله، حتى نزل مدينة أصحاب الكهف وهي أفسوس كلما نزلها كبر على أهل الإيمان فاستخفوا منه وهربوا في كل وجه، وكان دقيانوس حين نزلها أمر أن يتبع أهل الإيمان في أماكنهم، فيجزجونهم إلى دقيانوس فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان والذبح للطواغيت، فمنهم من يرغب في الحياة ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله فيقتل، فلما رأى ذلك أهل الشدة في الإيمان بالله جعلوا يسلمون للعذاب والقتل فيقتلون ويقطعون، ثم يربط ما قطع من أجسامهم على سور المدينة من نواحيها وعلى كل باب من أبوابها، حتى عظمت الفتنة فلمَّا رأى ذلك الفتية حزنوا حزناً شديداً فقاموا

(١) الحديث موجود في الصحيحين عن ابن عمر.

أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: إجابة دعاءمن بر والديه (٥٩٧٤) وأخرجه مسلم في كتاب: الرقاق، باب: قصة أصحاب النار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال (٢٧٤٣).

واشتغلوابالصلاة والصيام والصدقة والتسبيح والدعاء، وكانوا من أشراف الروم وكانوا ثمانية نفربكوا وتضرعوا إلى الله وجعلوا يقولون: ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا إن عبدنا غيره، اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وارفع عنهم البلاء حتى يعلنوا بعبادتك فبيناهم على ذلك وقد دخلوا في مصلى لهم أدركهم الشرط فوجدوهم وهم سجود على وجوههم يبكون ويتضرعون إلى الله عز وجل، فقالوا: لهم ما خلَّفكم عن أمر الملك انطلقوا إليه ثم خرجوا فرفعوا أمرهم إلى دقيانوس فقالوا: تجمع الناس للذبح لآلهتك وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يستهزؤون بك ويعصون أمرك، فلما سمع بذلك بعث إليهم فأتي بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم بالتراب، فقال: ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التي تُعبد في الأرض وتجعلون أنفسكم أسوة كسرات أهل مدينتكم واختاروا إما أن تذبحوا لآلهتنا وإما أن أقتلكم، فقال مكسلمينا وهو أكبرهم إن لنا إلهاً ملاء السماوات عظمته لن ندعوا من دونه إلهاً أبداً له الحمد والتكبير والتسبيح من أنفسنا خالصاً إياه نعبد وإياه نسأل النجاة والخير فأما الطواغيت فلن نعبدها أبداً فاصنع ما بدا لك، وقال أصحاب مكسلمينا لدقيانوس مثل ما قال، فلما قالوا ذلك أمر فنزع عنهم لبوس كانت عليهم من لبوس عظمائهم، ثم قال سأفرغ فأنجز لكم ما وعدتكم من العقوبة وما يمنعني أن أعجل ذلك لكم إلا أن أراكم شباناً حديثة أسنانكم ولا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلاً تذكرون فيه وتراجعون عقولكم، ثم أمر بحلية كانت عليهم من ذهب وفضة فنزعت ثم أمر بهم فأخرجوا عنه، وانطلق دقيانوس إلى مدينة سوى مدينتهم قريباً لبعض أموره.. فلما رأى الفتية خروجه بادروا قدومه وخافوا إذا قدم مدينتهم أن يذكرهم فأتمروا بينهم أن يأخذ كل منهم نفقته من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقي ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة في جبل يقال له بيجلوس فيمكثون فيه ويعبدون الله، حتى إذا جاء دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما يشاء فلما قال ذلك بعضهم لبعض عمد كل فتى منهم إلى بيت أبيه فأخذ نفقته فتصدق منها ثم انطلقوا بما بقي معهم وأتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه، قال كعب الأحبار ومروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مراراً، فقال لهم الكلب يا قوم ما تريدون مني لا تخشون جانبي أنا أحب أحباء الله عز وجل فناموا حتى أحرسكم. وقال ابن عباس هربوا ليلاً من دقيانوس وكانوا سبعةً فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعهم كلبه فخرجوا من البلد إلى الكهف وهو قريب من البلد، قال ابن عباس فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلا الصلاة والصيام والتسبيح والتكبير والتحميد ابتغاء وجه

الله، وجعلوا نفقتهم إلى فتًى منهم يقال له تمليخاً وكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سراً وكان من أجملهم وأجلدهم، وكان إذا دخل المدينة يضع ثياباً كانت عليه حساناً ويأخذ ثياباً كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها، ثم يأخذ ورقة فينطلق إلى المدينة فيشتري طعاماً وشراباً ويتجسس لهم الخبر هل ذُكر هو وأصحابه بشيء ثم يرجع إلى أصحابه فلبثوا بذلك ما لبثوا. ثم قدم دقيانوس المدينة فأمر عظماء أهلها فذبحوا للطواغيت ففزع أهل الإيمان وكان تمليخا بالمدينة يشتري لأصحابه طعامهم فرجع إلى أصحابه وهويبكي ومعه طعام قليل وأخبرهم أن الجبارقد دخل المدينة وقد ذُكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجوداً يدعون إلى الله ويتضرعون ويتعوَّذون من الفتنة، ثم إن تمليخا قال: يا أخوتاه ارفعوا رؤوسكم وأطعموا وتوكلوا على ربكم، فرفعوا رؤوسهم وأعينهم تفيض من الدمع فطعموا وذلك من غروب الشمس ثم جلسوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضاً فبينا هم على ذلك إذ ضرب الله على آذانهم في الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابه ما أصابهم وهم مؤمنون وموقنون ونفقتهم عند رؤوسهم، فلما كان من الغد فقدهم دقيانوس فلم يجدهم فقال لبعضهم قد ساءني شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد كانوا ظنوا أن لي غضباً عليهم لجهلهم ما جعلوا من أمري ما كنت لأحمل عليهم إن هم تابوا وعبدوا آلهتي، فقال عظماء المدينة أنت بحقيق أن ترحم قوماً فجرةً مردةً عصاة لقد كنت أجلت لهم أجلاً ولو شاؤوا لرجعوا في ذلك الأجل ولكنهم لم يتوبوا، فلما قالوا ذلك غضب غضباً شديداً ثم أرسل إلى آبائهم فأتى بهم فسألهم عنهم فقال أخبروني عن أبنائكم المردة الذين عصوني، فقالوا له: أما نحن فلم نعصك فَلِمَ تقتلنا بقومٍ مردةٍ قد ذهبوا بأموالنا فأهلكوها في أسواق المدينة ثم انطلقوا وأرسلوا إلى جيل يدعى بيجلوس، فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم وجعل لا يدري ما يصنع بالفتية فألقى الله عز وجل في نفسه أن يأمر بالكهف فيسد عليهم، أراد الله أن يكرمهم ويجعلهم آية لأمة تستخلف من بعدهم أن يبين لهم ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾[1] فأمر دقيانوس بالكهف أن يسد عليهم وقال دعوهم في الكهف الذي اختاروا كما هم يموتون جوعاً وعطشاً ويكون كهفهم الذي اختاروا قبراً لهم وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم وقد توفى الله أرواحهم وفاة النوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم ينقلبون ذات اليمين وذات الشمال. ثم إن رجلين مؤمنين من بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما اسم أحدهما يندروس والآخر إياش ائتمروا أن يكتبا

(١) سورة الحج، الآية: ٧.

شأن الفتية وأنسابهم وأسماءهم وخبرهم في لوحين من رصاص ويجعلاهما في تابوت من نحاس ويجعلا التابوت في البنيان، وقالا: لعل الله أن يظهر على هؤلاء الفتية قوماً مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عنهم حين يقرأ هذا الكتاب خبرهم ففعلا فبنيا عليه فبقى دقيانوس ما بقي ثم مات هو وقومه وقرون بعده كثيرة وخلفت الملوك بعد الملوك، وقال عبيد بن عمير كان أصحاب الكهف فتياناً مطوقين مسورين ذوي ذوائب وكان معهم كلب صيدهم فخرجوا في عيد لهم عظيم في زي وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التي يعبدونها وقد قذف الله في قلوب الفتية الإيمان وكان أحدهم وزير الملك فآمنواوأخفى كل واحد إيمانه، فقالوا في أنفسهم نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لا يصيبنا عقاب بجرمهم، فخرج شابٌ منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه، ثم خرج آخر فرآه جالساً وحده فرجاً أن يكون على مثل أمره من غير أن يظهر ذلك، ثم خرج آخر فاجتمعوا إلى مكان فقال بعضهم لبعض ما جمعكم؟ وكل واحد يكتم صاحبه إيمانه مخافةً على نفسه، ثم قالوا: ليخرج كل فئتين فيخلو بصاحبه ثم يغشي كل واحد منكم سره إلى صاحبه فإذا هم جميعاً على الإيمان وإذا كهف في الجبل قريباً منهم فقال بعضهم لبعض: ﴿فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾[1] فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيدهم فناموا ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً وفقدهم قومهم وطلبوهم فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم فكتبوا أسماءهم وأنسابهم في لوح أن فلان بن فلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم في شهر كذا في سنة كذا في ملكة فلان بن فلان، ووضعوا اللوح في خزانة الملك فقالوا ليكونن لهذا شأن، ومات ذلك الملك وجاء قرن بعد قرن. وقال وهب بن منبه جاء حواري عيسى ﷺ إلى المدينة أصحاب الكهف فأراد أن يدخلها فقيل له: إن على بابها صنماً لا يدخلها أحد إلا سجد له فكرة أن يدخلها، فأتى حماماً قريباً من المدينة فكان يؤاجر نفسه من الحمامي ويعمل فيه ورأى صاحب الحمام في حمامه البركة وعلقه فتية من أهل المدينة فجعل يخبرهم خبرالسماء والأرض حتى آمنوا وصدقوه وكان شرط على صاحب الحمام أن الليل لي لا يحول بيني وبينه ولا بين الصلاة أحد، وكان على ذلك حتى أتى ابن الملك بامرأة فدخل بها الحمام فصيره الحمامي وقال: أنت ابن الملك وتدخل مع هذه فاستحي وذهب فرجع مرة أخرى فقال له مثل ذلك فسبّه وانتهره ولم يلتفت إلى مقالته حتى دخلا معاً فماتا في الحمام وأتى الملك فقيل له: قتل صاحب الحمام ابنك فالتمس فلم يقدر عليه وهرب، فقال: من كان يصحبه؟ فسموا الفتية فالتمسوا فخرجوا من المدينة فمروا بصاحب

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٦.

لهم على مثل إيمانهم فانطلق ومعه كلب حتى آواهم الليل إلى الكهف فدخلوه وقالوا: نبيتُ ها هنا الليلة ثم نصبح إن شاء الله فترون رأيكم فضرب الله على آذانهم، فخرج الملك في أصحابه يتبعونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف فلما أراد رجل منهم دخوله رعب فلم يطق أحد أن يدخله، فقال قائل: أليس لو قدرت عليهم قتلتهم؟ قال: بلى قال: فابن عليهم باب الكهف واتركهم فيه يموتون جوعاً ففعل، قال وهب فعبروا بعدما سدوا عليهم باب الكهف زماناً بعد زمان، ثم إن راعياً أدركه المطر عند الكهف فقال: لو فتحت هذا الكهف وأدخلت غنمي إليه فأكنهّم من المطر فلم يزل يعالجه حتى فتح، ورد الله أرواحهم من الغد حين أصبحوا.

وقال محمد بن إسحاق ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له فلم بقي في ملكه ثمانية وستين سنة فتحزّب الناس في ملكه وكانوا أحزاباً منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق ومنهم من يكذب بها، فكبر ذلك على الملك الصالح فبكى وتضرع إلى الله وحزن حزناً شديداً لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق ويقولون لا حياة إلا الحياة الدنيا وإنما تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد، فجعل يرسل إلى من يظن فيه خيراً وإنهم أئمة في الحق، فجعلوا يكذّبون بالساعة حتى كادوا أن يحوِّلوا الناس عن الحق وملة الحواريين، فلما رأى ذلك الملك الصالح دخل بيته وأغلق عليه ولبس مسحاً وجعل تحت رماداً فجلس عليه، فدأب ليله ونهاره زماناً يتضرع إلى الله ويبكي ويقول: أي رب قد ترى اختلاف هؤلاء، فابعث إليهم آيةً تبين لهم بطلان ما هو عليه ثم إن الرحمن الرحيم الذي يكره هلكة العباد أراد أن يظهر على الفتية أصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعل آيةً وحجةً عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ويستجيب لعبده الصالح ليتم نعمته عليه، وأن يجمع من كان تبدد من المؤمنين، فألقى الله في نفس رجل من أهل ذلك البلد الذي فيه الكهف كان اسم ذلك الرجل أولياس أن يهدم ذلك البنيان الذي على فم الكهف، فيبني به حظيرة لغنمه فاستأجر غلامين فجعل ينزعان تلك الحجارة ويبنيان على تلك الحظيرة حتى نزعا ما على فم الكهف وفتحا باب الكهف وحجبهم الله عن أعين الناس بالرعب، فلما فتحا باب الكهف أذن الله عز وجل ذو القوة والسلطان محيي الموتى الفتية أن يجلسوا بين ظهري الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم يسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون فيها إذا أصبحوا من ليلتهم، ثم قاموا إلى الصلاة فصلوا كالذي كانوا يفعلون، لا يرى في وجوههم وألوانهم شيء ينكرونه كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن ملكهم دقيانوس في طلبهم.

فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم نبئنا بالذي قالوا للناس عنا عشيةَ أمس عند هذا الجبار وهم يظنون أنهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون، وقد تخيل إليهم أنهم ناموا أطول مما كانوا ينامون حتى يتساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض (كم لبثتم) نياماً (قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم)[1] ثم قالوا ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾[2] وكل ذلك في أنفسهم يسير، فقال لهم تمليخا ألستم في المدينة؟ وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم فتذبحوا للطواغيت أويقتلكم، فما شاء الله بعد ذلك فعل، فقال لهم مكسلمينا يا أخوتاه اعلموا أنكم ملاقوا الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم عدو الله، ثم قالوا لتمليخا انطلق إلى المدينة فتسمع ما يقال لنا بها وما الذي يذكر عند دقيانوس وتلطف ولا يشعر بك أحد وابتغ لنا طعاماً فأتنا به وزدنا على الطعام الذي جئتنا به فقد أصبحنا جياعاً.

ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب الذي كان ينتكر فيها، وأخذ ورقاً عن نفقتهم التي كانت معهم الذي ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع، فانطلق تمليخا خارجاً فلما مر بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مر ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفياً يصد عن الطريق تخوفاً أن يراه أحد من أهلها فيعرفه ولا يشعر أن دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلاث مائة سنة، فلما أتى تمليخا باب المدينة وقع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة تكون لأهل الإيمان إذا كان أمر الإيمان ظاهراً فلما رآها عجب وجعل ينظر إليها مستخفياً وينظر يميناً وشمالاً، ثم ترك ذلك الباب فتحول إلى باب آخر من أبوابها فرأى مثل ذلك فجعل يخيل إليه أن المدينة ليست بالتي كان يعرف، ورأى ناساًكثيراً محدثين لم يكونوا هم قبل ذلك فجعل يمشي ويتعجب ويخيل إليه أنه حيران، ثم رجع إلى الباب الذي أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول: يا ليت شعري ما هذا، أما عشية أمس فكان المسلمون يحبون هذه العلامة ويستخفون بها وأما اليوم فإنها ظاهرة لعلي نائم ثم يرى أنه ليس بنائم، فأخذ كساءه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشي بين ظهري سوقها فيسمع ناساً يحلفون باسم عيسى ابن مريم فزاده فرقاً ورأى أنه حيران، فقام مسنداً ظهره إلى جدار من جدر المدينة وقال في نفسه: والله ما أدري إما عشية أمس فليس على وجه الأرض من يذكر عيسى بن مريم إلا قليل وأما الغداة فأسمعهم وكل إنسان يذكر عيسى

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٩.

ولا يخاف، ثم قال في نفسه لعل هذا ليست بالمدينة التي أعرف والله ما أعرف مدينة قرب مدينتنا فقام كالحيران ثم لقي فتًى فقال: ما اسم هذه المدينة يا فتى؟ قال: اسمها أفسوس فقال في نفسه لعل شيئاً أو أمراً أذهب عقلي والله يحق لي أن أسرع الخروج منها قبل أن أخزى فيها أو يصيبني شر فأهلك ثم إنه أفاق فقال: والله لو عجلت الخروج من المدينة قبل أن يفطن بي كان أكيس بي، فدنا من الذين يبيعون الطعام فأخرج الورق التي كان معه فأعطاها رجلاً منهم فقال: بعني بهذه الورق طعاماً فأخذها الرجل فنظر إلى ضرب الورق ونقشها فتعجب منها ثم طرحها إلى رجل من أصحابه، فنظر إليها فجعلوا يتطارحون بينهم ويقول بعضهم لبعض إن هذا أصاب كنزاً خبياً في الأرض منذ زمان ودهر طويل، فلما رآهم تمليخا يتشاورون من أجله فرق فرقاً شديداً وجعل يرتعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه وأنهم إنما يريدون أن يذهبوا إلى ملكهم دقيانوس وجعل أناس أخر يأتونه فيتعرفونه فلا يعرفونه، فقال لهم وهو شديد الفرق منهم أفضلوا علي قد أخذتم ورقي فأمسكوها وأما طعامكم فلا حاجة لي به، فقالوا: من أنت يا فتى وما شأنك؟ والله لقد وجدت كنزاً من كنوز الأولين وأنت تريد أن تخفيه عنا فانطلق معنا وأرنا وشاركنا فيه نخفِ عليك ما وجدتَ، فإنك إن لم تفعل نأت بك إلى السلطان فنسلمك إليه فيقتلك، فلما سمع قولهم قال: قد وقعتُ في كل شيء كنتُ أحذر منه، فقالوا: يا فتى إنك والله لن تستطيع أن تكتم ما وجدت فجعل تمليخا لا يدري ما يقول لهم وما يرجع إليهم وفرق حتى ما يحير إليهم شيئاً.

فلما رأوه أنه لا يتكلم أخذوا كساءه فطرحوه في عنقه ثم جعلوا يقودونه في سكك المدينة حتى يسمع به من فيها فسألوه ما الخبر؟ فقيل لهم أُخِذَ رجلٌ عنده كنز فاجتمع إليه أهل المدينة صغيرهم وكبيرهم فجعلوا ينظرون إليه ويقولون: والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأيناه فيها قط، فجعل تمليخا لا يعرف ما يقول لهم فلما اجتمع إليه فرق فسكت ولم يتكلم، وكان مستيقناً أن أباه وإخوته بالمدينة وأن حسبه بالمدينة من عظماء أهلها وأنهم سيأتونه إذا سمعوا به فبينا هو قائم كالحيران ينتظر حتى يأتيه بعض أهله فيخلصه من بين أيديهم، إذ اختطفوه وانطلقوا به إلى رؤوس المدينة ومدبريها الذين يدبران أمرها، وهما رجلان صالحان اسم أحدهما أريوس والآخر أشطيوس، فلما انطلق به إليهما ظن تمليخا أنه ينطلق به إلى دقيانوس الجبار فجعل يلتفت يميناً وشمالاً، وجعل الناس يسخرون منه كما يسخر من المجنون، وجعل تمليخا يبكي ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهم إله السماء والأرض أفرغ اليوم علي صبراً وأدلج معي روحاًمنك يؤيدني عند

هذا الجبار وجعل يبكي ويقول في نفسه فُرِّق بيني وبين أخوتي يا ليتهم يعلمون ما لقيتُ ولو أنهم يعلمون فيأتوني فنقوم جميعاً بين يدي الجبار فإنا كنا توافقنا أن لا نفترق في حياة ولا موت أبداً، يحدث تمليخا نفسه فيما أخبر أصحابه حين رجع إليهم حتى انتهى إلى الرجلين الصالحين أريوس وأشطيوس فلما رأى تمليخا أنه لا يذهب به إلى دقيانوس أفاق وذهب عنه البكاء.

فأخذ أريوس وأشطيوس الورق فنظر إليها وعجبا منها ثم قال أحدهما أين الكنز الذي وجدتَ يا فتى؟ فقال تمليخا ما وجدت كنزاً ولكن هذا ورق آبائي ونقش هذه المدينة وضربها، ولكني والله ما أدري ما شأني وما أقول لكم؟ فقال أحدهما فمن أنت؟ فقال تمليخا أما أنا فكنت من أهل هذه المدينة، فقالوا: ومن أبوك؟ ومن يعرفك بها؟ فأنبأهم باسم أبيه فلم يجدوا أحداً يعرفه ولا أباه، فقال له أحدهما أنتَ رجل كذَّاب لا تُنبئنا بالحق، فلم يدر تمليخا ما يقول لهم غير أنه نكس بصره إلى الأرض، فقال بعض من حوله هذا رجل مجنون وقال بعضهم ليس بمجنون ولكنه يمحِّقُ نفسه عمداً لكي ينفلت منكم، فقال له أحدهما (ونظرا إليه نظراً شديداً) أتظن أن نرسلك ونصدقك بأن هذا الورق مال أبيك، ونقش هذا الورق وضربها أكثر من ثلاث مائة سنة، وإنما أنت غلام شاب أتظن أنك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شمط كما ترى وحولك سراة أهل المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه البلدة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار وإني لأظن سآمر بك فتعذب عذاباً شديداً، ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدته فلمَّا قال ذلك فقال لهم تمليخا أنبئوني عن شيء أسألكم عنه فإن فعلتم صدقتكم عما عندي؟ قالوا سل لا نكتمك شيئاً، قال: ما فعل الملك دقيانوس؟ قالا: ليس نعرف اليوم على وجه الأرض ملكاً يسمى دقيانوس ولم يكن إلا ملك هلك من زمان ودهر طويل وهلكت بعده قرون كثيرة، فقال تمليخا إني إذاً لحيران وما أنا بمصدق أحد من الناس لقد كنا فئةً على دين واحد وهو الإسلام وإن الملك أكرهنا على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس، فلما انتبهنا خرجت لأشتري لهم طعاماً وأتجسس الأخبار فإنا كنا كما ترون، فانطلقوا معي إلى الكهف الذي في جبل بيجلوس أريكم أصحابي.

فلما سمع أريوس ما يقول تمليخا قال يا قوم لعل هذه آية من آيات الله جعلها الله لكم على يدي هذا الفتى فانطلقوا بنا معه يرينا أصحابه، فانطلق معه أريوس وأشطيوس وانطلق معهم أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا إليهم، ولما رأى الفتية أصحاب الكهف أن تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذي

كان يأتي به فيه ظنوا أنه قد أخذ فذهب إلى ملكهم دقيانوس، فبينما هم يظنون ذلك يتخوفونه إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل مصعدةً نحوهم، فظنوا أنهم رسل الجبار دقيانوس بعث إليهم ليؤتى بهم فقاموا إلى الصلاة وسلَّم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضاً، وقالوا: انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فإنه الآن بين يدي الجبار ينتظر متى نأتيه فبينما هم يقولون ذلك وهو جلوس بين ظهراني الكهف لم يروا إلا أريوس وأصحابه وقوفا على باب الكهف فسبقهم تمليخا فدخل عليهم وهو يبكي، فلما رأوه يبكي بكوا معه ثم سألوه عن شأنه فأخبرهم وقص عليهم النبأ كله فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا نياماً بأمر الله ذلك الزمان كله، وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقاً للبعث، ويعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها.

ثم دخل على أثر تمليخا أريوس فرأى تابوتاً من نحاس مختوماً بخاتم من فضة، فقام بباب الكهف ثم دعا رجلاً من عظماء أهل المدينة ففتح التابوت عندهم فوجد فيه لوحين من رصاص مكتوب فيهما أن مكسلمينا ومخشلمينا وتمليخا ومرطونس وبشرطونس وبيربوس ودينومس ويطنومونس كانوا فتيةً هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف فلمَّا أُخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم أن عَثَر عليهم، فلما قرؤوه عجبوا وحمدوا الله الذي أراهم آية البعث فيهم ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه، ثم دخلوا على الفتية إلى الكهف فوجدوهم جلوساً بين ظهريه سفرة وجوههم لم تبلَ ثيابهم فخرّ أريوس وأصحابه سجوداً وحمدوا الله الذي أراهم آيةً من آياته ثم كلم بعضهم بعضاً وأنبأهم الفتية عن الذين لقوا من ملكهم دقيانوس، ثم إن أريوس وأصحابه بعثوا بريداً إلى ملكهم الصالح أن اعجل لعلك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها الله على ملكك وجعلها آية للعالمين لتكون لهم نوراً وضياءً وتصديقاً للبعث، فاعجل إلى فتية بعثهم الله عز وجل وقد كان توفاهم أكثر من ثلاث مائة سنين، فلما أتى الملك الخبر قام فرجع إليه عقله وذهب همه فقال: أحمدك رب السماوات والأرض وأعبدك وأسبح لك تطولتَ علي ورحمتني ولم تطف النور الذي كنت جعلته لآبائي وللعبد الصالح قسطيطينوس الملك فلما نبَّأ به أهل المدينة ركبوا إليه وساروا معه حتى أتوا مدينة أفسوس وساروا معه حتى صعدوا الكهف، فلما رأى الفتية بيدوسيس فرحوا به وخرُّوا سجداً على وجوههم، وقام قدامهم ثم اعتنقهم وركاً وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبحون ويحمدونه، ثم قال الفتية لبيدوسيس نستودعك الله والسلام عليك ورحمة الله وحفظك الله وحفظ ملكك ونعيذك بالله

من شر الجن والإنس، فبينما الملك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أنفسهم، وقام الملك إليهم وجعل ثيابهم عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم في تابوت من ذهب، فلما أمسى ونام أتوه فقالوا له إنا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكن خلقنا من تراب وإلى التراب نصير فاتركنا كما كنا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله منه، فأمر الملك حينئذٍ بتابوت من ساج وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد أن يدخل عليهم، وأمر الملك فجعل على باب الكهف مسجداً يصلى فيه وجعل لهم عيداً عظيماً وأمر أن يؤتى كل سنة.

وقيل: ان تمليخا لمَّا حمل إلى الملك: الصالح قال الملك من أنت؟ قال: أنا رجل من أهل هذه المدينة وذكر أنه خرج أمس أو منذ أيام وذكر منزله وأقواماً لم يعرفهم أحد، وكان الملك قد سمع أن فتيةً فقدوا في الزمان الأول وأن أسماءهم مكتوبة على اللوح في الخزانة فدعا اللوح ونظر في أسمائهم فإذا هو من أولئك القوم، وذكر أسماء الآخرين فقال تمليخا هم أصحابي، فلما سمع الملك ذلك ركب هو ومن معه من القوم فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا دعوني حتى أدخل على أصحابي فأبشرهم فإن هم أن رأوكم معي رعبتموهم، فدخل فبشرهم فقبض الله أرواحهم وأعمى عليهم آثرهم، فلم يهتدوا إليهم وذلك قوله عز وجل: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ إلى قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي ضربنا حجاباً على مسامعهم يمنع نفوذ الأصوات فيها وهو النوم أي أنمناهم نوماً لا ينبههم الأصوات، فحذف المفعول كما حذف في قوله بنى على امرأته ﴿فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ﴾ ظرفان لضربنا ﴿عَدَدًا﴾ أي ذوات عدد وصف به السنين ليدل على الكثرة فإن القليل لا يعد عادةً. . . ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي أيقظناهم ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي ليتعلق علمنا تعلقاً حالياً مطابقاً لتعلقه أولاً تعلقاً استقبالياً. . ﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ الطائفتين ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ أي غايةً، أي مبتدأ وأحصى خبره وهو فعل ماض وأمداً مفعول ولما لبثوا حال منه وما مصدرية وما في أي من معنى الاستفهام علق عنه لنعلم والمعنى أيهم ضَبَط أمداً كائناً لزمان لبثهم، وقيل اللام زائدة وما لبِثُوا مفعول لأحصى وهو فعل ماضٍ وما موصولة أمداً تميز، وقيل أحصى اسم تفضيل من الإحصاء بحذف الزوائد كقولهم للمال وأفلس من ابن المدلف، وأمداً نصب لفعل دل عليه كقوله وأضرب بالسيوف القوانسا ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم﴾ أي خبر أصحاب الكهف ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متلبساً بالصدق ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ أي شبان جمع فتى كصبي وصبية. . ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ إيماناً وبصيرةً يعني أعطيناهم إيماناً حقيقياً يحصل بعد فناء النفس فوق الإيمان المجازي الذي هو الإقرار باللسان والتصديق

بالقلب مع طغيان النفس وكفرانه ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بالصبر على هجر الوطن والأهل والمال والجرأة على إظهار الحق والرد على دقيانوس الجبار، وذلك بفناء القلب حتى تمكن فيه حب الله وهيبته وخشيته وتخلى عن ملاحظة غيره من الخلائق فصارا لناس عنده كالأباعر ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بين يدي دقيانوس حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام (فقالوا) مفتخرين ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا﴾ أي إذا أشركنا بالله إلهاً آخر ﴿شَطَطًا﴾ أي قولاً ذا شططٍ أي تجاوز عن القدر والحد وتباعدٍ عن الحق مفرطٍ في الظلم من شط يشط إذا بعد ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ مبتدأ ﴿قَوْمُنَا﴾ عطف بيان له ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾ أي من دون الله ﴿آلِهَةً﴾ يعني الأصنام يعبدونها والجملة خبر للمبتدأ إخبار في معنى الإنكار ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ أي على عبادتهم فحذف المضاف ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي ببرهان ظاهر فإن الدين لا يؤخذ إلا بالبرهان والظن والتقليد لا يجوز إتباعه في العقائد، وفيه تبكيت فإن إقامة البرهان على عبادة الأوثان محال ﴿فَمَنْ﴾ أي لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وزعم أن له شريكاً وولداً فإن الافتراء على كل أحد ظلم فكيف على الله تعالى، ثم قال بعضهم لبعض حين تصمموا على الفرار بدينهم ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ يعني قومكم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ عطف على الضمير المنصوب أي إذا اعتزلتم القوم ومعبوديهم إلا الله فإنهم كانوا يعبدون الله والأصنام كسائر المشركين ويجوز أن يكون ما مصدرية يعني وإذ اعتزلتموهم وعبادتهم إلا عبادة الله ويجوز أن يكون نافية على أنه إخبار من الله عن الفتية بالتوحيد معترض بين إذا وجوابه لتحقيق اعتزالهم ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي صيروا إليه واتخذوه مسكناً كيلا يجاوركم الكفار ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ أي ليبسط لكم الرزق ويوسع عليكم في الدارين ﴿مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ بكسر الميم وفتح الفاء اسم آلة، أي ما يرتفق إلى ينتفع به جزموا بذلك لقوة وثوقهم بفضل الله، وقرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر مرفقاً بفتح الميم وكسرالفاء وهو مصدر من الأوزان الشاذة كالمرجع والمحيض وقياسه فتح العين ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ﴾ لو رأيتهم الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب تزْوَرُّ بإسكان الزاء المنقوطة وتشديد الراء المهملة على وزن تحمر من الأفعلال، والكوفيون بفتح التاء والزاء مخففاً وألف بعدها والباقون بالزاء المنقوطة المشددة وألف بعدها وأصله تتزاور من التفاعل فحذف الكوفيون إحدى التائين والباقون أدغموها في الزاء، وكلها من الزور بمعنى الميل يعني تميل ﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي جهة اليمنى تقديره الجهة ذات اسم اليمين فلا يقع عليهم شعاعها ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي تقطعهم يعني تتركهم وتعدل عنهم

﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ يعني يمين الكهف وشماله ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي متسع من الكهف يعني في وسطه بحيث ينالهم روح الواء ولا يؤذيهم كرب الغار ولا حر الشمس، قال ابن قتيبة كان كهفهم مستقبل بنات النعش فاقرب المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرق رأس السرطان ومغربه، والشمس إذا كان مدارها مداره تطلع مقابله بجانب اليمين وهو الذي يلي المغرب وتغرب محاذيه بجانب الأيسرفيقع شعاعها على جنبتيه ويقلل عفونته ويعدل هواه ولايقع عليهم شعاعها فيؤذي أجسادهم ويبلي ثيابهم، وقال بعض العلماء هذا القول خطأ وهو أن كان الكهف مستقبل بنات النعش ولأجل ذلك كان كما ذكر، ولكن الله صرف الشمس عنهم بقدرته وحال بينها وبينهم بدليل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي من عجائب صنعه ودلالات قدرته التي يعتبر بها، ويمكن أن يقال إن ذلك يعني شأنهم وإيواءهم إلى كهف كذلك وإخبارك قصتهم من آيات الله ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ بالتوفيق ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بالياء وصلاً والباقون يحذفونها في الحالين يعني فهو الذي أصاب الفلاح والمراد به إما الثناء عليهم أو التنبيه على أن أمثال هذه الآيات كثيرة لكن المنتفع بها من وقفه الله تعالى للتأمل فيها والاستبصار بها ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي من يخذله ولم يرشده ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ أي من يليه ويرشده ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ جمع يقظ لانفتاح عيونهم أو لكثرة تقلبهم ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نيام جمع راقد كقاعد وقعود ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ في رقدتهم من غير إرادتهم ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي مرةً للجنبة ذات اسم اليمين ومرةً للجنبة ذات اسم الشمال، قال ابن عباس كانوا يتقلبون في السنة مرةً من جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض لحومهم، قيل كان يوم عاشوراء يوم تقلبهم، وقال أبو هريرة كان لهم كل سنة تقليباً ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ حكاية حال ماضية ولذلك أعمل اسم لفاعل وأجاز الكوفيون إعمال اسم الفاعل مطلقاً، قال مجاهد والضحاك الوصيد فناء الكهف، وقال عطاء الوصيد عتبة الباب، وقال السدي الوصيد الباب وهي رواية عكرمة عن ابن عباس، قال أكثر أهل التفسير: إنه كان من جنس الكلاب، وروي عن ابن جريج إنه كان أسداً ويسمى الأسد كلباً، فإن النبي ﷺ دعا على عتبة بن أبي لهب فقال: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» فافترسه الأسد[1]، والأول المعروف. قال ابن عباس كان كلباً أنمر ويروى عنه فوق العلطي ودون الكردي، وقال مقاتل كان أصغر، وقال القرطبي كانت شدة صفرته تضرب إلى الحمرة، وقال الكلبي لونه كالخليج، وقيل: لون الحجر، قال ابن

---

(١) أخرجه ابن عساكر، وأورده السيوطي في الخصائص الكبرى وقال: أخرجه ابن إسحاق، وأبو نعيم من طرق أخرى مرسلة. انظر كنز العمال (٣٥٥٠٦).

عباس اسمه قطمير، وعن علي عليه السلام اسمه زبان وقال الأوزاعي اسمه تقور، وقال السدي ثور، وقال كعب صهبا، قال خالد بن معدان ليس في الجنة شيء من الدواب سوى كلب أصحاب الكهف وحمار، قال السدي كان أصحاب الكهف إذا انقلبوا انقلب الكلب معهم فإذا انقلبوا إلى اليمين كسر الكلب أذنه اليمنى ورقد عليها وإذا انقلبوا إلى الشمال كسر أذنه اليسرى ورقد عليها ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فنظرت إليهم يا محمد ﴿لَوَلَّيْتَ﴾ أي لهربت ﴿مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ منصوب على المصدرية لأنه نوع من التولية أو على العلية أو على الحال أي فاراً ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾ قرأ نافع وابن كثير بتشديد اللام والباقون بتخفيفها ﴿مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي خوفاً برعب أي يملأ صدرك، قيل من وحشة المكان، وقال الكلبي لأن أعينهم كانت مفتحة كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم، وقيل لكثرة شعورهم وطول أظفارهم وتقلبهم من غير حس ولا إشعار، وقيل إن الله منعهم بالرعب لئلا يدخل عليهم أحد وهو الصحيح المختار، يدل عليه ما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال غزونا مع معاوية رضي الله عنه غزوة المضيق نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال ابن عباس قد منع ذلك من هو خير منك فقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ فلم يسمع معاوية وبعث ناساً فقال اذهبوا فانظروا، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأحرقتهم، أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كما أنمناهم في الكهف وحفظنا أجسادهم من البلى على طول

الزمان ﴿بَعَثْنَٰهُمْ﴾ من تلك النومة الطويلة المشبهة بالموت آيةً على كمال قدرتنا ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ أي ليتساءل بعضهم بعضاً فيتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم فيزدادوا يقيناً على كمال قدرة الله تعالى، ويستبصروا به أمر البعث ويشكروا ما أنعم به عليهم فعلى هذا اللام لام العلة، وقال البغوي اللام لام العاقبة لأنهم لم يبعثوا للسؤال ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو رئيسهم مكسلمينا ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ في نومكم وذلك أنهم استكثروا طول نومهم، ويقال أنهم راعهم مافاتهم من الصلوات فقالوا ذلك ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ وذلك أنهم دخلوا الكهف غدوةً وانتبهوا عشيَّةً فقالوا لبثنا يوماً، ثم نظروا وقد بقيت من الشمس بقيةً فقالوا ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وهذا الجواب مبني على غالب الظن وفيه دليل على أن القول بغالب الظن جائز، فلمانظروا إلى شعورهم وأظفارهم علموا أنهم لبثوا دهراً ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ وقيل: إن رئيسهم مكسلمينا لما سمع الاختلاف قال دعوا الاختلاف ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم﴾ يعني تمليخا... ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر ساكنة الراء والباقون بكسرها ومعناهما واحد وهي الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة ﴿هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قيل: هي طرطوس وكان اسمها في الجاهلية أفسوس فسموها في الإسلام طرسوس، وفي حملهم الورق معهم دليل على أن التزود رأي المتوكلين ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ﴾ أي أيّ أهلها بحذف المضاف ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي أحل طعاماً حتى لا يكون من غصب أو سبب حرام وقيل أمروه أن يطلب ذبيحة من يذبح لله وكان فيهم مؤمنون يخفون إيمانهم، وقال الضحاك أطيب طعاماً وقال مقاتل بن حبان أجود وقال عكرمة أكثرو أصل الزكاة الزيادة وقيل: أرخص طعاماً ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي ليتكلف في اللطف في المعاملة حتى لا يُغبن أو في التخفي حتى لا يُعرف ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ من الناس أي لا يفعلن ما يؤدي إلى الشعور بنا من غير قصد منه فسمي ذلك إشعاراً منه بهم لأنه سبب فيه والضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ راجع إلى الأحد المقدر في أيها﴿إِن يَظْهَرُوا۟﴾ أي يطلعوا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أو يظفروا بكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم بالرجم ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾ أي يصيروكم إليها كرهاً فالعود بمعنى الصيرورة وقيل: هو بمعناه وكانوا أولاً في دينهم فآمنوا ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا﴾ أي إذا دخلتم في ملتهم ﴿أَبَدًا وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كما أنمناهم وبعثناهم ليزدادوا بصيرةً ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أي أطلعنا الناس يقال: عثرتُ على الشيء إذا اطلعت عليه وأعثرت غيري أي أطلعتُه ﴿عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟﴾ أي ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿حَقٌّ﴾ لأن نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي القيامة الموعودة ﴿لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ أي في إمكانها وإن من توفي نفوسهم

وأمسكها ثلاث مائة سنين حافظاً أبدانها من التحلل والتفتت ثم أرسلها إليها قادر على أن يتوفى نفوس جميع الناس ممسكاً إياها إلى أن يحشر أبدانها فيرد عليها ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ظرف لأعثرنا أي أعثرنا عليهم حين كان الناس يتنازعون ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي بين أمر دينهم، قال عكرمة تنازعوا في البعث فقال قوم للأرواح دون الأجساد، وقال المسلمون البعث للأرواح والأجساد جميعاً، فبعثهم الله وأراهم أن البعث للأرواح والأجساد جميعاً، أو في أمر الفتية حين أماتهم ثانياً بالموت فقال بعضهم ماتوا وقال بعضهم ناموا نومهم أول مرة، وقال ابن عباس تنازعوا في البنيان قال المسلمون نبني عندهم مسجداً لأنهم كانوا على ديننا وقد ماتوا مسلمين وقال المشركون نبني عليهم بنياناً يسكنه الناس ويتخذونه قريةً، أو على باب كهفهم بنياناً يمنع الناس عن التطرق إليهم ضناً بتربتهم لأنهم من أهل نسبنا كما قال الله تعالى ﴿فَقَالُوا۟﴾ أي المشركون من أهل القرية ﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ أي المسلمون وأصحابه فإنهم كانوا أصحاب ملك وثروة وحكومة حينئذ ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ يصلي فيه المسلمون ويتبركون بهم، وقوله: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ﴾ الظاهر أنه اعتراض من الله تعالى رداً على الخائضين في أمرهم فإن كلاً من الفريقين انتسبوا أنفسهم إليهم وهم براء من الكفر وأربابها ولم يكونوا من عوام المؤمنين أيضاً وإن كانوا منهم فإن الصوفي كائن بائن قال الفاضل الرومي.

هركسي درظن خودشد يارمن ... وازدرون من نجست أسرار من

وقيل: إنه من كلام المتنازعين كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا ربهم أعلم بهم.

**مسألة**: هذه الآية تدل على جواز بناء المسجد ليصلى فيه عند مقابر أولياء الله قصداً للتبرك بهم، وقد كان الشيخ الأستاذ محمد فاخر المحدث رحمه الله يكره ذلك مستدلاً بما رواه مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي ألا أبعثك على ما بعثني رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سوَّيته»[1] وما روى مسلم عن جابر قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يبنى عليه وأن يقعد عليه» وما روى الشيخان

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب: الأمر بتسوية القبر (٩٦٨) وأخرجه النسائي في كتاب الجنائز، باب: تسوية القبور إذا رفعت (٢٠٢٢) وأخرجه الترمذي في كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في تسوية القبر (١٠٤٣).

عن عائشة وابن عباس ﷺ قالا: «لما نزل برسول الله ﷺ طَفِقَ يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه ويقول وهو كذلك «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» قالت: «يحذر مثل ما صنعوا»(١). قلت: هذه الأحاديث تدل على كراهة تجصيص القبور والبناء عليها وجعل القبور مشرفة، ولا دلالة لها على كراهة بناء المسجد يقرب منها، ومعنى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد أنهم يسجدون إلى القبور، كما هو صريح في حديث أبي مرثد الغنوي قال: قال رسول الله ﷺ: «ولا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها»(٢) رواه مسلم ﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي المتنازعون في عدد الفتية في زمن النبي ﷺ ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي جاعلهم أربعة بانضمامه إليهم وثلاثة خبر مبتدأ محذوف أي هم ثلاثة وجملة ﴿رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ صفة لثلاثة وكذا ما بعده ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ لم يذكر بالسين اكتفاءً بعطفه على ما هو فيه، قال البغوي روي أن السيد والعاقب وأصحابها من نصارى نجران كانوا عند النبي ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد وكان يعقوبياً كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال العاقب وكان نسطورياً كانوا خمسة سادسهم كلبهم فرد الله عليهم قولهم بقوله ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ منصوب على المصدرية بفعل مقدر يعني يرجمون رجماً ويرمون رمياً بالخبر الغائب عنهم يعني ليس في خزانة علمهم ذلك، أو على العلية متعلق بقوله يقولون ومعنى رجماً ظناً وضع الرجم موضع الظن لأنهم يقولون كثيراً رجم بالظن مكان قولهم ظن حتى لم يبق بينهم فرق بين العبارتين كذا قال في المدارك يعني ليس إخبار الفريقين مستنداً إلى علم مطابقاً للواقع ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني المسلمين بإخبار الرسول ﷺ عن جبرائيل ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أدخل الواو على الجملة الواقعة صفة للنكرة تشبيهاً لها بالواقعة حالاً من المعرفة لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه ثابت، وقيل: هذه واو الثمان وذلك أن العرب يعد فيقول واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية لأن العقد كان عندهم سبعة كما هو اليوم عندنا عشرة ومنه قوله تعالى: ﴿التَّٰئِبُونَ الْعَٰبِدُونَ الْحَٰمِدُونَ السَّٰئِحُونَ الرَّٰكِعُونَ السَّٰجِدُونَ الْءَامِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٣) وقوله

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: النهي عن تخصيص القبر والبناء عليه (٩٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: الصلاة في البيعة (٤٣٤) وأخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن بناء المساجد على القبور (٥٣١).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه (٩٧٢).

(٤) سورة التوبة، الآية: ١١٢.

تعالى في أزواج النبي ﷺ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾[1].

قال الله تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أي بعددهم ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ منهم أي من النصارى، أو إلا قليل من الناس وهم المسلمون قال ابن عباس أنا من ذلك القليل كانوا سبعة، رواه ابن جرير والفريابي وغيرها عنه، وكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنهم سبعة ثامنهم كلبهم، قال البيضاوي إن الله تعالى أثبت العلم بهم لطائفة بعدما حصر أقوال الطوائف في الثلاثة المذكورة، فإن عدم إيراد القول الرابع في نحو هذا المحمل دليل على العدم مع أن الأصل نفيه، وبعدما رد القولين الأولين ظهر أن الحق هو القول الثالث فقال البغوي روي عن ابن عباس أنه قال: هم مكسلمينا وتمليخا ومرطونس وسنونس وسارينونس وذونواس وكعسططيونس وهو الراعي» رواه الطبراني في معجمه الأوسط بإسناد صحيح عنه قال ابن حجر في شرح البخاري في النطق بها اختلاف كثير ولا يقع الوثوق من ضبطها بشيء ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي لا تجادل في شأن الفتية وعددهم ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي جدالاً بظاهر ما قصصنا عليك من غير تجهيل لهم ولا تعمق فيه إذ لا فائدة في ذلك الجدال ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم﴾ أي في شأن أصحاب الكهف وعددهم ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي من أهل الكتاب ﴿أَحَدًا﴾ أي لا تسأل عن قصتهم سؤال مستعلم فإن فيما أوحي إليك لمندوحة عن غيره مع أنهم لا علم لهم بها، وأيضاً لا فائدة لك في زيادة العلم بأحوالهم، ولا سؤال متعنت تريد تفضيح المسؤول عنه وتزييف ما عنده، فإنه مخل لمكارم الأخلاق والله أعلم، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: حلف النبي ﷺ على يمين فمضى له أربعون ليلة فأنزل الله تعالى:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ۝٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧﴾

(١) سورة التحريم، الآية: ٥.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أنه قالت اليهود لقريش سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذي القرنين، فسألوه فقال: ائتوني غداً أخبركم ولم يستثن فأبطأ عنه الوحي بضعة عشر يوماً، حتى شق عليه وكذبته قريش فأنزل الله هذه الآية، وقد ذكر في أوائل السورة ما أخرج ابن جرير نحوه، وكذا ذكرنا في سورة بني إسرائيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾(١) والاستثناء استثناء من النهي، أي لا تقولن لأجل شيء تعزم عليه ﴿إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيء فيما يستقبل من الزمان ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعني لا تقولن في حال من الأحوال إلا متلبساً بمشيئته أي إلا قائلاً إن شاء الله، أو في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئته أن تقوله بمعنى إلا وقت أن يأذن لك فيه، وذلك الوقت إنما هو وقت قولك إن شاء الله معه، وليس الاستثناء متعلقاً بقوله إني فاعل لأنه لو قال إني فاعل كذا إلا أن يشاء الله، كان معناه إلا أن يعترض مشيئة الله دون فعلي وذلك لا مدخل فيه للنهي، وهذا نهي تأديب من الله لنبيه ﷺ ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ بالتسبيح والاستغفار ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ الاستثناء فيه حث وتأكيد على الاهتمام في إتيان الاستثناء على كل عزم، أو المعنى واذكر ربك وعقابه إذا تركت بعض ما أمرك به ليعينك على التدارك، أو المعنى إذا نسيتَ شيئاً فاذكره ليُذكِّرك المنسي.

وقال عكرمة معنى الآية ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ إذا غضبت، قال وهب مكتوب في الإنجيل ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب، وقال الضحاك والسديُّ هذا في الصلاة عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «ومن نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها» رواه البغوي وفي الصحيحين وعند أحمد والترمذي والنسائي بلفظ «من نسي صلاةً أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها»(٢) وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «من نام عن وتره أو نسيه فليصله إذا ذكره» رواه أحمد والحاكم وصححه، وقال ابن عباس ومجاهد والحسن معناه إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن، ومن ها هنا جوزوا تأخير الاستثناء ولو بعد سنة ما لم يحنث أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير والطبراني والحاكم عن ابن عباس، ويؤيد قولهم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: من نسي الصلاة فليصل إذا ذكرها ولا يعيد إلا تلك الصلاة (٥٩٧) وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها (٦٨٤) وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في الرجل ينسى الصلاة (١٧٨).

وأخرجه النسائي في كتاب: المواقيت، باب: فيمن نسي صلاة (٦٠٨).

ما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: لما نزل هذه الآية قال ﷺ إن شاء الله وعامة الفقهاء على خلافه فإن الكلام الغير المستقل إذا كان مغيراً لمعنى كلام آخر كالشرط والاستثناء والغاية والبدل بدل البعض لا بد أن يكون متصلاً به، إذ لو صح الاستثناء ونحو ذلك منفصلاً لم يتقرر إقرار ولاطلاق ولا إعتاق ولا يعلم صدق ولا كذب.

**حكي**: أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة خالف ابن عباس ﷺ في الاستثناء المنفصل، فاستحضره لينكر عليه فقال أبو حنيفة هذا يرجع عليك أنك تأخذ البيعة بالطاعة أفترضى أن يخرجوامن عندك فليستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن كلامه وأمر الطاعن فيه بإخراجه من عنده، وما روى من قوله ﷺ: إن شاء الله عند نزول هذه الآية ليس استثناء متعلقاً بقوله ﷺ وائتوني غداً أخبركم يعني عن أصحاب الكهف والروح وذي القرنين، بل هو استثناء متعلق بمقدر تقديره لا أترك الاستثناء إن شاء الله تعالى فيما أقول في ثاني الحال أني فاعل ذلك غداً والله أعلم.

وقالت الصوفية العلية: إن معنى الآية ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ما عداه، قالوا: ذكر الله سبحانه دائماً لا يتصور ما لم يحصل لقلبه نسيان عما سواه لأن قلب الإنسان يشغله شأن عن شأنٍ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ﴾(١) فالذكر الدائم الذي لا يقع فيه فتور لا يتصور ما لم يحصل لقلبه نسيان دائمي عما سواه وهذه الحالة يعبر عندهم بفناء القلب وأما الذكر الذي يعقبه غفلة فلا يعتدون به، والقلب يذكر تارةً ويغفل عنه ويذكر غيره أخرى لا يسمى عندهم موحداً، وهذا التأويل أنسب بمنطوق الكتاب وأوفق للعربية وأبعد من التجوز لأن قوله: ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ ظرف لا ذكر والظرفية الحقيقية أن يكون الذكر في وقت النسيان، ولا شك أن وقت الذكر مغاير لوقت النسيان على سائر التأويلات السابقة، فلا يكون الظرفية على تلك التأويلات إلا مجازاً والحمل على الحقيقة أولى ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بالياء وصلاً فقط وابن كثير بالياء في الحالين والباقون يحذفونها فيهما أي يهدني ﴿رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا﴾ المنسى ﴿رَشَدٗا﴾ أي خيراً وصلاحاً عطف على اذكر يعني إذا نسيت الاستثناء أو شيئاً مما أمرك الله بإتيانه فاذكر الله بالتسبيح والاستغفار واستعنه وقل عسى أن يهدين ربي لشيء آخر أفضل من هذا المنسي وأقرب منه رشداً، أو ذلك الندم والتوبة والاستغفار مع القضاء، وقيل إن القوم لما سألوه عن قصة أصحاب الكهف على وجه العناد أمره الله عزّ وجل أن يخبرهم بأن

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

اللهسيؤتيه من الحجج على صحة نبوته ما هو أدل من قصة أصحاب الكهف، وقد فعل حيث أتاه علم غيب المرسلين وعلم ما كان وما يكون ما هو أوضح في الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف، وقال بعضهم هذا شيء أمر الله رسوله أن يقوله مع قوله إن شاء الله لا أترك الاستثناء أبداً إذا ذكر الاستثناء وبعد النسيان يعني إذا ترك الإنسان إن شاء الله ناسياً ثم ذكره فتوبته من ذلك أن يقول: عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً، وعلى تأويل الصوفية فمعنى الآية: واذكر ربك إذا نسيت غيره وقل عسى أن يهدين ربي أي يوصلني لشيء هو أقرب من هذا الذكر رشداً وهو ذات الله سبحانه الذي هو أقرب من حبل الوريد ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ يعني لبثوا أصحاب الكهف أحياءً مضروباً على آذانهم، وهذا بيان من الله تعالى لما أجمله من قبل حيث قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾(١) وقيل: هذا خبر عن أهل الكتاب أنهم قالوا ذلك، ولو كان خبراً من الله تعالى عن قدر لبثهم لم يكن لقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ وجه وهذا قول قتادة، ويدل عليه قراءة ابن مسعود، وقالوا لبثوا في كهفهم ثم رد الله عليهم بقوله قل الله أعلم بما لبثوا، والأول أصح وأما قوله قل الله أعلم بما لبثوا معناه أن الأمر في مدة لبثهم كما ذكرنا فإن نازعوك فيها فأجبهم قل الله أعلم منكم بما لبثوا وقد أخبر بمدة لبثهم، وقيل: إن أهل الكتاب قالوا إن المدة من وقت دخولهم الكهف إلى زمن النبي ﷺ وهذه، فرد الله عليهم وقال قل الله أعلم بما لبثوا يعني بعد قبض أرواحهم إلى يومنا هذا مضى زمان الله أعلم به ﴿ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالإضافة لغير تنوين على مائة، على وضع الجمع في التميز موضع المفرد كما في قوله: ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾(٢) قال الفراء من العرب من يضع سنين موضع سنة، وقرأ الباقون ثلاثمائة بالتنوين فسنين على هذا بدل من ثلاثمائة أو عطف بيان، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن جرير عن الضحاك قالا: نزلت ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ﴾ فقيل: يا رسول الله سنين أم شهوراً؟ فأنزل الله تعالى سنين ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ قال الكلبي قالت نصارى نجران أما ثلاث مائة فقد عرفنا وأما التسع فلا علم لنا به فنزلت ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ وقال البغوي روي عن علي عليه السلام أنه قال عند أهل الكتاب: إنهم لبثوا ثلاث مائة سنة شمسية والله تعالى ذكر ثلاث مائة قمرية والتفاوت بين الشمسية والقمرية في كل مائة سنة ثلاث سنين فيكون في ثلاث مائة تسع سنين فلذلك قال ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني مختص به تعالى ما غاب من غيره في السماوات والأرض ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ﴾ أي بالله تعالى ﴿وَأَسْمِعْ﴾

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١. (٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٣.

ذكر كماله تعالى في الإبصار والسمع بصيغة التعجب للدلالة على أن أمره تعالى في الإدراك خارج عما عليه إدراك السامعين والمبصرين إذ لا يحجبه شيء، ولا يتفاوت دونه لطيف وكثيف وصغير وكبير وخفي وجلي ﴿مَا لَهُم﴾ ما لأهل السماوات والأرض ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي من دون الله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ ينصرهم ويتولى أمرهم ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ قال البغوي قرأ ابن عامر لا تشرك بالتاء على الخطاب والنهي ولم يذكر الداني في التيسير خلاف ابن عامر، وقرأ الجمهور بالياء أي لا يشرك الله ﴿فِي حُكْمِهِۦ﴾ أي في قضائه أو في أمره ونهيه ﴿أَحَدًا﴾ منهم ولا يجعل لأحد فيه مدخلاً، وقيل: الحكم ها هنا بمعنى علم الغيب أي لا يشرك في علم غيبه أحداً.

ثم لما دل اشتمال القرآن على قصة أصحاب الكهف من حيث إنها من المغيبات بالإضافة إلى الرسول ﷺ على أنه وحي معجز، أمره بأن يداوم درسه ويلازم أصحابه فقال ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ أي القرآن واتبع ما فيه ولا تلتفت إلى قولهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾[1] فإنه ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ يعني لا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره، وقيل: معناه لا مغير لما أوعد بكلماته أهل معصية ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ أنت يا محمد ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ إن لم تتبع القرآن ﴿مُلْتَحَدًا﴾ قال ابن عباس حوزاً، وقال الحسن مدخلاً، وقيل: مهرباً وأصله من الميل.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ يا محمد أي احبسها وثبتها، قال البغوي هذه الآية نزلت في عيينة بن حصين الفزاري أتى النبي ﷺ قبل أن يسلم، وعنده جماعة من الفقراء فيهم

(١) سورة يونس، الآية: ١٥.

سلمان وعليه شملة قد عرق فيها وبيده خرقة يشقها ثم ينسجها، قال عيينة للنبي ﷺ أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها فإن أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا عن اتباعك إلا هؤلاء فنحهم حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلساً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ﴾ قرأ ابن عامر بضم الغين وسكون الدال وواو مفتوحة، والباقون بفتح الغين والدال وألف بعدها ﴿وَٱلۡعَشِيِّ﴾ في جميع أوقاتهم أوفي طرفي النهار ﴿يُرِيدُونَ﴾ بعبادتهم إياه ﴿وَجۡهَهُۥ﴾ لفظ الوجه مقحم كما في قوله تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾[(١)] والمعنى يريدون الله لا شيئاً آخر من الدنيا والآخرة، قال قتادة نزلت في أصحاب الصفة وكانوا سبع مائة رجل فقراء في مسجد رسول الله ﷺ لا يرجعون إلى زرع ولا ضرع ولا تجارة، يصلون صلاة وينتظرون أخرى، فلما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمر ربي أن أصبر معهم»[(٢)] وقد ذكرنا بعض ما ورد في سبب نزول هذه الآية في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾[(٣)] الآية ﴿وَلَا تَعۡدُ﴾ أي لا تصرف ﴿عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ إلى غيرهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ حال من الكاف أي تصرف عيناك حال كونك تطلب مجالسة الأغنياء، ومصاحبة أهل الزينة من الدنيا ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ قال البغوي يعني عيينة بن حصين، وقيل: أمية بن خلف أخرج ابن مردويه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية قال: نزلت في أمية بن خلف الجمحي، وذلك أنه دعا النبي ﷺ إلى أمر كرهه الله من طرف الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة فنزلت، وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع قال: حدثنا أن النبي ﷺ تصدى لأمية بن خلف وهو ساهٍ غافل عما يقال له فنزلت، وأخرج ابن بريدة قال: دخل عيينة بن حصين على النبي ﷺ وعنده سلمان فقال عيينة إذا نحن أتيناك فأخرج هذا فنزلت: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾ أي جعلنا قلبه غافلاً عن ذكرنا ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في دعائك إلى طرد الفقراء عن مجلسك لصناديد قريش، وفيه تنبيه على أن الداعي له إلى هذا الاستدعاء غفلة قلبه عن ذكر الله سبحانه، وانهماكه في لذات الدنيا، حتى خفي عليه أن الشرف بتزكية النفس عن الرذائل وتصفية القلب وتنويرها بنور المعرفة لا بزينة الجسد وأنه من أطاعه كان مثله في الغفلة والغباوة، والمعتزلة لما لم

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٧.

(٢) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: التفسير، باب: سورة الأنعام (١٠٩٩٨).

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.

يجوزوا نسبة الإغفال إلى الله تعالى قالوا: معنى أغفلنا وجدناه غافلاً أو نسبناه إلى الغفلة أو هو من قبيل إغفل إبله أي تركها بغير سمة، وأهل السنة السنية جعلوا مجموع النسبتين في قوله تعالى: ﴿أَغْفَلْنَا﴾ وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ دليلاً على الأمر بين الأمرين لا جبر ولا تفويض ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ قال البغوي قال قتادة ومجاهد أي ضياعاً، وقيل: معناه ضيع أمره وعطل أيامه، وقيل: ندماً، وقال مقاتل بن حبان سرفاً، وقال الفراء متروكاً وقيل: باطلاً، وقيل: مخالفاً للحق، وقال الأخفش مجاوزاً للحد، وقال البيضاوي متقدماً على الحق تاركاً وراء ظهره، يقال: فرس فرط أي متقدماً للخيل ومنه الفرط ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ مبتدأ وخبريعني الحق ما حقه الله لا ما يقتضيه الهوى ويجوز أن يكون الحق خبر مبتدأ محذوف ومن ربكم حالاً يعني الإسلام أو القرآن هو الحق كائناً من ربكم ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ صيغة تخيير استعمل للتهديد والوعيد كأنه جواب لما قال عيينة للنبي ﷺ أما يؤذيك ريح هؤلاء؟ ونحن سادات مضر وأشرافها فإن أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا عن اتباعك إلا هؤلاء فنحهم حتى نتبعك، ومعناه الحق كائن من ربك والله يأمر بصبر النفس والمجالسة مع هؤلاء وينهى عن طردهم فإن شئتم آمنوا وإن شئتم فاكفروا لا أبالي بإيمان من آمن منكم ولا بكفر من كفر منكم، فإن نفع الإيمان ومضرة الكفر إنما يعود إليكم ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ هيأنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ السرادق الحجرة يطيف بالفساطيط قال في النهاية هو كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب أو خباءٍ، قالوا: هو لفظ مفرد معرب إذ ليس في كلامهم اسم مفرد ثالثه ألف وبعده حرفان، وجاز أن يكون جمع سردق، روى أحمد والترمذي والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «سرادق النار أربعة جدر كثف كل جدار أربعين سنة» قال البغوي قال ابن عباس هو حائط من نار، وقال الكلبي هو عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار، وقيل: دخان يحيط بالكفار وهو الذي ذكره الله ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾[(١)] ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾ بشدة العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ أخرج أحمد والترمذي وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ قال: كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه»[(٢)] وروى أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه وابن جرير وابن

---

(١) سورة المرسلات، الآية: ٣٠.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، ، باب: ما جاء في صفة شراب أهل النار (٢٥٨١).
وقال: فيه رشدين بن سعد وقد تكلم فيه من قبل حفظه.

أبي حاتم وابن المنذر وابن أبي الدنيا في صفة النار والبيهقي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قال: يقرب فيستكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقع فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره، فيقول: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ﴾ قال: أسود كعكر الزيت، وقال البغوي: قال ابن عباس هو ماء غليظ مثل دردي الزيت وقال مجاهد هو القيح والدم، وسئل ابن مسعود عن المهل فدعا بذهب وفضة وأوقد عليهما النار حتى ذابا ثم قال هذا أشبه شيء بالمهل ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ أي إذا قدم يشويها من فرط حرارته، وهو صفة ثانية لماء أو حال من المهل أو من الضمير في كاف التشبيه ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ المهل ﴿وَسَآءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ قال ابن عباس منزلاً، وقال مجاهد مجتمعاً، وقال عطاء مقراً، وقال القتيبي مجلساً، وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد فالمعنى متكئاً ومستراحاً وجيء به لمقابلة قوله: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وإلا فأي ارتفاق لأهل النار ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ خبر إن الأولى هي الثانية بما في حيزها، والراجع محذوف تقديره: مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا منهم، أو مستغنى عنه لعموم من أحسن عملاً، كما هو مستغنى عنه في قولك نعم الرجل زيد، أو واقع موقعه الظاهر فإن من أحسن عملاً لا يحسن إطلاقه إلا على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي إقامة يقال: عدن الماء بالمكان إذا أقام به سميت عدناً لخلود المؤمنين فيها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ جملة أولئك استئناف لبيان الأجر، ويحتمل أن يكون هذا خبر لأن الأولى ويكون أن الثانية مع ما في حيزها اعتراضاً، أو يكون هذا خبراً ثانياً ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة أو أسوار في جمع سوار ومن للابتداء ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ صفة لأساور ومن للبيان، والتنكير في أساور وذهب لتعظيم حسنها من الإحاطة به، أخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي بسند حسن عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لو أن أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعاً لكان ما يحليه الله تعالى به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعاً» وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن كعب الأحبار قال: إن لله ملكاً يصوغ حلى أهل الجنة من أول خلقه إلى أن تقوم الساعة، ولو أن حلياً أخرج من حلي أهل الجنة لذهب بضوء الشمس ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ أخرج ابن السني وأبو نعيم كلاهما في طب النبي ﷺ عن أنس قال: كان أحب الألوان إلى رسول الله ﷺ الخضرة ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ وهو مارق من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما غلظ منه، قال البغوي

معنى الغلظ في ثياب الجنة أحكامه، وعن عمر الحربي قال: السندس هو الديباج المنسوج بالذهب، أخرج النسائي والطيالسي والبزار والبيهقي بسند حسن عن ابن عمر قال: قال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة.. أخلق يخلق أم نسيج ينسج؟ فضحك بعض القوم فقال رسول الله ﷺ: «ممَّ تضحكون؟ من جاهل يسأل عالماً» ثم قال: «بل ينشق عنها ثمر الجنة مرتين»[1] وأخرج البزار وأبو يعلى والطبراني من حديث جابر بسند صحيح عن أبي الخير مرثد بن عبد الله قال: «في الجنة شجرة ينبت السندس يكون ثياب أهل الجنة»﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي في الجنة خص بالذكر هيئة الاتكاء لكونها هيئة المتنعمين والمملوك على الأسرة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ وهي السرر في الحجال واحدتها أريكة، أخرج البيهقي عن ابن عباس في هذه الآية قال: لا يكون الأرائك حتى يكون السرير في الحجلة، فإن كان سرير بغير حجلة لا تكون أريكة وإن كان حجلة بغير سرير لا تكون أريكة فإذا اجتمعا كانت أريكة، وأخرج البيهقي عن مجاهد قال: الأرائك من لؤلؤ وياقوت ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ أي نعم الجزاء الجنة ونعيمها ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي حسنت الجنات مجلساً ومقراً، أو حسنت الأرائك متكأً.

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ
لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ
ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ
إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن
تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ
إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾
فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا
﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ
مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند المجلد الثاني/ أول مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.
ورواه أبو يعلى والبزار والطبراني ورجاله رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد وقد وثق.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: أهل الجنة، باب: في ثياب الجنة (١٨٧٣٥).

يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ الآية، قال البغوي قيل: نزلت في أخوين من أهل مكة من بني مخزوم أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسود بن عبد ياليل (وكان زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ) والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسود بن عبد ياليل وقيل: هذا مثل لعُيينة بن حصين وأصابه مع سلمان وأصحابه، وشبَّههما برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهودا في قول ابن عباس وقال مقاتل تمليخا، والآخر كافر واسمه قطروس وقال وهب قطغر، وهما اللذان وصفهما الله في سورة والصافات. وكان قصتهما على ما حكى عبد الله بن المبارك عن معمر عن عطاء الخراساني قال: كان رجلان شريكين لهما ثمانية آلاف دينار، وقيل: كانا أخوين ورثا أباهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها فعمد أحدهما فاشترى أرضاً بألف دينار فقال صاحبه اللهم إن فلاناً قد اشترى أرضاً بألف دينار فإني اشتريت منك في الجنة أرضاً بألف دينار فتصدق بألف دينار، ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار فقال: اللهم إن فلانا بنى داراً بألف دينارٍ فإني أشتري منك داراً بألف دينار في الجنة فتصدق بألف دينار، ثم تزوج صاحبه امرأة فأنفق عليها ألف دينار فقال هذا المؤمن اللهم إني أخطب إليك من نساء أهل الجنة بألف دينار فتصدق بألف دينار، ثم اشترى صاحبه خدماً ومتاعاً بألف دينار فقال: هذا اللهم إني أشتري منك خدماً ومتاعاً بألف دينار فتصدق بألف دينار، ثم إنه أصابته حاجة شديدة فقال: لو أتيت صاحبي لعله ينالني منه بمعروف فجلس على طريقه حتى مرَّ به في حشمه فقام إليه فنظر إليه الآخر فعرفه فقال: فلان؟ قال: نعم، قال ما شأنك؟ قال: أصابتني حاجة بعدك فأتيت لتصيبني بخير، فقال: ما فعل مالك؟ وقد اقتسمنا مالاً وأخذت شطره فقص عليه القصة فقال: إنك لمن المصدقين بهذا اذهب فلا أعطيك شيئاً فطرده، فقضي لهما أن توفيا فنزل فيهما: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾[1].

وروي أنه لما أتى فأخذ بيده وجعل يطوف به ويريه أموال نفسه فنزل فيهما: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ أي للكافرين والمؤمنين ﴿مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ أي مثل رجلين يعني حال رجلين

(١) سورة الصافات، الآية: ٥٠ ـ ٥٢.

مقدرين أو موجودين في زمن النبي ﷺ أو في الزمان السابق، فرجلين بحذف المضاف بدل من مثل وما بعده تفسير للمثل ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ أي للكافر منهما ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ أي بستاتين من كروم، والجملة بتمامها بيان للتمثيل أو صفة لرجلين ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي جعلنا الجنتين محفوفتين أي محاطتين بنخل يعني جعلنا النحلة محيطة بها، يقال: حفه القوم إذا أحاطوا به، وحففتُه بهم أي جعلتُهم حافين حوله محيطين به، فيزيد الباء كقولك غشيتُه وغشيتُ به ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ أي وسط الجنتين ﴿زَرْعًا﴾ يعني لم يكن بين الجنتين موضع خراب وكانت الجنتان جامعتين للأقوات والفواكه على الشكل والترتيب الأنيق ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ﴾ أي أعطت ﴿أُكُلَهَا﴾ أي ثمرها أفرد الضمير لإفراد لفظ كلتا ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ﴾ أي لم تنقص ﴿مِنْهُ﴾ أي من أكلها ﴿شَيْئًا﴾ يعهد في سائر البساتين فإن الثمار يتم في عام وينقص في عام غالباً ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ قرأ يعقوب بتخفيف الجيم والباقون بتشديدها، أي شققنا وأخرجنا ﴿خِلَالَهُمَا﴾ أي وسطها ﴿نَهَرًا﴾ ليدوم شربها ويبقى زُهرتها ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قرأ عاصم بفتح الثاء والميم وأبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم، والباقون بضمهما وكذلك في قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ قال الأزهري الثمرة تجمع على ثمر يعني بفتح الثاء والميم، ويجمع الثمرُ على ثِمَارٍ ثم يجمع الثِمَارُ على ثُمُرٍ بالضمتين، وفي القاموس الثمرة محركة حمل الشجر وأنواع المال، الواحدة ثَمرةٌ وثَمُرة وجمعه ثمار وجمع الجمع ثمرٌ وجمع جمع الجمع أثمار والذهب والفضة والنسلُ والولدُ، قيل: المراد أنه كان لصاحب البساتين ثمر أي أنواع من المال سوى الجنتين كثيرة مثمرة من ثمر ماله إذا كثر، وقال مجاهد يعني ذهب وفضة، وقال البغوي من قرأ بفتح الثاء فهي جمع ثمرة وما يخرجه الشجر من الثمار المأكولة ومن قرأ بالضم فهي الأموال الكثيرة المثمرة ﴿فَقَالَ﴾ صاحب البستانين ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ الفقير المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي يراجعه في الكلام من حاور إذا راجع ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي حشماً وأعواناً، وقيل: أولاداً ذكوراً لأنهم الذين ينفرون معه يدل عليه قوله: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿وَدَخَلَ﴾ الكافر ﴿جَنَّتَهُ﴾ بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها، وإفراد الجنة لأن الدخول يكون في واحدة واحدة، أو لاتصال كل واحدة من جنتيه بالأخرى، أو سماهما جنة لاتحاد الحائط وجنتين للنهر الجاري بينهما، أو لأن المراد ما هو جنته التي منعته من جنة الخلد التي وعد المتقون ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي ضار لها لعجبه وكفره ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ﴾ أي تفني ﴿هَذِهِ﴾ الجنة ﴿أَبَدًا﴾ لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بمهلته، لعل المراد أنه زعم أنه لا يزال له الغنى والمال والجنتان ما دام حياً، وإلا فليس من عاقل مؤمناً كان أو كافراً يعلم أنه لا

يموت ويبقى حياً أبداً، أو المراد أنه قال ذلك بلسان الحال فإن الغافلين المنهكمين في الدنيا. . . ولذاتها يأملون آمالاً ويعملون أعمالاً كأنهم لا يموتون أبداً، فكأنهم يقولون ذلك بلسان الحال ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي كائنة قاله ذلك لكونه كافراً منكراً للبعث، ثم قال على تقدير التنزل وفرض البعث ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾ بعد الموت والبعث ﴿إِلَىٰ رَبِّى﴾ كما زعمت ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ في الآخرة ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ قرأ أهل البصرة والكوفة بإفراد الضمير أي من الجنة التي دخلها وقرأ الحجازيان والشامي منهما بتثنية الضمير وكذلك هو في مصاحفهم يعني خيراً من الجنتين ﴿مُنقَلَبًا﴾ أي مرجعاً وعاقبة، إنما قال ذلك لاعتقاده أن الله تعالى إنما أعطاه ما أعطاه في الدنيا لكرامته على الله واستحقاقه ذلك ﴿قَالَ لَهُۥ﴾ أي للكافر ﴿صَاحِبُهُۥ﴾ المسلم ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ لأنه أصل مادتك أو مادة أصلك آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ فإنها مادتك القريبة ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ﴾ عدلك وكملك إنساناً ﴿رَجُلًا﴾ ذكراً بالغاً مبلغ الرجال، جعل كفره بالبعث كفراً بالله تعالى لأن إنكار البعث منشأه الشك في كمال قدرة الله، ولذلك رتب الإنكار على خلقه إياه من تراب، فإنه من قدر على بدء خلقه من التراب قادر على أن يعيده منه ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ قرأ الجمهور بالألف وقفاً تبعاً للخط وبلا ألف وصلاً، لأن أصله لكن أنا فحذفت الهمزة طلباً للتخفيف وألقيت حركتها على نون لكن فتلاقت النونان وأدغمتا وبقي الألف في الخط فيقرأ الألف وقفاً كما يقرأ وقفاً في أنا، ولا يقرأ وصلاً كما لا يقرأ في أنا وصلاً، وقرأ ابن عامر ويعقوب بالألف في الوصل أيضاً لتعويضها من الهمزة أو لإجراء الوصل مجرى الوقف ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ هو ضمير الشأن والجملة خبره، وجاز أن يكون هو ضمير الله والله بدل وربي خبره وجملة هو الله ربي مفعول لفعل محذوف تقديره قول هو الله ربي، وجملة أقول خبر أنا والراجع ضمير أقول والدليل على تقدير أقول عطف قوله ﴿لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَحَدًا﴾ والاستدراك من ﴿أَكَفَرْتَ﴾ كأنه قال: أنت كافر بالله لكني مؤمن موحد كما يقال زيد غائب لكن عمرو حاضر، قال البغوي قال الكسائي فيه تقديم وتأخير مجازه لكن الله هو ربي وعلى هذا الألف في لكنا زائدة في رسم الخط على خلاف القياس ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ يعني هلا قلت عند دخولها ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي الأمر ما شاء الله أو ما شاء الله كائن على أن ما موصولة، أي أي شيء شاء الله كان على أنها شرطية والجواب محذوف إقرار بأنها وما فيها بمشيئة الله إن شاء أبقاها وإن شاء أتلفها ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ يعني هلا قلت اعترافاً بالعجز على نفسك والقدرة لله يعني لا أقدر على حفظها إلا بمعونته الله وإن ما تيسرلك من عمارتها وتدبير

أمرها فبمعونته وإقداره. روى البيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «من رأى شيئاً فأعجبه قال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره» وكذا روى ابن السُّنِّي عنه بلفظ «لم يضره العين» وقال البغوي روى عن هشام بن عروة عن أبيه أنه كان إذا رأى من ماله شيئاً يعجبه أو دخل حائطاً من حيطانه قال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. ثم قال المؤمن ﴿إِن تَرَنِ﴾ أثبت الياء في الوصل فقط قالون وأبو عمرو وفي الحالين ابن كثير، والباقون يحذفونها في الحالين ﴿أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ أنا ضمير فصل، أو تأكيد للمفعول الأول، وقرىء أقل بالرفع على أنه خبر أنا والجملة معفول ثان لترنِ ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَن يُؤْتِيَنِ﴾ أثبت الياء في الحالين ابن كثير وفي الوصل فقط نافع وأبو عمرو والباقون يحذفونها في الحالين أي يعطني في الدنيا والآخرة ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ وهو جواب الشرط ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي على جنتك لأجل كفرك ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال قتادة عذاباً، وقال ابن عباس ناراً، وقال القتيبي مرامي، وقال البيضاوي جمع حُسبَانَة وهي الصواعق، قيل: هو مصدر بمعنى الحساب والمراد به التقدير بتخريبها أو عذاب الأعمال المسيئة بحسابها ﴿فَتُصْبِحَ﴾ الجنة ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي أرضاً ملساً تزلق عليها الأقدام باستئصال نباتها وأشجارها، وقال مجاهد رملاً هائلاً ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي غائراً ذاهباً في الأرض، مصدر يوصف به كالزلق ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ﴾ أي للماء الغائر الذاهب في الأرض ﴿طَلَبًا﴾ أي تردداً في رده فضلاً من رده، ﴿وَأُحِيطَ﴾ أي أحاط العذاب ﴿بِثَمَرِهِۦ﴾ أي ثمر جنته أو أمواله أي أهلكها من حيث لم يتوقعه صاحبه وهو مأخوذ من إحاطته العدو، فإنه إذا أحاط به غلبه وأهلكه ﴿فَأَصْبَحَ﴾ صاحبها الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أي يصفق بيده على الأخرى، أو يقلب كفيه ظهراً لبطنٍ تأسفاً وتلهفاً ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ﴾ من المال ﴿فِيهَا﴾ أي في عمارة الجنة، وهو متعلق بيقلب لأن تقليب الكف كناية عن الندم، فكأنه قال فأصبح يندم على ما أنفق، أو حال أي متحسراً على ما أنفق فيها ﴿وَهِيَ﴾ أي الجنة ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ بأن سقطت عروشها على الأرض وسقطت الكروم على العروش ﴿وَيَقُولُ﴾ ذلك الكافر عطف على يُقَلِّبُ، والظاهر عندي أن معنى الآية وأصبح الكافر يقلب كفيه في الدنيا حين رأى بستانها خاوية، ويقول يوم القيامة أو في القبر حين يرى منزله من الجنة أبدلت بمنزله من النار ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَحَدًا﴾ في الدنيا ﴿وَلَمْ تَكُن﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء التحتانية والباقون بالتاء الفوقانية، لأن تأنيث الفاعل غيرحقيقي ﴿لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ أي جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ يقدرون على نصره بدفع العذاب

يوم القيامة أورد المهلك والإتيان بمثله في الدنيا ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنه القادر على ذلك وحده لكنه لم ينصره لكفره ﴿وَمَا كَانَ﴾ ذلك الكافر ﴿مُنتَصِرًا﴾ بقوته عن انتقام الله منه ﴿هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك المقام والحال يعني حين يبعث يوم القيامة ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر الواو يعني السلطان والباقون بفتح الواو بمعنى الموالاة والنصرة كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾(١) وقيل بالفتح الربوبية وبالكسر الإمارة ﴿لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي الحق بالرفع على أنه صفة للولاية ويؤيده قراءة أبي هنالك الولاية الحق لله أو خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق، والباقون بالجر على أنه صفة لله كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾(٢) وجاز أن يكون قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ صادراً من الكافر في الدنيا ندماً وتوبةً من الشرك، أو اضطراراً وجزعاً حين تذكر موعظة أخيه وزعم أن ما أصابه أصابه لأجل الشرك فآمن أو لم يؤمن، ويكون هذا القول منه كقولهم إذا ركبوا في الفلك ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(٣) ومعنى قوله: هنالك أي في ذلك المقام والحال أي حال الجزع زعم أن الولاية لله الحق هو أي الله سبحانه ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي أفضل جزاء لأهل طاعته من غيره، فإنه تعالى يثيبهم في الدنيا على حسب حكمته وفي الآخرة ثواباً قوياً مؤبداً بخلاف غيره فإنهم يثيبون في الدنيا إن شاء الله تعالى إثابة حقيرة فانية فحسب ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ قرأ عاصم وحمزة بسكون القاف والباقون بضمها والعقبى هو الجزاء فإنه يعقب الطاعة.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٢.

(٣) سورة يونس، الآية: ٢٢.

﴿الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾

﴿وَٱضْرِبْ﴾ يا محمد ﴿لَهُم﴾ أي لقومك ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي اذكر لهم صفة الحياة الدنيا في زهرتها وسرعة زوالها أوصفتها الغريبة ﴿كَمَآءٍ﴾ أي هو كماء ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً لأضرب على أنه بمعنى صير ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي فالتقت بسبب ذلك الماء نبات الأرض وخالط بعضه بعضاً لكثرته وتكاثفه، أو أثر في النبات الماء فاختلط النبات بالماء حتى روي على هذا كان حقه فاختلط بنبات الأرض، لكن لما كان كل من المختلطين موصوفاً بصفة صاحبه عكس للمبالغة في كثرته ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي صارالنبات عن قريب ﴿هَشِيمًا﴾ وهو ما يبس وتفتت من النبات ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ قال أبو عبيدة تفرقه، والمشبه به ليس الماء ولا حاله بل الكيفية المنتزعة من الجملة وهي حال النبات المتبت بالماء يكون وارفاً ثم هشيماً تطيره الرياح فيصير كأن لم يكن ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الإنشاء والإفناء وغير ذلك ﴿مُّقْتَدِرًا ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ﴾ الذي يفتخر بها عُيينة وأشباهه الأغنياء.. ﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يتزين بها الإنسان في دنياه ويفنى عن قريب، وليست هي من زاد الآخرة ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ يعني الأعمال الصالحة التي يبقى ثمرها أبد الآبدين ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ من المال والبنين ﴿ثَوَابًا﴾ عائدة ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي ما يأمله الإنسان، قال البغوي قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه المال والبنون حرث الدنيا والأعمال الصالحة حرث الآخرة، وقد يجمعها الله لأقوام، قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد الباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ولا حول ولا قوة إلا بالله»(١) رواه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه، وعن جابرقال: «استكثروا من لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها تدفع تسعة وتسعين باباً من الضر أدناها الهم» رواه العقيلي وأخرج من حديث النعمان بن بشير مرفوعاً «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبرهن الباقيات الصالحات» وأخرج الطبراني مثله من حديث سعد بن عبادة، وكذا أخرج ابن جرير عن أبي هريرة مرفوعاً وعن رجل من الصحابة قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الكلام

(١) رواه أحمد وأبو يعلى وإسنادهما حسن.

انظر مجمع الزوائد في كتاب: الأذكار، باب: ما جاء في الباقيات الصالحات ونحوها (١٦٨٣٦).

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» رواه أحمد وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله كبر أحب إليَّ مماطلعت عليه الشمس»[١] رواه مسلم والترمذي، وقال سعيد بن جبير ومسروق وإبراهيم الباقيات الصالحات هي الصوات الخمس ويروى هذا عن ابن عباس، وعنه رواية أخرى أنها الأعمال الصالحة وهو قول قتادة ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ قرأ الكوفيون ونافع بالنون على التكلم وكسر الياء بناءً للفاعل ونصب الجبال، والباقون بالتاء وفتح الياء على صيغة التأنيث والبناء للمفعول ورفع الجبال يعني نقلعها ونذهب بها فنجعلها هباءً منبثاً ويوم منصوب بأذكر أو عطفاً على عند ربك أي الباقيات الصالحات خير عند ربك ويوم القيامة ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي ظاهرة ليس عليها ما يسترها من شجر أو جبل وبناء كذا أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة وقال عطاء وهو بروز ما في بطونها من الموتى وغيرها فيرى باطن الأرض ظاهراً ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي الناس من القبور أو رد بصيغة الماضي بعد نسير وترى لتحقيق الحشر، أو للدلالة على أن الحشر يكون قبل التسيير والواو حينئذ للحال بتقدير قد ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ يقال غادره وغدره إذا تركه ومنه الغدر لترك الوفاء يعني لم نترك ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من الناس ﴿أَحَدًا﴾ غير محشور ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ تشبيه حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان لا ليعرفهم بل ليأمر فيهم ﴿صَفًّا﴾ أي مصطفين لا يحجب أحد أحداً ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ يعني مقولاً في حقهم لقد جئتمونا فهو حال من وأو عرضوا، وجاز أن يكون لقد جئتمونا عاملاً في يوم يوم نسير ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ يعني حفاة عراة غرلاً ليس معكم شيء مما خوّلناكم في الدنيا.

أخرج الشيخان في الصحيحين والترمذي في سننه عن ابن عباس قال: قام رسول الله ﷺ وقال: «يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاةً مشاةً عراةً غرلاً ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ وأول من يكسى في الخلائق إبراهيم عليه السلام»[٢] وأخرج الشيخان عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «يحشرون يوم القيامة حفاةً عراةً

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥٩٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣٣٤٩).

وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهل، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦٠)، وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الحشر (٢٤٦٩).

غرلاً، . . . الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: يا عائشة الأمر يومئذٍ أشد من ذلك»[1] وأخرج الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن أم سلمة نحوه، وفيه قالت: «واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض، فقال: شغل الناس، قالت: ما شغلهم؟ قال: نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل» والبيهقي عن ابن عباس مرفوعاً نحوه وفيه قالت زوجته ينظر بعضنا إلى عورة بعض؟ قال يا فلانة لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه والطبراني عن سهل بن سعد نحوه، وعن الحسن بن علي ﷺ مرفوعاً نحوه وفيه قالت زوجته يا رسول الله فكيف يرى بعضنا بعضاً؟ قال: إن الأبصار شاخصة فرفع بصره» وأخرج الطبراني والبيهقي عن سودة بنت زمعة قالت: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس يوم القيامة حفاةً عراةً عزلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان، قلتُ: يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض؟ قال: شغل الناس عن ذلك لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه». قال القرطبي لا ينافي قوله عراة ما ورد أن الموتى يتزاورون في قبورهم بأكفانهم، لأن ذلك يكون في البرزخ فإذا قاموا من قبورهم خرجوا عراةً، لكن يعارض هذه الأحاديث ما رواه أبو داود والحاكم وصححه وابن حبان والبيهقي عن أبي سعيد الخدري أنه لما احتضر دعا بثياب جدد فلبسها ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها»[2] وما أخرج ابن أبي الدنيا بسند حسن عن معاذ بن جبل أنه دفن أمه فأمر بها فكفنت في ثياب جدد وقال: أحسنوا أكفان موتاكم فإنهم يحشرون فيها، وما أخرج سعيد بن منصور في سننه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أحسنوا أكفان موتاكم فإنهم يبعثون فيها يوم القيامة، قال القرطبي: فبعضهم قال بظاهر هذه الأحاديث والأكثر حملوا هذه على الشهيد الذي أمر أن يدفن بثيابه التي قتل فيها وبها الدم وإن أبا سعيد سمع الحديث في الشهيد فحمله على العموم، وقال البيهقي يجمع بأن بعضهم يبعث عارياً وبعضهم بثيابه، قلتُ: وهذا الجمع حسن وهذه الآية في حق الكفار بدليل قوله تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي وقتاً لإنجاز الوعد بالبعث والنشور وأن الأنبياء ﷺ كذبوكم وكلمة بل ها هنا للخروج من قصة أخرى وأيضاً يدل على أن الحشر عراة مختص بغير الصلحاء قوله ﷺ: «والأبصار شاخصة» وقوله: «لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه» فإنها في حق الكفار وشخص الأبصار أيضاً من صفتهم وشأنهم لأجل الهول

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر (٦٥٢٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الجنائز، باب: ما يستحب من تطهير ثياب الميت عند الموت (٣٣١٢).

دون شأن الصلحاء لكن يشكل على هذا قوله ﷺ: «وأول من يكسى من الخلائق إبراهيم عليه السلام» فإنه يدل على كون الأنبياء أيضاً عراة في أول الأمر اللهم إلا أن يقال يكسى الصلحاء في قبورهم قبل الخروج منها بحلل الكرامة وأول من يكسي منهم إبراهيم وحمل بعضهم حديث أن الميت يبعث في ثيابه على العمل الصالح لقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾(١) ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ اللام للجنس والمراد بالكتاب كتب أعمال العباد فإنها توضع في أيدي الناس في إيمانهم وشمائلهم أو في الميزان أو بين يدي الرحمن ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين يعطون كتبهم في شمائلهم ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ أي مما هو مكتوب فيه من الذنوب ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا رأوها ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ الويل الهلكة ينادون هلكتهم التي هلكوا بها من بين المهلكات ومعنى النداء إظهار الجزع وتنبيه المخاطبين على ما نزل بهم ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ استفهام تعجيب لشأنه ﴿لَا يُغَادِرُ﴾ أي لا يترك ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ قال ابن عباس الصغيرة التبسم يعني إذا كان في غير محله والكبيرة القهقهة، وقال سعيد بن جبير الصغيرة اللمم والمسيس والقبلة والكبيرة الزنا وإنما قالا ذلك على سبيل التمثيل وقد ذكرنا الكبائر في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾(٢) ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي إلا عدها وأحاط بها المستثنى في محل النصب على أنه مفعول ثانٍ لا يغادر أي لا يترك صغيرة ولا كبيرة غير محصاة، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا ببطن وادٍ فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود فأنضجوا خبزتهم وإن محقرات الذنوب لموبقات»(٣) رواه البغوي، وروى الطبراني عن سعد بن جنادة قال: لما فرغ النبي ﷺ من حنين نزلنا فقراً من الأرض ليس فيها شيء، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا من وجد شيئاً فليأت به أو من وجد عظماً أو شيئاً فليأت به، قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاباً فقال النبي ﷺ: «أترون هذا فكذلك تجتمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا فليتق الله عز وجل فلا يذنب صغيرة ولا كبيرة فإنها محصاة عليه» وروى النسائي واللفظ وابن ماجه وصححه ابن حبان عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً»(٤)

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٦. (٢) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٣) رواه أحمد والطبراني، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير عمران القطان وقد وثق، وقال ابن حجر: سنده حسن. انظر فيض القدير (٢٩١٧).

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الذنوب (٤٢٤٣) في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

وروى البخاري عن أنس قال: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»[١] وروى أحمد مثله بسند صحيح عن أبي سعيد ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ مكتوباً في الصحف أو وجدوا أجزاء ما عملوا حاضراً ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ يعني لا يكتب على العبد من السيئات ما لم يعمل، ولا يزيد في عقابه الملائم لعمله قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فتطائر الصحف بالأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله»[٢] أخرجه ابن ماجه عن أبي موسى الأشعري وأخرج الترمذي عن أبي هريرة نحوه، وأخرج البيهقي عن ابن مسعود موقوفاً، قال الحكيم الترمذي الجدال للأعداء يجادلون لأنهم لا يعرفون ربهم فيظنون أنهم إذا جادلوه نجوا وقامت حجتهم والمعاذير لله تعالى يعتذر إلى آدم وإلى أنبيائه ويقيم حجته عندهم على الأعداء ثم يبعثهم إلى النار، وأما العرضة الثالثة للمؤمنين وهو العرض للمغفرة إلا أن يخلوهم فيعاتب مزيد عتابه في تلك الخلوة حتى يذوق وبال الحياء والخجل ثم يغفر لهم ويرضى عنهم، وأخرج أنس عن النبي ﷺ قال: «الكتب كلها تحت العرش فإذا كان الموقف بعث الله ريحاً فتطيرها بالأيمان والشمائل أول خط فيها ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾» وأخرج ابن جرير عن قتادة أنه قال: سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئاً في الدنيا.

(و) اذكر ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ كرره في مواضع لكونه مقدمة للأمور المقصودة بيانها في تلك المحال، وها هنا لما شنّع على المتخرين واستقبح صنيعهم قرر ذلك بأنهن سنن إبليس، أو لما بين حال المغرور بالدنيا والمعرض عنها وكان سبب الاغترار بها حب الشهوات وتسويل الشيطان، زهدهم أولاً في زخارف الدنيا بأنها عرضة الزوال والأعمال الصالحة خير وأبقى من أنفسها وأعلاها، ثم نفرهم من الشيطان بتذكير ما بينهم من العداوة القديمة، وهذا وجه كل تكرير في القرآن ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ حال بإضمار قد أو استئناف للتعليل كأنه قيل ما له لم يسجد فقيل لأنه كان من الجن ﴿فَفَسَقَ﴾ أي فخرج ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي عن امتثال أمره وطاعته فيه دليل على أنه كان مأموراً بالسجود مع الملائكة، والفاء للتسبيب وفيه دليل على أن الملائكة لا يعصون

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: ما يتقى من محقرات الذنوب (٦٤٩٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر البعث (٤١٧٧) في الزوائد: رجاله ثقات إلا أنه منقطع، وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في العرض (٢٤٢٥).

الله أبداً وإنما عصى إبليس لأنه كان جنياً في أصله، قال البغوي قال ابن عباس كان إبليس من حي من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم فالاستثناء متصل، وقال الحسن كان من الجن ولم يكن من الملائكة فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس فالاستثناء منقطع وقد مر الكلام في الباب في سورة البقرة، وقول الحسن أن إبليس كان أصلاً للجن كما أن آدم أصل للإنس بعيد جداً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(١)] فإن هذه الآية وآيات سورة الرحمن وسورة الجن تدل على أن من الجن رجالاً مؤمنين صالحين ومنهم قاسطون كانوا لجهنم حطباً، وأما إبليس فهو وذريته أجمعون أعداء الله وأعداء أوليائه حيث قال الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ هذه الجملة حال والاستفهام للإنكار على اتخاذهم أولياء عقيب ظهور العداوة منهم، يعني تستبدلونهم بي فتطيعونهم بدل طاعتي ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ يعني إبليس وذريته بئس البدل عن الله في الولاية للظالمين.

قال البغوي روى مجاهد عن الشعبي قال إني قاعد يوماً إذ أقبل حمال فقال أخبرني هل لإبليس زوجة؟ قلت إن ذلك لغير بين ما شهدته ثم ذكرت قول الله عز وجل: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ﴾ فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة فقلت: نعم. قلت: قول الشعبي لا تكون ذرية إلا من زوجة مستفاد من قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾[(٢)] قال قتادة الشياطين يتوالدون كما يتوالد ابن آدم، وقيل إنه يدخل ذنبه في دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين، قال مجاهد من ذرية إبليس لاقين وولهان وهو صاحب الطهارة والصلاة والهفاف، ومرة وبه يكنّى وزلنبور وهو صاحب الأسواق يزين اللغو والحلف الكاذب ومدح السلعة، والأعور وهو صاحب الزنى ينفخ في إحليل الرجل وعجز المرأة ومطوس وهو صاحب الأخبار الكاذبة يلقيها في أفواه الناس لا يجدون لها أصلاً ويثور وهو صاحب المصائب يزين خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب، وداسم وهو الذي إذا دخل في بيته ولم يسلم ولم يذكر الله بصره من المتاع ما لم يرفع أو يحسن وضعه، فإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه. قال الأعمش ربما دخلت البيت ولم أذكر اسم الله ولم أسلم فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا هذه وخاصمتهم، ثم أذكر فأقول داسم داسم، وروي عن أبي ابن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «للوضوء شيطان

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠١.

يقال له ولهان فاتقوا وسواس الماء»[١] رواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي هذا حديث غريب وليس إسناده بالقوي عند أهل الحديث لأجل خارجة بن مصعب، وعن أبي سعيد الخدري أن عثمان بن أبي العاص أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي فقال رسول الله ﷺ: «ذلك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثاً» قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني»[٢] رواه مسلم، وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال: فيدنيه منه ويقول نعم أنت، وقال الأعمش أراه قال فيلتزمه»[٣] رواه مسلم.

﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ﴾ أي ما أحضرت وإبليس وذريته، قرأ أبو جعفر ما أشهدناهم بالنون والألف على التعظيم ﴿خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ يعني ما أشهدت بعضهم خلق بعض أي لم نعتضد بهم في خلق الأشياء حتى يستحقوا العبادة والطاعة، فإن استحقاق العبادة من توابع الخالقية والاشتراك فيها يستلزم الاشتراك فيها، ذكر الله سبحانه نفي الاعتقاد أولاً كناية ثم صرح به فقال ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ﴾ أي الشياطين ﴿عَضُدٗا﴾ أي أنصار وأعواناً وضع المظهر أي المضلين موضع الضمير ذاماً لهم واستبعاد الإعضاء بهم، وقيل الضمير للمشركين يعني ما أشهدتهم خلق الأشياء وما خصصتهم بعلوم لا يعرفها غيرهم حتى لو آمنوا تبعهم الناس كما يزعمون، فلا تلتفت إلى قولهم طمعاً في نصرتهم للدين فإنه لا ينبغي لي أن أعتضد بالمضلين لديني، وتعضده قراءة من قرأ وما كنت بفتح التاء على الخطاب لرسول الله ﷺ، وقال الكلبي الضمير في أشهدتهم للملائكة يعني ما أشهدت الملائكة خلق شيء حتى يعبدوا ويقال إنهم بنات الله، وعلى هذا يكون قوله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ﴾ كلام مستأنف ليس فيه وضع المظهر موضع الضمير يعني ما اعتضدت بالملائكة ولا بالشياطين.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في كراهية الإسراف في الوضوء بالماء (٥٧) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في القصر وكراهية التعدي فيه (٤٢١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة (٢٢٠٣).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً (٢٨١٣).

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَٰتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ قرأ حمزة بالنون على التكلم والباقون بالياء على الغيبة يعني يقول الله للكافرين ﴿نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شركائي أو شفعاؤكم ليمنعوكم من عذابي وإضافة الشركاء على زعمهم للتوبيخ وقيل إبليس وذريته ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ فنادوهم للإغاثة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فلم يغيثوهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ أي بين الكفار وآلهتهم ﴿مَّوْبِقًا﴾ اسم مكان يعني مهلكاً يقال أوبقة أي أهلكه كذا قال عطاء والضحاك وقال ابن عباس هو واد في النار، وقال مجاهد واد من حميم وقال عكرمة نهر من نار يسيل ناراً على حافته حيات مثل البغال الدهم، وقال ابن الأعرابي كل حاجز بين شيئين فهو موبق وقيل: مصدر، وقال الفراء البين الوصل والمعنى وجعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة نظيره قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾(١) على قراءة من قرأ بالرفع ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي المشركون ﴿النَّارَ فَظَنُّوا﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ مخالطوها واقعون فيها، أخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: «في قوله تعالى: ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ قال: ينصب الكافر مقدار خمسين ألف سنة كما لم يعمل في الدنيا وإن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعه من مسيرة أربعين سنة» ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي انصرافاً أو مكاناً ينصرفون إليها.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي بينا بوجوه البيان ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي من

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

كل عبارة هي كالمثل في الغرابة ليتذكروا أو يتعظوا وقيل: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ صفة لمحذوف مفعول لصرفنا أي مثلاً من جنس كل مثل ليتعظوا ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ قال ابن عباس أراد به النضر بن الحارث وجداله في القرآن، وقال الكلبي أراد به أبي بن خلف الجمحي وقيل: المراد الكفار مطلقاً قال الله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾[1] وقيل هو على العموم، روى البخاري عن علي بن أبي طالب عليه السلام: أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلةً فقال: ألا تصليان من الليل؟ فقلت: يا رسول الله إن أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً، ثم سمعته وهو مولي يضرب فخذه وهو يقول ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾»[2] وقوله جدلاً منصوب على التمييز من النسبة والمعنى كان جدل الإنسان أكثر الأشياء.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ من ﴿أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي من الإيمان ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي القرآن والإسلام والبيان من الله عز وجل، وقيل: إنه الرسول ﷺ يعني بعد وضوح الحق ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ أي ومن الاستغفار مما صدر عنهم فيما سلف من الكفر والمعاصي ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ حذف المضاف وأقيم مضاف إليه مقامه تقديره إلا تقدير أن تأتيهم سنة الأولين أي سنتنا في الأولين من العذاب المستأصل، وقيل: تقديره إلا طلب أن تأتيهم سنة الأولين من معاينة العذاب وانتظارهم ذلك، حيث ﴿قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[3] ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي العذاب في الآخرة ﴿قُبُلًا﴾ قال ابن عباس أي عياناً من المقابلة، وقال مجاهد فجاءة، قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر بالضمتين والباقون بكسر القاف وفتح الباء وهما لغتان معناهما واحد، وقيل: بالضمتين جمع قبيلة أي أصناف العذاب نوعاً نوعاً وانتصابه على الحال من الضمير أو العذاب.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ بالثواب والجنة للمؤمنين ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالعذاب والجحيم للكافرين، يعني ما بعثناهم قادرين على أن يأتو بما اقترح الكفار من الآيات أو

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب (١١٢٧).

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

قادرين على هداية الخلق كلهم مصيطرين عليهم ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ حيث يقولون ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾[1] ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾[2] ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾[3] ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾[4] أيكون من ما ذبحتم حلالاً وما أماته الله وذبحه بشمشاره حراماً ونحو ذلك ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ﴾ أصل الدحض الزلق والمعنى ليزيلوا بالجدال الباطل ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ عن مقره ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ المنزلة في القرآن ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ أي وإنذارهم أو الذي أنذروا به من العقاب ﴿هُزُوٗا﴾ أي مهزواً به قالوا في القرآن ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ﴾[5] ﴿يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾[6] ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[7] وقالوا في العذاب ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾[8] وقالوا: الزقوم التمر والزبد ونحو ذلك.

﴿وَمَنۡ﴾ أي لا أحد ﴿أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ﴾ أي وعظ ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي آيات القرآن التي اتضح أمرها بإعجازها لفظاً ومعنى ﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ فلم يتدبرفيها ولم يتذكر بها ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ من الأعمال الخبيثة الناشئة من الكفر والعقائد الباطلة فلم يتفكر في عاقبتها ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ تعليل لإعراضهم ونسيانهم فإن قلوبهم مكنونة مغطاة بظلمات مطبوع عليها ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ أي لئلا يفقهوه واللام المقدرة ها هنا للعاقبة، وإفراد الضمير المنصوب وتذكيره معه كونه مراجعة إلى آيات ربه نظراً إلى المعنى فإن الآيات هي القرآن يعني لئلا يفقهوا القرآن ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ عطف على قلوبهم يعني جعلنا في آذانهم ﴿وَقۡرٗا﴾ أي ثقلاً يعني لم نودع فيها صلاحية استماع الآيات حق استماعها ﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ﴾ يا محمد ﴿إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا﴾ أي إذا كان على ﴿قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ وفي آذانهم وقرٌ ﴿أَبَدٗا﴾ لقوات استعداده لاهتداء وهذا في أقوام علم الله فيهم أنهم لا يؤمنون.

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ﴾ البليغ في المغفرة ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ الموصوف بالرحمة ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.
(٢) سورة يس، الآية: ١٥.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٢٤.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٣١.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٣١.
(٦) سورة النحل، الآية: ١٠٣.
(٧) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.
(٨) سورة المجادلة، الآية: ٨.

﴿بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ﴾ استشهاد على مغفرته ورحمته بإمهال قريش مع إفراطهم في عداوة النبي ﷺ ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ أي يوم القيامة ويوم بدر ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ﴾ أي لن يجدوا إذا جاء الموعد من دون الله ﴿مَوْئِلًا﴾ أي منجا وملجأ يقال: آل إذا نجا وآل إليه إذا نجا إليه ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يعني قرى الأمم الهالكة من الكفار وقوم نوح وعاد وثمود وأشباههم الموصوف مع الصفة مبتدأ وخبره ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أو مفعول فعل مضمر يفسره ما بعده ولا بد من تقدير المضاف في الوصف أو للصفة حتى يكون مرجعاً للضمائر يعني أصحاب تلك القرى أو تلك أصحاب ﴿ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ بالكفر وأنواع المعاصي كما ظلم كفار قريش ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ قرأ أبو بكر ها هنا وفي النحل بفتح الميم واللام وحفص بفتح الميم وكسراللام حملاً على ما شذّ من مصادر مفعل كالمرجع والمحيض، والباقون بضم الميم وفتح اللام من أهلكه يعني لهلاكهم أو لإهلاكهم ﴿مَّوْعِدًا﴾ أي وقتاً معلوماً لم يستقدموه ولم يستأخروه فكذلك كفار قريش لا يسبقون موعدهم ولا يستأخرون.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾

اذكر ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ بن عمران كما يدل عليه الحديث الصحيح ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليه السلام، قلت: لعل نوناً أبا يوشع يكون من آل افرائيم لبعد الزمان بينهما ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي لا أزال أسير فحذف الخبر لدلالة حاله عليه وهو السفر ودلالة قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ فإنها يقتضي تقدير خبر يكون بلوغ مجمع البحرين غاية له ويجوزأن يكون أصله لا يبرح مسيري حتى أبلغ فيكون الاسم

محذوفاً أقيم المضاف إليه مقامه فانقلب الضمير والفعل والخبر حينئذ حتى أبلغ وأن يكون لا أبرح تامة بمعنى لا أزال عما أنا عليه من السير والطلب ولا أفارقه فلا يستدعي الخبر، ومجمع البحرين ملتقى بحر الفارس والروم مما يلي المشرق كذا قال قتادة، وقال محمد بن كعب طنجه، وقال أبي بن كعب أفريقية ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ أو أسير زماناً طويلاً في القاموس الحُقبة بالضمتين ثمانون سنة أو أكثر والدهر والسنة والسنون وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس الحقب الدهر، وقال البغوي قال عبد الله بن عمر الحقب ثمانون سنة وقيل: سبعون، أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم، يعني يقع أحد الأمرين إما البلوغ بمجمع البحرين لو مضى الحقب وجاز أن يكون لا بمعنى إلا أن والمعنى لا أبرح أسير حتى أبلغ إلا أن أمضي زماناً أتيقن معه فوات المجمع.

روى البخاري ومسلم عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس إن نوف البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل، فقال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى يا رب فكيف لي به؟ قال: خذ معك حوتاً فتجعله في مكتل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثمة، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة ووضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ وأمسك الله عنه جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظا نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، فقال له فتاه ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾، قال: وكان الحوت لفتاه سرباً ولموسى عجباً، فقال موسى: ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجّى ثوبا فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنى بأرضك السلام، قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك لتعلمن مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾، يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه. قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قال

الخضر ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملولهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال موسى قد حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾.

قال: وقال رسول الله ﷺ «كانت الأولى من موسى نسياناً والوسطى شرطاً والثالثة عمداً، قال: وجاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه فاقتعله بيده فقتله فقال له موسى: أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قال: وهذه أشد من الأولى، قال: قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ الخضر بيده، فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ قال: قال رسول الله ﷺ وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص علينا من خبرهما»[1] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في تفاسيرهم عن ابن عباس أن موسى سأل ربه أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني، قال: فأي عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى، قال: فأي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى وترده عن ردى، قال: إن كان في عبادك علم مني فادللني عليه، قال أعلم منك الصخرة، قال: أين أطلبه؟ قال على ساحل البحر عند الصخرة، قال كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً في مكتل فحيث فقدته فهو هناك فقال لفتاه إذا فقدت الحوت فأخبرني فذهبا يمشيان ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ بينهما ظرف أضيف إليه على الاتساع أو بمعنى الوصل، وحاصل المعنى فلما بلغا مجمعها يعني انتهيا إلى الصخرة التي عند مجمع البحرين كما مر في الصحيح رقد موسى فاضطرب الحوت المشوي وعاش وذهب في البحر كما مر في الصحيح ليكون ذلك معجزة لموسى أو الخضر، وفي الصحيحين وقال سفيان يزعم أن تلك الصخرة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام (٣٤٠١).

عندها عين الحياة لا يصيب ماؤها شيئاً إلا عاش ووثب في البحر، وقال الكلبي توضأ يوشع بن نون من عين الحياة فانتضح على الحوت المالح في المكتل من ذلك الماء فعاش ثم وثب في ذلك الماء، فجعل يضرب بذنبه فلا يضرب بشيء من الماء وهو ذاهب إلا يبس، فلما استيقظ موسى ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي نسيا موسى أن يطلبه ويتعرف حاله ويوشع أن يذكر له رأى من حياته وقوعه في البحر، وقال البغوي إنما كان الحوت مع يوشع وهو الذي نسيه وأضاف النسيان إليهما لأنهما جميعاً تزوداه للسفر كما يقال خرج القوم إلى موضع كذا وحملوا من الزاد كذا وإنما حمله واحد منهم ﴿فَٱتَّخَذَ﴾ أي جعل الحوت بجعل الله تعالى ﴿سَبِيلَهُۥ﴾ طريقه ﴿فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي مسلكاً ومنه قوله: ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[(١)] وقيل: السرب الشق الطويل وقد مر في رواية الصحيح «أمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق» ونصبه على المفعول الثاني، وفي البحر حال منه أو من السبيل ويجوز تعلقه باتخذ.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمع البحرين بالسير إلى وقت الغداء من اليوم الثاني ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ أي طعامنا والغداء ما يعد للأكل غُدوةً والعشاء ما يعد للأكل عشية ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ أي تعباً وشدةً، وذلك أنه ألقى على موسى الجوع بعد مجاوزة الصخرة ليتذكر الحوت ويرجع إلى مطلبه، وقد مر في حديث الصحيحين أن موسى لم يجد نصباً حتى جاوز الموعد ﴿قَالَ﴾ له فتاه وتذكر ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يعني أخبرني ما أنساني الحوت ﴿إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ التي رقدنا عندها، قال البغوي قال هقل بن زياد هي الصخرة التي دون نهر الزيت ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ أي تركته وفقدته، وقيل: في الآية إضمار تقديره نسيت أن أذكر لك أمر الحوت وما رأيتُ منه، قال البغوي وذلك أن يوشع حين رأى ذلك من الحوت قام ليدرك موسى فيخبره فنسي أن يخبره فمكث يومهما حتى صليا الظهر من الغد ثم اعتذر وقال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ﴾ قرأ حفص بضم الهاء في الوصل وكذا في سورة الفتح في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾[(٢)] والباقون يكسرونها فيهما في الحالين، أي ما أنساني أن أذكر لك أمر الحوت ﴿إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يعني شغلني الشيطان بوساوسه أن أذكره لك، قال البيضاوي ولعله نسي لاستغرابه في الاستبصار وانجذاب شراشره إلى جناب القدس بما عراه عن مشاهدة الآيات الباهرة وإنما نسب إلى الشيطان هضماً لنفسه،

(١) سورة الرعد، الآية: ١٠.

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٠.

أو لأن عدم احتمال القوة للمجانبين واشتغالها بأحدهما عن الآخر عُد من نقصان نفسه ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ﴾ الحوت ﴿سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ سبيلاً عجباً فهو صفة لمفعول ثان أقيم مقامه والظرف ظرف لغو أو اتخاذاً عجباً فهو صفة لمصدر والمفعول الثاني هو الظرف، وقيل: هو مصدر فعله المضمر كأنه قال في آخر كلامه عجبتُ عجباً، وقيل: هذا من قول موسى لما قال له يوشع واتخذ سبيله في البحر قال موسى عجباً أي عجبت عجباً، وقيل: ضمير اتخذ راجع إلى موسى أي اتخذ موسى سبيل الحوت في البحر عجباً أي يعجب عجباً فهو حال.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أثبت الياء في الحالين ابن كثير وفي الوصل فقط نافع وأبو عمرو والكسائي والباقون يحذفونها في الحالين، يعني كنا نطلب ذلك لكونه أمارةً لمكان الخضر ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ أي رجعا في الطريق الذي جاءا فيه ﴿قَصَصًا﴾ يقصان قصصاً أي يتبعان آثارهما اتباعاً، أو مقتصين حتى أتيا الصخرة ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ الجمهور على أنه الخضر كما ورد في الصحيح واسمه بليابن ملكان وقيل: اليسع وقيل: إلياس والخضر لقب له، لما روى البغوي بسنده عن همام بن منبه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي الخضر خضراً لأنه إذا جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتزُّ خضراً» وقال مجاهد سمي خضراً لأنه إذا صلى خُضر ما حوله، قال البغوي قيل كان من نسل بني إسرائيل وقيل: كان من أبناء الملوك الذين تزهَّدُوا في الدنيا، والمختار عندي أنه لم يكن من بني إسرائيل لأن موسى كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل أجمعين فلو كان الخضر منهم لكان من أتباع موسى والظاهر خلافه، وقد مرّ في الحديث الصحيح أن موسى رأى الخضر مسجى بثوب فسلم عليه فقال له الخضر وأنّى بأرضك السلام قال: أنا موسى قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، وفي رواية أخرى لقيه مسجى بثوب مستلقياً على قفاه بعض ثوبه تحت رأسه وبعضه تحت رجليه، وفي رواية لقيه وهو يصلي ويروي لقيه على طنفسة خضراء على كبد البحر ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هي الوحي والنبوة ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي مما يختص بنا ولا يكن تحصيله إلا من لدنا بتوفيقنا وهو علم الذات والصفات، قال البغوي لم يكن الخضر نبياً عند أكثر أهل العلم، قلت: وهذا عندي محل نظر لأن العلم الحاصل للأولياء بالإلهام وغير ذلك علم ظني يحتمل الخطأ ولذلك ترى تعارض علومهم الملهمة فلو لم يكن الخضر نبياً لما جاز له قتل نفس زكية بإلهام أنه لو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ كان حق

الكلام جئتك لأتبعك وأصحبك لكن غير الأسلوب استئذاناً منه في الاتباع والمصاحبة ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ أثبت الياء في الحالين ابن كثير وفي الوصل فقط نافع وأبو عمرو والباقون يحذفونها في الحالين يعني على شرط تعلمني وهو في موضع الحال من الضمير المرفوع أو المنصوب من اتبعك ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ قرأ أبو عمرو بفتح الراء والشين والباقون بضم الراء وإسكان الشين وهما لغتان كالبَخَلِ والبُخْلِ ومعناه إصابة الخير وهو مفعول تعلمني ومفعول علمت العائد محذوف وكلاهما من علم الذي له مفعول واحد بمعنى عرف، ويجوز أن يكون علةً لأتبعك أو مصدراً بإضمار فعله وهذه الآية دليل على أن المفضول قد يكون له فضل جزئي على من هو أفضل منه وعلى أن الفاضل ينبغي أن يطلب هذه الحصة من الفضل من المفضول ولا يستنكف عنه لما مر في تفسير هذه الآية أن موسى سأل ربه أي عبادك أعلم قال الذي ينبغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى ويرده عن ردى، وقال رسول الله ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالَّة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها»(١) رواه الترمذي وابن ماجه بسند حسن عن أبي هريرة وابن عساكر عن علي ﵁، ومن هذا الباب الصلاة المأثورة عن النبي ﷺ: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم» قال البغوي في بعض الأخبار أنه لمَّا قال له موسى ذلك قال له الخضر كفى بالتوراة علماً وبني إسرائيل شغلاً، فقال له موسى إن الله أمرني بهذا وقد رأى موسى ﵇ في هذا الكلام غاية التواضع والأدب واستجهل نفسه واستأذن أن يكون تابعاً له وسأله أن يرشده وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم الله عليه فحينئذ ﴿قَالَ﴾ له الخضر ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿صَبْرًا﴾ نفي الخضر عن موسى استطاعة الصبر معه على وجوه من التأكيد كأنها مما لا يصح ولا يستقيم، وعلَّل ذلك واعتذر عنه بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ أي علماً وخبراً تميز أو مصدر لأن ﴿لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ معناه لم تخبره وجه ذلك النفي أن الخضر علم أنه يرى منه أموراً منكرة ظاهر أو لا يجوز للأنبياء أن يصبروا على المنكرات ما لم يظهر عليهم وجه جوازها، قلت: والسرفي ذلك أن شرائع الأنبياء المرسلين إلى الأمم مبنية على قواعد كلية موجبة للصلاح الغالب بالنسبة إلى العامة، فينبغي أن يكون وجوه صلاحها ظاهرة بالنسبة إلى العامة، وأما الأحكام التي يوحي بها أفراد الأنبياء

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٧)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الحكمة (٤١٦٩).

الذين لم يبعثوا إلى الأمم بل أوحي إليهم لصلاح أنفهسم أو امتثال أمور بينهم وبين الله تعالى فإن تلك الأحكام تكون غالباً مبنية على حكمات لا يظهر وجه صلاحها على العامة، وذلك وجه إنكار موسى على ما أتى به الخضر وبناء على مخالفة المشرب (وكون اتحاد المشرب والانقياد وترك الاعتراض من شرائط الاستفادة) جعل الخضر عدم استطاعته على الصبر علة لعدم إفادة صحبة الخضر إياه، ووضع العلة موضعه كأنه قال صحبتي لا ينفعك ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

ومن ها هنا قالت الصوفية العالية: إنه يجب على المريد ترك الاعتراض على الشيخ وإن ظهر على يديه منكر ظاهراً بعدما ثبت عنده أنه من أهل الكمال والتكميل فإن كان المريد لا يستطيع ذلك لأجل اختلاف المشرب يجب عليه ترك مصاحبته غير منكر كما له. فإن قيل: كيف يتصور ذلك في الشريعة المحمدية العامة الشاملة المؤبدة التي لا يحتمل النسخ وللتبديل؟ قلنا: هب الأمر كذلك لايتصور أن يكون شيء محرماً في الدين ليستبيحه له أحد فلا يتصور من أحد يدعي الولاية أن يأتي بقتل غلام أبواه مؤمنان قائلاً بأن الله تعالى ألهمني أنه يرهقهما طغياناً وكفراً، لكن قد يكون شيء مما اختلف فيه أقوال العلماء وكان لصحته وجهاً مستند إلى دليل شرعي كالسماع والجهر بالذكر فمن أتى به من أولياء الله تعالى لا يجوز عليه الإنكار لأنه من قلد عالماً لقي الله سالماً، وقد يكون شيء منكراً ظاهراً وليس هو في الحقيقة كذلك كمن شرب من قارورة ماء مرائياً للناس أنه خمرحتى يقل هجوم الخلق عليه ولا يخل بالمخلوقين وقد يظهر على يدي رجل من أهل الله سيئة صغيرة وهو يعترف بكونها سيئة، وقد أجمع العلماء على أن العصمة من خواص النبوة لا يخل صدوره معصية بالولاية فحينئذ أيضاً لا ينبغي للمريد أن يعترض على شيخه بل ينكر الفعل فلا يأتي به ولا ينكر كمال فاعله بارتكابه.

وعامة مراد الإنكار على أولياء الله تعالى مقالاتهم المبنية على الكشوف والمشاهدات فتلك المقالات مهما أمكن حملها على محمل صحيح يجب حملها على ذلك قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[1] وإن لم يمكن ذلك يحمل تلك المقالات إما على سكر القائل وقد أفتى الفقهاء أن السكر إذا حصل بشيء مباح يكون عذراً لايقع طلاقه ونحو ذلك فكيف إذا حصل بغلبة حب الله الذي هو رأس العبادات وأما على عدم فهم السامع مراد القائل وعلى أن القائل أراد من كلامه

(١) سورة النور، الآية: ١٢.

معنى غير ما يفهم منه ظاهراً، فإن العبارات مقتصرة على بيان معان محسوسة أو معقولة مستنبطة من أمور محسوسة فأما ما لا نظيرله ولا شبيه من حقائق الذات والصفات إذا تجلت على قلب من له قلب سليم وأراد بيانها ولم يوضع بإزائها ألفاظ، اضطر القائل إلى استعارات وتجوزات وتشبيهات غير تامة فلا يجوز للسامع حينئذ أن يحملها على معانيه الظاهرة المخالفة لعقائد أهل السنة حتى ينكر عليه بل يعمل به ما يعمل بالمتشابهات الواردة في كلام الله وكلام رسوله ﷺ، ومن لم يسلك هذا المسلك لا يزيده إلا خساراً كما أن القرآن ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[(١)] ألا ترى أنه من سمع ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[(٢)] ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[(٣)] فإن أنكر كونها قرآناً كفر، وإن اعتقد بكونه تعالى جسماً كاد يكون كافراً، فكذلك كلام أولياء الله تعالى إذا كان ظاهره مخالفاً للشرع لا ينكر عليه ولا يعتقد بظاهره والله أعلم.

ولما كان موسى عليه السلام شاكاً المصابرة غير واثق من نفسه عليها لم يقطع بذلك واستثنى ﴿وَقَالَ سَتَجِدُنِيٓ﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ الجملة معطوفة على صابراً منصوب محلاً يعني صابراً غير عاص أو على ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ ولا محل له من الإعراب، عاهد موسى عليه السلام على المصابرة لكونها شرطاً لإفادة الصحبة وقد أمره الله تعالى بمصاحبته وشك في إتيانه منه لأن الاعتراض والمخالفة كان من لوازم مخالفة المشرب ناشئاً منها من غير اختيار منه ولأجل ذلك ﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي﴾ حذف الياء في الحالين ابن ذكوان بخلاف عن الأخفش وأثبتها الباقون في الحالين وكذا رسمها، وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بفتح اللام وتشديد النون والآخرون بسكون اللام وتخفيف النون، أتى بالشرط والجزاء للشك والاستبعاد وفي وقوعه ولم يقل لا تسألني ﴿عَن شَيْءٍ﴾ أعلمه مما تنكره الآن لأن السؤال مظنة الاعتراض المانع للاستفادة ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ يعني حتى أبتدىء لك ببيانه.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ۝٧١ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة طه، الآية: ٥.
(٣) سورة الفتح، الآية: ١٠.

تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ
لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ
سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ
قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ
شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ
صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

﴿فَانْطَلَقَا﴾ على الساحل يطلبان السفينة يركبانها فوجدا سفينة فركباها، قال البغوي فقال أهل السفينة هؤلاء لصوص فأمروهم بالخروج، فقال صاحب السفينة ما هم بلصوص ولكني أرى وجوه الأنبياء، وقد مر في حديث الصحيحين عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ: «أنه مرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول»[1] ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ الخضر، قد مر في الصحيحين أن الخضر قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وقد حملونا بغير نول فإن خرقها سبب لدخول الماء فيها المفضي إلى غرق أهلها، قرأ حمزة والكسائي ليغرق بفتح الياء التحتانية والراء على صيغة الغائب من المجرد ورفع أهلها بالفاعلية، والباقون بضم التاء الفوقانية وكسر الراء على صيغة المخاطب من الأفعال ونصب أهلها على المفعولية ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي عظيماً من إمر الأمر إذ أعظم، وقال البغوي الإمر في كلام العرب الداهية وأصل كل شيء شديد كبير، وقال القتيبي أي عجباً، قال البغوي روي أن الخضر أخذ قدحاً من زجاج ورقع به خرق السفينة، وقال جلال الدين المحلي روي أن الماء لم يدخلها يعني معجزةً للخضر ﷺ ﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿صَبْرًا﴾ تذكير لما ذكره قبل فلما رأى موسى أن الماء لا يدخل من الخرق وإنه لم يضر بأهل السفينة وتذكر ما عاهد ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي بالذي نسيته أو بشيء نسيته يعني المعاهدة على ترك الاعتراض أو بنسياني إياها اعتذر بالنسيان، وقيل: أراد بالنسيان الترك أي لا تؤاخذني بما تركت وصيتك الأول، وفي الحديث الصحيح المذكور عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: كان الأولى من موسى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم فيكل العلم إلى الله (١٢٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام (٢٣٨٠).

نسياناً والوسطى شرطاً والثالثة عمداً، وقال البغوي قال: ابن عباس إنه لم ينس ولكنه من معاريض الكلام فكأنه نسي شيئاً آخر ﴿وَلَا تُرْهِقْنِى﴾ أي لا تكلفني ﴿مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ مشقة بالمضايقة والمؤاخذة يعني أن ذلك يعسر عليّ متابعتك، وعسراً مفعول ثان ليرهق يقال رهقه إذا غشيه وأرهقه إياه، وقيل: معناه لا تكلفني مشقة وعاملني باليسر ولا تعاملني بالعسر.

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ بعدما خرجا من السفينة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا﴾ بين غلمان يلعبون، قال المفسرون فأخذ الخضر غلاماً له ظريفاً وضيء الوجه، قال السدي كان أحسنهم وجهاً كان وجهه يتوقد حسناً ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ قيل: أضجعه ثم ذبحه بالسكين، وفي الحديث الصحيح المذكور أنه أخذ برأسه فاقتلعه بيده، وروى عبد الرزاق هذا الخبر وأشار بأصابعه الثلاث الإبهام والسبابة والوسطى وقلع رأسه، وروي أنه رضخ رأسه بالحجارة وقيل: ضرب رأسه بالجدار، قال ابن عباس كان غلاماً لم يبلغ الحلم وهو قول أكثر المفسرين والمستفاد من القرآن لأن الغلام لايطلق بعد البلوغ، قال ابن عباس لم يكن نبي الله يقول: أقتلت نفساً زاكية إلا وهو صبي لم يبلغ الحلم، وقال الحسن كان رجلاً، وقال الكلبي كان فتى يقطع الطريق ويأخذ المتاعب ويلجأ إلى أبويه، وقال الضحاك كان غلاماً يعمل بالفساد وتأذى منه أبواه وفي حديث أبي بن كعب عند مسلم قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً»[1] والفاء في قوله فقتله للتعقيب والدلالة على أنه كما لقيه قتله من غير مهلة واستكشاف حال، ولذلك ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بتشديد الياء من غير ألف والباقون زاكية بالألف وتخفيف الياء، وقال البغوي قال الكسائي والفاء معناهما واحد مثل القاسية والقسيَّة، وقال أبو عمرو بن العلاء الزاكية التي لم تذنب قط والزكية التي أذنبت ثم تابت ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، أي لم يقتل نفساً وجب عليه القتل بالقصاص يعني إن القتل لا يجوز إلا في حد أو قصاص ولم يوجد شيء منها جعل الله سبحانه في الأولى خرقها جزاء واعترض موسى عليه السلام مستأنفاً وفي الثانية جعل اعتراض موسى جزاء لما قبله من الشرط، لأن القتل أقبح والاعتراض عليه أدخل وكان جديراً بأن يجعل عمدة الكلام ولذلك عقبه بقوله ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ أي منكراً في الشرع، قرأ نافع ويعقوب وأبو بكر

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مواد يولد على الفطرة (٢٦٦١).
وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (٤٦٩٣).

وابن ذكوان نكراً في الموضعين ها هنا وفي الطلاق بضم الكاف والباقون بإسكانها، قال قتادة النكرُ أعظم من الأمر لأنه حقيقة الهلاك وفي غرق السفينة كان خوف الهلاك، وقيل: الأمر أعظم لأنه كان فيه تغريق جمع كثير.

﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿صَبْرًا﴾ زاد فيه لك مكافحة بالعتاب على رفض العهد مرتين ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ أي فارقني، قرأ يعقوب فلا تصحبني بغير ألف من الصحبة ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى﴾ قرأ نافع وأبو جعفر بضم الدال وتخفيف النون وأبو بكر بإسكان الدال وإشمامها الشم وتخفيف النون والباقون بضم الدال وتشديد النون، يعني من عند ﴿عُذْرًا﴾ خالقتك ثلاث مرات، روى مسلم عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «رحمة الله علينا وعلى موسى وكذا إذا ذكر أحداً من الأنبياء بدأ بنفسه لولا أنه عجل لرأي العجب ولكنه أخذ من صاحبه ذمامة فقال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾»[(١)] وروى ابن مردويه بلفظ «رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب» ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عباس يعني أنطاكية، وقال ابن سيرين هي الأيكة وهي أبعد الأرض من السماء، وقيل: برقة، وقال البغوي عن أبي هريرة بلدة بالأندلس ﴿اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ قال البغوي قال أبي بن كعب عن النبي ﷺ حتى أتيا أهل قرية لئام فطافافي المجالس فاستطعماهم فلم يطعموها واستضافاهم ولم يضيفوهما، قال قتادة شر القرى التي لا تضيف الضيف، قال البغوي وروي عن أبي هريرة قال: أطعمتهما امرأة من أهل بربر بعد أن طلبا من الرجال فلم يطعموهما، فدعا لنسائهم ولعنا رجالهم ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي يسقط هذا من مجاز الكلام لأن الجدار لا إرادة له وإنما معناه قرب ودنا من السقوط كما يقول العرب داري تنظر دارفلان إذا كانت تقابلها ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ قال البغوي روينا عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال فقال الخضر بيده فأقامه، وقال سعيد بن جبيرمسح الجدار بيده فاستقام، وروى عن ابن عباس هدمه ثم قعد يبنيه، وقال السدي بل طيناً وجعل يبني الحائط قال ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وأبو عمرو لتخذت بتخفيف التاء وكسرالخاء من المجرد على وزن تبعت يقال تخذ يتخذ على وزن سمع يسمع، والباقون بتشديد التاء وفتح الخاء من الافتعال على وزن اتبعت أدغمت

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام (٢٣٨٠).

تاء الكلمة في تاء الافتعال ومعناهما واحد مثل تبع واتبع ومعناه لأخذت وليس من الأخذ عند البصريين كذا، قال البيضاوي لأن فاءها همزة والهمزة لا تدغم في التاء، وقال الجوهري الاتخاذ افتعال من الأخذ إلا أنه أدغمت بعد تليين الهمزة وإبدال التاء يعني أبدلت الهمزة بالياء لانكسارها قبلها ثم أبدلت الياء بالتاء لوقوعها فاء الافتعال نحو السر من اليسر، ثم لما كثر استعماله بلفظ الافتعال توهموا أن التاء أصلية فبنوا منه فَعِلَ يفعل قالوا تخذ يتخذ، وأهل العربية على خلاف ما قال الجوهري كذا قال الجوزي في النهاية ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على بنائه ﴿أَجْرًا﴾ فيه تحريض على أخذ الجعل ليعيشا به، وتعريض بأن فعله اشتغال بما لا يعنيه، فيه دليل أنه أقام الجدار يعني بناه بمشقة حيث يجوز عليه أخذ الأجر ولو أقامه بالمعجزة لما جاز له أخذ الأجر.

﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿هَٰذَا﴾ الاعتراض الثالث ﴿فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي سبب الفراق بيننا لأن في هذا الاعتراض مدخلاً لهوى النفس بخلاف الاعتراضين السابقين، فإن بناءهما كان على الديانة الصرفة أو المعنى هذا الوقت وقت الفراق بيننا لوجود اعتراض منك فيه مدخل لهوى النفس وجاز أن يكون هذا إشارة إلى الفراق الموعود بقوله فلا تصاحبني، وإضافة الفراق إلى البين إضافة المظروف إلى الظرف على الاتساع والتجوز، قلت: هذه إضافة بمعنى في ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي بالخبر الباطن فيما لم تستطع الصبر عليه لكونه منكراً في الظاهر، وكان مآله على الخير والصواب.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

قال البغوي وفي بعض التفاسير أن موسى أخذ بثوبه فقال: أخبرني بمعنى ما عملت قبل أن تفارقني فقال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ قال كعب كانت السفينة لعشرة إخوة خمسة زمنى وخمسة يعملون في البحر وفيه دليل على أن المسكين يجوز إطلاقه على من له مال لا يبلغ نصاباً ولا يكفيه أو لا يكون فاضلاً عن حاجته الأصلية ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾

أي يؤاجرون ويكتسبون بها ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أن أجعلها ذات عيب ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ أي أمامهم كقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾(١) وقيل: ورائهم خلفهم وكان رجوعهم في طريقهم عليه والأول أصح يدل عليه قراءة ابن عباس وكان أمامهم ﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة ﴿غَصْبًا﴾ قال البغوي كان ابن عباس يقرأ كذلك، فخرقها وعيبها الخضر حتى لا يأخذها الملك الغاصب وكان اسمه جليدي بن كركر، وقال محمد بن إسحاق سولة بن جليد الأزدي، وقال شعيب الجبائي اسمه هدد بن بدد، قال البغوي وكان حق النظم أن يتأخر قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ من قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ لأن إرادة التعييب مسبب عن خوف الغصب وإنما قدم للغاية أو لأن السبب كان مجموع الأمرين خوف الغصب ومسكنة الملاك فرتبه على أقوى الجزئين وأدعاهما وعقبه بالآخر على سبيل التقييد والتعميم، قال البغوي روي أن الخضر عليه السلام اعتذر إلى القوم وذكر لهم شأن الملك الغاصب ولم يكونوا يعلمون بخبره، وقال: أردت إذا هي مرت به أن يدعها لعيبها فإذا جاوز أصلحوها فانتفعوا بها قيل سددوها بقارورة وقيل بالقار، قلت: لكن رواية الاعتذار يأبى عنه نظم القرآن فإنه صريح في أن الخضر بين هذه الحكمة لموسى بعد مجاوزته وبعد قتل الغلام وإصلاح الجدار عند الفراق ولو اعتذر الخضر في أول الأمر لأصحاب السفينة لما خفي على موسى لكونه معه ولما احتاج الخضر إلى بيان ذلك لموسى والله أعلم.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ يغشاهما ﴿طُغْيَانًا﴾ عليهما ﴿وَكُفْرًا﴾ بعقوقه وسوء صنيعه ويلحقهما شراً وبلاء أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر، أو يعذبهما بغلبته فيرتد بإضلاله أو بممالأته على طغيانه وكفره حباً، قال سعيد بن جبير خشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه على دينه وإنما خشي ذلك خضر بإعلام من الله بالوحي، أخرج ابن أبي شيبة عن زيد بن هرمز عن ابن عباس أن نجدة الحروري كتب إليه كيف قتله وقد نهى النبي ﷺ من قتل الولدان فكتب إليه إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل يعني إنما نهى النبي ﷺ لعامة المسلمين الذين لا يوحى إليهم حتى يحصل لهم علم من حال الولدان والوحي قد انقطع بعد النبي ﷺ فليس نهي النبي ﷺ متوجهاً إلى خضر وأمثاله.

فإن قيل: مقتضى هذا الكلام إن الله تعالى كان يعلم أن ذلك الغلام إن عاش يكون كافراً طاغياً والمفروض المتحقق أن الغلام لم يعش ولم يكفر ولم يطغ حيث قتله الخضر والعلم يكون تابعاً للمعلوم فلا بد أن يكون للعلم في الخارج مصداق، فكيف يتصور

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٠.

صحة هذا العلم؟ لا يقال في جوابه أن وجود الأشياء تابع لعلم الله تعالى بخلاف علوم العباد فإن العلم هناك تابع للمعلوم مستفاد منه لأنا نقول هذا القول لا يجديك نفعاً فإن العلم سواء كان تابعاً للمعلوم أو متبوعاً له لا بد من مطابقتهما وعدم تخلف أحدهما عن الآخر، فإذا لم يعش الغلام ولم يكفر ظهر عدم تحقق القضية في الواقع فلا يجوز تعلق علم الله بالقضية حتى لا يلزم عدم مطابقته العلم بالواقع والجواب الصحيح الذي يحسم مادة الشبهة أن صدق الشرطية وتعلق العلمية يقتضي لزوم التالي للمقدم في الواقع، ولا يقتضي وجوده طرفيها فيه ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[١] صادق والعلم به متحقق مع امتناع المقدم، فمقتضى هذا العلم لزوم كفر الغلام لبقائه بحث لا يحتمل تخلفه، كما أن صدق قولنا إن كانت الشمس طالعة فالنهار موجود يقتضي لزوم وجود النهار لطلوع الشمس لا طلوعها ولا وجوده. فإن قيل: لزوم أحد الشيئين للآخر يقتضي أن يكون أحد الشيئين علة تامة للشيء الآخر، أو يكونان كلاهما معلولين لعلة واحدة تامة، فما وجه لزوم كفر الغلام لبقائه؟ قلنا: وجه هذا اللزوم على ما قالت الصوفية العلية ﷺ أن وجودات الأشياء كلها في الخارج ظلال للأعيان الثابتة التي هي ظلال لصفات الله تعالى ولما كانت الأعيان الثابتة كائنة في مرتبة العلم فلذلك قالوا المعلوم تابع للعلم ثم صفات الله تعالى منها راجعة إلى كونه تعالى هادياً ومنها راجعة إلى كونه تعالى مضلاً فالأشياء التي مبادىء تعيناتها راجعة إلى الهداية ظهور الاهتداء لازم لوجودها لا يمكن ختمها إلا على السعادة، والتي مبادي تعيناتها راجعة إلى الضلالة ظهور الشقاوة وختمها عليها لازم لوجودها لا يتصور منها الاهتداء، وهذا معنى قوله ﷺ: «كل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة»[٢] متفق عليه من حديث علي ﷺ، فمعنى قوله طبع الغلام على الكفر أن مبدء تعينه كان ضلال اسم المضل فموته صغيراً قبل ظهور أثر الضلالة فيه كان أصلح له ولوالديه وكان هذا تفضلاً من الله تعالى على والديه لا على ماقالت المعتزلة بوجوب الأصلح على الله سبحانه إذ لو كان كذلك لم يوجد كافر حيث يجب على الله إماتته صغيراً والله أعلم.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿فسنيسره للعسرى﴾ (٤٩٤٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٦٤٧ف).

﴿فَأَرَدْنَآ﴾ لعل معناه اشتهينا ودعونا الله سبحانه لأن إرادة العبد لا يمكن تعلقه بفعل الله سبحانه أسند الخضر ها هنا الإرادة إلى نفسه وأيضاً إلى الله تعالى حيث قال بصيغة الجمع أردنا ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ لأن التبديل بإهلاك الغلام وإيجاد الله بدله، والإهلاك وجد بكسب الخضر والإيجاد بخالص صنعه تعالى فصح الإسنادان، قرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو بالتشديد من التفعيل والباقون بالتخفيف من الأفعال ومعناهما واحد، قال البغوي وفرق بعضهم بأن التبديل تغيير شيء أو تغيير حاله وعين الشيء قائم والإبدال رفع شيء ووضع شيء آخر مكانه، قلت: وهذا الفرق ليس بشيء إذ لو كان كذلك لما يتصور الجمع بين القرائتين مع كونهما متواترتين بل المراد أن يرزقهما ربهما بدله ولداً ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي طهارة من الذنوب والأخلاق الردية ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بضم الحاء والباقون بإسكانها، أي أقرب رحمةً وعطفاً على والديه، وقيل هو من الرحم والقرابة، قال قتادة أي أوصل للرحم وأبر بوالديه وانتصاب زكاة ورحماً على التميز والعامل اسم التفضيل وهو خير وأقرب، قال البغوي قال الكلبي أبدلهما الله به جارية فتزوجها نبي من الأنبياء فولدت له نبياً فهدى الله على يديه أمةً من الأمم وعن جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: أبدلهما جارية ولدت سبعين نبياً، وقال ابن جريج أبدلهما بغلام مسلم، وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية بلفظ فأبدلا جارية ولدت نبياً، وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس مثله وأخرج ابن المنذر من طريق بسطام بن جميل عن يوسف بن عمر قال أبدلهما الله مكان الغلام جارية ولدت بنبيين، وأخرجه البخاري في تاريخه والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ، قال مطرف فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقي لكان فيه هلاكهما فليرض امرؤ بقضاء الله تعالى فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب، قلت: بل فيما يحب العبد أو يكره لا بد له أن يخاف مكر الله ويستعيذ منه ويرجو رحمة الله ويطلبه منه ويرضى بقضاء الله ولا يعترض عليه».

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قال البغوي كان اسمهما أصرم وصريم ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ من مال كذا قال عكرمة، وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «كان ذهباً وفضة»[1] وأخرج الطبراني عن أبي الدرداء في هذه الآية قال: أحلت لهم الكنوز وحرمت عليهم

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الكهف (٣١٥٢).

الغنائم وأحلت لنا الغنائم وحرمت علينا الكنوز، قلت: لعل معنى حرمت علينا الكنوز أن نكنز الذهب والفضة ولا نؤدي زكاتها فذلك حرام علينا لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] قال ابن عباس وابن عمر كل مال يؤدى زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً وكل مال لا يؤدى زكاته فهو كنز وإن لم يكن مدفوناً فلعل الزكاة لم تكن واجبة على أهل تلك القرية حينئذ حتى قيل أحلت لهم الكنوز والله أعلم، وقال البغوي روي عن سعيد بن جبير قال: كان الكنز صحفاً فيها علم، وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال: ما كان ذهباً ولا فضةً ولكن صُحفُ علم، وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس نحوه، وقال البغوي وروي عن ابن عباس أنه قال كان لوحاً من ذهب مكتوباًفيه عجباً لمن يوقن بالموت كيف يفرح عجباً لمن أيقن بالحساب كيف يغفل عجباً لمن أيقن بزوال الدنيا كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفي الجانب الآخر مكتوب أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه وويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه كذا أخرج البزار بسند ضعيف عن أبي ذر مرفوعاً أخصر منه وأخرجه الخرائطي في قمع الحرص عن ابن عباس موقوفاً وكذا أخرج ابن مردويه من حديث علي مرفوعاً وأخرجه البزار عن أبي ذر رفعه، وقال الزجاج الكنز إذا أطلق ينصرف إلى كنز المال وعند التقييد يجوز أن يقال عنده كنز علم وهذا اللوح كان جامعاً لهما.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ قيل: كان اسمه كاشح وكان من الأتقياء، قال البغوي قال ابن عباس حُفظا بصلاح أبيهما يعني أمر الله الخضر لإصلاح الجدار لأجل حفظ الغلامين بصلاح أبيهما، قال محمد بن المنكدر إن الله يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعترته وعشيرته وأهل دويرات حوله في حفظ الله ما دام فيهم، قال سعيد بن مسيب إني أصلي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي، وقيل: كان بين الغلامين وبين الأب الصالح سبعة أيام، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق بقية عن سليمان بن سليم أبي سلمة قال: مكتوب في التوراة أن الله ليحفظ القرن إلى القرن إلى سبعة قرون وأن الله يهلك القرن إلى القرن إلى سبعة قرون، وفي الآية دليل على أنه حق على المؤمنين السعي والرعاية لذريات الصلحاء ما لم يصدر منهم طغيان وكفر فحينئذ يستحقون زيادة الإيذاء كما يدل عليه آية السابقة ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

﴿أَشُدَّهُمَا﴾ أي بلغا الحلم وكمال الرشد والقوة، قيل: ثمانية عشر سنة، وعندي أنه أربعين سنة لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾(١) والظاهر من مذهب أبي حنيفة رحمه الله أنه خمسة وعشرون سنة فإنه إذا بلغ السفيه خمسة وعشرين سنة دفع عنده إليه ماله وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾(٢) ﴿وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ منصوب على الحال من فاعل يبلغا أي بلغا مرحومين من ربك أو على المصدرية أو العلية فإن إرادة الخير رحمة، وقيل: متعلق بمحذوف تقديره فعلت ما فعلت رحمة من ربك قال البيضاوي لعل إسناد الإرادة أولاً إلى نفسه يعني في قوله: أردت أن أعيبها لأنه هو المباشرة للتعقيب وثانياً إلى الله وإلى نفسه يعني في قوله: فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة لأن التبديل بإهلاك الغلام وإيجاد الله بدله، وثالثاً إلى الله وحده يعني في هذه الآية لأنه لا مدخل له في بلوغ الغلامين، أو لأن الأول في نفسه شر والثالث خير والثاني ممتزج، أو لاختلاف حال العارف في الالتفات إلى الوسائط ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ﴾ أي ما رأيت مني من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار ﴿عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ أي عن رأي إنما فعلته بأمر الله عز وجل وعلا ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع﴾ حذفت تاء الاستفعال تخفيفاً والمعنى ما لم تطق ﴿عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ قال البغوي روي أن موسى لما أراد أن يفارقه قال له أوصني، قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به، قال البيضاوي ومن فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعلمه ولا يبادر إلى إنكار ما لا يستحسنه فلعل فيه سراً لا يعرفه، قلت: لا سيما إذا كان الرجل الذي رأى منه مالا يستحسنه ذا علم وديانة واتقاء فبالحري أي لا ينكر عليه كما ذكرنا آنفاً، وأن يداوم على التعلم ويتذلل للمعلم ويراعي الأدب في المقال وأن ينبه المجرم على جرمه ويعفو عنه حتى يتحقق إصراره ثم يهاجر عنه.

قال البغوي اختلف الناس في أن الخضر عليه السلام حي أم ميت؟ قيل: إن الخضر وإلياس حيان يلتقيان كل سنة بالموسم وكان سبب حياته فيما يحكى به أنه شرب من عين الحياة وذلك أن ذا القرنين دخل الظلمة لطلب عين الحياة وكان الخضر على مقدمته فوقع الخضر على العين فنزل فاغتسل وشرب وصلى شكراً لله تعالى وأخطأ ذو القرنين الطريق فعاد، وذهب الآخرون إلى أنه مات لقول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ﴾(٣)

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٤.

وقال النبي ﷺ بعدما صلى العشاء ليلةً «أريتكم ليلتكم هذه؟ فإن على رأس مائة سنة لا يبقى من هو اليوم حي على ظهر الأرض أحد»(١) قلت: ذكر صاحب الحصين في التعزية ما روى الحاكم في المستدرك عن أنس أنه لما توفي رسول الله ﷺ دخل رجل أشهب اللحية جسم صبيح فتخطا رقابهم فبكى ثم التفت إلى الصحابة ﷺ فقال: إن لله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل فائت وخلقاً من كل هالك فإلى الله فأنيبوا وإليه فارغبوا ونظره إليكم في البلاء فانظروا فإنما المصاب من لم يجبر، وانصرف فقال أبو بكر وعلي: هذا الخضر عليه السلام» وقد اشتهر عن أولياء الله ملاقاتهم واستفاداتهم عن الخضر عليه السلام فهذا دليل على حياته، والظاهر أن الخضر عليه السلام لو كان حياً في زمن النبي ﷺ ما اعتزل عن صحبته فإنه كان مبعوثاً إلى الناس كافة، ولهذا قال عليه السلام: «لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي» رواه أحمد والبيقي في شعب الإيمان في حديث جابر «وسينزل عيسى بن مريم ويقتدي برجل من المسلمين» كذا روى مسلم في حديث عن أبي هريرة عن جابر ولا يمكن حل هذا الإشكال إلا بكلام المجدد للألف الثاني رضي الله عنه فإنه حين سئل عن حياة الخضر عليه السلام ووفاته توجه إلى الله سبحانه مستعلماً من جنابه عن هذا الأمر، فرأى الخضر عليه السلام حاضراً عنده فسأله عن حاله فقال: أنا وإلياس لسنا من الأحياء لكن الله سبحانه أعطى لأرواحنا قوة نتجسد بها ونفعل بها أفعال الأحياء من إرشاد الضال وإغاثة الملهوف إذا شاء الله وتعليم العلم اللدني وإعطاء النسبة لمن شاء الله تعالى، وجعلنا الله تعالى معيناً للقطب المدار من أولياء الله تعالى الذي جعله الله تعالى مداراً للعالم جعل بقاء العالم ببركة وجوده وإفاضته، قال الخضر إن القطب في هذا الزمان في ديار اليمن متبع للشافعي في الفقه، قال: فنحن نصلي مع القطب صلاة على مذهب الشافعي فبهذا الكشف الصحيح اجتمع الأقوال وذهب الإشكال والحمد لله الكبير المتعال.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: السمر في العلم (١١٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: قوله ﷺ: «لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم» (٢٥٣٧).

صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يعني اليهود أو مشركي مكة امتحاناً ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ قال البغوي اختلفوا في اسمه؟ قيل: اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني من ولد يافث بن نوح عليه السلام وقيل: اسمه اسكندر بن قبيس بن فيلقوس الرومي، قلت: وهو الأصح لما أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم والشيرازي في الألقاب وأبو الشيخ عن وهب بن منبه اليماني وكان له علم بالأحاديث الأولى أنه كان يقول: كان ذو القرنين رجلاً من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان اسمه الإسكندر، وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال: الإسكندر هو ذو القرنين. قال البغوي واختلفوا في نبوته؟ فقال بعضهم كان نبياً وقال أبو الطفيل سئل علي عن ذي القرنين أكان نبياً أم كان ملكاً؟ قال: لم يكن نبياً ولا ملكاً ولكن كان عبداً أحب الله فأحبه الله وناصح الله فناصحه، قلت: وكذا أخرج ابن مردويه عن سالم بن أبي الجعد قال: سئل علي عن ذي القرنين أنبي هو قال سمعت نبيكم ﷺ يقول: «هو عبد ناصح لله فنصح به» قال البغوي وروي أن عمر سمع رجلاً يقول لآخر يا ذو القرنين فقال: تسميتم بأسماء الأنبياء فلم ترضوا حتى تسموا بأسماء الملائكة، قال: والأكثرون على أنه كان ملكاً عادلاً صالحاً. قال البغوي واختلفوا في سبب تسميته بذي القرنين؟ قال الزهري: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها، وقيل لأنه ملك الروم والفارس وقيل لأنه دخل النور والظلمة، وقيل: لأنه رأى في المنام كان أخذ بقرني الشمس، وقيل: لأنه كان له ذؤابتان حسنتان وقيل: لأنه كان له قرنان تواريهما العمامة قلت: وكذا أخرج ابن عبد الحكم عن يونس بن عبيد ونحوه الشيرازي في الألقاب عن قتادة، وروى أبو الطفيل عن علي عليه السلام قال: سمي ذا القرنين لأنه أمر قومه بتقوى الله فضربوه على قرنه الأيمن فمات فبعثه الله يعني أحياه ثم أمرهم بتقوى الله فضربوه على قرنه

الأيسر فمات فأحياه الله، انتهى كلام البغوي. وأخرج أحمد في الزهد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن أبي الورقاء قال: قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ذو القرنين ما كان قرناه؟ قال: لعلك تحسب أن قرنيه ذهبٌ أو فضةٌ كان نبياً فبعثه الله إلى ناس فدعاهم إلى الله تعالى فقام رجل فضرب قرنه الأيسر فمات ثم بعثه الله يعني أحياه ثم بعثه الله إلى ناس فقام رجل فضرب قرنه الأيمن فمات فسماه ذا القرنين ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم﴾ خطاب للسائلين ﴿مِّنْهُ﴾ أي من حال ذي القرنين وقيل: من الله تعالى ﴿ذِكْرًا﴾ أي خبراً.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي مكنا أمره من التصرف فيها كيف شاء، قال البغوي قال علي عليه السلام سخر له السحاب فحمله عليها ومد له الأسباب وبسط له النور كان الليل والنهار عليه سواء فهذا معنى تمكينه في الأرض وهو أنه سهل عليه السير فيها وذلل له طرقها.

﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أراده وتوجه إليه، وقيل: معناه أعطيناه من كل شيء يحتاج إليه الخلق، وقيل: من كل ما يستعين به الملوك على فتح المدن ومحاربة الأعداء ﴿سَبَبًا﴾ يوصل إليه من العلم والقدرة والآلات، قال البغوي قال الحسن أي بلاغاً إلى حيث أراد، وقيل: معناه قربنا إليه أقطار الأرض ﴿فَأَتْبَعَ﴾ قرأ أهل الحجاز والبصرة فأتبع ثم أتبع في الثلاثة بهمزة الوصل والتشديد من الافتعال والباقون بقطع الألف وسكون التاء من الأفعال، قال البغوي قيل معناها واحد والصحيح الفرق بينهما فمن قطع بالهمزة فمعناه أدرك ولحق ومن قرأ بالتشديد فمعناه سار يقال ما زلتُ اتبعته حتى اتبعته، أي ما زلت سرت خلفه حتى لحقته وكذا روى عن الأصمعي ﴿سَبَبًا﴾ يعني طريقاً نحو المغرب، وقال ابن عباس منزلاً.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي منتهى الأرض المسكونة نحو المغرب ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر حمئة بالألف غير مهموز على وزن رامية أي حارة، والباقون مهموزاً بغيرألف على وزن ملئة من حمئت للبر إذا صارت ذات حمأة وهي الطينة السوداء، ولا تنافي بين القراءتين لجواز كون العين جامعة للوصفين وجاز أن يكون ياء حامية مقلوبة عن الهمزة لكسر ما قبلها فحينئذٍ يتخذ القراءتين أي ذات حمأة، قال البغوي سأل معاوية كعباً كيف تجد في التوراة أين تغرب الشمس؟ قال: نجدها تغرب في ماء وطين، قال البيضاوي لعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك إذ لم يكن في مطمح نظره غير الماء والطين ولذلك قال الله سبحانه ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾ ولم يقل كانت تغرب كذا قال القيتيبي ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ أي عند العين ﴿قَوْمًا﴾ قال البيضاوي قيل كان

لباسهم جلود الوحش وطعامهم ما لفظه البحر وكانوا كفاراً ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ ذلك القوم بالقتل على كفرهم إن أصروا على كفرهم بعدما دعوتهم إلى الإسلام ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ﴾ فعلة ﴿حُسْنًا﴾ يعني الإكرام والإرشاد وتعليم الشرائع إن تابوا وأسلموا، فكلمة إما ها هنا للتقسيم مثل أو في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾(١) وقيل: كلمة إما ها هنا للتخيير بين أن يعذبهم بالقتل لكفرهم وبين أن يدعوهم إلى الإسلام وهو المراد بقوله: ﴿أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ وقيل: خيره بين القتل والأسر وسماه إحساناً في مقابلة القتل ويؤيد الأولين قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين امتثالاً لأمره تعالى أو اختياراً لدعوتهم إلى الإسلام بعد التخيير ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ نفسه بالإصرار على الكفر بعدما دعوته إلى الإسلام واستمر على ظلمه الذي هو الشرك ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أنا ومن معي في الدنيا بالقتل ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ ربه في الآخرة ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي منكراً لم يعهد مثله في نار جهنم ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ على ما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص جزاء منوناً منصوباً على الحال أي فله الحسنى يعني الجنة جزاءً يجزي بها أو فله في الدارين المثوبة الحسنى جزاءً وجاز أن يكون منصوباً على المصدرية لفعل مقدر، والجملة حال أي يجزي بها جزاء أو على التمييز والباقون، بالرفع بغيرتنوين على الإضافة، والحسنى على هذه القراءة الأعمال الحسنة أي له جزاء الأعمال الحسنى، أو يقال الحسنى هو الجنة أو المثوبة الحسنة وإضافة الجزاء إليها من قبيل مسجد الجامع وجانب الغربي ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ﴾ أي لمن آمن وعمل صالحاً ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي مما نأمر به ﴿يُسْرًا﴾ أي سهلاً غيرشاق تقديره ذا يسر، وقال مجاهد يُسراً أي معروفاً، ويستدل بهذا الخطاب من الله تعالى لذي القرنين على كونه نبياً يوحى إليه، وقال البغوي الأصح أنه لم يكن نبياً والمراد به الإلهام، قلت ويمكن أن يكون هذا الأمر من الله تعالى على لسان نبي من الأنبياء يكون معه يسدد أمره كما كان في بني إسرائيل أنبياء مع الملوك يسددون أمورهم.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ أي سلك طرقاً ومنازل يوصله إلى المشرق ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني الموضع الذي تطلع الشمس عليه أولاً من معمورة الأرض ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ من اللباس أو البناء فإن أرضهم لا تحمل بناءً أو أنهم

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

اتخذوا الأسراب بدل الأبنية ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي أمر ذي القرنين كما وصفناه في رفعة المكان وبسطة الملك أو أمره في أهل المشرق كأمره في أهل المغرب من التخير والاختيار، أو هو صفة لمصدر محذوف لوجدها أي وجدها تطلع كما وجدها تغرب أو لمصدر لم نجعل أي لم نجعل لهم من دونها ستراً كما لم نجعل لأهل المغرب أو صفة لقوم يعني وجدها تطلع على قوم مثل ذلك القوم الذين كانت تغرب عليهم الشمس في الكفر والحكم ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود والآلات والعدد والأسباب ﴿خُبْرًا﴾ أي علماً تعلق بظواهره وبواطنه منصوب على المصدرية لأن في أحطنا معنى خبرنا، والمراد كثرة ذلك يعني بلغ مالديه مبلغاً لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ﴾ ذو القرنين ﴿سَبَبًا﴾ أي طريقاً ثالثاً معترضاً بين المغرب والمشرق أخذاً من الجنوب إلى الشمال حتى ﴿إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح السين والباقون بضم السين قيل: هما لغتان معناهما واحد وقال عكرمة ما كان من صنعة بني آدم فهو بالفتح وما كان من صنع الله فهو بالضم وكذا قال أبو عمرو، وقيل: السد بالفتح مصدر وبالضم اسم، والمراد بالسدين ها هنا جبلان سدَّ ذو القرنين ما بينهما حاجزاً بين يأجوج ومأجوج ومن ورائهم وهما جبلا أرمينية وأذربيجان أخرجه ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما، قيل: جبلان في أواخر الشمال في منقطع أرض الترك منيعان من ورائهما يأجوج ومأجوج أخرجه سعيد بن منصور في سننه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في تفاسيرهم وبين ها هنا مفعول به وهو من الظروف المتصرفة ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي أمام الجبلين ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قرأ حمزة والكسائي يفقهون بضم الياء وكسر القاف من الأفعال يعني لا يفقهون غيرهم لهم، وقرأ الآخرون بفتح الياء والقاف يعني لا يفهمون كلام غيرهم قال ابن عباس لا يفهمون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم.

﴿قَالُوا﴾ بتوسط مترجم لهم، وفي قراءة ابن مسعود قال الذين من دونهم ﴿يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قرأها عاصم ها هنا وفي الأنبياء مهموزين والآخرون بغير همز وهما اسمان عجميان بدليل منع الصرف وقيل: عربيان من أج الظلم إذا أسرع، قال البغوي من أجيج النار وهو ضوؤها وشررها شبهوا به لكثرتهم ومنع صرفهما للتعريف والتأنيث، قال البغوي هم من أولاد يافث بن نوح، وقال: قال الضحاك هم جيل من الترك، وقال: قال السدي الترك سرية من يأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم، وعن قتادة أنهم اثنان وعشرون قبيلة بنى ذو القرنين السد على إحدى وعشرين قبيلة

وبقيت قبيلة واحدة فهم الترك وسموا الترك لأنهم تركوا خارجين، وقال أهل التاريخ أولاد نوح ثلاثة سام وحام ويافث سام أبو العرب والعجم والروم، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة، ويافث أبو الترك والخرذ والصعالية ويأجوج ومأجوج، قال ابن عباس في رواية عطاءهم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء، وروي عن حذيفة مرفوعاً «إن يأجوج أمة ومأجوج أمة كل أمة أربعة مائة ألف لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف من صلبه كلهم حملوا السلاح وهم من ولد آدم يسيرون إلى خراب الدنيا» قلت: لعل معنى الحديث أن كل أمة بلغت عددهم أربع مائة ألف حين سد عليهم ذو القرنين فأما بعد ذلك فإذا ولد كل رجل منهم ألفاً مسلحاً يبلغ عددهم إلى مالا يعلم عدتهم إلا الله تعالى ومعنى يسيرون إلى خراب الدنيا أنهم إذا خرجوا من السد عند قرب القيامة يسيرون إلى خراب الدنيا والله أعلم.

وقال البغوي: وقيل هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز شجر بالشام طوله عشرون ومائة ذراع في السماء، وصنف منهم عرضه وطوله سواء عشرون ومائة ذراع وهؤلاء لا يقوم لهم جبل ولا حديد، وصنف منهم يفترش أحدهم أذنه ويلتحف بالأخرى لايمرون بخيل ولاوحش ولا خنزير إلا أكلوه ومن مات منهم أكلوه مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية. قلت: هذا أيضاً حين يخرجون من السد، قال البغوي وعن علي ﷺ أنه قال منهم من طوله شبرٌ وعرضه ذراع ومنهم من هو مفرط في الطول، وقال: قال كعب هم نادرة من ولد آدم وذلك أن آدم احتلم ذات يوم فامتزجت نطفة بالتراب فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج فهم يتصلون بنا من جهة الأب دون الأم، وقال البغوي ذكر وهب بن منبه أن ذا القرنين كان رجلاً من الروم ابن عجوز فلما بلغ كان عبداً صالحاً قال الله إني باعثك إلى أمم مختلفة ألسنتهم، منهم أمتان بينهما طول الأرض أحدهما عند مغرب الشمس يقال لها ناسك والآخر عند مطلعها يقال لها منسك، وأمتان بينهما عرض الأرض أحدهما في قطر الأيمن يقال لها هاويل والأخرى في قطر الأرض الأيسر يقال لها قاويل، وأمم في وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج فقال ذو القرنين بأي قوم أكابرهم وبأي جمع أكاثرهم وبأي لسان أناطقهم؟ قال: إني سأطوقك وأبسط لك لسانك وأشد عضدك فلا تهولك شيء وألبسك الهيبة فلا يردعك شيء وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما من جنودك يهديك النور من أمامك ويحوطك الظلمة من ورائك فانطلق حتى أتى مغرب الشمس فوجد جمعاً وعدواً لا يحصيه إلا الله فكاثرهم بالظلمة حتى جمعهم في مكان واحد فدعاهم إلى الله

وعبادته فمنهم من آمن ومنهم من صد عنه فعمد إلى الذين تولوا عنهم فأدخل عليهم الظلمة فدخلت في أجوافهم وبيوتهم فدخلوا في دعوته فجند من أهل المغرب جنداً عظيماً فانطلق يقودهم والظلمة يسوقهم حتى أتى هاويل فعمل فيهم كفعله في ناسك، ثم مضى حتى أتى إلى منسك عند مطلع الشمس فعل وجند فيها كفعله في الأمتين، ثم أخذ ناحية الأرض اليسرى فأتى قاويل فعل فيها كعمله فيما قبلها ثم عمد إلى الأمم التي في وسط الأرض فلما دنا مما يلي منقطع الترك نحو المشرق قالت له أمة صالحة من الإنس يا ذا القرنين أن بين هذين الجبلين خلقاً أمثال البهائم يفترسون الدواب والوحوش لهم أنياب وأضراس كالسباع يأكلون الحيات والعقارب وكل ذي روح خلق الله في الأرض وليس يزداد خلق كزيادتهم ولا شك أنهم يملكون الأرض ويظهرون عليها ويفسدون ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ وقال: أعدوا لي الصخور والحديد والنحاس حتى أعلم علمهم.

فانطلق حتى توسط بلادهم فوجدهم على مقدار واحد يبلغ طول الرجل منهم مثل نصف الرجل المربوع منا، لهم مخاليب كالأظفار في أيدينا وأنياب وأضراس كالسباع ولهم هلب من الشعر في أجسادهم ما يواريهم ويتقون به من الحر والبرد، لكل أذنان عظيمتان يفترش إحداهما ويلتحف بالأخرى يصيف في إحداهما ويشتوفي الأخرى، يتسافدون تسافد البهائم حيث التقوا، فلما عاين ذلك ذو القرنين انصرف إلى ما بين الصدفين فقاس ما بينهما فحفر له الأساس حتى بلغ الماء وجعل حشوه الصخر وطينه النحاس المذاب فيصب عليه فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض وذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ ﴿مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع، قال الكلبي كانوا يخرجون أيام الربيع إلى أرضهم فلا يدعون شيئاً أخضر إلا أكلوه ولا شيئاً يابساً إلا حملوه وأدخلوه أرضهم، وقد لقوا منهم أذى شديداً وقيل: إنهم كانوا يأكلون الناس ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ قرأ حمزة والكسائي هنا وفي المؤمنين خراجاً بالألف والباقون بغير الألف وهما لغتان بمعنى واحد أي جعلاً وأجراً نخرجه من أموالنا، وقال أبو عمرو الخرج ما ترغب به والخراج ما لزمك أداؤه، وقيل: الخراج على الأرض والخرج على الرقاب يقال إذ خرج رأسك وخراج مدينتك، وقيل: الخراج على الأرض والذمة والخرج المصدر ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ يحجز دون خروجهم، قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر بضم السين والباقون بفتحها.

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿مَا مَكَّنِّي﴾ قرأ ابن كثير بنونين مخففتين الأولى مفتوحة والثانية

مكسورة على الأصل من غير إدغام والباقون بنون مشددة مكسورة بالإدغام ﴿فِيهِ رَبِّى﴾ أي ما جعله الله لي فيه من المكنة بالمال والملك ﴿خَيْرٌ﴾ مما تجعلون لي عليه بإعطاء الجعل ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي فعلةٍ أو بما أتقوى به من الآلات ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾ تبرعاً ﴿رَدْمًا﴾ حاجزاً حصيناً وهو أكبر من السدين قولهم نوب مردّم إذا كان رقاع فوق رقاع ﴿ءَاتُونِى﴾ قرأ الجمهور بقطع الهمزة ومدة بعدها من الإيتاء بمعنى المناولة فلا منافاة بينها وبين رد الخراج والاقتصار على المعونة بالأبدان، لأن إعطاء الآلة من الإعانة دون الخراج على العمل، فورش على أصله يلقي حركة الهمزة على التنوين قبلها وقرأ أبو بكر ردمانِ ائتوني بكسرالتنوين وهمزة ساكنة بعده جنى جيئوني، وعند الابتداء يكسر همزة الوصل ويندل الهمزة ياء لاجتماع الهمزتين أو لهما مكسورة والثانية ساكنة ﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ أي قطعه والزبرة القطعة الكبيرة، وأصله على قراءة أبي بكر بزبر الحديد لكون الإتيان لازماً حذفت الباء كما في قولك أمرتك الخير فأتوا بها وبالحطب والفحم فجعل بعضها على بعض ولم يزل يجعل قطع الحديد على الحطب والفحم والحطب قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم الصاد والفحم على قطع الحديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أي بين جانبي الجبل، والدال وأبو بكر بضم الصاد وإسكان الدال والباقون بالفتحتين، وكلها لغات من الصدف بمعنى الميل لأن كلاً منهما مائل منعدل من الآخر ومنه التصادف بمعنى التقابل ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين للعملة ﴿ٱنفُخُواْ﴾ يعني اجعلوا فيها ناراً فانفخوا في الدار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ أي الحديد ﴿نَارًا﴾ بالإحماء، أسند الجعل إلى ذي القرنين مع أنه فعل العملة لكونه بأمره ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿ءَاتُونِىٓ﴾ قرأ حمزة وأبوبكر بخلاف عنه بهمزة ساكنة بعد اللام بمعنى المجيىء وإذا ابتدأ كسربهمزة الوصل وأبدل بالهمزة الساكنة ياء والباقون بقطع الهمزة ومدة بعدها في الحالين بمعنى الإعطاء يعني أعطوني قطراً ﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ﴾ الإفراغ الصب يعني أصب عليه ﴿قِطْرًا﴾ نحاساً مذاباً فأتوا بالنحاس وأفرغ النحاس المذاب على الحديد فأكلت النار الحطب الفحم، وصارالنحاس المذاب مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس فصار الحديد الآجر والنحاس بمنزلة الطين فصار جبلاً صلداً.

قال البغوي وفي القصة أن عرضه كان خمسون ذراعاً، وارتفاعه مائتا ذراع وطوله فرسخ، فقطراً اسم تنازع فيه الفعلان آتوني وأفرغ فأعمل البصريون الثاني وقالوابالحذف في الأول لدلالة الثاني عليه وقال: إعمال الثاني أولى لقربه، ولو كان مفعول آتوني لزم إتيان ضمير المفعول لأفرغ حذراً من الالتباس، وقال الكوفيون بإعمال الأول لتقدم

اقتضائه وحذف المفعول من الثاني ولا التباس في الحالين.

﴿فَمَا اسْطَـٰعُوٓا﴾ أصله (استطاعوا) قرأ الجمهور بحذف التاء حذراً من تلاقي المتقاربين وقرأ حمزة مشدداً بإدغام التاء في الطاء جامعاً بين الساكنين على غير حدة ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أن يعلوه من فوقه لطوله وملاسته ﴿وَمَا اسْتَطَـٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا﴾ من أسفله لشدته وصلابته ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿هَـٰذَا﴾ أي السد أو الإقدار على تسويته ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ على عباده ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى﴾ أي وقت وعده لخروج يأجوج ومأجوج، أو لقيام الساعة بأن شارف يوم القيامة ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ قرأ الكوفيون بالمد والهمز بغير تنوين أي أرضاً ملساء مستوية، وقرأ الباقون بالتنوين من غير همز ومد وهو مصدر بمعنى المفعول أي مدكوكاً مبسوطاً مساوياً للأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ كائناً لا محالة انتهى قصة ذي القرنين، قال البغوي وفي القصة أن ذا القرنين دخل الظلمة فلما رجع توفي بشهرزور وذكربعضهم أن عمره كان نيفاً وثلاثين سنة.

وقال البغوي روى قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة يرفعه أن يأجوج ومأجوج يحفرونه يعني السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهمْ ارجعوا فستحفرونه غداً فيعيد الله عز وجل كما كان حتى إذا بلغت مدتهم حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه إن شاء الله غداً واستثنى فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه فيخرجون على الناس فيتبعون المياه ويتحصن الناس في حصونهم منهم، فيرمون سهامهم إلى السماء فيرجع فيها كهيئة الدم فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله عز وجل لفغاً في إقفائهم فيهلكون وإن دواب الأرض ليسمن ويشكر من لحومهم شكراً، وروى مسلم عن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل فلما دخلنا إليه عرف ذلك فينا فقال: ما شأنكم؟ فقلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل فقال: «غير الدجال أخوف عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط عينه طافية أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف أنه خارج بين الشام والعراق فعاث يميناً وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا، قلنا: يا رسول الله ما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أمامه كأيامكم، قلنا: فذلك اليوم الذي كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم؟

قال: لا أقدروا له قدره، قلنا: يا رسول الله وما سراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فيمطرعليهم والأرض فينبت ويروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغة ضروعاً وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، قال: فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين لسي بأيديهم شيء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فيتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعوا رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك.

فبينما هو كذلك إذ بعث الله عيسى بن مريم ﷺ فينزل عند المفازة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قرط وإذا رفعه تحدر منه مثل جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله، ثم يأتي عيسى قوماً قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور ويبعث الله ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فيمر أوائلهم على بحيرة طبريه فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبي الله وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار ولأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسي كموت نفس واحدة ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى تركها كالزلقة ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وروي بركتك، فيومئذ يأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بعجفها، ويبارك في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس فبينما هم كذلك إذا بعث الله ريحاً طيبة فيأخذهم تحت آباطهم فيفيض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة» وفي رواية أخرى لمسلم نحو ما ذكرنا وزاد بعد قوله «لقد كان بهذه مرة ماء ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر وهو جبل بيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض هلم فلتقتل من في السماء فيرمون نشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوباً دماً، وروى

الترمذي نحوه وفيه «فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم بالمهبل، ويستوقد المسلمون من قسيهم ونشابهم وجعابهم سبع سنين، ثم يرسل الله مطراً إلى آخر الحديث»[١] ذكر البغوي هذا الحديث ثم قال: قال وهب ثم يأتون يعني يأجوج ومأجوج البحر فيشربون مائة ويأكلون دوابه ثم يأكلون الخشب والشجر ومن ظفروا به من الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس، وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج»[٢].

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قيل هذا عند فتح السد يقول تركنا بعض يأجوج ومأجوج يموج أي يدخل بعضهم في بعض كموج الماء ويختلط بعضهم ببعض لكثرتهم وتسابقهم في السير، وقيل: هذا عند قيام الساعة يدخل الخلق بعضهم في بعض ويختلط إنسهم بجنهم حيارى، ويؤيد هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لقيام الساعة يعني نفخة البعث ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ﴾ أي الخلق ﴿جَمْعًا﴾ للحساب والجزاء في صعيد واحد ﴿وَعَرَضْنَا﴾ أي أبرزنا ﴿جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ حتى شاهدوها عياناً ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: قول الله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ (١٥٩٣).

غِطَآءٍ﴾ أي في غشاء والغطاء ما يستر الشيء ﴿عَن ذِكْرِى﴾ أي عن رؤية الآيات والدلائل على وجودي وصفاتي فاذكر بالتوحيد والتعظيم ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أسماعاً لذكري وكلامي وما يرشدهم إلى الحق من القول، وذلك لما كتب الله عليهم من الشقاء وما ألقى في قلوبهم من العناد والعداوة لرسول الله ﷺ ومن يقوم مقاماً لكون مبادي تعيناتهم الاسم المضل.

﴿أَفَحَسِبَ﴾ يعني أفظن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى﴾ يعني الملائكة والمسيح وعزيراً، وقال ابن عباس يعني الشياطين الذين أطاعوهم من دون الله، وقال مقاتل: الأصنام سميت عباداً كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[1] ﴿مِن دُونِىٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها وقوله: ﴿مِن دُونِىٓ﴾ حال من قوله ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ يعني أرباباً أو شفعاء قوله: عبادي وأولياء مفعولان ليتخذوا وأن مع صلتها سد مسد المفعولين لحسب، والاستفهام للإنكار يعني ليس الأمر كذلك بل هم لهم أعداء يتبرؤون منهم فإن العباد الصالحين أعداء للكافرين والشياطين والأصنام، إذا كان يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً ويتبرؤون ممن عبدهم، أو المفعول الثاني لحسب محذوف حذف كما يحذف الخبر للقرينة يعني أفحسبوا اتخاذهم عبادي أولياء نافعاً لهم، وقال ابن عباس يريد أفظن الذين كفروا أن يتخذوا غيري أولياء إني لا أغضب لنفسي ولا أعاقبهم، فعلى هذا التأويل كلا المفعولين لحسب محذوفان أعني أني لا أغضب فإن أن مع اسمها وخبرها سد مسدها، وقوله أن يتخذوا مقدر بحرف الجر متعلق بكفروا يعني باتخاذهم أي بسبب اتخاذهم غيري أولياء، وجاز أن يقال تقدير الكلام على قول ابن عباس أظنوا أن الاتخاذ المذكور لا يغضبني ولا أعاقبهم كلا فعلى هذا المفعول الثاني محذوف فحسب ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ أي منزلاً أو ما يعد للضيف قبل نزوله، وفيه تهكم وتنبيه على أن لهم وراءها من العذاب ما يستحقر دونه ما سبق منه.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ نصب على التمييز وجمع لأنه من أسماء الفاعلين أو لتنوع أعمالهم ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ﴾ أي ضاع ﴿سَعْيُهُمْ﴾ اجتهادهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بسعيهم ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي عملاً، محل الموصول الرفع وعلى الخبر لمحذوف أي هم الذين ضل سعيهم فهو جواب السؤال والجر على البدل من الآخرين أو النصب على الذم، قال ابن عباس وسعد بن أبي وقاص هم اليهود والنصارى حسبوا أنفسهم على الحق

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٤.

وهم على الدين المنسوخ، وقيل: هم الرهبان الذين في الصوامع حسبوا أنفسهم أنهم تركوا لذّات الدنيا طمعاً في الآخرة وقد ضل سعيهم لكونهم على الكفر، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه هم أهل حروراء يعني الخوارج فإنهم أول فرقة بغوا على أهل السنة والجماعة من الصحابة ومن معهم وزعموا أنهم على الحق، فالمراد بقول علي رضي الله عنه أنهم أهل الأهواء الذين خالفوا أهل السنة فدخل فيهم الروافض والمعتزلة وسائر أهل الأهواء، قلت والظاهر أن المراد بهم الكفار الذين لا يرون البعث والنشور فيعملون ويتبعون فيما يرونه نافعاً لهم في الحياة الدنيا ولا يرون وراء الدنيا شيئاً ويزعمون أنه من يعمل عملاً يضره في الدنيا من أعمال الآخرة فهو مجنون سفيه، يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنزلة ﴿وَلِقَائِهِ﴾ يعني بالبعث بعد الموت، ويشعر هذه الآية بالتشنيع فيمن يعتقد البعث لكنه يقدم أعمال الدنيا على أعمال الآخرة ويتعب لأجل الدنيا ويترك أهل الآخرة إلى مغفرة الله وفضله، قال رسول الله ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[(١)] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم بسند صحيح عن أنس والله أعلم، وإن كان المراد بالآية اليهود والنصارى فالمعنى أنهم لا يعتقدون البعث على ما هو عليه أو المراد بلقائه لقاء عذابه ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي عملوها لاكتساب الدنيا أو التي عملوها طمعاً في الثواب ولا يثابون عليها لأجل كفرهم فإن الإيمان شرط لقبول الحسنات كلها ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ يعني لا يكون لهم عند الله قدر واعتبار، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ليأتي الرجل العظيم السمين لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال: اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾»[(٢)] متفق عليه، وأخرج أبو نعيم والآجري في هذه الآية عن أبي هريرة أنه قال: القوي الشديد الأكول يوضع في الميزان فلا يزن شعيراً يدفع الملك من أولئك سبعين ألفاً دفعةً واحدةً، أو المعنى لا نضع لهم ميزاناً يوزن به أعمالهم لانحباطها بل يلقون في النار بلا وزن، أو المعنى لا يكون لأعمالهم التي يرونها حسنات وزناً في الميزان، قال البغوي قال أبو سعيد الخدري يأتي الناس بأعمال يوم القيامة عندهم في العظم كجبال تهامة فإذا وزنوها لم تزن شيئاً فذلك قوله عز وجل: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٩)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٦٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ (٤٧٢٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٥).

قال السيوطي اختلف أهل العلم هل يختص الميزان بالمؤمنين أو يوزن أعمال الكفار أيضاً واستدل للأول بقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ وأجاب القائلون بالثاني بأنه مجاز عن عدم الاعتداء بهم لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ الآية إلى قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[1] وقال القرطبي الميزان لا يكون لي حق كل واحد وإن الذين يدخلون الجنة بغير حساب لا ينصب لهم ميزان وكذلك من يعجل به إلى النار بغير حساب وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾[2] الآية، وهذا الذي قاله القرطبي يجمع بين القولين والآيتين، والفريق الذين يعجل بهم الذين لا يقام لهم وزن وبقية الكفار ينصب لهم الميزان كذا قال السيوطي، قلت: ويحتمل تخصيص الكفار المذكورين بالمنافقين لأنهم الذين يبقون في المسلمين وأهل الكتاب الذين لا يبدلون بعد لحوق كل أمة بما كانت تعبد ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني الأمر ذلك وقوله ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ وجملة مستأنفة مبينة له ويجوز أن يكون ذلك مبتدأ الجملة خبره والعائد محذوف أي جَزَآؤُهُمْ به أو جَزَآؤُهُمْ بدله وجهنم عطف بيان للخبر ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ أي بسبب كفرهم ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾ واتخاذهم ﴿ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ أي سخرية وهزواً بهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ﴾ فيما سبق في حكم الله ووعده ﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة»[3] متفق عليه، وأخرج الترمذي والحاكم عن عبادة بن الصامت والبيهقي عن معاذ بن جبل لنحوه أن النبي ﷺ قال: «إن الجنة مائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة من فوقها يكون العرش ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»[4] وأخرج البزار عن العرباض بن سارية والطبراني عن أبي أمامة نحوه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة» وزاد في حديث أبي أمامة أن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش، قال البغوي قال كعب ليس في الجنان أعلى من جنة الفردوس فبها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال مقاتل

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٣ ـ ١٠٥.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ (٧٤٢٣).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة درجات الجنة (٢٥٣١).

الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وأنعمها، وأخرج أحمد والطيالسي والبيهقي عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «جنات الفردوس أربع جنتان من ذهب حليتهما وأبنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة» الحديث، قلت: هذا الحديث يدل على أن كل جنة يسمى بالفردوس معناه اللغوي، قال كعب الفردوس البستان فيه الأعناب وقال مجاهد هو البستان بالرومية، وقال عكرمة هي الجنة بلسان الحبشة، وقال الزجاج لفظ بالرومية منقول إلى لفظ العربية، وقال الضحاك هي الجنة الملتفة بالأشجار وقيل: هي الروضة المستحسنة وقيل: هي روضة تنبت ضروباً من النبات وجمعه فراديس فهذا الإطلاق في الحديث من حيث معناه اللغوي، وأما بالمعنى العلمي فهو أعلى الجنات، فإن كان المراد في الآية المعنى اللغوي فالموصول على عمومه وإن كان المعنى العلمي فالمراد بالذين آمنوا الذين آمنوا حقيقة الإيمان، أخرج البيهقي عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى خلق الفردوس بيده وحظرها على مشرك ومدمن خمر» وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال قال رسول الله ﷺ: «خلق الله تبارك وتعالى ثلاثة أشياء بيده خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس الفردوس بيده وقال: وعزتي وجلالي لا يدخلها مدمن خمر ولاديوث، قالوا: يا رسول الله وما الديوث؟ قال: الذي يقر السوء في أهله» وقد مر تفسير قوله: «نزلاً» ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدرة ﴿لَا يَبۡغُونَ﴾ أي لا يطلبون ﴿عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ تحولاً إذ ليس شيء أطيب منها حتى ترغب أنفسهم إليه، ويجوز أن يراد به تأكيد الخلود والله أعلم.

أخرج الحاكم وغيره عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل فقالوا: سلوه عن الروح فسألوه فنزلت: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾﴾ فقالت اليهود أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً فنزلت ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ يعني ماء البحر ﴿مِدَادٗا﴾ يكتب به والمداد اسم لما يمد به الشيء كالحبر للدواة والسليط للسراج، وأصله من الزيادة ومجيء شيء بعد شيء قال مجاهد لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا للقلم والقلم يكتب ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ أي كلمات علمه وحكمته ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ أي جنس ماء البحر بأسره لأن كل جسم متناه ﴿قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ فإنها غير متناهية لا تنفد، قرأ حمزة والكسائي تنفد بالياء لتقدم الفعل وإسناده إلى مؤنث غير حقيقي ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ﴾ أي بمثل البحر الموجود ﴿مَدَدٗا﴾ زيادة ومعرفة لأن مجموع المتناهي متناه بل مجموع ما يدخل في الوجود من الأجسام لا يكون إلا متناهياً للدلائل القاطعة على تناهي الأبعاد والمتناهي ينفد قبل غير المتناهي لا محالة،

قلت: ولو فرضنا البحر أو الأبحر السبعة وما زاد مداداً يكتب بها كلمات علمه تعالى فلا شك أن كل جزء منها يقوم بالقلم لا يمكن أن يكتب به ما معنى على ذلك الجزء من الأحوال الطارئة عليه، وإن كانت ذلك الأحوال متناهية فكيف ما عداها من الممكنات المعلومة لله تعالى، فهيهات هيهات إحاطة المتناهي لغير المتناهي وقال البغوي قال ابن عباس قالت اليهود أتزعم أنا قد أوتينا الحكمة وفي كتابك ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1] ثم تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2] فأنزل الله هذه الآية يعني أن ذلك العلم الذي في الكتب خير كثير في نفسه لكونه متكفلاً لصلاح معاشكم ومعادكم لكنه قطرة من بحار كلمات الله والباء للتعدية ومثله مفعول لجئنا ومداداً تمييز نحو على التمرة مثلها زيداً أولى مثله رجلاً.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قال ابن عباس علم الله عز وجل رسوله ﷺ التواضع لئلا يزعى على خلقه فأمره أن يقرَّ فيقول إني آدمي مثلكم إلا أني خُصصتُ بالوحي وأكرمني به ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له، قلت فيه سد لباب الفتنة افتتن بها النصارى حين رأى عيسى يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى وقد أعطي الله تعالى لنبينا ﷺ من المعجزات أضعاف ما أعطى عيسى عليه السلام فأقره بإقرار العبودية وتوحيد الباري لا شريك له ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي يخاف المصير إليه ويأمل رؤيته وحسن ثوابه، قال البغوي الرجاء يكون بمعنى الخوف والأمل جميعاً قال الشاعر:

فلا كل ما ترجو من الخير كائن ... ولا كل ما ترجو من الشر واقع

فجمع بين المعنيين ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ يرتضيه ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ أي لا يراءي بعمله ولا يطلب على عمله أجراً من أحد غيره تعالى جزءاً ولا ثناءً.

أخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص عن طاووس قال: قال رجل يا رسول الله إني أقف الموقف أريد وجه الله وأحب أن يُرى موطني فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الآية، مرسل وأخرجه الحاكم في المستدرك موصولاً عن طاووس عن ابن عباس وصححه على شرط الشيخين، وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كان رجل من المسلمين يقاتل وهو يحب أن يرى مكانه فأنزل الله من كان يرجو لقاء ربه الآية، وأخرج أبو نعيم وابن عساكر في تاريخه من طريق

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

السدي الصغير من الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له فزاد في ذلك لمقالة الناس له فنزلت في ذلك ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الآية. فإن قيل: روى الترمذي عن أبي هريرة قال: «قلت يا رسول الله أنا في بيتي في مصلاي إذ دخل عليّ رجل فأعجبني الحال التي رآني عليها فقال رسول الله ﷺ: «رحمك الله أبا هريرة لك أجران أجر السر وأجر العلانية»(١) وروى مسلم عن أبي ذر قال: قيل لرسول الله ﷺ أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»(٢) فإن قيل: هذان الحديثان ينافيان ما ذكر في شأن نزول الآية؟ قلنا: لا منافاة أصلاً فإن ما ذكر في شأن نزول الآية، مراده أن من عمل لله ويريد أن يراه الناس ويحمده على عمله، أو يزيد في عمله إذا رآه الناس فهو من الرياء والشرك الخفي، وأما من عمل لله ورآه الناس وحمده فاستبشر به وهو لا يريد حمد الناس عليه ولا جزاء منهم ولا يزيد في عمله لأجلهم فذلك بشراه العاجل وله أجر السر والعلانية والله أعلم.

وعن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمع سمع الله به ومن يرائي يرائي الله به»(٣) متفق عليه، وعن محمود بن لبيد أن النبي ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء» رواه أحمد وزاد البيهقي في شعب الإيمان «يقول الله لهم حين يجازي العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء أو خيراً»(٤) وعن أبي هريرة: «اتقوا الشرك الأصغر قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء» أخرجه ابن مردويه في التفسير والأصبهاني في الترغيب والترهيب، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» وفي رواية: «فأنا منه بريء هو للذي عمله»(٥) رواه مسلم، وعن أبي سعيد بن أبي فضالة

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: عمل السر (٢٣٨٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره (٢٦٤٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الرياء والسمعة (٦٤٩٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٦).

(٤) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في الرياء (٣٧٥).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥).

عن رسول الله ﷺ قال: «إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى منادٍ من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله قال الله أغنى الشركاء عن الشرك»[١] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والبيهقي، وعن عبد الله بن عمرو أنه جمع رسول الله ﷺ يقول: «من سمع الناس بعمله سمّع الله به مسامع خلقه وحقره وصغره» رواه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان، وعن شداد بن أوس قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من صلى يرائي فقد أشرك ومن صام يرائي فقد أشرك ومن تصدق يرائي فقد أشرك» رواه أحمد، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتي يوم القيامة بصحف مختمة فتنصب بين يدي الله فيقول: ألقوا هذه واقبلوا هذه فيقول الملائكة وعزتك ما كتبت إلا ما عمل، فيقول: هذا كان لغير وجهي وإني لا أقبل اليوم إلا ما ابتغي به وجهي» وأخرجه البزار والطبراني في الأوسط والدارقطني والأصبهاني في الترغيب عن شهر بن عطية قال: «يؤتى بالرجل يوم القيامة للحساب وفي صحيفته أمثال الجبال من الحسنات فيقول رب العزة تبارك وتعالى صليت يوم كذا ليقال صلى فلان أنا الله لا إله إلا أنا لي الدين الخالص وصمت يوم كذا ليقال صام فلان أنا الله لا إله إلا أنا لي الدين الخالص، فما يزال يمحى شيء بعد شيء فيقول ملكاه لغير الله كنت تعمل». وعن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يجمع الأولين والآخرين ببقيع واحد منفذ البصر يسمعهم الداعي فيقول: أنا خير شريك فكل عمل لي في دار الدنيا كان فيه شريك فأنا أدعه اليوم لشريكي ولا أقبل اليوم إلا خالصاً» رواه الأصبهاني، وعن ابن عباس من رأى بشيء من عمله وكله الله إليه يوم القيامة وقال: انظر هل يغني عنك شيئاً.

وتأويل الآية على طريقة الصوفية فمن يرجو لقاء الله يعني وصله بلا كيف بالدنو والتدلي حتى يكون قاب قوسين أو أدنى ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ بعد فناء النفس وإزالة رذائلها فإن رذائل النفس تفسد العمل ولا تصلح العمل إلا بعد فناء النفس ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ يعني لا يكون لقلبه تعلق علمي ولا حبي لغير الله تعالى، فإن التعلق العلمي بالقلب هو للذكر والذكر هو العبادة، والحب يقتضي العبادة والمحبوب هو المعبود، فإن العبادة هي غاية الذل والتواضع والمرء يذل نفسه ويتواضع غايته عند محبوبه يحصل ذلك بعد فناء القلب فإن قيل: العلم بغير الله لا ينفك عن أولياء الله بل عن الأنبياء أيضاً، قلنا

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الكهف (٣١٥٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الرياء والسمعة (٤٢٠٣).

العلم بعد فناء القلب لا يكون محله القلب بل يكون قلبه مهبط لتجليات الرحمن، لكنه يتعلق بوراء ذلك المحل لبقاء مادة التكليف على مقتضى الحكمة والله أعلم.

## فصل:

عن أبي الدرداء يرويه عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال»[١] رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي وروى الترمذي عنه بلفظ «من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف عصم من فتنة الدجال»[٢] وقال هذا حديث حسن صحيح، وروى أحمد ومسلم والنسائي عنه بلفظ «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال» وعن سهل بن معاذ عن أنس عن النبي ﷺ قال: «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نور من قدمه إلى رأسه، ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء» رواه البغوي وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة وأحمد في مسنده عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الكهف عند مضجعه كان له نوراً في مضجعه يتلألأ إلى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم، فإن كان مضجعه بمكة كان نوراً يتلألأ من مضجعه إلى بيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ» أخرجه ابن مردويه، وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له النور ما بين الجمعتين» رواه الحاكم وصححه والبيهقي في الدعوات الكبير ورواه البيهقي في شعب الإيمان بلفظ «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق» وعن البراء بن عازب قال: «كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو، وجعل فرسه ينفر فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: «تلك السكينة تنزلت بالقرآن»[٣] متفق عليه. تم تفسير سورة الكهف بعون الله تعالى ويتلوه سورة مريم إن شاء الله تعالى يوم الأربعاء خامس عشرين شهر ذي الحجة من السنة الثانية بعد المائتين وألف من هجرة النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٨٠٩)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم، باب: خروج الدجال (٤٣١٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة الكهف (٢٨٨١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل سورة الكهف (٥٠١١)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: نزول السكينة لقراءة القرآن (٧٩٥).

# المحتويات

سورة يوسف ........................................ ٥
سورة الرعد ........................................ ٧٨
سورة إبراهيم ........................................ ١١٦
سورة الحجر ........................................ ١٥٣
سورة النحل ........................................ ١٨٢
سورة بَني إسرائيل ........................................ ٢٤٩
سورة الكهف ........................................ ٣٥٠